

روبین مکینلی



السيف الأزرق

ترجمة محمد يحيى

السيف الأزرق

تأليف
روبين مكينلي

ترجمة
محمد يحيى

مراجعة
مصطفى محمد فؤاد



The Blue Sword

Robin McKinley

السيف الأزرق

روبين مكينلي

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شيت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣١٤٤ ٠

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٨٢.

صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بالترجمة العربية لنص هذا الكتاب محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للكاتبة روبن مكينلي، عناية رايتز
هاوس إل إل سي.

Copyright © 1982 by Robin McKinley. This book is translated and printed in collaboration with the Arabic Book Program of the American Embassy in Cairo.

المحتويات

٧	إهداء
٩	الفصل الأول
٢٧	الفصل الثاني
٤٥	الفصل الثالث
٥٧	الفصل الرابع
٦٩	الفصل الخامس
٨٩	الفصل السادس
١١٣	الفصل السابع
١٢٧	الفصل الثامن
١٣٩	الفصل التاسع
١٥٩	الفصل العاشر
١٧٥	الفصل الحادي عشر
١٩١	الفصل الثاني عشر
٢٠١	الفصل الثالث عشر
٢٢١	الفصل الرابع عشر
٢٤٣	الفصل الخامس عشر
٢٥٩	الفصل السادس عشر
٢٧٥	الفصل السابع عشر

إهداء

إهداء إلى داني وبيتشي
أول من قاداني إلى دمار

الفصل الأول

عَبَسَتْ عندما رأت كَوْبَ عصير البرتقال الموضوع أمامها. عندما راودتها فكرة أنها كانت مَبْتَهَجَةً في أول يوم وصلت فيه إلى هنا — هل كان ذلك منذ ثلاثة أشهر فقط؟ — بسبب توقعها الحصولَ على عصير برتقال طازجٍ كلَّ يوم. لكنها كانت متحمسةً لأن تجد ما يُبهجها — فهذا كان سيصبح بيتّها، وكانت ترغب بشدة في أن تعجب به، وأن تصبح ممتنةً من أجله — وأن تتصرف على نحوٍ جيد، كي تجعل أخاها فخورًا بها وتسرّ السير تشارلز والليدي أميليا بنتيجة كرمهما.

لقد أوضحت الليدي أميليا أن البساتين الواقعة على بُعد مسيرة بضعة أيام في الجنوب والغرب من هنا؛ هي الأفضل في البلاد، وأن كثيرًا من البرتقال الذي رآته في موطنها، قبل أن تأتي إلى هنا، قد جاء على الأرجح من تلك البساتين نفسها. كان من الصعب تصديق وجود بساتين برتقال عندما نظرت من النافذة، عبر السهل المنبسط الصحراوي فيما وراء القصر، الذي لا يتخلّله أيُّ شيء به حيوية سوى رقعاتٍ قليلة من العشب الجاف والشجيرات القزمة الباهتة اللون، إلى أن يختفي عند سفح الجبال ذات اللونين الأسود والنحاسي.

لكن كان هناك عصيرٌ برتقال طازج كل يوم.

كانت هي أول من ينزل ليجلس على المائدة كل صباح، وكانت تُمازحها الليدي أميليا والسير تشارلز بشأن شهيتها الجيدة؛ لكن لم يكن الجوعُ هو ما يجعلها تستيقظ مبكرًا للغاية هكذا. فنظرًا إلى أن أيامها كانت تمضي بلا هدف؛ فهي لم تكن تستطيع النوم عندما يأتي الليل، وعند بزوغ الفجر في كل صباح تصبح على استعداد تام لأن تدخل الخادمة إلى غرفتها، وتُزيح الستائر بعيدًا عن النوافذ الطويلة، وتقدّم لها كوبًا من الشاي. وغالبًا عندما تصل تلك المرأة تكون قد استيقظت، وارتدت ملابسها، وجلست بجوار النافذة تُحملك نحو الجبال؛ إذ إن نافذة غرفة نومها تواجه الاتجاه نفسه مثل نافذة غرفة الطعام. كانت تراها

الخدمات إنسانة طيبة، حيث لا تُكَلِّفهن بعملٍ إضافي كثير؛ لكن أن تنهض سيّدة من نومها وترتدي ملابسها في وقتٍ مبكر للغاية هكذا، ودون مساعدة، كان بالتأكيد شيئاً غريبَ الأطوار بعض الشيء. لقد كُنَّ يعلمن أنها جاءت من خلفية فقيرة؛ مما يُفسر كثيراً من الأمور، لكنها أصبحت في بيتٍ راقٍ الآن، ويرغب مُضيفها ومُضيفتها بشدة في منحها أيّ شيء قد تريده؛ حيث إنهما لم يُرزقا بأبناء. وربما عليها أن تحاول أكثر التأقلم مع وضع جيد مثل هذا.

كانت تحاول فعل ذلك بالفعل. فقد كانت تعلم الأفكار المتوارية خلف النظرات التي ترمقها بها الخادِمات؛ فقد تعاملت مع خادِماتٍ من قبل. لكنها كانت تتأقلم مع حياتها الجديدة بأفضل ما تستطيعه روحها التي تفيض بالحياة. كان بإمكانها أن تصرخ، وتضرب على الحوائط بقبضتيها، أو تقفز من فوق عتبة النافذة المنخفضة في غرفتها، وتتعلق بتعريشة اللبلاب (وهو لبلابٌ من نوعٍ خاص، يحتمل حرارة الصحراء، ويروى بعناية كل يوم من قِبَل بستاني السير تشارلز) حتى تنزل إلى الأرض، وتجري باتجاه الجبال، لكنها كانت تبذل قصارى جهدها كي تصبح فتاة صالحة. ولذلك، اكتفت فقط بأن تكون أول من يجلس على مائدة الإفطار.

كان السير تشارلز والليدي أميليا عطوفين للغاية في تعاملهما معها، وأصبحت هي مغرمةً بهما بعد أسابيع قليلة في صحبتهما. لقد كانا، بالفعل، عطوفين إلى أبعد الحدود. عندما تُوفي والدها قبل عام، عرض ريتشارد، وهو مساعدٌ عسكري رتبته صغيرة للغاية، على السير تشارلز مسألة صعوبة تحمّل مسئولية أختٍ غير متزوجة مع وجود ميراث سيئول له وحده، والتمس منه النصيحة. (وقد عرّفت كلّ هذا؛ مما سبّب لها حرجاً شديداً، من ريتشارد، الذي أراد أن يتأكد من تفهمها كم عليها أن تصبح ممتنة.) فقال هو وزوجته إنهما سيسرّهما استضافتها لتعيش معهما؛ ومن ثم أرسل لها ريتشارد، الذي شعر بأنّ عبئاً كبيراً قد انزاح عن كاهله بحيث لم يُفكر كثيراً في مدى ملائمة مثل تلك الهبة السماوية، رسالةً ليطلب منها الحضور. ولم يقلّ تحديداً إن عليها التحلي بسلوكٍ مهذب، لكنها فهمت ذلك أيضاً.

لم يكن لديها أيّ اختيار. كانت تعلم، لأن والدها كان قد أخبرها منذ خمس سنوات مضت عندما تُوفيت والدتها، أنها لن تحصل على ميراث؛ فإن أيّ مال سيتبقّى سيرثه الابن الأكبر فقط. كان والدهما قد قال لها بابتسامة باهتة: «ليس الأمر أن ديكي سوف يُسيء معاملتك، لكنني أشعر، من خلال معرفتي بطبعك، أنه من الأفضل أن تعلمي بالأمر قبله

بمدة طويلة حتى تستطيعي التوافق معه. إنك ستُفضلين الاعتمادَ على أخيك بصورةٍ أقل، حسبما أتخيل، مما كنتِ تفضلين الاعتمادَ عليَّ.» ونَقَر على مكتبه بأصابعه. لم تكن الفكرةُ التي لم يُكشف عنها صراحةً بحاجةٍ إلى أن يُفصح عنها بصوت عالٍ، وهي أنها ليس من المحتمل أن تتزوّج. لقد كانت فخورةً بنفسها، وإن لم تكن كذلك، فإن والديها كانا سيشعران بالفخر من أجلها. وفرص الزواج محدودة للفتيات الفقيرات اللواتي ينحدرن من أصولٍ نبيلةٍ واللاتي يتمتّعن بجمالٍ عادي — خاصةً عندما يكون هناك شكٌّ في نقاء تلك الأصول من جهة الجودة الكبرى للأُم. لم تكن هاري متأكدة من سبب ذلك الشكِّ على وجه التحديد. ومع انكفائها على ذاتها أثناء مرحلة الطفولة لم تهتمَّ بالسؤال عن السبب، ولاحقًا، بعد إدراكها أنها لا تهتمُّ بالمجتمع وأن المجتمع لا يهتمُّ بها، لم تجد لديها الرغبة في السؤال.

كانت الرحلة باتجاه الشرق على متن السفينة «سيسيليا» طويلةً ولكن هادئة. فقد تأقلمت مع السفر عبر البحر بسرعة، وعقدت صداقةً مع امرأة في منتصف العمر، كانت تسافر بمفردها أيضًا، ولم تسأل صديقتها الصغيرة أيَّ أسئلة شخصية، وأعارتها رواياتها على نحوٍ مجاني، وناقشتها فيها عند إرجاعها إليها. لقد تركت عقلها يسترخي، وقرأت الروايات، وجلست تحت أشعة الشمس، وتجوّلت على أسطح السفينة، ولم تفكر في الماضي أو المستقبل.

رست السفينة في ستزارا بسلام، ووجدت الأرض تتمايل تحت قدميها بغرابة عندما وضعتهما لأول مرة على الشاطئ. وقد مُنح ريتشارد إجازةً لمدة شهر كي يُقابلها ويصحبها إلى الشمال حيث يوجد بيتها الجديد. وقد بدا أصغر مما كانت تتوقّع؛ فقد رحل إلى أعالي البحار منذ ثلاث سنوات، ولم يعد إلى الوطن منذ ذلك الحين. وقد كان ودودًا معها بعد أن أُعيد لَمْ شملهما، ولكنه كان متحفظًا؛ إذ بدا أنه لم يعد هناك شيءٌ مشترك بينهما سوى القليل. فقالت في نفسها إنها لا ينبغي أن تُفاجأ بهذا؛ فقد مرَّ وقتٌ طويل منذ أن كانا يلعبان معًا كلّ يوم، قبل أن يُرسل ديكي إلى المدرسة. وقد أصبحت هي الآن عبئًا عليه، وهو لديه حياته التي عليه أن يفكر فيها. ورأت مع ذلك بحزن أنه من اللطيف أن يُصبحا صديقين. وعندما ضغطت عليه كي يُعطيها فكرةً عما يمكنها أن تتوقّعه في حياتها الجديدة، هز كتفيه وقال: «سترين. إن الناس هناك مثلُ الناس في وطننا. لن يكون عليك التعامل كثيرًا مع السكان المحليين. وهناك الخدم، بالطبع، لكنهم طيبون. لا تقلقي حيال الأمر.» ونظر نحوها بوجهٍ قلقٍ للغاية جعلها لا تعرف ما إذا كان عليها أن تضحك أو

تنهَره. وقالت: «أتمنى أن تُخبرني بما يُقلقك.» وقد جرت أشكالٌ مختلفة من هذه الحادثة عدة مرات خلال الأيام الأولى لرحلتها معاً. لكن عند هذه النقطة كان يسود صمتٌ طويل. وفي النهاية، كما لو كان لم يعد يحتمل أكثر من ذلك، انفجر قائلاً: «لن تتمكّني من الاستمرار في التصرف كما كنتِ في بيتنا.»

«لكن ماذا تعني؟» لم تكن قد فكرت بعدُ كثيراً في أمر الخدم المحليين، أو في وضعها، ومن الواضح أن ريتشارد كان يعرفها جيداً كي يُخمن ذلك الآن. لقد كانت تكتب له رسائل كثيرة كل عام، منذ أن سافر إلى الخارج، لكنه كان نادراً ما يرد. لم يُضايقها هذا كثيراً، على الرغم من أنها اعتقدت من آنٍ لآخر، كما حدث عندما وصلتها رسالته المكوّنة من ستة أسطر والمكتوبة بخطّ متعجلٍ رديء في عيد الميلاد، أنه سيُصبح من المبهج إذا كانت رسائله إليها أكثر من ذلك، لكن هذا الأمر لم يكن يُزعجها. لكنه كان يزعجها الآن؛ لأنها كانت تشعر بأنه غريبٌ عنها — غريب ربما يعلم كثيراً عنها وعن طريقته المعتادة في الحياة. بدا عليها المفاجأة، وحاولت إعادة ترتيب أفكارها. لقد كانت متحمسة، لكن خائفة أيضاً، وكان ريتشارد هو كلّ ما لها في الدنيا. إن ذكرى جنازة والدهما، وأنها كانت الفرد الوحيد من العائلة الذي وقف بجوار القس، وذكراياتها مع الخادمتين والمستأجرين الذين عرفتهم طوال حياتها، والذين أصبحوا بعيداً عنها الآن، كانت لا تزال حيةً في مُخيلتها. لم تكن تريد التفكير في حياتها الجديدة؛ فهي تريد وقتاً كي تنخرط فيها رويداً رويداً. وقد أرادت أن تتظاهر بأنها سائحة. «ديكي ... ديك، ماذا تقصد؟»

لا بد أن ريتشارد قد لاحظ الارتباك على وجهها نتيجة حنينها لبيتها في الوطن. فنظر نحوها على نحوٍ غير مبتهج. وقال: «أوه ... حسناً ... إنه ليس بيتك، كما تعلمين.» صاحت قائلة: «بالطبع أنا أعلم ذلك! وأقدر ما تفعله عائلة جرينو من أجلك ومن أجلي من خلال ... من خلال استضافتي للعيش معهم.» وأضافت بحرص: «لقد أوضحت لي كلّ هذا في رسالتك.» فأوماً برأسه.

قالت في النهاية وهي مستفزة: «هل تظن أنني لا أعرف كيف أتصرف على نحوٍ مهذب؟» فحظيت بمدة صمتٍ طويلة أخرى بينما كانت تشعر بالدم يتصاعد إلى وجهها. قال في النهاية: «ليس الأمر أنني أظن أنك لا تعرفين السبيل إلى ذلك.» فجفّلت، وانطلق يقول: «أن ...»

فقاطعتَه بحدّة: «هاري. سيظل اسمي هاري.» نظر نحوها في إحباط، فأدرّكت أنها تؤكد مخاوفه بشأنها، لكنها لم تكن لتتخلّى عن ذلك، من بين كل الأشياء الأخرى. وبدا

أن إدراكه أنها ستُصّر على أن يظل اسمها هاري قد أعجزه عن الكلام؛ لأنه لم يُحاول أن يجادلها أكثر من ذلك، وانسحب إلى مقعده الواقع عند الركن، وحدّق عبر النافذة.

لقد فهمت من صوته أنه لم يُرد أن يجرحها، لكنه قلقٌ بالفعل. هي وريتشارد كانا أشبه باثنين من الحيوانات البرية في طفولتهما؛ لكن عندما أرسل ديكي إلى المدرسة، جرّتها أمها إلى داخل البيت، غالباً وهي تُمسكها من أذنيها أو خلف رقبتها، وبدأت العملية الصعبة الطويلة الخاصة بتقويمها وتحويلها إلى شيء أقرب إلى فتاة مهذبة.

قالت حينها لابنتها العابسة: «أظن أنه كان ينبغي عليّ بدء ذلك منذ سنوات مضت، لكنك كنت تستمتعين بوقتك، وكنت أعلم أن ديكي سوف يُرسل بعيداً للمدرسة عمّا قريب. واعتقدت أنه ليس من العدل أن تبدئي دروسكِ حينها.» قلل هذا من عبوس ابنتها بعض الشيء؛ لذا أضافت وهي تبتسم: «وعلاوةً على ذلك، أنا نفسي لطالما أحببت بشدة ركوب الخيل وتسلق الأشجار والقفز في البرك.» وبعد هذا الإقرار المفتوح بالتعاطف من جانب العدو، لم يكن من الممكن أن تصبح الدروس مضجرةً تمامًا؛ ومن ناحية أخرى، لم تكن صارمةً مثلما كان من المفترض أن تكون. ففي أيام جميلة على نحو خاص، غالباً ما كانتا تأخذان معهما الغداء وتخرجان معاً على صهوة حصانيهما، كأُم وابنتها، كي تحصلا على بعض الإلهام — مثلما كانت تقول الأم — عبر قليل من الهواء المنعش؛ لكن الكتب غالباً لم تكن تُغادر رَحْل الحصان طوال اليوم. لقد تعلّمت الابنة أن تُحب الكتب، وخاصةً روايات المغامرات حيث يمتطي البطلُ حصاناً جميلاً، ويطعن كلّ الأشرار بسيفه الفضي، لكن قدرتها على التطريز لم تكن متميزةً على الإطلاق، وتعلّمت الرقص فقط بعد أن أشارت أمها إلى أن هذه الرشاقة والاتزان اللذين يمكن تعلّمهما في قاعة الرقص ستُمكنانها بلا شك من التحكم الجيد في الحصان من على السرج. كما تعلّمت الأعمال المنزلية الضرورية في بيت ريفي عتيق متهاك على نحو مكثف من إدارتها بنجاح أثناء مرض أمها الذي سبق وفاتها؛ وأصبحت الشهور الأولى الرهيبة بعد وفاة أمها أكثر سهولة؛ نظراً إلى أنها قد وجدت ما تفعله. ومع اندمال أول جرحٍ فراقٍ تتعرض له، أدركت أيضاً حبها لأن تكون مفيدة.

في خلال السنوات الخمسة الصادمة التي تلت وفاة والدها، ومع علمها بأنه لا بد لها من ترك بيتها، والعهد به إلى مدير أعمال غير مُبالٍ، خطر في ذهنها أن عليها أن تشعر بالارتياح لأن القاعدة الشرقية الصغيرة الموجودة عند أبعد حدود إمبراطورية هوملاند حيث أرسل ريتشارد، وحيث كانت هي على وشك أن تنضم إليه؛ صغيرةً ومنعزلة. لقد اصطحبت أمها إلى الحفلات الصغيرة والمناسبات الاجتماعية المتنوعة التي قد تُتاح في منطقة ريفية

مثل التي كانوا يعيشون فيها، وبينما كانت تعلم أنها كانت «تتصرف على نحو جيد»، فإنها لم تكن تستمتع بوقتها. أحد الأسباب تمثل في أنها ببساطة ضخمة للغاية؛ أطول من كل النساء، وأطول من معظم الرجال.

لم تتمكن هاري من استخلاص أي شيء مفيد أكثر من أخيها بشأن مخاوفه الخاصة، بينما كان يُقلّهما القطار المتهاك الصغير نحو الشمال. لذا بدأت تسأل أسئلة عامة — أسئلة سائحة — حول بلدها الجديد؛ وعندئذ حالفها حظٌ أوفر. إذ بدأ ريتشارد بوضوح في التخلي عن تحفظه؛ لأنه لمس الإخلاص في اهتمامها، فأخبرها بابتهاجٍ شديد أن البلدة التي تقع في نهاية خط رحلتها، حيث ينتظرهما السير تشارلز والليدي أميليا، هي البلدة الوحيدة الواضحة المعالم في نطاق مسيرة ثلاثة أيام منها. وأضاف: «هناك محطة لا سلكية وسط مكانٍ ناءٍ حيث يتوقف القطار — وهي موجودة فقط كي يجد القطار مكاناً يتوقف فيه — وهذا كل شيء.» إن اسم البلدة هو إيستن، وقد كانت تُسمى إهيستن وفقاً للسكان المحليين، لكنه اعتُ بر اسماً يصعب للغاية نطقه. وخلف إيستن كانت توجد مجموعة متفرقة من الأكواخ الكئيبة الصغيرة في حقولٍ مرويةٍ بعناية، حيث يُزرع نباتٌ محلي خشن منتج للحبوب ذو شراشب، يُسمى الكورف. لقد كانت إيستن قريةً صغيرة قبل مجيء الهوملانديين، حيث كان يأتي إليها الفلاحون والرعاة والبدو من الأماكن المحيطة كي يبيعوا ويشترؤا في سوقها كل أسبوعين، كما كان يوجد بها قليل من متاجر تصليح الأواني ونسج الأبسطة. وقد استخدمها الهوملانديون قاعدةً أمامية، وسّعوها، على الرغم من بقاء السوق الأصلي في مركزها؛ وبَنَوْا حصناً عند الجانب الشرقي منها، أطلق عليه اسم الجنرال ليونارد إرنست ماندي.

وقد أصبحت إيستن مؤخراً مكاناً له بعض الأهمية في الشبكة الحكومية التي أسّسها الهوملانديون في الأرض التي احتلوا منذ ثمانين عاماً. لكنها كانت لا تزال بقعةً منعزلة، ولا يذهب إليها أحد إلا إذا كان مضطراً؛ لأنها تقع على حافة الصحراء الشمالية الكبرى للقارة التي هي عبارة عن شبه جزيرة، التي كان يُطلق عليها الهوملانديون اسم داريا. ولكن منذ ثلاثة عشر عاماً اكتُشفت مناجم إيل في جبال راميد في جهة الشمال الغربي، وخلال الأعوام الثمانية الأخيرة أعلن بصفة رسمية أن المناجم هي أكثر اكتشاف مربح في قارة داريا كلها، وكان ذلك يحمل مغزى كبيراً. فعائدات البرتقال وحدها لا يُمكنها تسديد أجور سوى نصف الموظفين العاميين في المقاطعة.

«مع ذلك، يصعب بشدة الوصول إلى المناجم؛ إذ إن الطريق عبر جبال راميد وعُزُّ للغاية. وتقع إيستن على الطريق الملائم الوحيد إلى المناجم، وهي آخر بلدة كبيرة بما يكفي لتوفير المؤن لأي قافلة أو صُحبة زاهبة في ذلك الطريق، أو قادمة منه. لهذا السبب امتدَّ إليها خطُّ السكك الحديدية، أخيراً. قبل ذلك كنا السبب الوحيد لأي شخص يريد المجيء إلى هذا الحد، وعناصر جذبنا محدودة. لكن المناجم هي الأمرُ المهم الآن. وربما يتوصلون إلى طريقة من أجل حفر طريق عبر جبال راميد. أتمنى أن يُحالفهم الحظ.»

تظل بلدة إيستن أيضاً مهمة من الناحية التكتيكية؛ لأنه بينما في جنوبها امتدَّت حدودُ نفوذ الهوملانديين على نحوٍ سريع للشرق، فقد أخفقوا في دفعها بالقرب من جبال الشمال والشرق. وقد أثبت السكان المحليون، ربما من خلال تعلُّم التكيف مع الصحراء من أجل البقاء، أنهم أكثرُ غِلظةً من أبناء عموماتهم في الجنوب.

لقد قرأت هاري عن بعض من هذا وهي في موطنها عندما سمعت لأول مرة عن تعيين ريتشارد هناك منذ ثلاثة أعوام. لكنها كانت تشعر بحقيقته الآن، مع الرياح الغربية التي تهبُّ عليها من مناجم إيل الغنية، واللون البرونزي المخضرُّ الغريب للسماء، والحُمرة الرائعة لغروب الشمس. وقد رأت الزي الرسمي البني الكئيب لجنود هوملاند المتمركزين هنا، والذي يوجد به رأسياً على جانب الصدر الأيسر شريطاً أحمر، يشير إلى أنهم كانوا يخدمون في مقاطعة داريا الخاضعة لسلطة هوملاند. وكلما امتدَّت رحلتها، شاهدا مزيداً من هؤلاء الجنود. «إنه لمن المؤسف أن إيستن هي الحدُّ الشرقي؛ يبدو أننا لا يمكننا تحمل فكرة أن الحدود ليست ممتدة على استقامتها، من الشمال إلى الجنوب؛ لأننا نودُّها أن تصبح كذلك. إنهم يستمرون في التهديد بشنِّ هجمات جديدة، لكن الكولونيل ديدام — وهو المسئول عن حصن ماندي القديم — يقول إنهم لن يفعلوا ذلك. فمن الذي يريد بسطَ سيطرته على صحراء كبيرة على أي حال؟ إنها المزارع في الجنوب — والمناجم — التي تجعل الأمر يستحقُّ الوجود هنا.»

وقد شجَّعته على الحديث عن حكومة جلالتها في مقاطعة داريا الملكية، وإذا لم تكن قد استمعت بإنصات كما ينبغي لها إلى وصفِ الرتب والمهام الخاصة بالموظفين العاملين الذين تعامل معهم ريتشارد، فقد وصلت إلى إيستن في النهاية ولديها فكرة بسيطة عن كيف من المتوقع بنحو عام أن ينظر الهوملانديون إلى داريا. كما رأت نبات الكورف بعينَيها، ومجموعة من الغجر المتجولين الذين يُعرفون باسم ديلبادي، وتغير لون مساحات الأرض التي مروا عليها، من اللون الأحمر في الجنوب، إلى البني في الوسط، والأصفر المائل للرمادي

في الشمال. واستطاعت تمييزَ شجرة الإلبين ذات الأوراق العريضة من شجرة تورثوك الزرقاء الدائمة الخضرة، وعندما قابلتها الليدي أميليا وقَدَّمت لها باقةً من زهور بيميتشي الصغيرة ذات اللون القَرْنفلي الوردي؛ تعرَّفت عليها بالاسم.

كانت الليدي أميليا امرأةً ممتلئة القوام ضئيلة الحجم، ذات عَيْنَيْن واسعتين بلون البندق، وشعرٍ مجعَّد رمادي اللون، وهيئة عامة حزينة تنمُّ على جمالٍ ذابل. وكان زوجها، السير تشارلز، في مثل طول ريتشارد لكنه أعرَض بكثير؛ لا بد أن وزنه كان يبلغ نحو مائة كيلوجرام، هكذا ظنَّت هاري على نحوٍ موضوعي وهي تُصافحه. وقد كان ذا وجهٍ أحمر وشعرٍ أبيض وشاربٍ رائع، وإذا كانت عيناه الزرقاوان ضيقتين قليلاً، فهناك تجاعيدٌ بوفرةٍ حولهما، كما أن ابتسامته كانت دافئة. وشعرت كأنهما كانا يتوقان لمجيئها، فشعرت بالارتياح بعض الشيء؛ إذ لم يكن هناك أيُّ من التعالي الذي كانت تتوقعه تجاه قريبٍ فقير؛ قريبٍ فقيرٍ لشخص آخر في هذا الخصوص.

لقد أوضح لها السير تشارلز خلال الأمسية الأولى تاريخَ داريا بالكامل؛ من حيث ماضيها، واحتلالها من قِبَل الهوملانديين، وحاضرها، ومستقبلها المحتمل، لكنها كانت متعبةً للغاية بحيث لم تتمكن من مُتابعة أغلب ما قيل. وكانت تعليقات الليدي أميليا العَرَضية السريعة، عندما كان يتوقَّف زوجها لالتقاط أنفاسه، عن وسائل الراحة التي ستجدها هاري هنا مرحَّباً بها أكثر بكثير من جانب هاري، على الرغم من أنها حاولت عدمَ إظهار ذلك. ولكن في وسط الأمسية، وبينما كان يشير السير تشارلز بكأس مشروبه وينظر ريتشارد بلا مبالاة، التقت عينا الليدي أميليا بعيني الفتاة التي أصبحت مسئولةً عنها لحظةً طويلة. وقد سرَّت بينهما نظرةٌ حِلْم وتعاطف؛ وظنَّت هاري أن الأمور ربما ستسير على ما يُرام، وصعدت لتنام بمعنوياتٍ مرتفعة.

وخلال الأيام القليلة الأولى لها في إيستن، أفرغت حقائبها، وأخذت تتفقد ما حولها، ووجدت كلَّ شيء جديداً عليها. لكن مجتمع مواطني هوملاند في إيستن كان صغيراً، ومزدهراً في الوقت نفسه، وكانت هي أحدث الأفراد المنضمين لذلك المجتمع الذي يتطلَّع للقاء المنضمين إليه ويُرحب بهم ويستجوبهم ويتحدث عنهم.

كانت دائماً تُعاني من تملُّلٍ غامض وشوقٍ للمغامرة، وقد أخبرت نفسها على نحوٍ واضح أنه كان ناتجاً عن قراءةٍ عددٍ كبير جداً من الروايات عندما كانت طفلةً صغيرة. وعندما كبرت، وعلى وجه الخصوص بعد وفاة أمها، تعلمت أن تتجاهل ذلك التملُّل. لقد نسيت أمره تقريباً، حتى بدأت تشعر به الآن. وقد كانت تتساءل في بعض الأحيان إذا

ما كان أخوها أيضًا يشعر بتملل الروح هذا، وإذا كان شيءٌ مثل ذلك له صلة بالحال الذي قد انتهى إليه الآن بالعمل في قاعدةٍ حدودية صغيرة، مهما كانت أهميتها من الناحية التكتيكية، مع أن تطلعاته، عندما تخرَّج في الجامعة، كانت تشير إلى شيءٍ أفضل. كان هذا واحدًا من الأشياء العديدة التي لم تسأله عنها. وسؤالٌ آخر لم تسأله هو إذا ما كان قد شعر بالحنين للوطن طوال الآونة التي غابها عنه.

وضعت كوب عصير البرتقال الفارغ على المائدة، وتنهَّدت. لم يتمكَّن من مشاهدة بساتين البرتقال في طريق المجيء شمالاً من ستزارا، حيث رست سفينتها على الشاطئ. التقطت شوكتها من المنديل الكتاني الأبيض اللامع، والمطوي بأناقة، ولفتها بحيث إن ضوء الشمس الذي كان يتلألأ عبر كوب عصير البرتقال الخاص بها؛ أصبح الآن يتلألأ بأشعةٍ صغيرة على أسنان الشوكة. قالت لنفسها: لا داعي للتملُّل.

كانت ستذهب هذا الصباح للقيام بجولة بالخيول مع الآنستين كاسي وإليزابيث بيترسون. إن عمرَيهما كانا مقاربين لعمرها، وكانتا أكثرَ الفتيات جمالاً في القاعدة؛ إذ قد وقع في غرامهما جميعُ ضباط الكتيبة الرابعة من سلاح الفرسان، المتمركزة في حصن الجنرال ماندي. لكنهما أيضًا كانتا مرحَّتين وودودتين، وقد كانت تحبهما كثيرًا. لم تهتمَّ مطلقًا كثيرًا بمسألة الجمال، على الرغم من إدراكها بأنها ليست جميلة، وأن وضعها ربما كان سيُصبح أفضل قليلًا لو أنها كانت جميلة.

كنَّ سيُعدن من جولتهن عند انتصاف الصباح؛ لأن الشمس كانت ستصبح أكثرَ حرارةً مما يمكن احتمالها بحيث يصعب الاستمتاع بالتنزه. لقد كانت تنوي أن تسأل الليدي أميليا إن كان بإمكانهن جميعًا العودة إلى هنا لتناول الغداء. وهي بالفعل كانت تعلم كيف ستكون الإجابة: «عجبًا، بالطبع! نحن دائمًا نسعد برؤيتهما. أنا مبتهجة للغاية، يا عزيزتي، لأنك ماهرة بما يكفي لأن تُصادقي أكثرَ فتاتين فانتنن لدينا هنا.» وجدت هاري نفسها تلعب بشوكتها مرةً أخرى، فوضعتها على المائدة بقوة.

كانت هناك حفلةٌ رقص أخرى ذلك المساء. وقد وعدها ريتشارد بأن يُرافقها، وكان عليها أن تُقر، على الرغم من أن كلامهما معًا كان قليلًا الآن، أنه كان طيبًا للغاية لأنه يُرافقها إلى الحفلات ويرقص معها — وهذا يعني أن هناك على الأقل رجلًا واحدًا حولها يمكن أن ترقص معه دون أن تجده أقصرَ منها. لم يخفت امتنانها على الإطلاق بسبب الشكِّ في أنه كان يُكنُّ حبًا لم يُفصح عنه تجاه كاسي، ولا بسبب الظن، الذي لم يكن حتى شكًا حقيقيًا، أنه ربما لا يريد أن يسخر منه أحدٌ بسبب عدم شعبية شقيقته. كلا، لقد

كانت طبيته حقيقية؛ كانت تعتقد أنه كان يُحبها، بطريقته الصامتة القلقة. ربما يكون من المحتم ببساطة أن كَوْنَ المرء مساعدًا عسكريًا رتبته صغيرة للغاية، وقد وجد نفسه مسئولاً على نحوٍ مفاجئٍ عن شقيقةٍ غيرٍ متزوجة، قد جعله يُبالغ قليلاً في اتباع قواعد اللياقة.

لم يخطر على بالها مطلقاً أن تُفكر فيما إذا كان أيٌّ من الشباب ذوي الزيِّ العسكري البراق الذين عرّفها ديكي بهم على نحوٍ جاد، والذين طلبوا منها بعد ذلك بالجديّة نفسها أن يرقصوا معها، قد تعاملوا معها انطلاقاً من أيّ دافع بخلاف الرغبة في إسداء صنيع لصديقهم كرو، من خلال المعاملة اللطيفة لشقيقته الفارعة الطول. كان سيدهشها للغاية أن تكتشف وجود اثنين أو ثلاثة ممّن أعجبوا بها من بينهم، والذين قاوموا حتى الآن الاعتقاد السائد في الثكنات العسكرية التي يعيشون فيها، ومالوا إلى فتاة ذات شعبية أقلّ من الأختين بيترسون. اشتكى واحدٌ منهم لصديقه المقرب الذي استمع إليه بسعة صدر صديق، على الرغم من أنه هو نفسه لم يكن قادراً على رؤية جاذبية أيّ امرأة بخلاف بيث بيترسون قائلاً: «لكنها تشبه أختها تماماً». وتابع على نحوٍ غير واثق قليلاً: «إنها مهذّبة للغاية. أوه، وهي لطيفة بالقدر الكافي، كما تعلم. أنا لا أعتقد أنها بالفعل غيرٌ معجبة بي.» ثم أضاف: «لكنني غيرٌ متأكد على الإطلاق أنها تستطيع حتى تذكّري من يوم إلى يوم يليه؛ لذا فهذا لا يُهم.»

قال الصديق مازحاً: «حسنًا، إن ديك يتذكّر على نحوٍ جيد للغاية.» قذف المعجب زميله بفردة حذائه التي لم يُلَمعها بعد. وقال: «أنت تعلم ما أعني.» وافقه الصديق قائلاً: «أنا أعلم ما تعني. إنها متبلدة المشاعر.» رفع المعجب نظره عن تلميع الحذاء بغضب، ورفع الصديق الفردة الأخرى كدِرْع. «إن ديك متمسكٌ بالشرف للغاية. وأنا واثقٌ أن أخته مثله. أنت فقط لا تعرفها جيداً بما فيه الكفاية حتى الآن.» قال المعجب بحزن: «حفلات الرقص، وحفلات العشاء. أنت تعرف كيف تسير الأمور خلالها؛ قد يستغرق الأمر سنوات.» أعاد له الصديق فردة الحذاء في تعاطفٍ صامت (وهو يُفكر في بيث)، وبدأ المعجب في تلميعه في تجهّم.

إن من يميل إليها، لو علّمت بهذا الحديث، لاتفقت معه في موضوع حفلات الرقص وحفلات العشاء. في الواقع، كانت ستُضيف على ذلك أنها غيرٌ متأكدة من إمكانية حدوث هذا على الإطلاق، وهي تقصد التعرف على شخصٍ ما في أي مجموعةٍ متتالية من هذه الحفلات، مهما طال أمدها. وكان الصديق مُحقّقاً بشأن تمسكٍ ديك كرو الشديد بالشرف.

فقد كان يعلم جيداً أن اثنين على الأقل من أصدقائه كانا واقعين في حب أخته، لكنه لم يخطر بباله مطلقاً أن يقول لها أي شيء عنهما. لم يستطع استغلال ما يعرفه من خلال الصداقة من أجل مصلحة شخصية بهذه الطريقة.

وشقيقة ديك، التي كانت غافلة عن حقيقة أنها فازت لنفسها بمكان في التسلسل الهرمي للقاعدة، كانت ضجرة ومتملمة.

كانت الليدي أميليا ثاني من وصلت إلى مائدة الإفطار. وكانتا قد حسمتا للتو مسألة حضور كاسي وبيت لتناول الغداء في البيت — من خلال الكلمات المحددة المتوقعة تقريباً — عندما فُتح باب غرفة مكتب السير تشارلز، الموجودة قبالة الرواق المؤدي لغرفة الطعام؛ ودخل السير تشارلز وسكرتيه السيد مورتيمر لتناول الإفطار. نظرت المرأتان إليهما بدهشة؛ حيث كان يدلّ مظهرهما بوضوح على أنهما ظلاً مستيقظين ساعات عديدة، يعملان بجد دون تناول أكثر من فنجان أو اثنين من القهوة المحلية الثقيلة الداكنة، وأنهما سوف يُهرعان بعد تناول وجبتيهما الآن للعودة إلى ما كانا يفعلان. ولم يبدُ أي منهما سعيداً للغاية حيال ما كان ينتظره.

قالت الليدي أميليا: «عزيزي. هل هناك أي مشكلة؟»

مرّر السير تشارلز يده في شعره الأبيض، وتناول طبق بيض بيده الأخرى، وجلس. وهز رأسه نافياً. نظر فيليب مورتيمر نظرة خاطفة إلى مديره لكنه لم يقل شيئاً. قال السير تشارلز: «ريتشارد لم يأتِ إلى هنا حتى الآن»، وكان غيابه فسر كل شيء.

قالت الليدي أميليا بصوت خافت: «ريتشارد...؟»

قال: «أجل. والكولونيل ديدام. أنا آسف يا عزيزتي»، وبدأ أن تناول بعض من البيض قد جعله يستعيد قوّته. وتابع موضحاً من خلال استعارته وفمه الممتلئ بالطعام: «لقد جاءت الرسالة فجأة وكأنها صاعقة من السماء، في منتصف الليل. جاك — الكولونيل ديدام — ذهب، في محاولة لمعرفة ما يمكنه فعله، وقلت له أن يأتي لتناول الإفطار ويُخبرنا بما علمه. أما عن ريتشارد، فهو شاب يعرف كيف يتحدث إلى الناس. اللعنة عليهم! اللعنة عليه! سيصبح هنا في غضون ساعات قليلة.»

حدّثت زوجته به في حيرة تامة، وتجنّبت ضيفته الشابة التحديق به عندما نظر إليها؛ لأنه لم يكن من اللائق أن تُحدّق به. فوضّع شوكتة وضحك. ثم قال: «ميلي، إن وجهك يشي بما يدور في رأسك. لكن صغیرتي هاري ستصبح زوجةً سفيرةً جيدةً يوماً ما؛ انظري إلى هذا الوجه الخالي من التعبيرات! لا ينبغي حقاً أن تبدي مثل أخيك هكذا؛ يجعلك هذا

مفهومةً بسهولة لمن يعرفه منا. أنت الآن تقولين لنفسك: هل ذهب عقلُ الرجل العجوز أخيراً؟ فلنُسايره حتى نتأكد؛ إذا هداً قليلاً، فربما سنحصل منه على بعض الكلام المفهوم حتى وهو في هذه الحالة.»

ابتسمت هاري له، غيرَ منزعجة من مداعبته، فمدَّ يده عبر المائدة، متجاوزاً الشمعدانات ووعاء من الفاكهة مرتبةً محتوياته بنحو فني، ليربت على خدّها بأصابعه. وقال: «ستُصبحين زوجةً جنرال، بعد التفكير في الأمر مرةً أخرى. ستُهدر قدراتك في السلك الدبلوماسي؛ فنحن جميعاً موظفون بيروقراطيون غلاظ.»

وغرس شوكته في قطعة من الخبز المحمص، فأشاحت الليدي أميليا بنظرها بعيداً؛ إذ كانت تتبع مع عائلتها آدابَ مائدة نيقة جداً كما لو كانت تتناول الطعام مع العائلة المالكة. وكُدس السير تشارلز مربّى البرتقال على قطعة الخبز المحمص، حتى بدأت تسيل من الحافات، وأضاف مقداراً ضئيلاً آخر من المربي، وأكل القطعة كلّها في ثلاث قضمات. «ميلي، أتذكر أنني قد أخبرتك عن الصعوبات التي نواجهها في الشمال، على هذا الجانب من الجبال مع الجماعات الخاضعة لنا، وعلى الجانب البعيد مع أيّ من الجماعات التي تعيش هناك — إذ إنها تُعد توليفة غريبة جداً، وذلك حسب معلوماتنا — وقد بدأ كل شيء في التصعيد، في العام الماضي، بسرعة تُنذر بالخطر. هاري، هل أخبرك ديك بشيء عن هذا؟» أومأت برأسها بالإيجاب.

«قد تعرفين أو لا تعرفين أن سيطرتنا الحقيقية على داريا تنتهي تماماً عند حدود هذه القاعدة، على الرغم من أنه من الناحية التقنية — على الورق — يمتدّ حكم هوملاند مباشرةً إلى سفح تلك الجبال الموجودة إلى الشمال والشرق من هنا — أوساندر، التي تمتدّ من جبال راميد، ثم تلك السلسلة الشرقية البعيدة التي ترينها فوق الرمال، والتي لم يسبق لأيّ منا أن ذهب إليها ... هذه الجبال هي الأجزاء الوحيدة من مملكة دامار القديمة، التي لا تزال تحت حكم السكان الأصليين. وقد نشبت كثيرٌ من المعارك على طول هذه الحدود — لنقل، قبل أربعين عاماً مضت. منذ ذلك الحين يتجاهلنا مَلِكُهُم — أوه، أجل، هناك ملك — بنحو أو بآخر، ونحن نتجاهله على النحو نفسه. لكن أشياء غريبة — أطلق عليها أشياء غريبة؛ سيُخبرك جاك بما يظنه عنها — لا تزال تحدث في ذلك السهل، أرضنا المهجورة. لذا لدينا الكتيبة الرابعة من سلاح الفرسان هنا معنا.

لم يحدث شيءٌ غريب للغاية منذ أن تولى الملك الحاليُّ العرش قبل نحو عشر سنوات، كما نظن؛ إنهم لا يُكلفون أنفسهم عناءَ إطلاعنا على كل ما هو جديد في مثل هذه الأمور

— ولكن هذا ليس قلةً اكتراث أبداً. حسناً.» ومن ثمَّ عبَس، وبينما هو عابسٌ أكل قطعةً أخرى من الخبز المحمص. وتابع: «كان كل شيء هادئاً لمدة ... أوه، خمسة عشر عاماً على الأقل. منذ قدمْتُ إلى هنا تقريباً، وهذا وقتٌ طويل. أسألي جاك، مع ذلك، عن القصص الخاصة بما كان عليه الوضع في جانبي النصف الشمالي من هذه الحدود قبل ذلك. فليده كثير منها.» نهض من على المائدة وتوجَّه عبر الغرفة إلى صفِّ النوافذ. ورفع الستارة لمسافة كبيرة بينما كان ينظر عبر الصحراء، كما لو أن اتساع الرؤية قد يُساعد في وضوح التفكير. كان من الواضح أن عقله لم يكن مُركِّزاً على التفسير الذي يُقدمه، وعلى الرغم من كل ابتهاجه المفترض، كان قلقاً للغاية. «اللعة! ... اعذروني. أين جاك؟ كنتُ أتوقع أنه على الأقل كان سيُرسل الشابَّ ريتشارد قبل الآن.» تحدث كما لو كان يتحدث إلى نفسه، أو ربما إلى فيليب مورتيمر، الذي أحدث ضوضاء مهذَّنة، وصبَّ كوباً من الشاي، وأخذَه إلى السير تشارلز حيث كان يقف محدقاً في ضوء شمس الصباح.

قالت الليدي أميليا بلطف. «هل هناك مشكلة؟ مزيدٌ من المشكلات؟»

أسقط السير تشارلز الستارة واستدار. وقال: «أجل! مزيد من المشكلات.» ثم نظر إلى يديه، وأدرك أنه يحمل كوباً من الشاي في إحدهما، فارتشَّف منه رشفةً بمظهر رجلٍ يفعل ما هو متوقَّع منه. وقال: «قد تقع حربٌ مع الشماليين. يعتقد جاك ذلك. أنا لستُ متأكداً، لكن ... أنا لا أحب الشائعات. يجب علينا تأمين الممرات عبر الجبال — ولا سيما ريتجز جاب، التي تمنح أيَّ شخص يمرُّ عبرها مساراً شبه مباشر إلى إيستن، ثم بالطبع إلى المقاطعة بأكملها. قد يكون هذا اضطراباً قَبلياً فقط — ولكنه قد يكون حرباً حقيقية كما كانت قبل ثمانين عاماً. لم يتبقَّ كثير من الداماريين القدامى — سكان التلال — لكننا أُجبرنا على إبداء احترام شديد لهم. وإذا قرَّر الملك كورلاث أن يُجرب حظه ويتحالف مع الشماليين ...»

سُمع صوتُ قعقعة في الشارع بالأسفل. فالتفت السير تشارلز برأسه تجاهها. وقال: «ها هما أخيراً»، ثم اندفع نحو الباب الأمامي وفتحَه على مصراعيه بنفسه، تحت العين الخَجلى لكبير الخدم الذي خرَّج من غرفته الداخلية متأخراً للغاية. «ادخلا! لقد كنتُ في حالةٍ توترٍ شديد خلال الساعة الماضية، وأخذتُ أساءل عما حدث لكما. هل اكتشفتما أيَّ شيء قد يكون مفيداً لنا؟ كنتُ أحاول أن أشرح للسيدتين ماهيَّة المشكلة التي تُواجهنا.»

سألت الليدي أميليا من دون تسرُّع، بدمانتها الهادئة المعتادة: «هل تودَّان تناول الإفطار؟ ربما كان يُحاول تشارلز الشرح، لكنه لم ينجح حتى الآن.» واستجابةً لإيماءة

منها، وضعت خادمة كرسيتين آخريين على المائدة. ومع جلجلة مهاميز الأحذية، دخل الوافدان الجديدان، واعتذرا عن اتساخ زيّهما، وكانا مسرورين بالحصول على بعض الإفطار. وطبع ريتشارد قبلة روتينية على خدّ أخته وهو في طريقه لتناول البيض ولحم الخنزير.

بعد بضع دقائق من صبّ الشاي وتميرير الزبدة، وبينما كان يسير السير تشارلز ذهاباً وإياباً في الغرفة بنفاذ صبرٍ شبه واضح، كانت الليدي أميليا هي أول المتحدثين. وقالت: «سنتركك لعملك، الذي أرى أنه مهم للغاية، ولن نضايقك بمطالبتك بتقديم تفسيرات. لكن هل لك أن تجيب عن سؤال واحد فقط؟»

قال الكولونيل ديدام: «بالطبع، يا ميلي. ما هو؟»

«ما الذي ألقى بك فجأة في هذا الاضطراب الكبير؟ زائر غير متوقّع، حسبما فهمت مما قاله تشارلز؟»

حدّق بها ديدام. وقال: «ألم يُخبرك ...؟ يا إلهي! إنه كورلاث نفسه. إنه قادم. لم يقترب من هنا قط، كما تعلمين؛ لا أحد من سكان التلال الأصليين يفعل ذلك، إذا كان بإمكانهم. في أحسن الأحوال، إذا أردنا بشدة التحدّث إليه، يمكننا إيقاف أحد رجاله أثناء مرورهم عبر التلال السفحيّة في الجهة الشمالية الشرقية من هنا. هذا يحدث في بعض الأحيان.»

قاطعته السير تشارلز قائلاً: «أتعلم، يجعلنا هذا نأمل أنه ربما يرغب في التعاون معنا — وليس مع الشماليّين. جاك، هل توصلت إلى أي شيء؟» هز ديدام كتفيه نافيّاً. وقال: «ليس بالضبط. لا شيء لم نكن نعرفه بالفعل — أن مجيئه إلى هنا غير مسبوق، على أقل تقدير — وأنه هو بالفعل الذي سيأتي. لا أحد لديه أيّ تخمينات أفضل من تخميناتنا حول لماذا، فجأة، قرّر فعل ذلك.»

قال السير تشارلز حائثاً إياه: «لكن تخمينك هو ...»

هز ديدام كتفيه مرّة أخرى نافيّاً، وبدأ ممتعضّاً. وقال: «أنت تعرف بالفعل ماذا سيكون تخميني. أنت فقط تحب أن تسمعي وأنا أجعل من نفسي أبدو شخصاً أحمق. لكنني أومن بالأشياء ... الغريبة التي تحدث هناك ...» ولوّح بملعقة السكر، وأضاف: «وأعتقد أن كورلاث لا بد أن لديه علامة من نوع ما، كي يذهب إلى المدى الذي يدفعه إلى المجيء إلينا.»

خيّم الصمت، وأمكن لهاري ملاحظة أن كل الموجودين في الغرفة بخلافها كان يشعر بعدم الارتياح. فقالت بتردد: «علامة؟»

رفع ديدام نظره مع ابتسامته السريعة. وقال: «أنتِ لم تكوني هنا مدةً كافية كي تسمعي أيًّا من القصص الغريبة عن حُكام دامار القدامى، أليس كذلك؟» قالت: «بلى.»

«حسنًا، لقد كانوا سحرةً — أو هكذا يُقال. سحرة. يمكنهم استدعاءُ البرق ليضرب رءوسَ أعدائهم، هذا النوع من الأشياء؛ وهي أشياء مفيدة لتأسيس إمبراطورية.» نخر السير تشارلز.

«كلا، أنت محقٌّ تمامًا؛ كل ما كان لدينا هو البنادق الفتيلية والحماسة. حتى السحر يتضاءل، حسبما أظن. لكنني لا أعتقد أنه قد تضائل إلى حدٍّ بعيد بعد؛ لا يزال هناك البعض الذين يعيشون في تلك الجبال هناك. يمكن لكورلات تتبّع نسبه إلى إيرين وتور، اللذين حكما دامار في عصرها الذهبي — باستخدام السحر أو بدونه، اعتمادًا على نسخة الرواية التي تفضلها.»

قاطعته السير تشارلز قائلاً: «إذا لم يكن كلُّ منهما أسطورة.» قال جاك ديدام: «أجل. لكنني أعتقد أنهما كانا حقيقيين. أنا حتى أعتقد أنهما استخدما شيئاً نُسِمه نحن، أهل هوملاند الذين لا نمتع بخيالٍ واسع، بالسحر.» حدّقت به هاري وهي مفتونة، فانتسعت ابتسامته. وقال: «أنا معتاد على أن يراني الناس أحمقَ بشأن هذا. إنه بلا شك جزءٌ من السبب الذي يجعلني ما زلتُ برتبة كولونيل، وما زلت في حصن الجنرال ماندي. لكنَّ هناك عددًا منا، نحن الجنود القدامى الذين لديهم ذكريات عن داريا قبل ثلاثين أو أربعين عامًا، الذين يقولون الشيء نفسه.» قال السير تشارلز باشمئزاز، ولكن كان هناك أثرٌ للقلق في صوته أيضًا: «أوه، سحر. هل سبق لك أن رأيت البرق يمتثل للأوامر مثل كلب؟»

بدا ديدام من خلال دماثته عنيدًا بعض الشيء. وقال: «كلا. لم أفعل. ولكن من المؤكد على الأقل أن الرجال الذين عادوا والد كورلات وجده قد صادفهم سوءٌ حظ عجيب. وأنت تعلم أن الملكة والمجلس هناك في الوطن قد يُضخّون بأعلى ما لديهم لتوسيع حدودنا بالطريقة التي ظللنا نقول إننا سنفعلها على مدى الثمانين عامًا الماضية.»

قالت الليدي أميليا: «سوء حظ؟ لقد سمعت الروايات، بالطبع؛ بعض الأغاني الشعبية القديمة جميلة جدًا. لكن ... أيُّ نوع من سوء الحظ ذلك الذي صادفهم؟»

ابتسم ديدام مرةً أخرى. وقال: «أعترف أن الأمر يبدأ بالفعل في أن يبدو أحمق عندما يحاول المرءُ تفسيره. لكن أشياء مثل البنادق — أو البنادق الفتيلية — التي تفشل في

الانطلاق أو تنفجر، ليس فقط القليل منها، بل الكثير — تلك الخاصة بك، وجارك، وجاره. وجيرانهم. عندما يصل سلاح الفرسان إلى أقصى امتداد له ويبدأ في الانقضاض على العدو، تبدأ الخيول في التعثر والسقوط كما لو أنها قد نسيت كيفية العدو؛ جميعها. والرجال يُخطئون في تنفيذ أوامرهم. وعربات الإمداد تفقد عجلاتها. ونصف سرية يدخل الرمل فجأة في أعينها في وقت واحد، ولا يمكنها رؤية إلى أين تتجه — أو إلى أين تُطلق النار. هذا النوع من الأشياء الصغيرة الذي يحدث دائماً، لكنه تجاوز كل الاحتمالات. يميل الناس إلى تصديق مثل هذه الأشياء التي تبدو مثل الخرافات، مهما سَخروا من قدرة الجن والساحرات وما إلى ذلك. ومن المروّع جداً أن ترى سلاح الفرسان الخاص بك ينهار وكأنهم جميعاً في حالة سُكر، بينما تجد هؤلاء المجانين الذين لا يملكون سوى السيوف والفئوس وقطع من الدروع الجلدية؛ يُهاجمونك من كل اتجاه، ولا أحد يبدو أنه يُطلق النار عليهم من جانبك. أؤكد لكم أنني رأيت ذلك.»

تململ ريتشارد في كرسيه. وقال: «وكورلاث ...»

تابع الكولونيل: «أجل، كورلاث»، وبدأ هادئاً كما كان عندما شكر الليدي أميليا على كوب الشاي الذي قدمته له، بينما كان وجه السير تشارلز يزداد احمراراً، وأخذ ينفخ في شاربته. كان من الصعب عدم تصديق ديدام؛ إذ كان صوته هادئاً للغاية ويمتلى بالصدق. «يقولون إن الملوك القدامى قد عادوا مرة أخرى ليتجسّدوا في شخصية كورلاث. أنت تعلم أنه بدأ في لمّ شمل بعض القبائل البعيدة؛ تلك التي لا يبدو أنها تدين لأي شخص بأيّ ولاء مُعين، والتي تعيش على نوع من قطع الطرق يُهاجم أيّ شخص يكون في المتناول.»

قال السير تشارلز: «أجل، أعلم.»

«إذن ربما قد سمعت أيضاً جانباً من الروايات الأخرى التي بدّءوا يروونها عنه. أتخيّل أنه يمكن أن يأمر البرق فيمتثل إذا أراد.»

قالت الليدي أميليا: «هل هذا هو الرجل الذي سيأتي إلى هنا اليوم؟» وحتى هي بدت الآن خائفةً بعض الشيء.

«أجل، يا أميليا، نعم، للأسف.»

تمتم السير تشارلز: «إذا كان بارعاً للغاية هكذا، فماذا يريد منا؟»

ضحك ديدام. وقال: «ابتهج يا تشارلز. لا تكن عابساً. لا أظن أن حتى الساحر يمكنه جعل نصف مليون من أهل الشمال يخنفون مثل قطرات مطر في المحيط. نحن بالتأكيد بحاجة إليه لُبقي على ممرات جباله مغلقة. وربما قد قرّر أنه بحاجة إلينا؛ ربما لإتمام هذه المهمة.»

نهضت الليدي أميليا، وتبعته هاري على مضض. «سنترككم لمناقشة الأمر. هل هناك ... هل هناك أي شيء يمكنني فعله؛ يمكنني الترتيب له؟ أخشى أنني أعرف القليل جداً عن استضافة زعماء القبائل من السكان الأصليين. هل تعتقد أنه سيرغب في تناول الغداء؟» مدت يديها ونظرت حول المائدة. كتبت هاري ابتسامة عند تصور تقديم الليدي أميليا الضئيلة الحجم المراعية لقواعد الذوق للسندوتشات، مع تهذيب الأطراف بدقة، وعصير الليمون لهذا الملك البربري. وسألت نفسها: كيف سيبدو؟ قالت في نفسها: لم أر قط أيًا من الأحرار، سگان التلال. كل السكان الأصليين في القاعدة، حتى التجار من أماكن بعيدة، يبدون خاضعين و... متكتمين بعض الشيء.

قال السير تشارلز: «أوه، هراء. أتمنى لو كنت أعرف ما يريد؛ غداءً أو أي شيء آخر. إن جزءاً مما يجعل كل هذا معقداً للغاية هو أننا نعلم أن سكان التلال الأحرار لديهم ميثاق شرف شديد التعقيد — لكننا نكاد لا نعرف شيئاً عن مضمونه.» غمغم ديدام: «نكاد.»

«يمكن أن نسيء إليهم بشدة دون حتى أن نعرفه. أنا لا أعرف ما إذا كان كورلاث سيأتي بمفرده، أو مع مجموعة مختارة من صفوف رجاله الذين يبلغون ألفاً، والمدججين جميعهم بالسلاح، ويحملون سهام البرق في جيوبهم الخلفية.» قال ديدام: «لا تبدأ يا تشارلز.» «لقد دعوناه هنا ...»

قال ديدام بهدوء عندما سكت السير تشارلز: «... لأن الحصن لم يُبنَ لاستقبال ضيوف الشرف.»

أضاف السير تشارلز بحزن: «ولا يبدو المكان هنا عدائياً إلى حد كبير.» ضحك ديدام. فقال السير تشارلز: «ولكن الساعة الرابعة صباحاً.» «أعتقد أننا يجب أن نكون ممتنين لأنه خطر له أن يُعطينا أي تحذير من الأساس. لا أعتقد أن هذا من نوعية الأشياء التي اعتاد التفكير فيها.» نهض الكولونيل، وسرعان ما أخذ ريتشارد مكانه خلفه. كان السير تشارلز لا يزال يدّرع الغرفة والكوب في يده، بينما كانت تستعد السيدتان للمغادرة. قال الكولونيل ديدام: «أعذر عن إفساد صباحكم بلا داع. أعتقد أنه سيصل في وقت ما وأننا سنتعامل معه، لكنني لا أعتقد أنكم يجب أن تكلّفوا أنفسكم أيّ عناء. قالت رسالته فقط إنه يرغب في مقابلة مفوض المقاطعة الهوللاندي — ليست هذه عبارته بالضبط، ولكن هذه هي الفكرة — والجنرال المسئول عن الحصن.

ومع ذلك، سيتعين عليه أن يتعامل معي؛ فليس لدينا رتبة جنرال. لا يهتم ملوك التلال بالأطباق الذهبية والمخمل الأحمر على أي حال، على ما أظن. آمل أن يكون هذا اجتماع عمل.»

غمغم السير تشارلز لكوب الشاي الخاص به: «آمل ذلك أيضًا.»
قال الكولونيل: «وفي الوقت الحالي، لا يسعنا سوى الانتظار والترقب. تناول مزيدًا من هذا الشاي الممتاز يا تشارلز. لا بد أن ما بداخل كوبك قد أصبح باردًا جدًا الآن.»

الفصل الثاني

استأذنت هاري والليدي أميليا للانصراف، وأغلقت المرأة الأكبر سنًا بابَ غرفة الطعام وهي تتنهد. فابتسمت هاري. والتفتت الليدي أميليا إليها في الوقت المناسب لترى الابتسامة، فابتسمت لها في المقابل بحزن. وقالت: «حسنًا. سنترك الرجال في انتظارهم غير المريح. وأنا سأذهب لزيارة السيدة ماكدونالد، وأنت ستذهبين في جولة بالخيول مع بيت وكاسي، وستعودين بهما إلى هنا لتناول الغداء.»

ردت هاري: «ربما في ظل هذه الظروف...» لكن الليدي أميليا هزت رأسها بالنفي. «لا أرى أي سبب يمنعك من ذلك. إذا كان لدينا ضيفٌ هنا، فإن هاتين الفتاتين تتمتعان بأخلاقٍ رفيعةٍ للغاية، وهما بالفعل من سادعوهما إذا أردنا تقديمَ عشاءٍ رسمي. و...» — هنا اتسعت ابتسامتها وأصبحت شقيةً مثل ابتسامة فتاة صغيرة — «إذا أحضر معه صفوة رجاله الذين يبلغ عددهم ألفًا، فسوف نفتقر إلى النساء بنحو رهيب، وأنت تعرفين مدى كُرهي لوجود مائدة غير متوازنة. يجب أن أدعو السيدة ماكدونالد أيضًا. أتمنى لك نزهةً ممتعة، يا عزيزتي.»

ارتدت هاري ملابس ركوب الخيل الخاصة بها، وامتنطت مُهرها القزم الهادئ، الذي كان بالفعل مُلجَمًا ومسرَجًا وقد أمسكه لها أحدُ الخدم العديدين في القصر، فانطلقت وعقلها منشغلٌ من أجل لقاءها مع صديقتها. تساءلت أولًا ماذا وكم يجب أن تُخبر كاسي وبيت، وثانيًا: وجدت نفسها تأمل أن يظل كورلاث هذا على الأقل مدةً طويلةً بالقدر الكافي كي تراه. هل سيبدو الملك الذي يُمارس السحر مختلفًا بأيّ نحو عن أي رجلٍ آخر؟

كانت الشمس حارةً بالفعل. فدفعت قبعتها للخلف بقدر كافٍ كي تنظر بحذر إلى السماء. كان السماء لونها بُنيًا مائلًا إلى الرمادي أكثرَ منه أزرق، كما لو كانت، مثل كل

شيء آخر بالقرب من إيستن، قد بهتت بسبب شراسة شمسها. وبدت صلبة مثل صدفه منحنية فوق الرأس، وهشة، كما لو أن رُمحاً مُصَوَّباً قد يخترقها. تهادى المهر القزم الهادئ وأذناه تتحركان بتثاقل، بينما أخذت تُحدق في الرمال. كانت الغابة الواقعة إلى الغرب من بيت والدها عتيقة، عمرها مئات السنين، وكانت متشابكة مع الكَرْمَة واللباب. وقد ماتت الأشجار القديمة، وتفسخت حيث تقف؛ إذ لم يكن لديها مجال للسقوط. لم يظن أيُّ من مُلاك الأرض أن الغابة العتيقة تستحق الإخلاء وأن الأرض يجب استغلالها، لكنها أصبحت دَغلاً رائعاً بالنسبة إليها وإلى ديكي وهما طفلان، كي يلعبا بداخلها لعبة قاطعي الطريق، ويصطادا التنانين. ولطالما كانت ظلالها الملتوية مُرحَّباً بها بالنسبة إليها؛ وعندما أصبحت أكبر سنّاً أعجبها الإحساسُ بتقدم العمر الذي منحته لها الغابة، وبوجود حياة معقّدة هائلة ليس لها علاقة بها، وهي ليست بحاجة إلى أن تُحاول تفسيرها.

كانت الصحراء، مع الجبال السوداء ذات الحافات الحادة التي تُحيط بها، مختلفة عمّا اعتادت هي عليه، مثلها مثل أيِّ مشهدٍ آخر؛ ومع ذلك فقد وجدت بعد أسابيع قليلة فقط في إيستن أنها تقع تدريجياً في حبّها؛ برمالها القاسية، وشمسها الحارّة، ورياحها المحمّلة بالرمال التي لا تعرف الرحمة. وقد وجدت أن الصحراء تجذبها مثلما لم تفعل أرضها الخضراء قط — ولكن تجذبها نحو أيِّ اكتشاف، هذا ما لم تستطع أن تُحدّده.

لقد كانت حتى صدمةً أكبر لها أن تُدرك أنها لم تُعد تشاق إلى موطنها السابق. لقد كانت تفتقد المكان الذي عاشت فيه، وتفتقد والدها على نحوٍ أكبر. فهي قد غادرت مباشرة بعد الجنازة، لدرجة أنه من الصعب عليها تصديق أنه قد توفّي، وأنه لم يعد يتجول على صهوة حصانه حول أرضه مرتدياً معطفه الرث، ومنتظراً عودتها. ثم اكتشفت أنها كانت تتذكّر والديها معاً مرةً أخرى؛ كما لو أن أمّها قد توفيت منذ مدةٍ قصيرة، أو أن والدها قد توفّي منذ خمس سنوات — أو أن هذا الاختلاف، الذي كان هائلاً للغاية، لم يُعد كذلك. وهي لم تكن تحلم بنباتات العسلة والليلك. لقد كانت تتذكّر حبها، لكنها كانت تنظر عبر دَوّامات الرمال والكتل الصلبة الصغيرة من الشجيرات، فتجد أنها سعيدة بالمكان. وهمس صوتٌ خافت لها بأنها حتى لم تكن تريد العودة إلى الوطن مرةً أخرى. لقد كانت تريد أن تعبر الصحراء وتتسلّق الجبال في الشرق؛ الجبال التي لم يتسلّقها أحدٌ من الهوملانديين قط.

وهي غالباً ما كانت تُخمن رؤية الآخرين للمكان هنا. فأخوها لم يذكر لها رؤيته من قبل بطريقة أو بأخرى. وقد اعتادت أن تسمع الشباب الآخرين يُشيرون إليه بأنه

«تلك الصحراء البغيضة» و«الشمس المروعة». لكن بيث وكاسي لم تفعلوا ذلك؛ فقد عاشتا في جزء أو آخر من داريا طوال حياتيهما — «عدا السنوات الثلاث التي اصطحبتنا فيها أمنا إلى الوطن، كي نكتسب السلوك الراقى، على حدّ تعبيرها» — وبالنسبة إلى كلتيهما، فإن شمس داريا، وطقس داريا، سواء في الأرض الحمراء الخصبة في الجنوب، مع المعركة الأبدية ضدّ الدغل من أجل الحفاظ على الحقول خالية من الأشجار، أو في النجاد الرطبة الباردة لمزارع البرتقال، أو في الرمال الساخنة للحدّ الشمالي الشرقي، هما ببساطة من الأشياء الموجودة هناك، التي هي جزء من وطنهما، والتي يجب تقبلها والتأقلم معها. وقد سألتها هاري عن مدى حبّهما لهوملاند، فكان عليهما الصمت والتفكير في الأمر. ثم قالت كاسي بعد مدة: «إنها مختلفة للغاية»، وأومأت بيث موافقة إياها. وشرّعت كاسي في قول شيء آخر، ثم توقّفت، وهزّت كتفَيْها. ثم كرّرت: «مختلفة للغاية».

واصلت هاري التساؤل: «هل أعجبتكما؟»

قالت كاسي وقد تفاجأت: «بالطبع».

وقالت بيث: «لقد أعجبتنا كلُّ الأماكن التي عشنا فيها، بمجرد أن عقدنا فيها بعض الصداقات».

قالت كاسي: «لقد أعجبنى الجليد في الشمال، ومعاطف الفراء التي اضطررنا إلى ارتداؤها هناك في الشتاء».

فاستسلمت هاري.

وبدا أن الناس الأكبر سنًا في القاعدة كانوا يتعايشون مع المكان من حولهم كما يتعايشون مع أي عيب آخر في مهنهم المختارة. وقد أكسبت الخدمة في داريا، سواء المدنية أو العسكرية، القدرة على التحمّل دون شكوى عند أولئك الذين لم يستسلموا ويعودوا إلى الوطن بعد السنوات القليلة الأولى. وكان موقف عائلة جرينو، القائم على التعايش مع الأمر وتحقيق أقصى استفادة منه، بارزًا للغاية في هذا الشأن.

وقد حازت هاري مرةً على اعتراف من السيد بيترسون، والد كاسي وبيث. ففي ذلك المساء، كان هناك العديد من الأشخاص المدعوين لتناول العشاء في القصر، ومن بينهم عائلة بيترسون. وقد جلس السيد بيترسون في الجهة المقابلة لها على مائدة العشاء، ولم يُظهر أيَّ اهتمام بالمحادثة على الجانب الآخر من المائدة. ولكن في وقتٍ لاحق من المساء ظهر إلى جانبها. فوجئت بذلك؛ إذ نادرًا ما كان يتحدّث في المناسبات الاجتماعية، وكان معروفًا عنه لدى سكان القاعدة أنه يتجنّب السيدات الشابات غير المرتبطات، بما في ذلك صديقات بناته.

جلسا في صمت في البداية؛ وتساءلت هاري في نفسها عمّا إذا كان ينبغي لها أن تقول أيّ شيء، وإذا كان الأمر كذلك، فما هو. كانت لا تزال تتساءل عندما قال: «لم أستطع منع نفسي من الاستماع لبعض ما كان ذلك الشاب الذي بجوارك يقوله أثناء العشاء». ثم سكّت مرة أخرى، لكن هذه المرة انتظرت بصبرٍ أن يتابع ولم تُحاول حتّهُ. فتابع: «لم أكن لأوليّ كثيراً من الاهتمام، لو كنتُ مكانك.»

كان الشاب المعنّي يُخبرها عن الصحراء البغيضة والشمس المروعة. لقد كان ضابطاً صغير الرتبة في الحصن، وقد ظلّ هناك مدة عامين، وكان يتطلّع إلى تركه بعد اثنتين آخرين. تابع الضابط: «لكنني لا أريدك أن تظنّي أننا ليس لدينا تغيير في الفصول هنا. فنحن لدينا ذلك؛ فهناك فصلٌ شتاء. وفيه تُمطر السماء بنحوٍ منتظم مدة ثلاثة أشهر، وكل شيء يصبح موحلاً، بما في ذلك أنت.»

قال السيد بيترسون: «أنا مُعجّب نسبياً بالمكان هنا. كثير منا يفعلون.» ثم نهض ومشى بعيداً. ولم تتحدّث هي بكلمة معه.

لكنها تذكّرت ما قاله لاحقاً عندما أدركت أنها أيضاً أصبحت واحدة من أولئك الذين أحبّوا المكان هنا. فكّرت فيمن قد ينتمي أيضاً إلى مجموعتهما المختارة. لقد كانت لعبة، وكانت تُسلي نفسها بها عندما لا تستطيع المشاركة في محادثة مهذّبة. حدّدت في ذهنها كلّ من لم يشكّ من الحرارة، والرياح، وهطول الأمطار غير المتكافئ، ثم حاولت فصل أولئك الذين يُشبهونها ممّن كانوا يستمتعون بالفعل بلسعة الرمال التي حملتها الرياح والصداع من وهج الشمس، عن أولئك الذين يُشبهون كاسي وبيث ممّن كانوا قادرين فقط على التكيف معها بابتهاج.

استقرّت هاري في النهاية على الكولونيل ديدام باعتباره العضو الأكثر ترجيحاً في مجموعتها، وبدأت تفكر فيما إذا كانت هناك أيّ طريقة لمناقشة الموضوع معه. اعتقدت أنه ربما كانت هناك قاعدة خاصة بالمجموعة تقول: لا يجب أن تتحدّث عن الأمر. لكن فرصتها جاءت أخيراً، قبل أقلّ من أسبوعين من وصول حامل رسالة كورلاث إلى القصر في الساعة الرابعة صباحاً.

كان ذلك في حفل عشاء صغير آخر في قصر عائلة جرينو. عندما ذهب الرجال تفوح منهم رائحة مروعة صادرة عن السيجار الفاخر الخاص بالسير تشارلز إلى غرفة الاستقبال كي ينضمّوا إلى السيدات، جاء الكولونيل ديدام عبر الغرفة وألقى بنفسه على الكرسي الذي يوجد قرب النافذة بجانب هاري. كانت هي تنظر إلى البرك البيضاء الغامضة التي يسكبها القمرُ عبر الصحراء.

وقال: «افتحي النافذة قليلاً، ودعي بعضاً من هذا الدخان يخرج. أستطيع أن أرى أميليا المسكينة تتحلّى بالشجاعة كي تُقاومه.»

فقالَت وهي تفتح المزلاج وتدفع زجاج النافذة: «لا بد أن نتعامل مع السيجار مثل البصل.» وتابعت: «إما أن نتناوله الصلبة بأكملها، أو لا نتناوله بأكملها.»
ضحك ديدام. وقال: «مسكينة ميلي! أخشى أن تُفسد كثيراً من الحفلات. هل سبق لك أن دَخَنْتِ سيجاراً؟»

ابتسمت، وقد لمع بريق في عينيها الشاحبتين، فتذكر أن بعض الشباب قد وصفوها بأنها باردة وتفتقر إلى حسّ الدعابة. ثم قالت: «أجل، لقد فعلت: هكذا عرّفت تأثير السيجار. كان والدي معتاداً على تقديم العشاء لأصدقائه الصيادين، وكنتُ أنا المرأة الوحيدة الموجودة هناك. ولم أكن لأكل في غرفتي، كطفلٍ معاقب، وكنت أحبُّ البقاء والاستماع إلى القصص التي يروونها. وقد سمحوا لأنفسهم أن يعتادوا على وجودي؛ لأنني أستطيع ركوب الخيل والرماية على نحو جيد. لكن الدخان، بعد بضع ساعات، كان يصعب احتماله.»
قال ديدام: «إذن والدك ...؟»

«كلا، ليس والدي؛ لقد علّمني الرماية، رغم تحفّظه على ذلك، لكنه رفض أن يُعلّمني التدخين. لقد كان أحدُ أصدقائه هو مَنْ فعل؛ الأب الروحي لريتشارد، في الواقع. لقد أعطاني حَفَنَةً من السيجار في نهاية إحدى هذه الأمسيات الصعبة للغاية، وطلب مني أن أدخنها، ببطء وحذر، في مكان ما يمكن أن أصاب فيه بالإعياء دون أن يراني أحد. وفي المرة التالية التي وُزِعَ فيها السيجار حول المائدة، أخذتُ واحداً لنفسِي، وقد ساعدني على مواجهة والدي. كانت الطريقة الوحيدة للنجاة من المعاناة. لقد كان مُحَقّاً.»

قال ديدام مبتسماً: «يجب أن أخبر تشارلز. يسره دائماً أن يعثر على محبٍّ آخر للسيجار.»

تحولت نظرتها مرةً أخرى إلى ضوء القمر، لكنها التفتت ثانيةً للداخل. «كلا، شكرًا لك، أيها الكولونيل. أنا لستُ كذلك. كانت القصص هي التي جعلت الأمر يستحق. أنا أقدر الدخان فقط عندما أرى أشياء من خلاله.»

رد: «أنا أعرف ما تقصدينه، لكن يجب أن تتعهدي بعدم إخبار تشارلز بذلك. ومن أجل السماء، ناديني جاك. إن ثلاثة أشهر طويلة جدًا بما يكفي كي تُناديني خلالها كولونيل.»

قالت: «ممم.»

«إن كاسي وبيث تفعلان ذلك على نحو لطيف للغاية. قولي: جاك.»
قالت: «جاك.»

«هكذا، أرايتِ؟ وفي الدرس التالي، سوف أمشي عبر الغرفة وأطلب منك أن تقوليهما مرةً أخرى، وسترين مدى سرعة التفاتي وقولي: نعم؟»

ضحكت. كان من الصعب تذكرُ أن ديدام يكبر السير تشارلز ببضع سنوات؛ فالأخير بدينٌ ووقور وذو شعر أبيض. أما ديدام فهو نحيف وبُنِّي البشرة، والشعر الذي تبقى لديه ذو لونٍ رمادي داكن. كان السير تشارلز مهذبًا وطيبًا؛ أما ديدام فيتحدث مع الناس مثل صديق.

«أراك تُحدِّقين كثيرًا عبر النوافذ في براري داريا. هل ترين أسيجة طقسوس وشجرة بلوط يتسلَّقها اللبلاب و... بقراً وأغناماً في مَراعٍ خضراء؟»

نظرت إلى أسفل ناحيةَ حجرها، وشعرت ببعض الاضطراب، حيث ظننت أنه لم يلاحظها أحد؛ ولكن هنا كانت فرصتها. فرفعت بصرها. وقالت: «كلا. أرى براري داريا الخاصة بنا.»

ابتسم قليلاً لعبارة «الخاصة بنا». ثم قال: «أنتِ تتواءمين مع المكان هنا إذن؟ لقد استسلمتِ للجو المشمس طوال الوقت، باستثناء عندما يكون هناك كثير من الأمطار؟ لكنك لم تزيّ شتاءنا بعد.»

«كلا ... كلا، لم أفعل. لكنني لم أستسلم.» توقفت عن الكلام، متفاجئةً بمدى صعوبة قول ذلك بصوت عالٍ، بينما تدفَّق إلى ذهنها أولُ قاعدة لمجموعتها. «إنها تُعجبني. لست متأكدةً من السبب، لكنني أحبُّ المكان هنا.»

اختفت الابتسامةُ ونظر إليها بتمعُّن. ثم قال: «حقاً؟» والتفت ونظر من النافذة. وتابع: «ليس هناك كثير منا ممَّن يفعلون ذلك. عن نفسي، أنا أحد ... لا بد أنكِ خمنتِ أنني أحبُّ الصحراء. هذه الصحراء. حتى في فصل الشتاء، والأرض الموحلة التي تظللُّ ثلاثة أسابيع بعد توقفِ المطر قبل أن تشتدَّ حرارة الشمس مرةً أخرى. إن جانباً كبيراً من تدمُّري من أيّ أقدم كOLONيل لا يزال في الخدمة؛ يتمثَّل في الشكوى فقط؛ فأنا أعلم أنهم إذا رَقُوني، فمن شبه المؤكَّد أنهم سيُرقِّونني بعيداً عن هنا؛ إلى واحدة من أكثر الأجزاء تحضراً في هذه الأرض غير المتحضرة. إن معظم داريا ليست كذلك، كما تعلمين.» ثم توقف عن الكلام. وتابع: «لا أظن أنَّ هذا يعني الكثير بالنسبة إليك.»
«لكنه كذلك.»

عبس قليلاً، وأخذ يتفحص وجهها. وقال: «لا أعرف هل أقول إنك محظوظة للغاية أم العكس. نحن غرباء هنا، كما تعلمين؛ حتى أنا، الذي قضيتُ أربعين عاماً هنا. هذه الصحراء هي قطعة صغيرة من دامار القديمة. إنها ليست حتى في واقع الأمر تحت نطاق سيطرتنا.» ثم ابتسم بسخرية. وتابع: «لا يقتصر الأمر على عدم قدرتنا على فهمها؛ فنحن أيضاً غير قادرين على إدارتها.» ثم أوماً برأسه نحو النافذة. وأضاف: «وتلك الجبال التي في الخلف. إنها تقف هناك وتتنظر إليك وأنت تعلمين أنك لن تتسلقها أبداً. لم يستطع أحد من الهوملانديين أن يفعل هذا — أو على الأقل أن يعود ليخبرنا بما وجد هناك.»

أومأت برأسها. وقالت: «إنه ليس شغفاً مريحاً.»

ضحك ضحكة خافتة. ثم قال: «أجل، ليس شغفاً مريحاً.»

«هل لهذا السبب لم يذكرها أحد من قبل؟ يسمع المرء ما يكفي عن الطرف الآخر.»

«يا إلهي! أتفق معك تماماً.» فقط أربعمئة وستة وتسعون يوماً حتى أخرج من حفرة الرمال هذه.» أجل، أظن ذلك. إنه بلدٌ غريب، خاصةً هذه الزاوية منه، وإذا جعلتها تسري في دمك بشدة، فهذا سيجعلك غريبة أيضاً. وأنت لا تريدين حقاً لفت الانتباه إلى ذلك.»

تذكرت تلك المحادثة وهي تمتطي مهرها؛ والآن رأت كاسي وبيث يُهرولان نحوها. كانت تُفكر مرةً أخرى في كورلاث، وتحاول أن تتذكر القليل الذي تعرفه عن سكان التلال الأحرار. كان جاك لا يرغب في الحديث عنهم، ودفعتهَا مُراوغته إلى الاعتقاد بأنه يعرف الكثير عنهم؛ لأنه كان دائماً مُصرّاً على قوله إنه لا يعرف شيئاً. كان يحاول إبعادها، ربما، عن شغفها غير المريح.

قالت في نفسها: أوه، يا إلهي، وبقفزة سريعة تحوّل فضولها إلى إثارة، فأضافت: أُمَلِّ حقاً أن يكون هناك عندما نعود.

انتهت مسألة ماذا تقول لصديقتيها دون مشكلة. حالما جاء مُهرهما القزمان إلى جانبها، قالت بيث: «ألم يصل بعد؟»

كانت هاري تتوقع أن تُقابلاها بالتحية والسؤال عن حالها، ولم تعرف لحظةً مَنْ هو المقصود بسؤالها.

قالت كاسي: «كورلاث. لقد جاء جاك إلى منزلنا لمقابلة أبي قبل الإفطار، وأخبره أن يذهب إلى القصر، حيث سيحتاجون إليه هناك.» كان السيد بيترسون وجاك ديدام هما الشخصين الوحيدين في القاعدة اللذين يعرفان لغة سگان التلال بطلاقة بعض الشيء.

وقد تعلم معظم أهل داريا الذين كان لهم اتصال كبير مع الهوملانديين لغة هوملاند. وقد تعلّمت هاري بعض الكلمات من لغة داريا، لكن القليل منها فقط؛ إذ لم يُفكر أحدٌ من أهل هوملاند في كتابة قواعد لغة داريا من أجل الاستخدام العام، وعندما بحثت في الأمر أكثر، قيل لها إنه لا داعي لتعلّمها. الشخص الوحيد الذي شجّعها، والذي علّمها الكلمات التي كانت تعرفها، كان هو جاك ديدام، ولكن لم يكن لديه الوقت الكافي لتعليمها مزيداً منها. كان السير تشارلز مُلماً بنحوٍ معقول بلغة داريا، لكنه كان غير مرتاح بشأنها. لقد شعر أن المفوض المسئول يجب أن يعرف لغة أولئك الذين يُشرف عليهم، لكنها لم تُساعده على تحقيق توقّعاته الخاصة. فكان يحتفظ بمترجم بالقرب منه.

قالت هامسة: «كورلاث»، كما لو أن للاسم جاذبية. وأضافت: «يقول أبي إن سگان التلال لم يُحبّبونا كثيراً قط...»

قاطعتها كاسي قائلة: «لطالما عرّفنا ذلك.»

«... لذلك من المحتمل أن يدخل ويخرج بسرعة دون حتى أن نراه.»

قالت هاري: «لديّ الإذن بدعوتكما لتناول الغداء. إذا كان هناك، فسنراه.»

قالت بيث: «أوه، رائع! بالتأكيد حتى هو لن ينتهي من مهمته قبل الغداء. دعونا لا نذهب بالخيول بعيداً؛ يجب أن نراه عندما يأتي، وبعد ذلك سنعرف متى سنعود. إنه لأمر مزعج للغاية أن يأتي ملكٌ حقيقي للزيارة ولا يكون لديك حتى سببٌ لمقابلته.»

قالت هاري: «هل تعرفان أيّ شيء عن سكان التلال الأحرار؟» وذهبن بخيولهنّ بزاوية بعيداً عن القصر، بحيث يمكنهن رؤيته من فوق أكتافهن. «أنا لا أعرف. لن يخبرني أحدٌ بأي شيء.»

ضحكت كلتاها. قالت كاسي: «إن سگان التلال هم أكثر الأسرار كتماناً في داريا. أعني، نحن نعلم أنهم موجودون. بعضهم يأتون إلى هنا — إلى القاعدة أعني — إلى معرض الربيع.» نظرت إليها هاري. فأضافت كاسي: «أوه، بالتأكيد أخبرتك الليدي أميليا عن معرضنا. بعد ثلاثة أشهر من موسم الأمطار، نخرج من مدّة بياتنا الشتوي ونتخلّص من مزاجنا السيئ من خلال إقامة معرض...»

تابعت بيث: «... حيث نبيع بعضنا لبعض كلّ الحقائق والقلنسوات والدُمى ومَساند الأقدام الصغيرة السخيفة التي صنعناها أثناء هطول الأمطار حتى لا نُصاب بالجنون لأننا لم يكن بإمكاننا الخروج.»

أضافت كاسي وهي متجهمة: «أجل، معظمها لا قيمة له. لكن الجميع يكون مبتهجا لل غاية في أول أسبوعين أو ثلاثة أسابيع بعد توقّف المطر. فالجو يكون رائعا للغاية؛ إنه الوقت الوحيد خلال العام الذي يُمكنك فيه الخروج حتى في وقت الظهيرة؛ وهناك أشياء خضراء تنمو من الأرض، وكل ما تملكه منتشر على الأسطح ومُتدلّ من عتبات النوافذ، كما أنه أخضر أيضا.» ثم أضافت: «ونحن نُزين الشوارع والساحة بالزهور الورقية والزهور الحقيقية واللافتات والشرائط، وتبدو البلدة بأكملها كما لو أنها في عطلة، مع الفساتين والبطانيات البادية في كل مكان. لدينا بالفعل زهور حقيقية هنا — إلى جانب البيميتشي اللانهائي — على الرغم من أنه لا توجد زهور تشبه ما اعتدتُ عليها في الوطن، حسبما أظن. كل شيء ينمو بنحوٍ هائل لمدة أسبوعين؛ لذلك ففي الأسبوع الثالث، أسبوع المعرض، يصبح كلُّ شيء أخضر ومُزهرا — حتى الصحراء، إذا كنتِ تستطيعين تصديق ذلك.»

«ثم بالطبع تقتل الشمس كلُّ شيء مرةً أخرى. وهذا هو الأسبوع الرابع. وأنت تعرفين كيف هي الحال هنا بقية الوقت.»

«أجل، ولكن المعرض ... يأتي الجميع إلى المعرض. وسكان التلال أيضا، القليل منهم، على الرغم من عدم مجيء أي شخص مميز جدًا منهم. بالتأكيد لم يأتِ الملك قط. وليست كلُّ المحافظ المصنوعة من الخرز التي نصنعها ونحن في حالة من اليأس هي فقط التي توجد في المعرض. فهناك دائما بعض الأشياء الجميلة حقًا، التي معظمها يصنعها أهل داريا أنفسهم. حتى الخدم لا يتوقع منهم أن يحققوا القدر نفسه من الجودة، كما تعلم، أثناء هطول الأمطار. فبعد الأسابيع القليلة الأولى، تصبحين أنت نفسك متململةً بحيث لا يُمكنك إعطاء العديد من الأوامر لأيِّ شخص آخر.»

«لكن في الغالب تأتي أفضل الأشياء من الجنوب. إنه الطريق الوحيد هنا حيث يكون الطقس سخيفًا جدًا، لكن أهل الجنوب يعلمون موعدَ معرضنا، ويعلم التجار أننا عندما نخرج من سجن الشتاء، نصبح مبتهجين للغاية بحرّيتنا لدرجة أننا نُقدّم على شراء أي شيء؛ لذلك هم يأتون إلى هنا بأعداد كبيرة.»

«هناك معارض، أو احتفالات بالربيع بنحوٍ أو آخر، في كل مكان هنا، لكن احتفالاتنا

هي الكبرى.»

قالت بيث: «حسنًا، نحن أكثرُ مكان تتوفّر فيه الأشياء التي يمكن شراؤها وما إلى ذلك؛ ونحن قاعدة هوملاند الوحيدة هنا. ولكن هناك عددًا كبيرًا من قُرى داريا حولنا، وهم يأخذون الربيع على محمل الجدّ جدًا. فهناك الكثير من الغناء والرقص، وهذا النوع من

الأشياء. وهم يَروون أجملَ القصص، إذا كان بإمكانك العثورُ على شخصٍ يُترجمها لكِ إلى لغة هوملاند. وهو ما ليس متوفراً في الغالب.»

قالت كاسي: «لدينا غناءٌ ورقصٌ أيضاً.»

قالت بيث ببطء: «أجل، أعرف؛ لكن الأمر مختلف. رقصنا هو مجرد تنفيس، بعد أن بقينا في الداخل مدةً طويلة. أما رقصهم فيعني شيئاً ما.»

نظرت إليها هاري بفضول. وقالت: «تقصدين أنهم يطلبون من الآلهة أن تهبهم سنةً جيدة؛ هذا النوع من الأشياء؟»

قالت بيث: «أظنُّ ذلك. لستُ متأكدة تماماً.»

قالت كاسي: «لن يتحدث أحد عن أي شيء له صلة بداريا مع أحد الهوملانديين. لا بد أنك لاحظتِ ذلك.»

«أجل ... لكنني جديدة هنا.»

قالت كاسي: «ستكونين دائماً جديدةً هنا إذا كنتِ من الهوملانديين. الوضع مختلف في الجنوب. لكننا على الحدود هنا، والجميع يُدرك تماماً أن الأحرار يعيشون في تلك التلال التي تَربينا خارج نوافذك كلَّ يوم. إن أهل داريا الذين يعملون لديك، أو معكِ، حريصون جداً على إثبات كيف أصبحوا حقاً من الهوملانديين، وكيف أصبحوا مُخلصين لكلِّ ما له صلة بهوملاند؛ لذلك لن يتحدثوا، أما الآخرون، فلن يتحدثوا للأسباب العكسية.»

قالت بيث: «لقد بدأتُ تتحدّثين مثل أبي.»

ردّت كاسي: «لقد سمعناه يقول كل ذلك كثيراً بما فيه الكفاية.»

قالت هاري: «لكن سَكان التلال.»

«أجل. إن الشيء الوحيد الذي أعتقد أنه يجمعنا جميعاً هو الفرح في تلك الأسابيع

الثلاثة القصيرة من الربيع. لذا يحضر عددٌ قليل منهم إلى معرضنا.»

قالت بيث: «إنهم لا يتصرفون بسعادةٍ كبيرة، على الرغم من ذلك. إنهم يأتون في تلك الأردية الطويلة التي يرتدونها دائماً، والتي تُغطي وجوههم أيضاً؛ لذلك لا يمكنك معرفة إذا ما كانوا يبتسمون أم يعبسون، وبعضهم يرتدي تلك الأوشحة المرقّعة المضحكة حول الخصر. لكنهم يأتون، ويبقون عدة أيام، وهم لديهم أعظم الخيول التي رأيتها على الإطلاق. وهم ينصبون مخيماً خارج القاعدة، ودائماً ما يضعون عليه حراساً، بنحوٍ علني تماماً، كما لو أنه لا يمكن الوثوق بنا ...»

تمتّت كاسي: «ربما نحن كذلك.»

«... لكنهم لا يبيعون خيولهم أبداً. ومع ذلك، فإنهم يجلبون أروغ المنسوجات الجدارية، وأوشحة الخصر المطرزة، التي هي أجمل بكثير من تلك المرقعة التي يرتدونها هم أنفسهم. فتلك الأوشحة يبيعونها. وهم يسرون بجديّة حول حافة الساحة المركزية الكبيرة، السوق القديم، حاملين كلّ تلك الأشياء البرّاقة، بينما نضحك نحن ونتحدث ونركض. إنه لأمرٌ مخيف بعض الشيء.»

قالت كاسي: «كلا، إنه ليس كذلك. أنتِ تستمعين إلى القصص كثيراً.»

احمرّ وجه بيت. وقالت بعد صمت: «هل ترين شيئاً في القصر؟»

قالت هاري: «كلا.» وأضافت: «أيّ قصص؟»

ساد الصمت مرةً أخرى بينما أخذت تنظر كاسي إلى بيت وتتنظر بيت إلى غُرّة مهرها. ثم قالت كاسي على الفور: «إنه خطئي. إذ ليس من المفترض أن نتحدث عنها. ينزعج والدي حقاً إذا أمسك بنا نفعل ذلك. إن معظم تلك القصص تدور حول السحر. من المفترض أن كورلاث وشعبه منغمسان في ممارسته، حتى في هذا اليوم وهذا العصر، ومن المفترض أن كورلاث نفسه مجنونٌ بعض الشيء.»

قالت هاري وهي تتذكر ما قاله ديدام سابقاً: «سحر؟» وأضافت: «مجنون؟» إنه لم يقل أيّ شيء عن الجنون. وتابعت: «كيف؟»

هزّت كلتاهاما كتفيهما. وقالت كاسي: «لم نتمكّن قط من معرفة ذلك.»

قالت بيت: «ونحن يمكننا عادةً أن ننتزع ما نريد معرفته من والدي في نهاية الأمر؛ لذا لا بد أن ذلك الأمر مروّع للغاية.»

ضحكت كاسي. وقالت: «لقد قرأت كثيراً من الروايات يا بيت. من المرجّح بالقدر نفسه أن والدي ما كان ليتحدث عن الأمر لأنه يرفض الاعتراف بأنه قد يكون حقيقياً؛ أعني السحر. أما جاك ديدام فيُصدق الأمر؛ هو وأبي يتجادلان حوله أحياناً، عندما يعتقدان أنهما بمفردهما. إن الجنون، إذا كان هذا ما هو عليه، مرتبط بطريقة ما بقوة الملك؛ ففي مقابل امتلاك قوة تتجاوز قدرات البشر أو ما شابه، فعليه أن يدفع ثمناً عبر نوع من النوبات الجنونية.»

قالت بيت: «من الذي يقرأ كثيراً من الروايات إذن؟» فابتسمت كاسي. فقالت كاسي: «إن الأمر يستحوذ على الخيال على نحو ما، فأومأت بيت برأسها.

قالت هاري: «لا عجب أنكما متحمّستان جدّاً لرؤيته.»

قالت بيت: «أجل. أعلم أنه أمرٌ سخيف مني، لكنني أشعر أن الرؤية ربما ستُساعد بطريقة ما. سيكون طوله ثمانِي أقدام، وسيملك عيناً ثالثة في منتصف جبهته.»

قالت هاري: «يا إلهي!»

قالت كاسي: «أمل ألا يكون كذلك..»

قالت بيث: «حسنًا، أنت تعرفين كيف تسير الخرافات..»

قالت أختها على نحو قمعي: «كلا، ليس تمامًا. حتى عندما يُصبح والدي على استعداد

لترجمة بعضها، يمكن أن تُدركي من خلال أوقات صمته أنه يتجاهل كثيرًا من الأمور..»

قالت بيث في إصرار: «أجل، ولكن مع ذلك ... من المفترض أن الملوك والملكات القدامى

كانوا أطول من البشر العاديين ...»

قاطعتها كاسي قائلة: «إن أهل داريا في الغالب أقصر منا، على الأقل من نراهم. يمكن

للملك أن يبدو عاديًا جدًا بالنسبة إلينا ويبدو طويل القامة جدًا بالنسبة إليهم..»

«... ويمكنك أن تُميزي الدم الملكي من خلال شيء ما في العيون..»

ساد الصمت مرة أخرى. فقالت هاري: «شيء ما؟»

مرة أخرى هزتا كتفَيْهما. وقالت بيث: «شيء ما. هذا واحد من الأشياء التي يتغاضى

والدي دائمًا عن ترجمتها. مثل الجنون..»

قالت كاسي: «أنت تأملين أن يُخرج رغوّة من فمه..»

ألقت بيث نظرة غاضبة على أختها. وقالت: «كلا. سأكتفي بالعين الثالثة..»

قلّل هذا الحديث من قيمة المنازل النائية المحيطة بالقاعدة، وكان يتخلّى الغبارُ

الذي تركله أقدامُ مهورهن حتى عن التظاهر بأنه أيُّ شيء آخر غير رمال الصحراء.

وساد الصمت؛ فاقترحت كاسي أن يتحرّكن بالخيول على نحو خفيف، وهو ما حدث

بالفعل. كانت الشمس حارة للغاية لدرجة أنهنّ عندما توقّفن مرةً أخرى، بعد بضع دقائق

فقط، أصبحت أكتافُ المهور مسمّرةً بسبب العرق. أرسلت هاري واحدةً من نظراتها

الطويلة عبر الصحراء، واضطّرت إلى التحديق بعينين نصف مغمضتين في مقابل الضوء

المرتفعش.

سألت بيث بلهفة، وظلّلت عينيها بيدٍ مرتدية فردة قفازٍ أبيض أنيق: «هل تعتقدان

أنّ علينا العودة الآن؟»

ابتسمت هاري ابتسامةً عريضة. وقالت: «يمكننا قضاء بقية الصباح في غرفة جلوسي،

إذا أردتما. إنها تُطل على الباب الأمامي، كما تعلمان..»

أعطتها بيث نظرةً ممتّنة، وضحكت كاسي ضحكةً خافتة؛ لكنهن جميعًا أدرن رءوسَ

مهورهن بسرعة وأطلقن لها العنان للركض إلى المنزل بأسرع ما تسمح به الحرارة.

بحلول الوقت الذي وصلن فيه إلى الظل المفترض للأشجار العنيدة الرفيعة التي تُحدد حدود أطراف القاعدة، كانت هاري تشعر بالحر والصداع قليلاً، وكانت غاضبةً من نفسها للعودة السريعة هذه دون سبب. لا شيء كان من الممكن أن يُقْلَت من مُلاحظتهن؛ إذ يقع القصرُ بعيداً قليلاً عن بقية القاعدة، في أرضه الخاصة، ويقع الطريق المؤدي لبابه الأمامي تحت أعينهن طوال الرحلة. لقد استغرقتَ رحلتُهن أكثرَ من ساعةٍ بقليل. فكرتَ هاري في اقتراح أن يلتقين مرةً أخرى بعد ساعة، وهو وقتٌ كافٍ لتغيير الملابس والاستحمام؛ فهي في حالتها الحالية لم تكن ترغبُ في مقابلة أيِّ ملوك، سواء كانوا مجانين أو غير ذلك. لكنها استرقتَ نظرةً نحو بيتٍ ورأت كم كانت حريصةً على ألا يفوتها أيُّ شيء، وقالت لنفسها: حسناً، يُمكنني غسلُ وجهي على الأقل، ويمكننا جميعاً تناولُ بعض عصير الليمون البارد، ومراقبة الباب الأمامي في هدوء.

سارت المهور ببطء في الشارع المؤدي نحو القصر. وخلعت كاسي قبعتها كي تستخدمها في التهوية على نفسها. وأغمضت هاري عينيها لحظة. كانت هذه عادةً سيئة للغاية، هكذا قالت لما يوجد داخل جفنيها. فكان الرد: ماذا لو أن هذا الشيء الناعس السمين ذا الأذنين والذيل؛ قد اندفع أو فزع فجأةً؟ ماذا لو سقطت السماء؟ توقفت المهر فجأةً عن الحركة في الطريق، ورفع رأسه بضغ بوضات في اللحظة نفسها التي قالت فيها بيت بصوت هامس مخنوق: «انظرن.»

نظرت هاري وكاسي. كنَّ قد اقتربنَ من نهاية الطريق؛ وما بقي هو الدائرة العريضة أمام القصر، التي كانت تصلح لوقوف العربات، أو تجمع نصف كتبية. وقبالة أحد الجوانب، حيث كان يُلقي القصر الطويل بظلٍ قليل، كانت تقف سبعة خيول ورجلٌ واحد. وقفت الخيول في نصف دائرة صغيرة حول الرجل الذي كان يجلس متربعاً بالقرب من جدار القصر. لقد وقفت بهدوء، تضرب بحوافرها بين الحين والآخر، وأحياناً يمدُّ أحدها أنفه للمس الرجل؛ فيربت على خدِّه لحظة ليرفع الأولُ رأسه مرةً أخرى. أول ما لاحظته هاري هو جمال هذه الحيوانات؛ فلم يكن ارتفاع أحدها ليقُلَّ عن ستِّ عشرة قبضة، وكانت لها أرجلٌ طويلة نظيفة، وذبول تكاد تلامس الأرض. ثلاثة منها كانت بلون الكستناء، ويلمع جلدها حتى في الظل المترب؛ وكان الرابع رمادي اللون، والخامس بُنيّاً داكناً، والسادس بُنيّاً مائلاً للون الذهبي؛ لكن أفضل حصان كان الأكثر بُعداً عن المهور الثلاثة السَّمينة الواقفة بحماقة في طريق العربات. كان بُنيّاً مائلاً للون الدم، أحمر كالنار، أسود الأرجل والذيل، وقد وقف بمعزل عن الخيول الأخرى، وتجاهل الرجل الواقف عند أقدامه. حدَّق

نحو الوافدين الجُد كما لو كانت أرضه تلك التي يقف عليها، وهم دُخلاء. بينما كانت الخيول الأخرى تؤرجح رءوسها ببطء لترى ما كان ينظر إليه قائدُها، لاحظت هاري شيئاً آخر، وهو أنها لم يُوضَع على أيٍّ منها لجام.

قالت كاسي بنحوٍ قاطع: «إنه هنا.»

أخذت بيت نفساً عميقاً. ثم قالت: «كيف؟»

قالت هاري: «انظرا إلى تلك الخيول»، وكانت اللفظة في صوتها واضحة لدرجة أنها

حتى سمعتها.

أشاحت كاسي ببصرها عن المنظر المستحيل لسبعة خيول قد شقَّت طريقها بنحوٍ غير مرئي عبر صحراء جرداء، أمام ثلاثة أشخاص كانوا يبحثون عنها، وابتسمت بتعاطف نحو صديقتها. «ألم تُشاهدي أحدَ خيول سكان التلال قبل ذلك؟ من المفترض أنها الأفضل في داريا.»

قالت هاري متذكرةً: «وإنهم لا يبيعونها أبداً.»

أومأت كاسي برأسها، على الرغم من أن عيني هاري لم تُرفعا عن الخيول قط. وقالت:

«قد يتخلَّى جاك ديدام عن ذراع من ذراعيه كي يمتطي أحدها مرةً واحدة.»

قالت هاري: «إنها بلا لجام.»

قالت كاسي: «وبلا ركاب أيضاً»، ورأت هاري أن هذا صحيح. فقد وُضع عليها سروجٌ لم تكن أكثر من أغطية مبطنة فُصِّلَتْ ولُفَّت بعناية؛ واستطاعت أن ترى بريق التطريز على أحزماتها وقرايبسها الأمامية. لم يتحرَّك حصان من مكانه في نصف الدائرة، على الرغم من أن الجميع الآن، إلى جانب الرجل، كان يشاهد المهورَ الثلاثة وراكبيها.

قالت بيت باشمئزاز: «خيول. ألا تفهمان ماذا يعني وجودها؟ يعني أنه هنا بالفعل، ونحن لم نلاحظ شيئاً على الإطلاق. إذا لم يكن هذا سحراً، فما هو؟» وحثَّت مُهرها على التقدم إلى الأمام مرةً أخرى. وتبعتها كاسي وهاري ببطء وتوقَّفن قبل درجات السلم. فظهر ثلاثة من السياس، مستعدين لإعادة المهور إلى الإسطبل خلف القصر.

بمجرد أن لامست قدما هاري الأرض — إذ بقي الصبيُّ بقلق على أحد الجانبين؛ لأنه تعلم من خلال التجربة المبررة أن هذه السيدة الهولندية لم تكن ترغب في الحصول على مساعدة أثناء ترجُلها من على ظهر المهر — حدثت جلبَّة عند مدخل القصر. فاستدارت هاري في الوقت المناسب لترى البابَ الثقيل يُفتح بعنف، حتى اشتكت مفصلاتهِ؛ وخرج عبره وهو يسير بخطواتٍ واسعة رجلاً يرتدي رداءً فضفاضاً أبيض اللون مع وشاحٍ

قرمزي حول خصره. وانطلق مزيد من الأشخاص في أعقابهِ، وتجمَّعوا حوله حيث توقف في الشَّرْفة. كان محورًا لعجلة متوترة، وقد أخذ يُحرك رأسه ببطء لتفحص الأشخاص الأقل حجمًا منه الذين ظهروا حوله وصاحوا في وجهه دون أن يجزؤوا على الاقتراب منه أكثر من اللازم. صُدِّمت هاري عندما تعرَّفت على أربعة من هؤلاء الرجال الأقل حجمًا، الذين كانوا السير تشارلز والسيد بيترسون وجاك ديدام وشقيقها ريتشارد. كان الرجل ذو الرداء الأبيض طويل القامة، وإن لم يكن أطول من ريتشارد أو السير تشارلز. ولكن كان هناك ارتعاش في الهواء من حوله، مثل ضباب الحرارة فوق الصحراء، الذي كان خارجًا من كُمِّيه الأبيضين، ومنسبًا من ظلالٍ وشاحه القرمزي. وأولئك الذين وقفوا بالقرب منه بدؤوا صغارَ الحجم وشاحبين وغامضين، بينما كان هذا الرجل لامعًا لدرجة أنه قد يخطف العيون. جاء مزيد من الرجال بهدوءٍ خلف الرجال الهولملانديين ووقفوا في أحد الجوانب، لكنهم أبْقُوا أعينهم على مَلِكهم. لا يمكن أن يكون أيُّ شخص آخر. لا بد أن هذا هو كورلاث.

أخذت هاري نفسًا عميقًا. لم يبدُ عليه أنه مجنونٌ أو غير بشري. لقد بدا غير متعاون. هز رأسه وعبَسَ بسبب شيء قاله أحدهم، وبدا السير تشارلز غير سعيد للغاية. هز كورلاث كتفَيْهِ، وطوَّح ذراعيه، كرجلٍ يخرج من غابة بامتنانٍ إلى ضوء الشمس. وخَطَا خطوةً طويلةً إلى الأمام نحو حافة الشَّرْفة. ثم خطا ديدام خطوتين سريعتين تجاهه وتحدَّثَ إليه، ببضع كلمات فقط، بنحوٍ عاجل؛ فاستدار كورلاث مرةً أخرى، وهو كارهٌ كما بدا، ثم نظر إلى الوراء. مدَّ ديدام يده وكفَّه إلى أسفل وأصابه ممدودة؛ وهكذا وقفًا دقيقةً طويلة. أسقط كورلاث عينيه على اليد الممدودة نحوه، ثم نظر في وجه صاحِبها. فحبست هاري، بينما تُشاهد الموقف، أنفاسها دون أن تعرف السبب. مع شعورٍ سيِّئٍ في فَمِ معدتها، رأت نظرةً توترٍ فظيعٍ على وجه ديدام بينما كان ملكُ سكان التلال يُحدق فيه؛ وارتعشت اليدُ الممدودة على نحوٍ قليلٍ للغاية. ثم مدَّ كورلاث يده ببطء ولمس ظهرَ معصم ديدام بإصبعَيْن؛ فسقطت اليدُ إلى جانب ديدام مرةً أخرى، ولكن كما لو كانت ثَقِيلَةً كالحجر، وشعر الرجل بارتياح؛ كقاتلٍ أطلق سراحه وهو فوق منصَّة الإعدام. اختفت نظرة التوتر عن وجهه لتحلَّ محلها نظرةٌ تنم عن التعب الشديد.

استدار كورلاث مرةً أخرى، ووضع قدمه على درجة السلم العلوية، ولم يتحرك أحدٌ لإيقافه. ترك الرجالُ الخمسة الذين كانوا من سكان التلال، والذين كانوا يرتدون أرديةً فضفاضة؛ الشَّرْفة وتبعوه. وجدَّت هاري أنها لا تستطيع أن تُبعدَ عينيها عن الملك، لكنها

لاحظت من زوايا عينيها أن الرجال الآخرين أيضًا كانوا يرتدون أوشحة خصر زاهية: ذهبية وبرتقالية وخضراء وزرقاء وأرجوانية. لم يكن هناك شيء يشير إلى الملك سوى برقي حضوره.

كانت هاري تقف على بُعد بضعة أقدام فقط من الدرجة السفلية، ممسكةً بلجام مهرها. وكانت كاسي وبيث في مكانٍ ما خلفها، ووقف السائس جامدًا على بُعد خطوات قليلة من مرفقها. لم يلحظهم كورلاث بعد، وأخذت هاري، بانبهار، تُحدّق فيه بينما كان يقترب منها. بدا أن هناك زئيرًا في الهواء يدقُّ على طبليتي أذنيها ويضغط على مُقلتي عينيها حتى رمشت. ثم نظر إلى أعلى فجأة، كما لو كان من تفكير عميق لا يُسرَّ غوره، فرآها، والتقت أعينهما.

كانت عينا الرجل صفراوين مثل الذهب؛ الذهب السائل الساخن في فرن مُصهر. وجدت هاري فجأة صعوبةً في التنفُّس، وفهمت التعبير الذي كان مرتسمًا على وجه ديدام؛ فكادت تترنّح. شدّت يدها على اللجام، وأخفض المهر رأسه ولحق شكيمته على نحوٍ غير مريح. كانت الحرارة لا تُوصف. كان الأمر كما لو أن ألف شمسٍ صحراء تنهال عليها. سألت نفسها من داخل الهدير: أهذا سحر؟ هل هذا هو السحر؟ لقد جئتُ من بلد بارد، حيث تعيش السحرة في غاباتٍ خضراء باردة. ماذا أفعل هنا؟ رأت الغضب الذي كان يكبحه الرجل؛ حدّق الغضب في وجهها من خلال العينين الصفراوين، وانتشر عبر الرداء الأبيض اللامع.

ثم انتهى الأمر. إذ نظر بعيدًا، ونزل الدرجات الأخيرة وتجاوزها وكأنها غير موجودة؛ فانكملت على نفسها حتى تبعد نفسها عنه حتى لا تلمسها أيُّ زاوية من كمّه الأبيض. خرج الرجل الذي يحرس الخيول من الظل راكبًا أحدَ الأحصنة الثلاثة ذات اللون الكستنائي؛ واتجهت الستة الأخرى نحو فُرسانها ومستهم بأنوفها. ووصل الحصان ذو اللون البني المائل إلى لونٍ الدم إلى الملك أولاً، وحيّاه بصهيلٍ خافت. فامتطاه كورلاث بقفزة سهلة لم تستطع هاري حتى أن تتبّعها بعينيها، على الرغم من أنها كان بإمكانها أن ترى الغضب يوجّه طريقة وضع ساقيه على جانبي الفحل الكبير. شعر الحصان بذلك أيضًا؛ ودون أن يتحرك، شدّت كلُّ عضلاته فجأة، وكان سكونه هدوءً ما قبل المعركة. وامتطى الرجال الآخرون خيولهم. لم ينظر إليهم كورلاث مطلقًا، لكن الفحل الأحمر اندفع إلى الأمام بسرعة، وتبعه الرجال الآخرون، والصوت الذي أحدثته حوافر الخيول على الأرض الصلبة نكّر هاري فجأة كيف كان الجميع صامتين بنحوٍ غير طبيعي، منذ كلمات ديدام الأخيرة.

الفصل الثاني

تلاشى الهديرُ غير المسموع مع مَرَأَى الأوشحة الملَوَّنة والجوانب البراقة لخيول سكان التلال. انتبَهَت هاري لنفسها، وللمكان الذي توجد به، وبدا السير تشارلز وجاك والسيد بيترسون بأحجامهم الطبيعية مرةً أخرى، وكانت تُعاني هي من صداعٍ حاد.

الفصل الثالث

حدّق كورلاث في أذني حصانه ذواتي الأطراف السوداء. ومَرَّ وفدُ سكان التلال عبر بوابة القصر ورفع كورلاث بصره ليمسح بعينيّه بغضبٍ شارع القاعدة المترب، والمحلات والمنازل الصغيرة ذات اللون البني المائل للرمادي، والأشجار الصغيرة المتناثرة. ومع تغييرٍ طفيف في وضعية جلوس فارسه، هدأ الحصان الأحمر من خطوته. فتغيّرت قعقة الحوافر القاسية على الطريق الترابي إلى الصوت الأكثر خفوتًا للرمل المضطرب. واستطاع أن يسمع رجاله وهم يقللون من سرعتهم خلفه؛ فهز رأسه في محاولة فاشلة لإفساح مساحة صغيرة للتفكير وسط الغضب، وانحنى إلى الوراء على سرجه، فتباطأت خطوة الحصان. لم يكن هناك أي معنى لاجتياز الصحراء في منتصف النهار؛ فهو أمرٌ صعب على الخيول. اصطفّ الفرسان الستة خلفه، واسترقّ الاثنان اللذان تقدّما للسير إلى جانبه نظرة سريعة إليه عندما اقتربا منه، ثم نظرا بعيدًا مرة أخرى بسرعة.

الأغرب! تغير شكل يديه، اللتين كانتا موضوعتين برفق على فخذه، لتشكّل قبضتين. كان يجب أن يستبعد فكرة محاولة التحدّث معهم. لقد حدّره والده من ذلك، قبل سنوات عديدة. ولكن كان ذلك قبل أن يقترب الشماليون لهذه الدرجة. رمش كورلاث بعينيّه. كان من الصعب احتواء حرارة غضبه عندما لا يوجد ما يُمكنه تفريغها فيه؛ إن الغضب مفيدٌ بنحوٍ رائع في ساحة المعركة، لكنه لم يكن يواجه أي أعداء في الوقت الحالي يمكن أن تضرب في أقدامهم وتصرّعهم في جماعات. كم كان يود، على سبيل المثال، أن يُشعل النار في القصر الغبي الكبير — فهو مبنيّ سخيّف لا يتناسب مع العيش في الصحراء: لا بد أنه من نوع المنازل الذي يعيشون فيه في بلادهم — ويُشاهده وهو ينهار حول أذني المخلوق المترهل الضخم الذي يدعو نفسه المفوّض ... ولكن الغل يصلح فقط للصّبية، وهو ملك منذ ثلاثة عشر عامًا، فكبح غضبه وكتّمه.

لقد تذكر عندما كان صغيراً وقبل النضوج الكامل لقدرة «الكيلار» الخاصة به، تلك القوة الرهيبة المعروفة من قبيل المفارقة باسم «الهبة»، أن والده أخبره أن الوضع سيكون في الغالب على هذا النحو: «نحن لسنا بارعين جداً في الواقع، إلا كآلات قتال، وحتى في هذا المجال فائدتنا محدودة. سوف تلعنّها، كثيراً بالقدر الكافي، أكثر بكثير مما ستسعد بها، ولكن هكذا هو الحال». ثم تنهّد، ونظر بامتعاظ إلى ابنه. وتابع: «يقولون إنه في الأيام الرائعة في الماضي كان الأمر مختلفاً، وإن الرجال كانوا يستطيعون تحمّلها والصبر على تبعاتها، وكانوا يتمتّعون بالذكاء الكافي لفهمها. تقول القصة إن الليدي إيرين هي التي عرّفت هبّتها لأول مرة وطوّعتها ووفّق إرادتها، لكن ذلك كان منذ زمنٍ طويل، ونحن أقلُّ تحملاً لها الآن.»

فقال كورلاث بتردّد: «إنهم يقولون أيضاً إن الهبة كانت يوماً ما تُستخدم لأشياء أخرى، مثل الشفاء والتهدئة والترويض.»

أوماً والده برأسه في حزن. وقال: «أجل، ربما كانت يوماً ما، ولكنها لم تُعد كذلك الآن. لوث يعرف هذا، إذا كان سيُخبرك به؛ لأنه لديه قدرة الكيلار القديمة، وقد نسي حتى من هما والده؛ لكن لوث يظُلُّ كما هو. أما أنا وأنت، فمن دماءٍ أقلَّ نقاءً.

والسُّلالة الأقلُّ نقاءً هي التي أوصلتنا إلى ما نحن عليه، وما بقينا عليه، وما تبقي لنا. تجنّب الأعراب، إذا استطعت. إنهم لا يمكنهم فهمنا، أو لن يفعلوا؛ إنهم لا يستطيعون تمييز الخيول من الثيران، وسيحاولون أن يضعوا عليك القيودَ نفسها التي وضعوها على بقية أرضنا. لكن قوتهم هي قوة العدد والعناد والمُثابرة؛ لا تستخفّ بها.»

كان بإمكانه رؤية والده يقف في أحد الأفنية الداخلية للمدينة في الجبال، ويُحرق في إحدى النوافير، والمياه تتدفق لامتعة فوق الحجارة الملونة في أرض التلال، ويتحدث نصف كلامه إلى نفسه. ثم تلاشت الصورة، واختفت في موجة غضب سريعة أخرى؛ ووجد نفسه ينظر إلى الفتاة مرةً أخرى، الفتاة التي رآها واقفةً أمام قصر الأعراب. ما صلتها بأيّ من هذا؟

عَبَسَ، وعادت أذنا حصانه وغرّته السوداء للظهور أمامه. فنظر إلى أعلى؛ كانت لا تزال رحلةً طويلة إلى مخيمهم. لم يكن يرغب، على نحوٍ ما، في النوم على مقربةٍ كبيرة من الأعراب؛ لم يكن ذلك لأنه يشكُّ في احتمالية تعرّضه لخيانةٍ متعمّدة، ولكن لأن الهواء الذي يعلق فوق أيّ قاعدةٍ خاصة بالأعراب؛ كان يُرسل أحلاماً سيئة إلى سكان التلال.

وَحَزَهُ غَضْبُهُ مَرَّةً أُخْرَى مِثْلَ كَعْبٍ مَزَوٍّ بِمَهْمَازٍ خِيلَ؛ فَجَفَلَ. لَقَدْ كَانَتْ لَهَا حَيَاةٌ خَاصَّةٌ بِهَا، تِلْكَ الْهَبَةُ، اللَّعْنَةُ عَلَيْهَا! مَا الشَّيْءُ الَّذِي لَا يُمْكِنُ تَفْسِيرُهُ الَّذِي كَانَتْ تَرِيدُهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ مِنْهُ؟ لَقَدْ عَرَفَ بِحُلُولِ ذَلِكَ الْوَقْتِ أَنَّ تَصَرُّفَاتِ الْمُلُوكِ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ تَحْمِلُ دِمَاؤَهُمْ كَثِيرًا مِنَ الْكِيلَارِ، كَانَ يُنْظَرُ إِلَيْهَا بِقَلْقٍ أَكْبَرَ مِنْ قَبْلِ الضَّحَايَا أَنْفُسِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ أَصْدِقَائِهِمْ وَرَعَايَاهُمْ. لَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ الْقَلْقَ كَانَ مَفِيدًا بَأْيٍ نَحْوِ. إِذَا كَانَ الْمَرْءُ مَلَكًا، فَلَا يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يُفْسِرَ تَصَرُّفَاتِهِ الْغَامِضَةَ بِالْقَوْلِ إِنَّهُ فَقَطْ لَا يُمْكِنُهُ الْامْتِنَاعُ عَنِ الْقِيَامِ بِهَا.

كَانَ هُنَاكَ نَمَطٌ مَحْدَدٌ لِعُضْبِهِ. مِنْ حِينِ لَأْخَرٍ كَانَ يَفْهَمُهُ. انْتَظِرْ، وَهُوَ يَصْرُ أَسْنَانَهُ؛ فَرَأَى الْفَتَاةَ مَرَّةً أُخْرَى. هَذِهِ الْمَرَّةَ، مَا دَامَتْ هُنَاكَ، كَانَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا.

عِنْدَمَا رَأَاهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، عِنْدَ أَسْفَلِ السُّلَمِ، قَبْلَ بَضْعِ دَقَائِقٍ فَقَطْ، كَانَ عَلَيْهِ النَّظَرُ إِلَيْهَا. فَهُوَ كَانَ يَعْرِفُ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَفْعَلَهُ نَظَرُهُ عِنْدَمَا يَكُونُ غَاضِبًا، وَحَاوَلَ أَنْ يَكُونَ حَذِرًا بِشَأْنِ مَنْ سَتَلْقَى عَلَيْهِ، وَمَدَّةَ ذَلِكَ. لَكِنْ هَذِهِ الْفَتَاةُ، لِسُوءِ حَظِّهَا، كَانَتْ قَدْ جَذَبَتْ انْتِبَاهَهُ بِطَرِيقَةٍ مَا، وَقَدْ نَظَرَ نَحْوَهَا مَدَّةً أَطْوَلَ مِمَّا كَانَ يَرِيدُ.

كَانَتْ طَوِيلَةً، فِي مِثْلِ طُولِ مُعْظَمِ الرِّجَالِ، طَوِيلَةً حَتَّى بِمَعَايِيرِ الْأَغْرَابِ. وَشَعْرُهَا كَانَ أَصْفَرَ، بِلَوْنِ الشَّمْسِ عَلَى الرَّمَالِ، وَبِلَمْعَانِهَا نَفْسَهُ تَقْرِيْبًا. إِنْ شَعْبَهُ، سُكَانُ التَّلَالِ، كَانُوا عَادَةً أَصْغَرَ حَجْمًا مِنَ الْأَغْرَابِ، وَكَانُوا دَاكِنِي الْبَشَرَةِ وَالشَّعْرِ. لَكِنْ لَمْ يَكُنْ حَجْمُهَا وَلَا لَوْنُهَا هُوَ مَا جَعَلَهُ يَظَلُّ يَفْكَرُ فِيهَا مِنْذُ أَوَّلِ نَظَرَةٍ سَرِيعَةٍ وَمَفَاجِئَةٍ وَقَعَتْ عَيْنَاهُ عَلَيْهَا خِلَالَهَا؛ وَلَمْ يَكُنْ جَمَالُهَا. كَانَ هُنَاكَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُوَّةِ فِي ذَلِكَ الْوَجْهِ وَفِي عِظَامِ الْجِسْمِ الطَّوِيلَةِ فِي مُقَابِلِ الْجَمَالِ. رُبَّمَا، هُوَ شَيْءٌ لَهُ صِلَةٌ بِهَدْوِئِهَا؟ أَوْ ثَبَاتُهَا الشَّدِيدِ، شَيْءٌ فِي الطَّرِيقَةِ الَّتِي قَابَلَتْ بِهَا عَيْنَاهَا عَيْنِيهِ؛ إِذْ كَانَتَا تَشْيَانِ بِمَزِيدٍ مِنَ التَّفَكُّيرِ أَكْثَرَ مِنَ النَّظَرَةِ الْمُعْتَادَةِ نِصْفِ الْمُنُومَةِ وَنِصْفِ الْمُرْتَعِبَةِ الَّتِي تَعْلَمُ أَنْ يَتَوَقَّعَهَا إِذَا نَظَرَ إِلَى أَيِّ شَخْصٍ مَدَّةً طَوِيلَةً — حَتَّى عِنْدَمَا تَكُونُ الْكِيلَارِ الْخَاصَّةُ بِهِ هَادِئَةً. إِنَّهُ شَيْءٌ، هَكَذَا اعْتَقَدَ عَلَى نَحْوِ مُفَاجِئٍ، يُشَبِّهُ الثَّبَاتِ الشَّدِيدِ الَّذِي تَعْلَمُهُ هُوَ نَفْسُهُ، وَهُوَ يَعْلَمُ جَيِّدًا مَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ إِذَا قَلَّ. لَكِنْ هَذَا كَانَ هُرَاءً. إِنَّهَا كَانَتْ مِنَ الْأَغْرَابِ. وَبَيْنَمَا لَا تَزَالُ هُنَاكَ رِيَاضَاتٌ وَحْشِيَّةٌ بَيْنَ شَعْبِهِ، حَيْثُ تَتَحَوَّلُ بَضْعُ قَطَرَاتٍ مِنَ الدَّمِ الْمَلَكِيِّ مِنَ الْعَدِيدِ مِنَ الْأَجْيَالِ الْمَاضِيَةِ فَجَاءَتْ إِلَى كِيلَارٍ كَامِلَةٍ فِي عُرُوقِ طِفْلِ يَنْتَمِي إِلَى عَائِلَةٍ عَادِيَةٍ، لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مُطْلَقًا حَتَّى الْآنَ أَيُّ شَخْصٍ مِنَ الْأَغْرَابِ يَحْمِلُ أَيَّ هَبَةٍ لَاحْتَوَائِهَا.

أَخَذَهُ تَسْلُسُلُ التَّفَكُّيرِ هَذَا بَعِيدًا بِالْقَدْرِ الْكَافِي عَنِ مَرْكَزِ الْغَضَبِ، لِدَرَجَةٍ أَنَّهُ بَدَأَ فِي الْهَدْوِ قَلِيلًا؛ فَقَدْ انْفَتَحَتْ قَبْضَتَاهُ، وَالْغُرَّةُ السُّودَاءُ أَخَذَتْ تَنْسَلُّ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ. وَنَظَرَ

إلى الأمام؛ كان يعلم، على الرغم من أنه لم يستطع رؤيته بعد، أن مخيمه كان يقع خلف هذا الجزء مما بدا كأنه صحراء جرداء محايدة ومسطحة، وكان في الواقع مرتفعاً قليلاً عن الأرض على هيئة تل صغير، وهو ما يكفي لعزله عن الرمال والعواصف، ويسمح بالحياة لبئر صغيرة من الماء العذب، مع قليل من العُشب والشجيرات المنخفضة، خلف حاجز واقٍ. بينما كان ينظر عبر صحرائه، بعد أن استعاد هدوءه تقريباً مرةً أخرى، أو على الأقل وجد بدايات الهدوء، أنتجت الكيلار فجأة صورةً لوجه السير تشارلز الأبيض الأحرق وهو يقول بقلق: «سيدي العزيز ... حسناً ... جلالتك»، ويشرح لماذا لم يستطع مساعدته. فُرضت الصورة على عينيه بقوة، فأخذ نفسه بجدّة من بين أسنانه. وبعد أن لفّت انتباهه، أبعدت الكيلار العاقدة العزم صورة السير تشارلز وقدّمت له صورة الفتاة مرةً أخرى.

صاح بينه وبين نفسه في صمت: ماذا عنها؟ لكن لم يكن هناك رد. كان من النادر أن تسهل الهبة الأمر عليه من خلال توضيح ما كانت تريده. في بعض الأحيان لم يعرف ما كانت تريده قط، وكان يُترك ليخوض الأمور مثل أيّ شخص عادي آخر — مع عيبٍ إضافي يتمثّل في وجود رسائل غامضة تدق داخل جمجمته.

تلاشى صبره؛ فأنحنى إلى الأمام فوق السرج، فبدأ الفحل الكبير يعدو. والفرسان الستة، الذين كانوا يعرفون طبع ملكهم، ولم يكونوا سُعداءً للغاية باستقبالهم من جانب الأغراب، أفسحوا له الطريق. فأنحرف بعيداً عن المسار الذي كان سيأخذه مباشرةً إلى المخيم.

ربت الرجل الذي يمتطي الحصانَ البنيّ المائل إلى اللون الذهبي، والذي كان راكباً عن يمين الملك، على حصانه بيدٍ واحدة ليُهدئه. وقال: «كلا، نحن لن نتبعه هذه المرة.»

فنظر إليه الرجل الذي على يساره وأوماً برأسه بسرعة. وقال: «أدعو العادل المجيد أن يكون معه.» فأصدر أصغرُ الفرسان نحيباً مع ضحكة، على الرغم من أنها لم تكن ضحكةً جيدة. «عسى أن يكون العادل المجيد معنا جميعاً. اللعنة على الأغراب!»

عَبَسَ الرجل على الحصان الذهبي وقال: «إيناث، راقب لسانك.»

أجاب إيناث: «أنا أراقبه، يا صديقي. عليك أن تكون مُمتناً لأنك لا تستطيع سماع ما أفكر فيه.»

كان الملك قد اختفى في بريق الحرارة المتصاعد من الرمال، بحلول الوقت الذي اعتلت فيه المجموعة الصغيرة التلّ الصغير، ورأت الخيامَ الباهتة لمخيمهم أمامهم، واكتفت بإخبار أولئك الذين كانوا ينتظرونها بما حدث خلال الاجتماع مع الأغراب.

رمشت هاري بعينيها وأدركت وجود السائس الواقف عند مرفقها. وقالت وهي مشغولة الفكر: «شكراً لك»، وقاد هو المهر بعيداً، ونظر بقلق من فوق كتفه إلى الطريق الذي سلكه رجال الصحراء، ومن الواضح أنه كان هو نفسه ممتناً لمغادرة المكان. ظلّت عينيها بيدها لحظة، الأمر الذي أدّى فقط إلى تخفيف حدة صداعها الفظيع. نظرت إلى أعلى إلى الرجال الموجودين في الشرفة ورأتهم يتحركون على غير هدّى، كما لو كانوا يستيقظون، وهم لا يزالون تحت تأثير الأحلام غير السارة. شعرت مثل شعورهم. وأصدرت كتفها صوتاً عندما أسقطت ذراعها مرة أخرى. على الأقل سيصبح الجوُّ الطّف في الداخل، هكذا ظنّت، فصعدت درجات السُّلم. وتبعته كاسي وبيث، إثر اقتياد مطيّتيهما بعيداً بعد مطية هاري.

مرّت وجبة الغداء على نحو هادئ. كل أولئك الذين لعبوا دوراً في مشهد الصباح كانوا هناك. كما لو أنهم، هكذا قالت هاري لنفسها، نوعاً ما لا يستطيعون الانفصال بعضهم عن بعض حتى الآن؛ ليس لأن لديهم أيّ سبب معين للتشبُّث بصحبة بعضهم بعضاً. كما لو كانوا قد مرّوا للتو ... بشيء ما ... معاً، وهم خائفون من الظلام. بدأ صداعها يهدأ مع كوپ ثان من عصير الليمون، وقالت لنفسها فجأة: أنا لا أتذكر حتى كيف كان يبدو الرجل. لقد حدّقت فيه طوال الوقت، ولا أستطيع أن أتذكر سوى طول قامته، والوشاح القرمزي، وتلك العينين الصفراوين. ذكّرتها العينان الصفراوان بصداعها، وركزت تفكيرها على الطعام الموجود في طبقها، ونظرتها على الشحوب البارد لإبريق عصير الليمون.

كانوا قد انتهوا من الأكل ورفعت المائدة — وما زال الوضع كما هو حيث لم يتخذ أيّ شخص أيّ خطوة للمغادرة — عندما تنحنح جاك ديدام بطريقة عملية وقال: «نحن لم نكن نعرف ماذا نتوقع، ولكن من خلال الطريقة التي نجلس بها ويتجنب بعضنا أعين بعض ...» رفعت هاري عينيها، فابتسم لها جاك مدةً وجيزة «نحن ليس لدينا أيّ فكرة عمّا يجب أن نفعله تجاه ما مرّنا به.»

قال السير تشارلز، دون أن ينظر إلى أعلى، كما لو كان يُفكر بصوت عالٍ: «ما الشيء الذي قلّته له، يا جاك، قبل أن يرحل مباشرة؟»

كانت هاري لا تزال تُركز بصرها على ديدام، وبينما كان صوته وهو يُجيب يحمل النبرة المناسبة بالضبط، لم تكن تعبيرات وجهه مطابقة لها: «إنها إحدى العبارات المعتادة القديمة التي هي من قبيل: لنكن أصدقاء ولا نفترق، ونحن نشعر بالغضب بعضنا تجاه بعض حتى لو كنا نميل إلى فعل ذلك. إنها تعود إلى أيام الحرب الأهلية، على ما أظن؛ قبل وصولنا، على أيّ حال.»

قال السير تشارلز: «إنها في اللغة القديمة. لم أكن أدرك أنك تعرفها.»
مرة أخرى، اقترحت عينا ديدام شيئاً آخر غير ما قاله: «أنا لا أعرفها. كما قلت، إنها عبارة مشهورة. توجد كثير من التحيات الرسمية في اللغة القديمة، على الرغم من أنه لم يعد أحد تقريباً يعرف ما تعنيه.»

قال بيترسون: «أحسنت، يا جاك. لم يكن عقلي يعمل على الإطلاق بعد الصباح الذي قضيناه. ربما أبعدته فقط عن تجاهلنا تمامًا.» رأت هاري، وهي تُراقب ما يجري، في وجه بيترسون الشيء نفسه الذي تساءلت عنه في وجه ديدام.

هزَّ السير تشارلز كتفيه وانتهى التوتُّر. إذ قال: «أتمنى ذلك. سوف أتمسَّك بأي قشة.» وصمَّت. ثم أضاف: «لم تَسِر الأمور على ما يُرام على الإطلاق.»

إنَّ هزَّ الرأس البطيء من قِبل ديدام وبيترسون على هذا التعليق أوضح على نحوٍ تعجز الكلمات عن وصفه؛ كيف أن تلك العبارة هي أقلُّ ما يُقال عن ذلك الموقف.

تابع السير تشارلز: «إنه لن يعود.»

ساد صمْتُ كئيب يدل على الاتفاق، ثم أضاف بيترسون: «لكنني لا أعتقد أيضاً أنه سوف يركض إلى الشماليين لإقامة تحالفٍ معهم.»

نظر السير تشارلز إلى أعلى أخيراً. وقال: «هل تعتقد أنه لن يفعل؟»

هزَّ بيترسون رأسه؛ وكانت هزة سريعة حاسمة. وقال: «أجل. إذ لم يكن ليُنصتَ إلى جاك في النهاية، إذا كان قد انتوى التحالف مع أعدائنا.»

قال جاك، مع ما وجدته هاري من نفاذٍ صبرٍ مسيطر عليه: «إن سكَّان التلال لن يتحالفوا أبداً مع الشماليين. إنهم يعتبرونهم أعداء بالدم، والتاريخ ... بكل ما يؤمنون به. وسيكون تحالفهم مع الشمال بمنزلة إعلانٍ عن فقدانهم لهويتهم كسكانٍ لأرض التلال.»

مرَّ السير تشارلز يده عبر شعره الأبيض، وتنهَّد، وقال: «أنت تعرف هؤلاء الناس أفضل مني، وسأثق في كلامك عنهم، لأنني لا أستطيع فعل أي شيء آخر.» ثم صمَّت. وتابع: «سيتعيَّن عليَّ كتابة تقرير عن هذا الاجتماع، بالطبع؛ وأنا لا أعرف على الإطلاق ما سأقوله.»

كانت بيت وكاسي وهاري لا يسعين لطرح أي أسئلة قد تَلَفَّت الانتباه إلى وجودهم واهتمامهم بسماع ما يُقال وتؤدي إلى تأجيل المحادثة حتى يجتمع الرجال في مكانٍ رسمي يتَّسم بالخصوصية؛ حيث يمكن تناولُ الموضوع المهم على نحوٍ أكثر سرية. لذلك شَعَرْنَ بالفرح والقلق في آنٍ واحد عندما سألت الليدي أميليا: «لكن، يا تشارلز، ماذا حدث؟»

بدا أن السير تشارلز قد ركز نظره ببعض الصعوبة على وجه زوجته المتخوف، ثم تحركت عيناه عبر المائدة فعرفت الفتيات أنهنَّ قد لوحظن مرةً أخرى. فحبسن أنفاسهن. قال السير تشارلز: «أومم» وساد صمتٌ بينما تحوّل طرفاً أدنّي بيث إلى اللون الوردي بسبب كتمها لأنفاسها.

فقال ديدام أخيراً: «لا ضير في إخبارك سوى أنه يجرح كبرياءنا. لقد كان هنا منذ أقلَّ من ساعتين؛ حيث جاء إلى هنا من حيث لا ندري، على حدِّ علمنا؛ لقد ظننّا أننا كنا نراقب الطريق جيداً حتى نكون على علم قبل وصوله.»

تركزت عيونُ الفتيات على وجه ديدام، أو ربما تبادلنَ النظرات.

«وتقدم إلى الباب الأمامي كما لو كان يسير في فناء منزله؛ لحسن الحظ، رأيناها عندما دخلوا البوابات الأمامية هنا وتجمّعنا بنحوٍ أو بآخر للترحيب به؛ وأحسن زوجك، تشارلز، صنعاً بفتح الباب قبل أن نكتشفَ إذا ما كان سيمرُّ عبره أم لا.

أظنُّ أن المشكلة الأولى كانت أننا لم نكن يفهم بعضنا لغةً بعض على نحوٍ جيد. إذ إن كورلاث لم يتحدث بلغة هوملاند على الإطلاق — رغم أنني، بصراحة، لا أضمن أن هذا يعني أنه لا يستطيع تحدُّثها.»

نخر بيترسون.

«لقد لاحظت الأمر أنت أيضاً، أليس كذلك؟ فقد تولّى أحدُ الرجال الذين كانوا معه مهمة الترجمة، ولم يؤدّها على النحو المطلوب، وقد حاولتُ أنا وبيترسون التحدث بلغة داريا ...»

قاطعته بيترسون قائلاً: «لقد تحدثنا بلغة داريا بالفعل. أنا أعرف لغة داريا تقريباً مثلما أعرف لغة هوملاند — مثلما تفعل أنت، يا جاك، أنت أكثرُ تواضعاً في هذا الموضوع — وقد تمكنتُ من أن أكون مفهوماً للداريّين من كل سكان الأركان الغربية لهذه المنطقة الضخمة — بما في ذلك قليل من سكان التلال الأحرار.»

قالت هاري في نفسها: وملك سكان التلال تسمّر في مكانه، غاضباً مثلما كان، عندما خاطبه ديدام باللغة القديمة؟

وتابع ديدام قائلاً: «في جميع الأحوال، لم نبدُ قادرين على جعل أنفسنا مفهومين بسهولة بالنسبة إلى كورلاث.»

قاطعته بيترسون قائلاً: «ولم يُترجم مترجمه بطريقة سريعة مثلما كان ينبغي أن يفعل، حسبما أظن.»

ابتسم ديدام قليلاً. وقال: «أوه، إن كبرياءك يمنحك من الحكم الصائب. احكم على نحوٍ عادل.»

ردّ له بيترسون ابتسامته، لكنه قال بعناد: «أنا متأكد من ذلك.»
قال ديدام: «قد تكون مُحَقًّا.» ثم سكت. وأضاف بعد ذلك: «لن يُفاجئني ذلك؛ لقد منحهم هذا الوقت لتفحصنا قليلاً دون أن يبدو عليهم ذلك.»
قاطعته السير تشارلز قائلاً: «قليلاً! يا رجل، لقد بقوا هنا أقلّ من ساعتين! كيف يمكنهم — يمكنه — استنتاج أي شيء عنا في وقتٍ قصير جداً هكذا؟ إنه لم يمنحنا أيّ فرصة.»

عاد التوتر. فقال ديدام بحذر: «أظنه اعتقد أنه كان يمنحنا فرصة.»
قال السير تشارلز بحزن: «أنا لا أكون سعيداً عند التعامل مع شخصٍ متسرع للغاية مثله»، وقد ناقض وجهه المتعب والقلق السخافة الفظة لكلماته. لمست زوجته يده حيث كانت تجلس عن يمينه، فالتفت إليها وابتسم. ثم نظر حول المائدة. فتجنّب كلُّ من بيترسون وديدام نظرتهم. وقال، باستخفاف، وعلى نحوٍ شبه مرح: «الأمر بسيط للغاية. إنه يريد أسلحة، ورجلاً، وسرايا، ووحدات؛ للمساعدة في إغلاق الممرّات الجبلية. فهو، كما سيبدو، لا يُحب فكرة تدفّق الشماليين عبر بلاده.»

قال ديدام بحذر: «هذا أمرٌ منطقي.» ثم أضاف ببطء: «سيتحول بلدُه إلى ساحة معركة، بين الشماليين و... وبيننا. إذ ليس هناك ما يكفي من سكان التلال للاشتباك مع الشماليين أيّ مدةٍ من الوقت. وستُجتاح بلاده، وربما تُدمّر، في هذه العملية. أو على الأقل ستُصبح تابعةً للمنتصر.»

قال السير تشارلز، وقد عاد إلى التفكير بصوتٍ عالٍ: «لا يمكننا بكل بساطة أن نفعل ما طلبه. لسنا متأكدين حتى ممّا ينتويه أهلُ الشمال تجاهنا في الوقت الحاضر.»
قال بيترسون بعد برهة: «في ضوء موقف سكان التلال تجاه أهل الشمال، أعتقد على نحوٍ مؤكّد أن شبكة جواسيس كورلاث جيدة.»

قال السير تشارلز: «لقد عرضنا عليه التعاون.»
ردّ بيترسون بطريقته الفظة: «الاستسلام، تقصد.» وأضاف: «استسلامه هو.» فعبّس السير تشارلز. «إذا وافق على وضع نفسه وشعبه تحت سيطرتنا بالكامل ...»

قال ديدام: «دع من هذا، يا بوب.»
قال بيترسون: «هذه هي حقيقة الأمر. يجب أن يتخلّى عن حرية بلاده؛ التي تمسّكوا بها، رغم وجودنا، كل هذه السنوات ...»

قال السير تشارلز بصرامة: «ليس من غير المعتاد أن تضع دولةً صغيرة نفسها تحت حماية دولة أكبر، عندما يتطلب الوضع ذلك.»

قبل أن تُتاح الفرصة لبيترسون للرد، تدخل ديدام في الحديث بسرعة قائلاً: «بيت القصيد أنه متكبر جداً لدرجة أنه لا يريد سماع شروطنا، ونحن ... حسناً ... نحن لا يمكننا المخاطرة بإعطائه — بإقراضه — قواتٍ بشروطه.»

قال السير تشارلز بأحسن نبرة صوت له بوصفه مفوضاً: «ستصبح الملكة والمجلس مستاءين منا للغاية إذا عجلنا بحربٍ غير ضرورية»، فنخر بيترسون. وتابع السير تشارلز بحزن: «نحن لا نعرف شيئاً عن الرجل.»

تمتم بيترسون: «نعلم أنه يريد إبقاء الشماليين خارج داريا»، لكن ديدام تحرك في كرسيه على نحو ترجمته هاري بصورةٍ صحيحة على أنه لتوجيه ركلةٍ سريعةٍ لكاحل بيترسون؛ فتراجع بيترسون.

أنهى ديدام الكلام قائلاً: «وما كان سيبقى للتفاوض. وها نحن ذا، نشعر كما لو أننا تعرّضنا جميعاً للضرب على الرأس.»

تحرك كورلاث نهاباً وإياباً بطول خيمته، بينما كان يتجمّع فرسانه. وتوقف عند أحد أطراف الخيمة وهدق في قماشها الذي هو من شعر الخيل المنسوج على نحو وثيق. تحرك هذا الطرف لأن رياح الصحراء لم تسكن قط. كان هناك قليل جداً ممن تبقى من سكان التلال؛ على الرغم من القبائل المتوارية الصغيرة التي خرجت من مقرّاتها المنعزلة كي تُعلن ولاءها لراية دامار ذات اللونين الأبيض والأسود بعد أجيالٍ من العزلة. لقد عمل كورلاث بكدٍّ لإعادة توحيد من تبقى من الأحرار — ولكن من أجل ماذا، عندما يُفكر المرء في الآلاف من جنود الشمال، وفي النهاية الآلاف من جنود الأغراب الذين سيلتقون بهم؟ — لأن الأغراب كانوا سيعلمون قريباً عن خطط أهل الشمال لغزو الجنوب. وفي صراعهم كانوا سيُمزقون بلاده إرباً. إن شعبه كان سيُقاتل؛ لأنه يعلم بفخر حزين أنهم سيصمدون حتى مقتل آخر شخص فيهم، إذا استدعى الأمر ذلك. في أحسن الأحوال سيُصبحون قادرين على الاستمرار في العيش في أرض التلال: في جيوبٍ سريةٍ صغيرة من أرضهم، حيث سيختبئون في الكهوف ويجمعون الطعام في الظلام، وينسلون مثل القُرآن في الظلال، ويتجنّبون أولئك الذين يحتلون أرضهم، ويدعون ملكيّتهم لها ويحكمونها. إن دامار القديمة، قبل الحروب الأهلية، قبل مجيء جيش الأغراب، كانت بمنزلة أسطورةٍ حزينة لشعبه الآن؛ ستبهت الصورة أكثر عندما لا توجد سوى حفنةٍ قليلة من الأحرار الذين يعيشون مثل المتسولين أو اللصوص في تلالهم.

لكنه لم يستطع أن يُلقِي بهم ... تحت رحمة العطف العملي إلى الأغراب، هكذا أطلق على الأمر بعد صراعٍ لحظي مع نفسه. كان هذا يعني أن يترك جيشه ليقوده جنرالاتُ الأغراب ... ارتفعت زوايا فيه في امتعاض. كان هناك بعضُ الفكاهة المريرة في فكرة أن الأغراب البراجماتيين قد يستجيبون لأوامرٍ تُملِيها عليهم قدرةُ الكيلار لدى كلٍّ من حلفائهم وخصومهم في الوقت نفسه. فتنهّد. فحتى لو أن الأغراب قد وافقوا بمعجزة على مساعدته، فإنهم كانوا سيرفضون قبول حماية الكيلار الضرورية — فهم لا يؤمنون بوجود الكيلار. إنه لأمرٌ مؤسفٌ عدمُ وجود طريقةٍ غيرِ قاتلةٍ لإثباتِ خلاف ذلك لهم.

لقد فكّر في الرجل الذي تحدثَ إليه في آخرِ المقابلة، الرجل ذي الشعر الرمادي. لقد كان بداخله تقريباً بعضُ الإيمان به؛ الإيمان بتقاليد أرض التلال، والذي استشفه كورلاث من تعابير وجهه؛ ربما كانا قادرين على التحدث معاً. كان ذلك الرجل يتكلم بلغته بنحو مفهوم على الأقل — على الرغم من أنه ربما لم يكن يعرف تماماً ما كان يعرضه في كلماته القليلة باللغة القديمة. مسكينٌ فورلوي؛ إنه الشخص الوحيد من بين فرسانه الذي يعرف كثيراً من لغة الأغراب مثل كورلاث. وبصفته مبعوثاً غيرٍ مرحّب به في دولةٍ أقوى بكثير من دولته؛ فقد شعر بالحاجة حتى إلى الدقائق القليلة التي قد تُتاح له كمُترجم، لمشاهدة وجوه أولئك الذين كان يرغب في إقناعهم.

لماذا لم تكن هناك طريقةٌ أخرى؟

اتخذ القماشُ الثقيلُ أمامه مسحةً من لون الذهب لحظةً؛ كان الذهب إطاراً لما قد يكون وجهًا، ونظرتُ إليه عيناان شاحبتان ... إنها لا علاقة لها بهذا الأمر.

استدار فجأةً ووجد كلَّ فرسانه جالسين، يراقبونه، منتظرين.

«أنتم تعرفون بالفعل ... أنه ليست هناك فائدة.» فأخنوا رءوسهم مرةً واحدة لإبداء موافقتهم على ما يقول، لكن لم ترسم تعبيراتُ المفاجأة على وجوههم. «لم يكن هناك احتمالٌ كبيرٌ قط ...» ثم توقف على نحوٍ مفاجئٍ عندما أخفض واحدٌ من جمهوره رأسه كثيراً على نحوٍ يتعارض مع ما تتطلبه جديةُ المناسبة، وأضاف: «حسنًا، يا فاران، لم يكن هناك أيُّ احتمال.» نظر فاران لأعلى، ورأى بدايةً ابتسامةٍ على وجه ملكه؛ أقرب شيءٍ لابتسامةٍ رآها أيُّ شخصٍ على وجه الملك منذ أيام. كرر كورلاث: «لم يوجد أيُّ احتمال. لكنني شعرت، حسنًا، أنني مضطّرٌّ إلى المحاولة.» نظر لأعلى إلى السقف مدةً دقيقة.

وقال: «على الأقل لقد انتهى كلُّ شيء الآن.» الآن وقد قُضي على أيِّ فرصة للحصول على مساعدةٍ خارجية، فقد حان الوقت للُّجوء إلى أفضل السبل لحماية جبالهم بمفردهم. حاول جيش الشمال اجتياح الجبال من قبل؛ لأنهم كانوا دائماً جشعين ومولعين بالحرب؛ لكن بينما كان المكرُّ من صفاتهم، فقد اتَّسموا بالغدر، ولم يثقوا بأحدٍ لأنهم كانوا يعلمون أنهم أنفسهم لا ينبغي الوثوقُّ بهم. حتى سنوات عديدة كان هذا بمنزلةِ حماية لسكان التلال؛ لأن أهل الشمال لم يتمكَّنوا من الاتحاد معاً مدةً طويلةً بالقدر الكافي، أو بأعدادٍ كبيرة بما يكفي ليُشكلوا تهديداً كبيراً لجيرانهم. ولكن في ربع القرن الماضي، ظهر رجلٌ قوي من صفوف الجنرالات الضعاف: رجل قوي بداخله قليل من الدم غير البشري، مما أكسبه قسوةً تتجاوز حتى نزعة الشرِّ الشمالي المعروفة؛ وأياً ما كان المصدر الذي استمدَّ منه قوته، فهو أيضاً ساحرٌ بارع، يتمتع بالقدرات الكافية لتوحيد كلِّ الجماعات التي تجوب أرض الشمال، البشرية وغير البشرية منها على حدِّ سواء، تحت إمرته. وكان اسمه ثورا.

كان يعرف كورلاث، على نحوٍ غير متعاطف، أن إمبراطورية ثورا لن تدوم؛ سيفشل ابنه، أو ابنُ ابنه على الأكثر، وسيتفرَّق أهل الشمال ويعودون إلى صراعاتهم الطاحنة الأقلَّ نطاقاً والأكثر إثارةً للاشمئزاز. لقد راقب والدُ كورلاث، ومن بعده كورلاث، ظهورَ ثورا من خلال جواسيسهما، وعرف كورلاث أو استطاع أن يُخمن شيئاً عن تكلفة السلطة التي اختار أن يُمارسها؛ ولذا عرف أن ثورا لن يعيش أطول بكثيرٍ من أي رجل عادي. ونظراً إلى أنَّ ملوك أرض التلال كانوا يعيشون أعماراً طويلة؛ فقد يتمكَّن كورلاث، حتى لو انتصر جيش الشمال في الحرب القادمة، من قيادة شعبه في تمردٍ ناجح؛ ولكن بحلول ذلك الوقت، قد لا يُصبح هناك ما يكفي من البلاد للقيام بتمرد، أو للعيش بعد انتهاء التمرد. فمنذ ما لا يزيد كثيراً عن خمسمائة عام — في زمن إيرين — كانت الصحراء التي نصَّب عليها خيمته عبارةً عن مَرَجٍ وغابة. وكانت آخرُ أرضٍ مستويةٍ صالحة للزراعة تركها شعبه لهم هو السهل الذي يوجد قبل الفجوة الكبيرة في الجبال، التي كان سيأتي عبرها جيش الشمال. قد يرفض السير تشارلز المساعدة الآن، بينما لم يُهاجم جيش الشمال بعدُ أيَّ أراضٍ يسيطر عليها الأعراب. ولكن بمجرد مرورهم عبر أرض التلال سيحاولون بالتأكيد الاستيلاء على كل ما يمكنهم. وقد تقع قارة داريا بأكملها في الأيدي الطماعَة المجنونة لثورا وعصابته، التي يتَّسم كثيرٌ منهم بأنهم أقلُّ إنسانيةً منه، وعندئذٍ سيعرف الأعراب أكثرُ مما يرغبون عن السحر.

وماذا لو انتصر جيشُ الأعراب؟ لم يكن كورلاث يعرف عدد القوات التي سيكون على قادة الأعراب الدفعُ بها في المعركة، بمجرد اندلاع المعركة؛ إنهم سوف يعلمون، على نحوٍ مروّع، عن قدرة الكيلار على يد ثورا. ولكن حتى قدرة الكيلار محدودةٌ في نهاية الأمر، والأعراب يتَّسمون بالعناد، وهم في عنادهم يتَّسمون بالشجاعة؛ هم في بعض الأحيان يتَّسمون بالغباء، وفي أحيانٍ أكثر بعدم الفاعلية، وهم لا يُصدقون شيئاً لا يمكنهم رؤيته بأعينهم. لكنهم كانوا يبذلون قُصارى جهدهم بالفعل، وفقاً لمعاييرهم، وكانوا في كثيرٍ من الأحيان لطفاء. وإذا انتصر جيش الأعراب، فسيرسلون الأطباء والمزارعين والبذور والمحارث والبنائين، وفي غضونِ جيلٍ واحد سيصبح شعبه منعمر الهوية مثل بقية أهل داريا التابعين لأرض الأعراب. كما كان يتسم قادةُ الأعراب بأنهم بارعون للغاية في الإدارة، من خلال المثابرة الشديدة. فهم يتمسَّكون جيداً بما يقع في أيديهم. فلن يحدث تمردٌ على الإطلاق يمكن أن يراه كورلاث أثناء حياته.

لم يكن من الجيد أن يأمل في انتصار جيش الشمال.

إن فرسانه كانوا يعلمون معظم هذا، حتى لو لم يروه بالوضوح الشديد الذي اضطرَّ كورلاث إلى أن يراه به؛ ومثل ذلك خلفيةٌ مناسبة للأوامر التي كان سيصدرها كورلاث الآن. لم يكن فرسان الملك يميلون إلى الجدل مع ملكهم؛ لكن كورلاث كان رجلاً لا يُفضل التعامل الرسمي، إلا في بعض الأحيان عندما يصبح تحت تأثير هبته ولا يستطيع الاستماع جيداً إلى أي شيء آخر، وعادةً ما يشجع على التشاور. ولكن عصر ذلك اليوم، كان الفرسان يلتزمون الصمت، وعندما وصل كورلاث إلى نهاية ما توجب عليه قوله، توقَّف ببساطة عن الكلام.

لم يكن تفاجؤ كورلاث أقلَّ من تفاجؤ رجاله عندما سمع نفسه يقول: «هناك أمر أخير. سأعود إلى بلدة الأعراب. الفتاة ... الفتاة ذات الشعر الأصفر. ستأتي معنا.»

الفصل الرابع

حدّقت خارج نافذة غرفة نومها نحو الصحراء التي يُضيئها ضوء القمر. لقد تحركت الظلال عبر الرمال الباهتة، من وهدة مظلمة إلى المجموعة التالية من الشجيرات الجافة. كادت أن تدّعي بأن للظلال اتجاهًا وقصدًا. وهي لعبة كثيرًا ما تلعبها. كان يجب أن تكون نائمة في السرير بحلول ذلك الوقت؛ لقد سمعت الساعة وهي تدقّ معلنة الثانية بعد منتصف الليل. كان موقع وصوت الساعة الكبيرة الموضوعة في القاعة الأمامية يسمحان بسماع دقاتها في جميع أنحاء القصر الضخم الذي تتردّد نغماتها عبره — ربما حتى في حجرات الخدم، على الرغم من أنها لم تتّحّ قط لها الفرصة لمعرفة ذلك، ولم تجربوا مطلقًا على السؤال عنه. كثيرًا ما تساءلت عما إذا كان مقصودًا أم مصادفة — وبغضّ النظر عن السبب، لماذا لم يجرّ تغييره؟ — أن يُحدد موقع الساعة بحيث يفرض معرفة مرور الوقت على كل فردٍ في القصر، كلّ ساعة من كل يوم. فمن سيريد معرفة الوقت عندما لا يستطيع النوم؟ كانت تُعاني من الأرق بشدة عندما وصلت لتوها من موطنها. لم يخطر ببالها قط أنها لن تُصبح قادرةً على النوم بدون سماع صوت الرياح عبر أشجار البلوط خارج غرفة نومها في موطنها؛ لقد نامت جيدًا على متن السفينة، عندما كان من المفترض أن تكون المخاوف بشأن مستقبلها أكبر. لكن صوت هواء الصحراء المتواصل أبقاها مستيقظةً ليلة بعد ليلة. كان به شيءٌ ما يشبه للغاية الكلام، ولم يُشبهه مطلقًا التمتمة المريحة لأوراق البلوط.

لكن معظم ذلك كان قد تلاشى في الأسابيع القليلة الأولى لها هنا. مرّت عليها ليالٍ سيئةٌ بين الحين والآخر منذ ذلك الوقت. قالت في نفسها: سيئة؟ لماذا سيئة؟ نادرًا ما أشعر بأنها كذلك في اليوم التالي، إلا بسبب نوع من الانزعاج الأخلاقي الذي يبدو أنه ينبع من الشعور بأنه كان عليّ أن أمضي كلّ تلك الساعات الصامتة وأنا نائمة.

لكن الأسبوع الماضي كان سيئاً للغاية — حيث سادته الأرق للغاية — على نحوٍ لم تعهده من قبل. إذ أمضت آخرَ ليلتين مُتكوِّمةً في مقعدٍ نافذة غرفة نومها؛ لقد وصلت إلى المرحلة التي لم تستطع عندها حتى تحمّل النظر إلى سريرها. أمس، عندما جاءت آني لإيقاظها، وجدتُها ما زالت بالقرب من النافذة، حيث غفّت قرب الفجر؛ ونظراً إلى أنها كانت خادمة هادئة راشدة، فقد أفسّحت الأمر. من الواضح أنها ذكرت الأمر لليدي أميليا، التي، على الرغم من كل الاستنفار والمناوشات التي حدثت في الأسبوع الماضي، قد وجدت وقتاً للتوقّف عند غرفة هاري وقت النوم تماماً، والثرثرة معها، وحثّها على شرب بعض الحليب الدافئ اللطيف (حليب! هكذا قالت هاري في نفسها باشمئزاز؛ إذ إنها قد توقّفت عن شربه إلى الأبد في سنّ الثانية عشرة، مع أول كوب شاي تتناوله كفتاةٍ ناضجة)، وجعلها تتعهد بمحاولة النوم — كما لو كان لهذا أيُّ علاقة به — وسؤالها عمّا إذا كانت متأكّدةً من أنها على ما يُرام. فأجابت هاري: «أنا بخير، يا سيدتي.»

نظرت إليها الليدي أميليا بقلق. وقالت: «أنتِ لا تقلقين نفسك بخصوص، أومم، ما حدث الأسبوع الماضي، أليس كذلك؟»

هزّت هاري رأسها وابتسمت قليلاً. وقالت: «كلا، حقاً، أنا بصحةٍ ممتازة.» فكرت في نهاية محادثةٍ سمعتها، منذ يومين، عندما غادر ديدام وبيترسون غرفة مكتب السير تشارلز دون أن يلاحظا وجودها في الرواق خلفهم. إذ كان بيترسون يقول: «... لا يعجبني الأمر مطلقاً.»

مرّر ديدام يده فوق قمة رأسه شبه الحليق، وقال على نحوٍ شبه ساخر: «أتعلم، على الرغم من ذلك، إذا جاء أحد سكان التلال هؤلاء، في غضون شهر أو عام من الآن، على صهوة حصان مُجهّد من الركض وصرخ قائلاً: «الممر! لقد اجتاحتونا!» فسأغلق الحصن وأذهب لنحريّ الأمر مع أكبر عددٍ ممكن من الرجال، وأقلق بشأن الإبلاغ عنه لاحقاً.» ثم أغلق الباب الأماميّ خلفهما، وواصلت هاري سيرها وهي تفكر طريقها.

قالت الليدي أميليا: «أتمنى ألا تكوني مريضةً لأي سبب، يا بُنيّتي؛ تبدو عيناك لامعتين للغاية.» وصمتت ثم قالت بنبرة صوتٍ كانت توحى بأنها غير متأكّدة من أن هذا القدر من الطمأنة يعتبر أمراً حكيمًا؛ لأنه ربما يؤدي إلى تفاقم حالةٍ عصبية بدلاً من تهدئتها: «يجب أن تفهمي، يا عزيزتي، أنه إذا كان هناك أيُّ خطر حقيقي، فسيُبعدونا أنا وأنت في الوقت المناسب.»

نظرت إليها هاري، في دهشة. أخطأت الليدي أميليا قراءة نظرتها، وربتت على يدها. قائلة: «لا يجب أن تضايقي نفسك. إن السير تشارلز والكولونيل ديدام سيهتمان بأمرنا.» أمس تمكنت هاري من محاصرة جاك عندما عاد ليعقد مع السير تشارلز اجتماعاً مغلقاً ساعاتٍ طويلةً غامضة. فقد كمنّت هاري في غرفة الطعام حتى خرج جاك، وكان يبدو عليه التعب. فابتهج عندما رآها، وحيّاه قائلاً: «صباح الخير يا عزيزتي. إنني أرى بريقاً في عينيك، أيّ جزء من شئون دامار الغامضة ترغبين في انتزاعه مني اليوم؟» ردت هاري على الفور: «ما الذي قلته بالضبط لكورلاث في ذلك الصباح، قبل أن يُغادر؟»

ضحك جاك. وقال: «أنتِ مندفعة للغاية، أليس كذلك؟» ثم استعاد رصانته، ونظر إليها في حيرة. وتابع: «لا أعلم إن كان ينبغي عليّ أن أخبرك ...»
«لكن ...»

«لكنني سأفعل. في أيام حروب دامار الأهلية، كان الرجل يتعهد بالولاء، لملكه، أو للمُطالب بالزعامة الذي يرغب في دعمه. لقد كان زمناً خطيراً وغير مستقرٍّ على وجه التحديد؛ ومن ثم فإن التعهد بالولاء لزعيم المرء كان يعني الكثير جداً — أكثر، على سبيل المثال، من أداء ضباط مَلِكتنا اليمين لها، كما يجب أن نفعل جميعاً. لا تزال العبارة لها أهمية كبيرة في تقاليد سكان التلال ... لكن التعهد بالولاء لكورلاث هو أمر، أوممم، غير احترافي بعض الشيء من جانبي، بصفتي مواطناً من هوملاند يحمي حدود هوملاند من كورلاث. وهو مخاطرة محسوبة من جانبي. ...» ثم هز كتفيه. وتابع: «كنت أمل أن أشير إلى أنه ليس كلُّ أهل هوملاند ... غير متعاطفين مع سكان التلال الأحرار، أيّ ما كان الموقف الرسمي.»

رقدت هاري في سريرها البغيض بعد أن تركتها الليدي أميليا، وغلبها النعاس، بطريقةٍ أو بأخرى، حتى منتصف الليل؛ ولكن بعد ذلك أيقظها الظلام والسكون، وعادت مرةً أخرى إلى مقعدها بجانب النافذة لتراقب الليل وهو يمر.

أصبحت الساعة الثانية والنصف. كم كانت السماء سوداءً حول النجوم! قُرب الأفق كانت هناك ومضاتٌ خاطفة طويلة في الظلام، غير مناسبة للنجوم، وكانت تلك هي الجبال، وكان لون الصحراء بدرجات الرمادي.

دون أن تدرك ذلك، انجرفت إلى النوم.

هناك كان يقف القصر، جامداً وأسود اللون في ضوء القمر. كان سيبقى فاران وإيناث هنا مع الخيول؛ لم يكن آمناً أخذها إلى مسافة أقرب من هذا. كان سيقطع هو بقية الطريق

سيراً على الأقدام. آمناً! ابتسم ابتسامة عريضة بمرارة خلف غطاء الرأس الرمادي الذي سحبته على وجهه، وانسلَّ وسط الظلال. كان عليهم خوض المغامرة، أيّاً ما كانت العواقب. قال فاران متوسلاً وهو يكاد يبكي: «سولا، لا داعي لفعل هذا من أجل فتاة من الأغراب»، فاحمرَّ وجهه كورلاث تحت بشرته المسمرّة بسبب الشمس. كانت هناك أحداثٌ رومانسية في الماضي تضمّنَت الركض عبر الصحراء ليلاً، لكنه لم يخطف قط أيّ امرأة لم يتأكّد من موافقتها على مثل هذه الخطة مسبقاً. كان والد كورلاث عاشقاً سيئ السمعة للنساء، ولا يزال الإخوة غير الأشقاء والأخوات غير الشقيقات للملك الحاليّ يظهر من حين لآخر، ولم يعلم أحدٌ بوجودهم؛ الأمر الذي أبقى الموضوع في أذهان الجميع. اعتقد كورلاث في بعض الأحيان أن سياسته الخاصة في التصرف في مثل هذه الأمور جعلت شعبه يشعر بالتوتر؛ فقط لأنه لم يعرف ما كان يحدث — أو إن كان هناك أيّ شيء يحدث من الأساس. حتى بعض الوقت الآن، لم يكن هناك شيء يحدث، ولكن بحق الآلهة، هل كان فرسانه يتوقعون حقاً أن يندفع ويجعل من نفسه أحمق من أجل فتاة من الأغراب — والآن من بين جميع الأوقات؟

ولكن، من ناحية أخرى، لم يستطع هو شرح أسبابه جيداً — حتى لنفسه — على الرغم من أن إصراره على الأمر كان راسخاً، مثلما أدرك على نحو حزين في اللحظة التي خرّجت فيها الكلمات من فمه. لكنه كان يكره أن يرى شعبه غير سعيد — لأنه كان ملكاً صالحاً، وليس لأنه ملك متوتر — وهكذا، في حين أنه كان من حقه أن يأمر بفعل ذلك دون مناقشة، فقد أعطى أكبر قدر ممكن من الإجابة.

حيث قال ببطء: «هذا شأن من شئون الدولة»؛ لأنه لم يستطع حمل نفسه على القول إن الكيلار الخاصة به كانت تهتمُّ بفتاة من هوملاند، حتى إلى فرسانه، الذين كانوا أعزّ أصدقائه بالإضافة إلى رعاياه الأكثر ثقةً. وأضاف: «ستصبح الفتاة أسيرة مكرّمة، وستعامل بكل تكريم، من قبلي وقبلكم.»

لم يفهم أحد الأمر، لكنهم هدّأوا بعض الشيء؛ ومن ثمّ تجنّبوا التفكير في القانون غير المكتوب لبلدهم الذي ينصّ على أن خطف امرأة يُعد سلباً لشرفها؛ سواء أكانت قد سُلبت بالفعل أيّ شيء آخر يتجاوز بضع ساعات غير مريحة فوق مقدمة حصان شخص ما، أم لا. كان الأمر على نحو عام يُعد شرفاً للرجل أو المرأة من سكان التلال؛ أن يُغويه أحد أفراد العائلة المالكة — وهذا هو السبب في استمرار ظهور الكيلار، التي هي في الأصل هبة ملكية، في أماكن غريبة — وإن كان شرفاً غير مريح إلى حد ما، فمن يمكن أن يصبح مرتاحاً تماماً

مع عاشقٍ لا يجب أن تلتقيَ عيناه بعيني المرء أبداً؟ وأهل هوملاند كانوا مختلفين، كما يعلم الجميع، فمن يعرف كيف يمكن أن يُصبح ردُّ فعلهم؟

قال فاران بصوتٍ متهدِّج: «سولا»، فسكت كورلاث واستدار قليلاً نحوه ليُشير إلى أنه كان سيستمع لما سيقوله. وتابع: «سولا، ماذا سيحدث عندما يكتشف الأعراب أنها اختفت؟»

«ماذا سيحدث؟»

«سيأتون للمطالبة بإعادتها.»

«هذا إذا كانوا سيعرفون إلى أين ذهبت.»

«لكن ... كيف لهم ألا يعرفوا؟»

ابتسم كورلاث بتجهم. وقال: «لأننا لن نُخبرهم.» إن فاران، بناءً على رغبته، ليس أحد أولئك الذين رافقوا ملكه إلى الاجتماع مع الأعراب؛ كان فورلوي وإيناث والآخرين الذين ذهبوا يتصنعون الابتسامات لتتوافق مع ابتسامة الملك. لم يستطع الأعراب رؤية ما حدث في حضورهم. «ستُغادرون هذا المكان حالاً، وترتحلون، ببطءٍ نحو الجبال، وتُقيمون مخيماً مرةً أخرى حيث يُلامس نبع ليك السطح. هناك سوف تنتظرونني. سأعود من الطريق الذي أتينا عبره، سراً، في غضون ثلاثة أيام، حتى لا تختفي الفتاة بعد وقتٍ قصير جداً من مشاهدة سكان التلال في قاعدة الأعراب. ثم سأخذ الفتاة من سريرها وهي نائمة في القصر الكبير، وأعود إليكم.»

ساد صمتٌ تأملي؛ وفي النهاية قال فاران: «سأذهب معك، يا سولا. إن حصاني سريع.» كان صوته لا يزال حزيناً، لكن التهذُّج اختفى، وبينما كان ينظر إلى وجوه الفرسان الستة الذين حضروا مع كورلاث اجتماعَ مفوض الأعراب، بدأ يشعر بالفضول. فهو لم يرَ أحداً من الأعراب قط، حتى من مسافةٍ بعيدة، ولم تقع عيناه على بلدةٍ تابعة للأعراب قط.

بعد ثلاثة أيامٍ غيرٍ مريحة في المخيم النائي، انطلق كورلاث وفاران وإيناث بسرعة باتجاه بلدة الأعراب. قال كورلاث في نفسه: لا يمكنهم رؤيتنا حتى في وضح النهار عندما نركض نحوهم مرتدين عباءاتٍ تُرفرف وممتطين خيولاً تسهل. سنزحف مثل اللصوص إلى منزلٍ فارغ، متظاهرين أن له مالكاً لأننا لا نستطيع أن نُصدق تماماً أن الأمر سيكون بهذه السهولة.

ركع فاران وإيناث على ركبتيهما في موضعيهما، ولم ينظرا بينما كان يتركهما ملكهما؛ لأنهما يعلمان أنهما لن يُشاهدا أكثر ممَّا يريد هما أن يُشاهدا. انتظرت الخيول في صمتٍ

مثلما فعل الرجلان، لكن حصان الملك ذا اللون المميز راقبه وهو يذهب. كان الصوت الوحيد هو همس الرياح عبر الشجيرات المنخفضة وغرأت الخيول الطويلة.

وصل كورلاث إلى القصر دون صعوبة؛ لم يتوقع أيًا منها. تجاهله الحراس، أو على نحوٍ غامض اعتبروه صديقًا. كانت هناك عدة أشياء من الفراء باللونين الأسود والبني مستلقية في الأنحاء وقد أخذت تغطُّ بكآبةٍ في النوم في حديقة القصر. لم تكن تحبُّ كلاب الأغراب الحدود الشمالية الشرقية لداريا، وكلابُ سكان التلال، التي كانت ستستيقظ في الحال وتشاهده بصمت، ليست على وفاقٍ مع الأغراب. اجتاز الإسطبلات، لكن السُّيَّاس كانوا يغطُّون في النوم مثل الكلاب. لم يستطع أن يرى في الظلام، ولكن حتى في الأماكن التي لم يكن يساعد فيها ضوءُ القمر، كان يعرف مكان الأشياء.

وصل إلى جدار القصر ووضع يده عليه. واعتمادًا على نوع الحالة المزاجية التي كانت عليها الكيلار؛ كان يمكنه بين الحين والآخر المشي عبر الجدران، دون أن يهدمها أولًا، أو على الأقل الرؤية من خلالها. وهنا مرةً أخرى، في بعض الأحيان كان لا يستطيع ذلك. سيصبح الأمرُ مزعجًا إذا اضطرَّ إلى الاقتحام مثل اللص العادي الذي يشعر أنه قد أصبح مثله، والتجول من غرفةٍ إلى أخرى وهو ينظر إلى الوجوه على الوسائد. كان هناك احتمالٌ حتى ولو بعيد أن يقبض عليه.

كلا. لم تكن هذه لتُصبح واحدةً من تلك الأوقات: كانت الكيلار معه — نظرًا إلى أنها وضعت في هذه المعضلة، هكذا قال لنفسه، فهي على الأقل كانت ستُساعدُه وتُخرجه منها — وعلم تقريبًا في الحال أين كانت توجد الفتاة. كانت لحظته السيئة الوحيدة عندما دقت تلك الساعة اللعينة في الردهة الأمامية مثل نداء للموتى، وبدا وكأنها صعدت السلالم خلفه مثل الأيدي الشاحبة الباردة.

كانت متكومة، ومنحنيةً ونائمة على رفٍّ مبطنٍ ممتدٍّ من نافذةٍ مقوَّسة، وللحظةٍ شعر بالشفقة تجاهها وتردَّد. قال لنفسه على نحوٍ شبه غاضب: بماذا سنُفيدني الشفقة؟ فأنا لستُ هنا باختيار. لكنه لفَّ العباءة حولها بحنانٍ لا داعي له وهو يهمس ببضع كلمات فوق رأسها؛ للتأكد من أنها ستظلُّ نائمة.

جاهدت هاري للخروج من بعض من أغرب الأحلام التي رأتها على الإطلاق لتجد نفسها في واقعٍ قاتم وضبابي مليءٍ بالمطبَّات والهزات. هل كانت مريضة؟ لم تستطع فهم ما كان يحدث لها، باستثناء أنه أمرٌ غير مريح للغاية، ولم تكن من صفاتها صعوبة الاستيقاظ.

فتحت عينيها فكانت الرؤية ضبابية، ورأت شيئاً يُشبه الفجر خلف شيء يُشبه التلال، رغم أنها بعيدة جداً عنها. ... كان موضعها، حسبما أدركت حينها، يتدلى جانباً عبر أعلى كاهل حصان بينما تنزلق قدمها على كتفه مع كل خطوة — إذ لم يكن الوضع مريحاً بالنسبة إليه أكثر منها — وكان يُبقّيها جالسةً في وضع مستقيم؛ ذراعٌ تلفٌ نفسها حول وسطها، وتثبت ذراعيها عند جانبيها، وبدا رأسها وكأنه يرتدُّ على كتفِ إنسان.

الفكرة الوحيدة التي كانت واضحةً في ذهنها، ولم تكن واضحةً للغاية، هي أنها تُجيد تماماً ركوب الخيل بنفسها، وتستاءً من معاملتها كصُرة أو طفل؛ لذلك قاومت. رفعت رأسها مع شهقةٍ وهزت وجهها بعيداً عن غطاء الرأس العميق الذي يلتفُّ حوله؛ وحاولت أن تبسط جسدماً أكثر قليلاً، وتمدّه أكثر قليلاً إلى الأمام.

تسبب هذا في كبح الفارس لحصانه فجأة؛ إلا أنها أدركت أنه لا يوجد زمام. أمسكها الفارس بقوة أكبر قليلاً، وحينها كان هناك رجلان آخران على ظهري حصانين بجانبها، فنزلا من على صهوة حصانيهما ثم توجّها نحوها على الفور. كانا يرتديان ملابس سكان التلال، مع أغطية للرأس مسحوبة إلى أسفل على وجهيهما؛ وعلى نحوٍ مفاجئ تماماً، وهي لم تفهم بعد ما كان يحدث لها، شعرت بالخوف. إذ سلّمها الفارس الذي يمسكها إلى الرجلين بالأسفل؛ ولاحظت أن لون الكتف الذي كان يضربه كعباها كان بنياً لامعاً مائلاً إلى الحمرة، وأن عُزّته طويلةٌ وسوداء. ثم عندما أمسكها الرجلان من ذراعيها، لامست قدمها الأرض، وفقدت وعيها مرةً أخرى.

استيقظت مرةً أخرى عند الشفق، لكن هذه المرة جاء التوهج الأحمر من الاتجاه المعاكس. هذه المرة استيقظت وهي تشعر بأنها قد استعادت حالتها الطبيعية إلى حدٍّ كبير؛ أو هكذا اعتقدت، لكن المكان المحيط بها كان بعيد الاحتمال لدرجة أنها لم تكن متأكدة من استعادتها لكامل وعيها. جلست واكتشفت أنها تستطيع ذلك؛ كانت تجلس على بطانية، ولا تزال ملفوفةً في عباءة سوداء ذات غطاءٍ رأس غير خاصة بها، وتحتها اكتشفت أنها لا تزال ترتدي رداء النوم والروب فوقه. كانت حافية القدمين؛ أمضت دقيقة أو دقيقتين وهي تُعاني من الدوار في محاولة لتذكر ما إذا كان نعلها قد اختفى أو إذا لم تكن قد ارتدته قط — الليلة الماضية، أو أيّاً ما كان الوقت — فتمالكَت نفسها، ونظرت حولها.

كانت في مكانٍ أشبه بوادٍ صغير، وخلفها كثيبٌ رملي مغطى بشجيرات قصيرة. فوقها شيءٌ أشبه بسقف خيمة، مثبت بأوتاد على شكل مربع، لكن جانباً واحداً منه فقط مُنسدل.

بينما كانت تُظهر الجوانب الثلاثة الأخرى إطلاقةً على الكتيب الرملي، والغروب، إذا كان هذا ما هو عليه الأمر، وثلاثة رجال يجلسون القُرفصاءَ حول حلقة نار صغيرة بلا دخان، مُقامةً أمام الذراع المواجهة للكتيب نفسه. حول حافتها كان بإمكانها رؤية التلال السوداء تتلاشى وسط الضوء الأخير، وثلاثة خيول. كانت هناك ثلاثُ كتلٍ ربما هي سروجٌ بالقرب منها، لكن الخيول — التي كان أحدها رماديًا، والثاني كستنائيًا، والثالث بُنيًا مائلًا إلى الحمرة — لم تكن مقيّدةً بأي نحو.

كانت قد نظرت فقط إلى هذه الأشياء عبر نظرةٍ سريعةٍ أولى، ولم تبدأ بعدُ في التفكير مليًا بشأنها، عندما وقف أحدُ الرجال الجالسين حول النار واتجه نحوها. بدا أن الاثنين الآخرين لم يُعيرا الأمر انتباهًا؛ إذ ظلَّ جالسين القرفصاءَ يُحَدّقان في القلب الأحمر الصغير للنار. جثا الرجل الثالث بالقرب منها وقَدَّم لها كوبًا به شيء يتصاعد منه البخار، فأخذته على الفور دون تفكير؛ لأنَّ إيماءة الرجل كانت أمرًا. ثم أمسكت به ونظرت إليه. وأيًا كان نوعه، فقد كان ذا لونٍ بني، ورائحته لذيذة؛ فاستفاقت معدتها على الفور، وشعرت بالجوع.

نظرت إلى الكوب، ثم إلى الرجل؛ كان ملفوفًا في عباءةٍ ولم تستطع رؤية وجهه. بعد لحظةٍ أشار مرةً أخرى، إلى الكوب الذي كانت تحمله، وقال: «اشربيه.»
لعت شفتيها وتساءلت في نفسها كيف سيبدو صوتها عندما تتحدّث. وقالت: «أفضل عدم النوم أكثر من هذا.» فصدرت منها تلك الجملة بصوتٍ جيد جدًا.
ساد الصمت مرةً أخرى، ولكن ما إذا كان ذلك بسبب عدم فهمه لها — إذ كانت لهجته غريبةً وثقيلة، على الرغم من سهولة التعرف على كلماته التي ينطقها بلغة هوملاند — أو أنه كان يختار إجابته بعناية، لم تستطع التحديد. وفي النهاية قال: «لن يجعلك هذا المشروب تنامين.»

أدركت أنها أشدُّ شعورًا بالعطش من أن تهتمَّ بما إذا كانت تُصدق أم لا، وشربته كلّهُ. فوجدت أن مذاقه جيدٌ مثل رائحته، والذي، حسبما ظننت، يجعله أكثر تميزًا من القهوة. ثم أدركت أنها أصبحت الآن جائعةً للغاية.

«هناك طعامٌ إذا كنتِ ترغبين في الأكل.»

أومأت برأسها، فأحضر لها على الفور طبقًا من الطعام ومزيجًا من المشروب البني الساخن. ثم جلس مرةً أخرى، وكأنه ينوي مشاهدة كلِّ قُضمة أو رشفة تحصل عليها. فنظرت إليه، أو بالأحرى إلى الظل تحت غطاء الرأس؛ ثم نقلت انتباهها إلى طبقها. وفي

الطبق، بجانب الكتلة التي يتصاعد منها البخارُ لما اعتبرتَه يخنة، كانت هناك ملعقةٌ غريبة الشكل؛ إذ كانت ذات مقبضٍ مقوّسٍ للغاية، وتجويفٍ شبه مسطح. فالتقطتها.

قال: «تمهلي. إن النوم الذي حصلتِ عليه يجعل بعض الناس يشعرون بالغثيان.»
إذن لقد كنت مخدرة، هكذا قالت لنفسها. شعرت بارتياحٍ غريب لهذا الأمر، كما لو أصبح لديها الآن عذرٌ لعدم تذكُّرها شيئاً على الإطلاق حول كيفية وصولها إلى حيث كانت. ومن ثم أكلت ما أُعطي لها، وشعرت بأنه جيدٌ للغاية، على الرغم من أن اللحم لم يكن مألوفاً لها؛ لكن شعورها بالتحسُّن جعل كلَّ أسئلتها حول مكان وجودها، ولماذا أتت إلى هنا — والأسوأ — ماذا بعد ذلك، تبرز في ذهنها على نحوٍ غير مرحّب به. تردّدت، وهي تنظر إلى طبقها الفارغ الآن. كان لونه رمادياً فاتحاً، وفي وسطه رمزٌ أسود. سألت نفسها عمّا إذا كان هذا الرمز يعني أي شيء. الصحة والعمر المديد؟ أم تعويذة ضدّ الانكسار أو الضياع؟ أم تمثيل رمزي مفاده الدعوة بالموت للأغراب؟

سأل الرجل الجالس بجانبها: «هل تحسّنت حالتك؟»
قالت: «سأصبح ... حسناً ... أفضل إذا أمكنني رؤية وجهك»، وهي تحاول أن تُعبر بوضوح عن شعورها وسط التردّد المعقول، والجُبْن المروّع، والتأدّب مع خاطفها.
ألقي بغطاء رأسه للخلف، وأدار رأسه بحيث أصبح وجهه مرئياً بوضوحٍ مقابل الضوء الباهت خلفه.

فقالت بنحوٍ لا إرادي: «يا إلهي»؛ إذ وجدت أمامها كورلاث.
سألها: «هل تعرّفتِ عليّ إذن؟» وعند إيماءتها المنذهلة — التي دلّت على قولها: أجل، جلالته الملك، لكن لسانها كان وكأنه ملتصقٌ بأسنانها من فرط الذهول — قال: «حسناً»، ثم نهض. بدت في حالة صدمة؛ كان يتمنى أن يقول شيئاً لطمأننتها، ولكن إذا لم يستطع أن يشرح لرجاله سبب إقدامه على ما كان يفعله، فقد علم أنه لن يتمكن من قول أي شيء لها. شاهدها وهي تستجمع كرامتها وتُحاول إحلالها محلّ تعابير وجهها المصدومة. لم تقل شيئاً آخر، فالتقط طبقها وكوبها وأعادهما بجانب النار، حيث فرگهما إيناث بالرمال وأخذهما بعيداً.

كانت هاري مشغولةً للغاية بأفكارها الخاصة بحيث لم تشكّ في تعاطفِ خاطفها معها. رأتَه كشخص يلتفُّ في عباءة، وشاهدته ينضمُّ إلى رجلَيْه عند النار، اللذين لم ينظر أيُّ منهما في اتجاهها. أخذ أحدهما النار ووضع أواني الطهي في حقيبة، وصرّج الآخر الخيول. وقف كورلاث يُحقق في التلال، وذراعاها مطويتان، وعباءته تُرفرف وسط نسيم

المساء، اختفى كل الضوء تقريباً، وسرعان ما لم تتمكّن من تمييز هيئته الثابتة مقابل خلفية التلال السوداء.

ومن ثم نهضت، وهي تهتّزُ بعض الشيء، حيث لم تكن قد استعادت قدماها بعدُ ثباتهما، ولا رأسها توازنه. سارت بضع خطوات، وكانت الرمال دافئة تحت قدميها، ولكن ليس بنحوٍ لا يُطاق. مرَّ الرجلان — وهما لا يزالان ينظران إليها — بجانبها، واحداً على كل جانب، وفكّكا الخيمة، وطويّاها، ووضعّاها بعيداً بسرعةٍ شديدة بحيث بدا الأمر وكأنه سحر، وبعد تثبيت الحقيبة الأخيرة في حزام السّرج، التفت كورلاث، دون أن ينطق أيّ كلمة. وتبعه الحصانُ البنيُّ المائل للحمرة.

قال لها بجديّة: «هذا أيسّاهل. يمكنك مُناداته ربما ... فايهرارت.» نظرت إلى الحصان الكبير، غير متأكدة من الردّ المطلوب؛ شعرت أن الرّبت على هذا الحيوان الضخم سيُعدُّ نوعاً من التجرؤ. ولكي تفعل شيئاً، بسطت له راحةً يدها، وشعرت بالسعادة على نحوٍ أحمق عندما قوّس رقبته وأخفض أنفه حتى دغدغت أنفاسه يدها. ثم رفع رأسه مرةً أخرى ووجّه أذنيه نحو كورلاث، شعرت هاري أنها مرّت للتو بما يُشبه طقس الانضمام إلى المجموعة، وتساءلت عمّا إذا كانت قد اجتازته بنجاح أم لا.

اقترب منهم الرجلان الآخران، وتبعهما الحصانان الآخران. فقالت في نفسها: هل أنا على وشك أن أتدلى فوق قربوس السّرج مثل جوالٍ طعام مرةً أخرى؟ هل يصعب القيام بعملية التدلي عندما يكون الجوال المعنيّ قائماً وينظر إليك؟

أدارت رأسها بعيداً، وعلى الفور وجدت الرجلين الآخرين ينظران بإمعان في الرمال حول حذاءيهما. كانت جميعُ الأمتعة مربوطة خلف سرجي حصانيهما، وبدا الوادي الصغير الذي كانا يقفان فيه خالياً ومنبسّطاً كما لو أنه لم يكن على الإطلاق موقعٍ مخيّم. أدارت رأسها نحو كورلاث مرةً أخرى. وقالت بخضوع: «يمكنني امتطاء الخيل — على الأقلّ قليلاً»، رغم أنها كانت تعتبر فارساً ممتازة في موطنها. وأضافت: «هل تعتقد أنني يمكن أن أجلس ... ووجهي إلى الأمام؟»

أوما كورلاث برأسه بالموافقة وترك غرّة الحصان. وعدّل كتلة الصوف المغطاة بالجلد في مقدمة السرج، ثم التفت إليها. وقال: «هل يُمكنك امتطاء صهوته دون مساعدة؟» نظرت إلى ارتفاع ظهر الحصان، وقالت لنفسها: ثماني عشرة قبضة لو كان قصيراً، وقد يكون ذلك على أقلّ تقدير. فقالت: «لست متأكدة.»

وعندئذٍ، وعلى نحوٍ أثار رعبَ الرجلين الآخرين، وحيرة فايهرارت، ومفاجأة هاري نفسها، جثا كورلاث على الرمال وشبّك لها كفّيه. وضعت قدمها الملطّخة ببعض الرمال

على كَفِّيه، وقُدِّفَت لأعلى بسهولة كما لو كانت فراشةً أو بتلة زهرة. أزعجها هذا قليلاً. ثم امتطى الحصان خلفها بالطريقة الرشيقة البسيطة نفسها التي رأتها في فناء القصر. وتحرك الحصانان الآخران وراكباهما ليقفا بجانبهما، واتجهوا جميعاً نحو التلال، وساروا بالخطا المتهمة نفسها، ولم تلاحظ هاري أي كلمة أو إيماءة تأمرهما بفعل ذلك.

استمرت رحلتهم طوال الليل — وتراوحت حركة الخيول ما بين المشي والسير بخطاً متمهلة والركض السريع لوقت قصير — وأصيبت هاري بالإرهاق الشديد قبل أن يبدأ خطُّ التلال أمامهم في الظهور عبر السماء التي كانت تتحول إلى اللون الرمادي. توقفوا مرة واحدة فقط؛ حيث أرجحت هاري ساقها من أعلى كاهل الحصان، وانزلت إلى الأرض قبل أن يُقدِّم لها أي عرض للمساعدة، وبينما لم تنتن حيث وقفت، كانت هناك لحظة عصبية عندما ظننت أن هذا قد يحدث لها، وتناثرت الرمال تحتها مثل حركة حصان يركض. وقد أُعطيت بعض الخبز، وبعض الفاكهة الخضراء الغريبة، وشيئاً لتشربه؛ ثم ألقى كورلاث بها على السرج مرة أخرى بينما عض رجلاه على شفاهيهما من الغيظ وأشاحا بنظرهما. تشبَّت يداها بالغرة الطويلة لفايرهارت، وشدَّت ظهرها، وأخذت ترمش بعينيها، وأرادت أن تظل مستيقظة. لقد قالت إنها تستطيع امتطاء الخيول، وهي لم تكن تريد أن تُحمل ... إلى حيث هم ذاهبون ... لكنها ما كانت لتُفكر في ذلك. فقط فكَّرت في الجلوس بنحوٍ مستقيم.

وفي مرة عندما خفضوا سرعتهم إلى المشي، أعطاهما كورلاث كيساً جلدياً وقال: «لقد اقتربنا من وجهتنا الآن»، وقد كان وقع الكلمات لطيفاً، وليس موحياً بالازدراء. كانت تتمنى لو أن بإمكانها رؤية وجهه، لكنه كان أمراً مُحرجاً أن تلتفتَ لتتنظر إلى شخصٍ يجلس خلف كتفها مباشرة؛ لذلك لم تفعل ذلك. ألهمت محتويات الكيس فمها وجعلتها تلهث، لكنها جلست على نحوٍ أكثر استقامةً من أجل ذلك.

ثم عندما حدثت في خطِّ التلال، وأغمضت عينيها بقوة وفتحتهما مرة أخرى، وتأكدت من أن السماء بدأت تتحول إلى لونٍ أكثر شحوباً، وأنها لم تكن تتخيل أشياء؛ راحت الخيول الثلاثة تمشي ببطء، ثم توقفت، وأدأنها إلى الأمام. وأشار كورلاث، أو بالنسبة إلى هاري، بدا أن يداً وذراعاً بلا جسدٍ قد امتدَّتا بجوار خدَّها الأيمن. وقال: «هناك». اتبعت الخطَّ الذي أشارت إليه إصبعه، لكنها لم تر سوى أمواج من الرمال. ففرت الخيول إلى الأمام في حركة أفزعتهما بسبب سرعتها في نهاية رحلة كهذه، وهزَّت عظامها بقوة صدمة ضرب حوافر فايرهارت للأرض. وعندما رفعت عينيها بعيداً عن ارتفاع الغرة السوداء وهبوطها على

يَدَيها؛ رأت وميضَ أشكالٍ بيضاء ورمادية، كانت منتظمةً جدًّا بحيث لا يمكن أن تكون
كُتبانًا رملية. وأشرقَت الشمس بأشعَّتِها الذهبية فوق التلال، بينما اندفعت الخيول الثلاثة
إلى داخل المخيم.

الفصل الخامس

ترجّل كورلاث عن صهوة حصانه في الحال، وصاح مُصِدِّراً أوامرَ جعلت الأشخاص الذين يرتدون أرديةً طويلةً يهرولون في جميع الاتجاهات. جلست هاري بمفردها على الحصان الكبير ذي اللون البني المائل إلى الحمرة، الذي وقّف ساكناً تماماً، ورأت عيناها المرهقتان والمرتبكتان عِشْرَاتِ الخيام ومئات الأشخاص. وتقدّم الرجال من مداخل الخيام وخرجوا من الظلال؛ لِيَنحَنُوا للمكهم — تساءلت هاري في نفسها: هل لكي يُهنئوه على نجاح مُغامرته؟ هل كانت ناجحة؟ أرسل البعض في الحال لأداء مهامّ، وتلاشى البعض مرةً أخرى في الظلام الذي خرجوا منه. وترجّل الرجلان اللذان كانا يُرافقان الملك أيضاً، ووقفا خلفه قليلاً وهو ينظر عبر مخيّمه. ولم تتحرّك هاري. لم تُصدق تماماً أنهم قد وصلوا — وإلى جانب ذلك، كانت تتساءل في نفسها: أين يقع هذا المكان الذي هم فيه؟ لم تشعر أنها قد وصلت — أو لم ترغب في ذلك. فكّرت بحزنٍ في سَريرها البغيض بعيداً في القصر، وفي آني المملّة والسمينة والفضولية. تمنّت لو كانت في البيت، وكانت متعبّة جداً لدرجة أنها لم تكن متأكدة أين هو البيت.

عندما التفت كورلاث إليها، استفاقت بما يكفي لتنزلق من فوق صهوة الحصان المرتفعة قبل أن يُحاول مساعدتها؛ هذه المرة لم تنزلق على نحوٍ بارع، لكنها استدارت لمواجهة كتف الحصان، ووضعت يديها على السرج إلى أن لمست قدميها الأرض. لقد كانت المسافة كبيرة. كانت متأكدة أنها زادت منذ آخر مرة ترجّلت فيها عن صهوته. وقف فايرهارت بصبرٍ مثل مهرها الوديع وهي تتكئ عليه، وربّت عليه دون تركيز، كما لو كانت تربت على مهرها، فأدار أنفه ليلمس ساعدها. تنهّدت، وفكرت في جاك ديدام، الذي ما كان ليُمانع في أن يفقد ذراعاً من أجل امتطاء أحد خيول سگان التلال، ولو مرةً واحدة. ربما لم تكن ستُحتسب إذا امتطيته بالمشاركة مع أحد فرسانهم.

كانت هاري تولي ظهرها تجاه فاران وإيناث بينما كانا يقتادان الخيولَ بعيدًا. قال فاران: «من الصعب أن أقول إنني قد استمتعتُ بهذه الرحلة الطويلة على صهوة حصاني، في سنِّي هذه»، فقال إيناث ضاحكًا: «في الواقع، يا جدِّي، كان يجب أن تُربط في سرجك بلحيتك الرمادية الطويلة.»

ابتسم فاران ابتسامة عريضة، وكان جدًّا لعددٍ من الأحفاد، لكنه كان لا يزال يتطلع إلى أن يظل فارسًا من فرسان الملك عدة سنواتٍ قادمة، وكان يحتفظ بلحيته القصيرة ذات اللون الرمادي الداكن، وقال: «أجل، أتوق إلى سريرٍ من الريش، وفتاةٍ ممتلئة الجسم تُعجب بمحاربٍ عجوز من أجل ندباته وقصصه.» التفتت عيناه، ونظر مباشرةً إلى هاري لأول مرة منذ أن حملها كورلاث — إذ كانت عبارةً عن كومةٍ رفيعة ملفوفة بقماشٍ أسود، محمولةً بهدوء بين ذراعيه لدرجة أنه كان من الصعب تصديق أنها تحتوي على أي شيء بشري — إلى الظل حيث كان ينتظره رجلان وثلاثة خيول. لكن هاري كانت تنظر في ضيق إلى قدميها القذرتين ولم تلاحظ نظرتيه نحوها.

قال فاران ببطء، بنبرة رجل أمين سيعزل عادلًا مهما كان الثمن: «انظر إلى فتاة الأغراب هذه. لم أعرف أن الأغراب يُعلمون أبناءهم التحليّ بمثل هذه الكبرياء. لقد أبدت كثيرًا من الكبرياء في هذه الرحلة.»

فكّر إيناث فيما قاله رفيقه. إن إبداء الكبرياء لهو إشادة كبيرة من جانب رجل ينتمي إلى أرض التلال، ولكنه عندما فكّر فيما حدث خلال اليومين الماضيين، كان عليه أن يتفق معه. لكنه كان أصغرَ من زميله الفارس بجيل تقريبًا، وقد نظر إلى مغامرتهم بنحوٍ مختلف. وقال: «هل تعلم أنه كان أكثرَ ما يُقلقني أنها قد تبكي؟ أنا لا أستطيع تحمّل امرأة تبكي.»

ضحك فاران بصوتٍ منخفض. وقال: «لو كنتُ أعرف ذلك، لنصحتُ ملكنا — بقوة — أن يختار فارسًا آخر. لا يعني ذلك أن الأمر كان سيهمُّ كثيرًا، على ما أظن: كانت فقط ستجبر على الدخول في سُبَاتٍ عميق مرةً أخرى.» سحب غطاء خيمة جانبًا، واختفيا هما والخيول عن أنظار هاري. لقد تعرّفت على المقصود بكلمة «الأغراب» التي يقولها سكان التلال، وتساءلت في إحباطٍ عما كانا يقوله رفيقا كورلاث، اللذان تجاهلها على نحوٍ واضح خلال رحلتهم معًا. وهزت أصابع قدميها المتسخة في الرمال.

نظرت إلى الأمام ولاحظت أنها كانت تقف على بُعد بضعة أقدام فقط من ... ماذا يمكن للمرء أن يُسمى ذلك الجزء من الخيمة؟ كلمة «باب» كانت تعني ضمناً وجودَ مفاصل

وإطار ... حسنًا، واجهة أكبر خيمة من بين كل الخيام. كانت بيضاء، مع قطاعين عريضين بلون أسود عبر قممها من اتجاهين متعاكسين، يلتقيان ويتقاطعان عند المركز، ويمتدّان إلى الأرض مثل شريطين أسودين. ورفعت رايةً باللونين الأبيض والأسود من المركز المتقاطع، والذي يعدُّ أعلى نقطة في المخيم، حيث كانت الخيمة هي الكُبرى. قال كورلاث وهو يقف إلى جانبها مرةً أخرى: «ادخلي، هناك بالداخل من سيتولّى رعايتك. سوف أنضمُّ إليك بعد قليل.»

وبينما كانت تقترب، أزاح رجلٌ جانبًا ذلك المستطيل الحريريّ الذهبي الذي كان يُستخدم بابًا للخيمة الكبيرة. وقد وقف مُنتصبًا مُبدئيًا قدرًا كبيرًا من التوقير كما لو كانت ضيفًا مرحّبًا به، وربما ملكة في بلدها. أعجبها هذا، وانتابتها فكرةٌ شاردة أن ملك هيلز على ما يبدو كان يُهذب أتباعه على نحوٍ جيد، وابتسمت له وهي تدخل، وشعرت بالرضا من النظرة المدهشة التي عبّرت وجهه عندما تمكّنت من جذب انتباهه. على الأقل هم ليسوا جميعًا غامضين، هكذا دار بخلدها. ربما كان سيبدو أحدُ أتباع ديدام هكذا.

كان من المريح أيضًا أنها نجحت أخيرًا في جذب انتباه شخصٍ ما.

ما لم تكن تعرفه هو أن حارس الشرف عند الباب، الذي كان يقفُ منتصبًا لأنه كان حارسَ شرف، وما كان يمكنه سوى إبداء أكبر قدرٍ من الاحترام لأي شخص أنعمَ عليه الملكُ بدخول خيمة الملك، كان يقول لنفسه: إنها تمشي وتبتسم لي كما لو كانت سيدهً رفيعةً المقام في بيتها، وليست أسيرةً ... أسيرة ... تلعنّ هذا، لأنه لا هو ولا أي شخص آخر كان يعرف بالضبط سبب جعلها أسيرة، أو ضيفًا على عكس رغبتها، أو أيًا ما كانت حقيقة وضعها هنا، عدا أن هذه هي إرادة الملك. وكان هذا بعد رحلةٍ جعلت حتى فاران العجوز، الذي يتمتع بقوة وصلابة مثل الحديد، يبدو منهكًا بعض الشيء. كانت هذه قصةً سيرونها لأصدقائه خارج أوقات العمل.

نظرت هاري إلى ما حولها داخل الخيمة في دهشة. إذا كان المخيم من الخارج يكتسي بألوان الأبيض والرمادي والبنّي المائل للرمادي، وتسوده الكآبة، لولا الواجهة التي بالأبيض والأسود التي تُرفرف من خيمة الملك، مثل الرمل والشجيرات القصيرة حولها، ولا يُضفي عليه بعضُ البريق سوى الأردية والأوشحة التي يرتديها بعض الرجال، فإن هذه الخيمة من الداخل — كانت متأكدةً من أنها خيمة كورلاث — كانت تشعُّ بالألوان. كانت المنسوجات الجدارية مُعلّقة على الجدران، وبينها سلاسلٌ ذهبيةٌ وفُضِيّة، وكراتٌ وقضبانٌ مزركشة، وميداليات برّاقة مطليةٌ بالإينامل — التي بعضها كبير بما يكفي ليُعتبر درعًا. كانت البُسط

السميكة الناعمة متراصّة على الأرض بواقع ثلاثة أو أربعة بعضها فوق بعض، وكان كلُّ منها فخماً بما يكفي كي يُبسّط تحت أحد العروش؛ وقد تناثرت فوقها عشرات الوسائد. كانت هناك صناديقُ منحوتة ومُطعمة من الخشب الأحمر المعطر والخشب البني الفاتح والخشب الأسود، وقد وُضعت كُبراًها أمام الجدران. وعلّقت مصابيحُ على سلاسل قصيرة تتدلى من الأضلاع الأربعة المنحوتة التي عبّرت السقف الأبيض المرتفع لتلتقي عند القمة المركزية، التي تُرفرف الراية فوقها في الخارج، ويمتدُّ تحتها عمودٌ مفصلي رفيع من الأرض إلى السقف. وتوجد أعمدةٌ مشابهة عند كل ركن من أركان الخيمة الأربعة، وأربعةٌ أخرى تُقوّي الأضلاع في مراكزها، ومن كل عمود كانت تمتد ذراعٌ قصيرة يوجد في طرفها المنحوت المقرّ مصباحٌ آخر. كانت جميعها مضاءة، مما غمر الخيمة المليئة بالأشياء المتنوعة في اللون والشكل والملمس بوهجٍ ذهبي ليس مُستمداً بأيّ نحوٍ من ضوء الصباح الذي يزداد سطوعاً ببطء في الخارج.

كانت تُحدّق في قمة السقف وتشعر بالإعجاب بالهيكل السلس للخيمة — إذ إن معرفتها بالخيام كانت مُستمدةً فقط من القصص الخاصة بجيش هوملاند، التي تضمّنت الحبال وقماش القنب وكثيراً من الشتاءم والتسريبات عند هطول الأمطار — عندما أعادها ضجيجٌ طفيف خلفها مرةً أخرى إلى إدراكها بوجودها في مخيمٍ تابع لسكان التلال. استدارت بعصبية، لكن ليس بعصبيةٍ شديدة كما كانت من المفترض أن تكون؛ لأنه كان هناك كرمٌ — وحسنًا، إنسانية، ربما، إذا حاولت التفكير في كلمة مناسبة — وراء توفير تلك الغرفة الكبيرة ذات الجدران البيضاء التي جعلتها تشعر بالراحة، رغم علمها أنها ما كان عليها أن تشعر بهذا.

دخل إلى الخيمة أربعة رجال يرتدون أرديةً بيضاء. أحضروا معهم حوضاً فضياً ضخماً، حاملين إياه من المقابض الموجودة حول حافته، وكان بحجم يتّسع كي يستحم فيه المرء، هكذا قالت لنفسها. وقد كان ذا قاعدةٍ عريضة وجوانبٍ تلمع بخفة. وقد شكّل المعدن على نحوٍ ما، لكن تراقص ضوء المصابيح فوق الأنماط منعها من تحديد شكل التصميم. وضع الرجال الحوض الكبير عند أحد أطراف الخيمة، واستداروا للمغادرة، واحداً تلو الآخر؛ وانحنى كلُّ منهم، بينما كان يمرُّ بجوارها وهي تقف في توجُّسٍ بالقرب من المنتصف، تحيةً لها. شعرت بعدم الارتياح بسبب المجاملة، واضطّرت إلى منع نفسها من اتخاذ خطوة أو خطوتين إلى الوراء. وقفت وذراعاها بجوار جانبيها، لكن يديها، غير المرئيتين في الكُمين الطويلين لروبها الذي تعرّض للتلف، انغلقتا ببطء وتحولتا إلى قبضتين.

وبينما كان الرجال الأربعة يَمْزُون أمامها في طريقهم للخروج، دَخَلَ آخَرُونَ عديدون، ومعهم جِرَارٌ من الفِضة على أَكتافهم، وعندما أَفْرَغَ ما بها الناقلون في حوض الاستحمام الفُضِّي — لا بد أنه كان كذلك — اكتشفت أنها كانت تمتلئ بالماء الساخن الذي يتصاعد منه البخار. لم تنسكب أيُّ قطرة خارج الحوض، وانحنى كُلُّ رجلٍ لتحيتها بينما كان يُغادر. وتساءلتُ عن عددِ هؤلاء الذين قاموا بحملِ الماء؛ إذ لم يكن هناك قَطُّ أَكْثَرُ من عددٍ قليل منهم في الخيمة في كُلِّ مرة، ولكن بمجرد أن تُفْرغ إحدى الجِرار، كان يتقدَّم رجلٌ آخر من الخلف ليفرغ أخرى.

لم يستغرق الأمر سوى بضع دقائق هادئة، كان الصوت الوحيد خلالها هو ذلك الذي يصدر عن الماء المصبوب في الحوض، حتى يمتلئ، وتوقف تدفقُ الخدم كذلك. أَصْبَحَتْ بمفردها للحظة، وأخذت تُشاهد سطح الماء يتلألًا بينما تتوقَّف التمرُّجات الأخيرة؛ ورأت أن جانبًا من التصميم الخاصَّ بالحوض كان ببساطة مجرد مفصلات، فضحكت. فقد كان هذا مُخيماً متنقلاً، في نهاية المطاف. ثم دخل أربعة رجال معًا ووقفوا في صفٍّ — مثل رعاة الخيول، هكذا ظننتُ، لكن مع وجود حيوانٍ طبعه غير معروف هذه المرة — ونظروا إليها؛ فنظرت إليهم. كانت تظن أن هؤلاء هم الأربعة الذين جلبوا الحوض في البداية، لكنها لم تكن متأكدة. ما لاحظته كان شيئاً آخر، شيئاً لم تلاحظه تمامًا بينما كان الطابور المتناقل المنتظم من الرجال والجِرار يخرج، وهو أن كلاً من هؤلاء الرجال كانت لديه علامة بيضاء صغيرة تُشبه الندبة على جبهته، في وسط منطقة الحاجب فوق العينين.

تساءلت في نفسها عن هذا، ثم تساءلت عما يُشبه المناشف التي قد وُضعت على أَكتافِ ثلاثة من الرجال، ثم اقترب منها الرجلُ الرابع، وبحركة سريعة ومهذبة، وغير مهددة إلى حدٍّ ما، أزاح العباءة الخاصة بسكَّان التلال التي كانت ترتديها عن كتفها، ولفها على ذراعه قبل أن يصدر منها أيُّ ردٍّ فعلٍ جَرَاءَ هذا. عندئذٍ استدارت بسرعة ثم تراجعت خطوة، وكانت شبه متيقنة من أن النظرة على وجه هذا الرجل كانت تدل على تفاجئه. فوضع العباءة برفقٍ شديد على صندوقٍ خشبي، وأشار نحو الحوض.

كانت ممتنةً لأنه على الأقل لم ينحن لها مرةً أخرى؛ إذ إنَّ هذا ربما ما كان سيجعلها تقفز مثل أرنب مذهول. لم يكن الأمر، حسبما ظنت، أن الإيماءة كانت تحمل أيَّ إجبارٍ غير سار. لكنها بدت كإشارة إلى أنها تسيطر على الموقف بطريقةٍ ما — أو من المفترض أن تكون كذلك. لذلك كان الافتقار إلى الإجبار مزعجًا؛ لأن هؤلاء الرجال كانوا قادرين تمامًا على ملاحظة أنها لم تكن تشعر مطلقًا كما لو كانت تُسيطر على الموقف.

نظر بعضهم إلى بعض لحظةً. فقالت لنفسها عندئذٍ وهي غيرُ مصدقةٍ للموقف: هم بالتأكيد لا يتوقعون أن يساعدوني في الاغتسال، ولاحظتُ من جانبي عينيها أن الرجال الثلاثة الآخرين كانوا يقفون خلف الحوض الآن، وعند بسط إحدى المناشف اكتشفت أنها روب، بحبل ذهبي مجدول عند الخصر.

مدَّ الرجل الذي يقف أمامها مباشرة، والذي نزع عنها عباءتها، يديه ووضعهما على حزام روبها، وفجأةً اعترها شعورٌ بالغضب. حمل اليومان الأخيران لها إهانةً تلو الأخرى، رغم حدوثها على نحوٍ مهذبٍ، وللحفاظ على ما يمكنها من احترام الذات — ومن الشجاعة — فضلت عدم التفكير فيهما بنحوٍ متعمقٍ. لكن ألا يُسمح لها حتى بالاستحمام بدون حارس — وأن يُتوقع منها الخضوعُ بهدوءٍ للمساعدة من أربعة رجال ... رجال ... مثل ... مثل ... اختار خيالها أن يخذلها هنا، بعيدًا عن البيت، مع رعب المجهول والأسر، فقط مجرد محتجزة على بُعد. أزاحت أصابع الرجل المهذبة بأكبر قدر ممكن من العنف، وقالت بغضب: «كلا! شكرًا لك، ولكن كلا.» ثم قالت في نفسها: يا إلهي، هناك ما يكفي منهم، كي يجبروني على الوقوف على رأسي لو أرادوا. لكنني لن أتعاونَ معهم.

رفع شخصٌ باب الخيمة الحريريّ الذهبي عند سماع صوتها، وظهر ظلٌ جديد على ضوء المصابيح. حيث دخل كورلاث، الذي كان يحوم في الخارج ليرى كيف ستتصرف أسيرته التي تنتمي للأغراب، إلى الخيمة. وقال كلمتين أو ثلاثًا، فغادر الرجال في الحال، وانحنى كل واحد منهم لها أولًا ثم لملكهم. لاحظ جزءٌ من عقل هاري، الذي رفض أن تُرهبه فضاة الموقف، أن الانحناءات كانت متساوية في العمق والمدة، وكانت لدى الجزء العقلي نفسه الجسارة للاعتقاد بأن هذا أمرٌ غريب.

ساد صمتٌ قصير آخر بعد مغادرة الرجال الأربعة، ولكن هذه المرة كان الملك هو من تواجهه. لكنها كانت غاضبةً على نحوٍ جعلها لا تكثرُ بذلك. إذا قالت أي شيء كانت ستقول الكثير، لكنها لم تنس تمامًا أنها تحت رحمة غرباء، لذلك كبّنت غضبها وأخذت تُحدق في سخط. لماذا كان يحدث كلُّ هذا؟ لاحظ الجزء من عقلها الذي علّق على تساوي الانحناءات حاليًا أن الغضب أفضل من الخوف؛ لذلك قرّر تشجيع الغضب على الاستمرار. من الواضح أن كورلاث كان قد استحم بالفعل؛ فشعره الأسود مبلّل، وحتى بشرته المسمرة بسبب التعرّض للشمس أصبحت أفتح ببضع درجات. كان يرتدي رداءً طويلًا ذهبي اللون، مطرزًا بخياطة أنيقة، ومفتوحًا من الأمام ليظهر ثوبًا فضفاضًا كريمي اللون يصل تقريبًا حتى قدميه اللّين ترتديان صندلًا. في بلدها كانت ستُسميه قميص نوم تحت

نوع غريب من الأرواب — على الرغم من عدم ارتداء أحدٍ من قبلٍ لوشاح خصر قرمزي فوق قميص النوم — لكنه بدا رسمياً للغاية هنا. كان عليها ألا تنسى أن تُحرق في سخط، وإلا فقد تشعر بالرهبة. وبعد ذلك، حتماً، بالخوف.

أدركت ميزة صمته عندما تحدّث أخيراً؛ إذ انتابها الشعور بنفسه الذي شعرت به عندما تحدّثت إليه لأول مرة، في المخيم الصغير في رحاب أحد الكتبان الرملية، بأنه كان يختار ويُرتب كلماته بعناية فائقة.

قال: «ألا ترغبين في الاستحمام إذن؟ لقد كانت رحلتنا طويلة.» كان يقول لنفسه: إذن لقد تسببت في شعورها بالإهانة سريعاً. إن الأمر يجري بنحوٍ مختلف في المكان الذي أتت منه، وهي لا تستطيع أن تعرف ولا بد أنها غير قادرة على التخمين — ولكن كيف يمكنها أن تُخمن؟ — أنه في أرض التلال يحظى الرجال والنساء ذوو المقام الرفيع فقط برعاية الخدم من كلا الجنسين. كنتُ أخشى ... ولكن ما الفائدة؟ نحن لا نعرف بعضنا شيئاً عن عادات بعض، وخدمي من الرجال لم يفعلوا سوى ما ينبغي عليهم فعله؛ لقد عاملوا أسيرة الملك التي هي من الأغراب بأكبر قدر من الاحترام.

هاري بدورها هدأت قليلاً بعد سماعها كلمة «رحلتنا». لقد كانت ودية أكثر من كلمة «رحلتك» العدائية التي كانت تتوقعها. لكن لم تهدأ بالقدر الكافي الذي يمنعه من أن تقول ببرود: «أنا معتادة على الاستحمام بمفردي.»

قال في نفسه: أه. أجل. لا أظن أنني يجب أن أشغل نفسي بتقديم تفسيرات معقدة في هذه المرحلة، أليس كذلك؟ إنها لا تبدو في مزاج جيد لسماعها. ثم قال لها: «إن هؤلاء هم خدمي. كانوا يرغبون في ... مساعدتك.»

نظرت بعيداً وشعرت أن غضبها بدأ ينحسر؛ ولذلك، كانت غير مستعدة عندما خطا خطوة مفاجئة إلى الأمام بينما هي تخفض عينيها. أمسك بذقنها وأجبرها على رفعها، ووجهها نحو النور وحدق لأسفل فيها وبدا وكأنه مندهش. ومن ثم أحسّت على نحو مفاجئ بعودتها إلى الحالة التي تجبر خلالها على التحرك في هذا الاتجاه أو ذاك، وفق إرادة شخص آخر؛ مما جعل غضبها يتصاعد مرة أخرى في الحال، ووجهت عينيها للامعتين نحوه دون أي أثر للخوف.

كان يُحرق في تلك العينين، بينما يتراقص الضوء بالكامل فيهما، ويقول لنفسه: هذا هو السبب. أنا لا أفهمه، لكن لا بد أن هذا هو السبب ... الخطوة الأولى لمعرفة السبب. كان قد ألقى مجرد نظرة خاطفة، وساوره شك، عندما أبعدت وجهها، بالطريقة التي

سقط بها الضوء، وقد مدَّ يده نحوها قبل أن يُفكر. كانت عيناها، عندما نظر إليها، تتلألأْنَ باللون الأخضر المائل للرمادي مع فقاعاتٍ من اللون الكهرماني التي تومض مثل البرق في الأعماق، وتطفو كي تتكسَّر مثل النجوم على السطح: عيناان لا قرارَ لهما بحيث إن أيَّ رجل أو حيوان لديه من الحماقة ما يكفي للنظر إليهما طويلاً سيَهوي داخلهما ويغرق. كان يعلم — فهو من القلائل الذين ما كان للخوف أن يعرف طريقَه إلى قلوبهم — أنها لم تكن تعلم. وقد واجهَتْ هي عينيه بوضوح للغاية: لم يبدُ في عينيها سوى غضبٍ بسيطٍ وصريح — ولم يستطع لومها على ذلك. تساءل عمَّا إذا كانت قد تعلَّمت عن طريق الصدفة ألا تُركِّز غضبها، أو ما إذا كان الأشخاص الذين كرهتهم لديهم عادةً السقوط أسفل السلالم أو الاختناق من عظام السمك — أو إذا لم تكن قد كرهت قط. إن المرء عمومًا لا ينظر في المرأة عندما يُصبح غاضبًا؛ إذ إن لديه أشياء أفضل ليفعلها، مثل السير ذهابًا وإيابًا في مكانه، أو رمي الأشياء. ربما لم يلحظ أحدٌ ذلك من قبل، أو كان في وضع يسمح له بالملاحظة. وجاءت الفكرة إليه بنحوٍ غامض، دون سببٍ معين، أنها لا يمكن أن تكون قد وقعت من قبل في الحب. فلو أنها قد سلَّطت من قبل نظراتٍ عينيها التي تلمع بفعل قدرة الكيلار بكامل شدتها على أي إنسانٍ عادي، لتعرَّضَ كلاهما لصدمة، ولما عاد باستطاعتها أن تحتفظ قط بالبراءة كي تُواجه بها عينيَّ إنسانٍ مثلما تُواجه عينيه الآن.

أبعد يده عن ذقنها والنفت مبتعدًا. وبدا عليه الخجلُ قليلًا، حسبما ظنَّت، وقال: «أستمحيك عذرًا»، وبدا صادقًا في اعتذاره. لكنه بدا مُراعياً لمشاعرها أكثر من أي شيء آخر، وأدركت على نحوٍ سبَّب لها مفاجأةً أنه شعر بالارتياح، كما لو كان قد اتخذ — أو اتخذ له — قرارًا مهمًا. قالت لنفسها: هل هناك مشكلةٌ في وجهي؟ هل تحوَّل أنفي إلى اللون الأخضر؟ إنه لطالما كان معقوفًا، لكنه لم يدهش أبدًا أيَّ شخص من قبل.

لم يُقدم لها أيَّ تفسيرٍ لتصرفه، ولكن بعد صمته لحظةً قال: «سوف تستحيين بمفردك، مثلما ترغبين»، ونظر نحوها مرةً أخرى كما لو كان يتأكد من أنها حقيقية، ثم تركها بمفردها.

لَفَّت ذراعيها حول جسدها وارتجفت، ثم قالت لنفسها: حسنًا، أنا بالفعل أحتاج إلى الاستحمام، والمياه بدأت تبرد، لكن كم من الوقت يُتَوَقَّع أن يستغرق الاستحمام قبل أن يأتي شخصٌ آخر مُهرولًا إلى داخل الخيمة؟

أتمت استحمامها في أسرع وقت استغرقتَه طَوَال حياتها، وكانت بشرتها حمراء بشدةٍ بسبب فركها لها، لكن نظيفة تمامًا عندما خرجت على نحوٍ مسرع من الحوض مرةً

أخرى، وجففت جسدتها، وتذثرت في الروب الأبيض الذي ترك من أجلها. وصل الكُمان إلى مرفقيها، والحاشية إلى كاحليها تقريباً. كان هناك سروالٌ طويل فضفاض كي ترتديه تحته، ولكن كان سميكاً لدرجة أنه يبدو كتنورة تقريباً، وقد كان يتموّج ويلتصق بجسدها أثناء تحركها. كان كلُّ ما ارتدته من ملابس مصنوعاً من خامّة غير شفافة، ولكن عندما ربطت الحبل الذهبي اللون حول وسطها، كانت لا تزال تشعر على نحوٍ محرج بأنها لا ترتدي ملابس؛ فزَيّ نساء هوملاند كان يتضمن مزيداً من الطبقات. نظرت إلى الروب المتسخ الذي كانت ترتديه، لكنها ترددت في أن تُعيد ارتدائه مرةً أخرى، وظلت مترددةً في هذا الأمر بينما كانت تُجفف شعرها بالمنشفة الثانية وتحاول فكّ تشابكه بأصابعها، عندما عاد كورلاث، وهو يحمل رداءً باللون الأحمر الداكن يُشبه إلى حدٍّ كبير رداءه ذا اللون الذهبي — كما أحضر معه مشطاً. كان مقبضُ المشط عريضاً وغير ملائم لحجم يدها، ولكن أسنانه كانت بالحجم المألوف، وهذا هو كلُّ ما كان يُهم في الأمر.

وبينما كانت تعتني بشعرها المبلل، فُرغ نصفُ الحوض مثلماً ملئ، وحُمِل باقي الماء وهو لا يزال في الحوض الفضي. حمّله الرجال الأربعة من مقابضه بسلاسة، ولم يتعرّض الماء للسكب على الإطلاق عبر الجانبين. بعد ذلك ساد الصمت، ثم جاء أحدُ الخدم — أو هذا ما ظننت أن علامة الجبهة كانت تُشير إليه — حاملاً مرآة في إطارٍ جلدي وجثاً أمامها على رُكبة واحدة، وأسند المرآة على الركبة الأخرى، وأخذ يضبط وضعها بحيث تتمكن من رؤية وجهها فيها. فنظرت لأسفل، وهي مندهشة، ووجدت أن الرجل يوجّه بصره نحو الأرض. هل حصل جميعُ الخدم في أرض التلال على دروس في ضبط وضع المرايا عند الزاوية الصحيحة، بالنسبة إلى ارتفاع الشخص الذي سيستخدمها ووضعيتها؟ ربما كانت هذه مهارةً خاصة، يمتلكها فقط القليل منهم، وكان سيحتفظ بهؤلاء الأشخاص، بالطبع، من أجل خدمة الأسرة الملكية. فرقت شعرها بجدية وألقته إلى الخلف على كتفيها، حيث سقط بقوة متجاوزاً الوركين. كان اللون الأحمر الداكن لردائها جميلاً للغاية، والظلال التي يُلقِيها مخمليّة مثل بتلات الورد. قالت بلغة سكان التلال: «شكراً لك»، أمله أن تكون قد تذكّرت العبارة على النحو الصحيح، فوقف الرجل، وانحنى مرةً أخرى، وانصرف.

وفي هذه الأثناء، كانت تُنصب مائدةً طويلة تحت قمة الخيمة، بجانب العمود المركزي. وكانت تتكوّن من العديد من الأقسام المربعة — مع ساق في كل ركن من كل مربع — الموضوع بعضها بجوار بعض في صفٍّ واحد طويل، تساءلت كيف تمكّنوا من نصبها على نحوٍ مستوٍ فوق الطبقات الغريبة من السجاد. كان كورلاث يسير ذهاباً وإياباً عند طرف

الخيمة المقابل لها، وقد أحنى رأسه وعقد يديه خلفه. رُتبت الأطباق على المائدة — حيث وُضع، حسبما كان يرى، طبقٌ أمام كل مكان للجلوس، وواحدة من الملاعق المسطحة الغريبة، ووعاءان مختلفا الحجم، وقدرٌ طويل. كانت المائدة منخفضة جداً، ولم يكن هناك مقاعد، وُجمع بعضٌ من الوسائد المنتشرة في جميع أنحاء الخيمة وكُوِّمت حولها. ثم أُحضرت أوعيةٌ كبيرة من الخبز والفواكه والجبن؛ حسبما ظننت، وخُفض ارتفاعُ المصباح المتدلي من الضلع الخشبي فوق المائدة حتى أصبح على بُعد بضعة أقدامٍ فقط من الطعام الوفير. كان فقط فوق مستوى عينيها بقليل بينما كانت تقف تُراقب. وقد كانت المصابيح المتدلية من عوارض السقف معلقةً على سلاسلٍ رقيقة، متصلة بحبالٍ رفيعة مربوطة حول صف، مما كان يُشبه إلى حدٍ كبير أوتاد الربط في سفينة تصطف أمام جدارٍ واحد.

توقفت كورلاث عن التحرك، وتبعت عيناه خُفض المصباح، لكن التعبير المرتسم على وجهه أوحى بأن أفكاره كانت في مكانٍ آخر. راقبته هاري من طرفٍ خفي، وكانت على استعداد للنظر بعيداً إذا تذكّرها ونظر نحوها، وعندما ثُبت المصباح في موقعه الجديد، رآته يستعيد تركيزه على نحوٍ مفاجئ. فمشى بضع خطوات إلى الأمام للوقوف عند أحد طرفي المائدة الطويلة، ثم تلفت حوله باحثاً عنها. لم تكن في وضعٍ جيد للحكم على مثل هذه الأشياء، لكنها شعرت أنه تذكر وجودها بشيء من الجهد، مثلما يتذكر الرجل مهمةً غير سارة. سمحت له بأن تلتقي عيناه بعينيها، فأوماً لها كي تتخذ مكاناً جلوسها عن يساره. في تلك اللحظة، رُفع الباب الحريري الذهبي اللون مرةً أخرى، ودخلت مجموعة أخرى من الرجال.

استطاعت تمييز اثنين منهم؛ فقد كانا الرجلين اللذين ذهبا مع كورلاث للمساعدة في ... خطفها. لقد فوجئت قليلاً بأنها استطاعت تمييزهما بسهولةٍ شديدة؛ لأن ما شاهدته في الغالب منهما كان رأسيهما من الخلف عندما كانا يشيحان بوجهيهما، أو قممَي رأسيهما أو غطاءَي رأسيهما عندما كانا يُحدقان نحو الأرض. لكنها ميزت شخصيهما بالفعل، ولم تشعر بأيّ خوف من التحديق في وجهيهما بالكامل الآن؛ لأنهما لم يُظهرا ميلاً أكثر من أي وقت مضى إلى النظر إليها.

كان هناك ثمانية عشر رجلاً في المحمل، بالإضافة إلى كورلاث وإليها؛ وكانت متأكدة من قدرتها على تمييزهم كمجموعة، ينتمي أفرادها بعضهم إلى بعض ويرتبطون معاً بروابطٍ قويةٍ مثل الدم أو الصداقة، حتى لو رأتهم متفرقين وسط حشدٍ من عدة مئات. كان لديهم وعيٌ متكاملٌ بعضهم ببعض، كما لو كان غريزياً. كانت تعرف شيئاً عن آلية

هذا النوع من الصداقة الوثيقة من خلال مراقبة ديدام وبعض رجاله، ولكن هنا، مع هذه المجموعة من الغرباء، كان يمكنها قراءتها بسهولة كما لو كانت طُبعت على صفحة أمامها، وقد جعل صمتهم — حيث لم يهتم أي منهم بإلقاء أي نوع من التحية التي اعتادت عليها هاري، مثل مرحبًا وكيف حالك، ولكن بلغة أرض التلال — الأمر أكثر وضوحًا أمامها. وبدلاً من أن تشعر بأن وحدتهم مخيفة، وأنها وحيدة ومنبوذة تمامًا وسطهم، وجدت أنه من المريح أن وجودها ما كان ليُزعجهم إلا ربما على نحو بسيط. وبدأ أن هذا الوعي الغريزي قد شملها أيضًا، وتقبلها؛ فهي غريبة عنهم، وواحدة من الأغراب، وامرأة، ومع ذلك فهي موجودة هنا، وكان هذا هو كل شيء.

جلست عندما جلس الجميع، وبينما كانت تُمرر الأوعية والأطباق، وجدت أن وعاءها وطبقها قد ملئا وأعيدا إليها دون أن تُضطر إلى فعل أي شيء سوى قبول ما قُدّم إليها. ثم أخرجت السكاكين، من أعلى الأكمام وتحت الأوشحة وأسفل قمم الأحذية، وأخرج كورلات سكينًا إضافيًا من مكان ما وقُدّمه لها. تحسّست حدّ السكين على نحو حريص بإصبع واحدة، ووجدته حادًا للغاية؛ وسعدت على نحو طفيف لأنه قد سُمح للأسيرة أن تستعمل أداة حادة للغاية كهذه. قالت في نفسها: لا شك أن سبب ذلك هو قدرة أي من هؤلاء الرجال على استخلاصه من يدي عند أول بادرة على التمرد من جانبي، دون حتى أن يتوقف عن مضغ طعامه. بدأت تقشر ثمرة الفاكهة ذات القشرة الصفراء الموجودة في طبقها، مثلما كان يفعل الرجل الجالس في الجهة المقابلة لها. بدا الأمر كما لو أن سنواتٍ قد مرّت منذ واجهت السير تشارلز عبر مائدة الإفطار.

لم تلاحظ متى بدأت المحادثة؛ لقد شرعوا فيها على نحو سلس للغاية بحيث لم يكن هناك شيء مفاجئ للغاية كبدائية، وكانت هي مشغولة بكيفية التمكن من تناول طعامها. وقد دلت نبرة أصوات هؤلاء الرجال أنهم كانوا يقدمون تقارير إلى ملكهم، وقد نوقشت فحوى التقارير باعتبارها أمرًا مهمًا بين كل من يجلسون على المائدة. لم تفهم أي كلمة من ذلك؛ لأنها لم تستطع أن تستنتج من حديثهم المسترسل بلغتهم كلماتٍ مثل «أجل» و«كلا» و«من فضلك» و«جيد»، لكنها وجدت أنها لغة يسرّ المرء أن يستمع إليها، تتضمن مجموعة متنوعة من الأصوات والمقاطع التي ظنّت أنها ستُناسب أي حالة مزاجية أو طريقة للتعبير. بدأ ذهنها يشرد بعد قليل من الوقت. فقد استنفدت قواها بعد الرحلة الطويلة، لكن توتر موقفها — لن أقول إنني مرعوبة تمامًا، هكذا قالت لنفسها — ساعد على نحو جيد في أن يُبقيها يقظة وواعية بصعوبة بكل ما كان يحدث حولها. وتساءلت عما إذا كان

بإمكانها أن تستدلَّ عبر أيِّ من هؤلاء الرجال بنظرة أو إيماء نحوها إذا تطرَّفت الحادثة إلى موضوع فتاة الأغراب الجالسة بينهم.

ولكن بعد الاستحمام، والملابس النظيفة، حتى وإن كانت غريبة، والطعام الجيد؛ لأن الطعام كان جيداً للغاية، وحتى الصحبة؛ إذ بدا لها من تعاملاتهم وهي برفقتهم أنهم يُبدون لها التقدير، أصرَّ عقلها على الاسترخاء. لكن هذا الاسترخاء كانت له مميزاتٌ وعيوب في أحسن الأحوال؛ لأنه مع تراجع التوتر ولو بقدرٍ بسيط، عادت أفكارها بلا هوادة إلى محاولة كشف غموض سبب وجودها في هذا المكان.

قالت في نفسها: إنه أمرٌ له علاقة بذلك الاجتماع الفاشل في القصر، بين وفد سكان التلال وقادة الأغراب، على الأرجح. لكن لماذا؟ لماذا أنا؟ إذا كان من الممكن أن أخطف من سريري — أو مقعد نافذتي — فيمكنهم إذن خطف شخصٍ ما من سريرٍ آخر — ويبدو أن السير تشارلز أكثر احتمالاً باعتباره شخصيةً سياسية. وهنا كبحت ابتسامة عريضة. وإن كان من المستبعد للغاية أن يُوضع على سرج الحصان أمام الفارس الذي كان سيخطفه. لا بد أن هناك سبباً أفضل من ذلك المتعلق بالضخامة الجسدية قد جعلهم يختطفونها بدلاً من ... أي شخصٍ آخر كان بإمكانهم اختطافه. لقد اختطفت خلسةً من منزلها، رغم الأبواب المغلقة وكناب الحراسة، ووجود السير تشارلز والليدي أميليا نائمين في غرفتهما على بُعد خطواتٍ قليلة منها. بدا الأمر كما لو أنَّ بإمكان كورلاث — أو أتباعه — السير عبر الجدران؛ وإذا أمكنهم السير عبر جدران القصر وتفادي كلاب الحراسة، فمن المحتمل أنه يمكنهم السير عبر أيِّ جدرانٍ أخرى — على الأقل جدران هوملاندية — قد يختارونها. إنه أمرٌ خارق للطبيعة. لقد تذكَّرت أن ديدام، الذي تثق في صواب رأيه أكثر من أي شخصٍ آخر في القاعدة، والذي يعرف أكثر من أي شخصٍ آخر من أهل هوملاند عن بلده التي يعيش فيها، يؤمن بأن بعض تكتيكات سگان التلال تتَّسم بأنها خارقة للطبيعة. وهذا ما أعادها إلى المربع الأول من هذه اللعبة: لماذا هي؟ لماذا هاري كرو، الإنسانية التي يستضيفها أهل القصر كحالةٍ تستحق الإحسان، والتي جاءت لهذا البلد للمرة الأولى منذ بضعة أشهر فقط؟ كانت هناك إجابةٌ واحدة واضحة، لكنها تجاهلتها بمجرد ظهورها. إذ كانت سخيفةً للغاية، وهي مقتنعة بأنه بغض النظر عن النقائص التي قد يتَّسم كورلاث ورجاله بها، فإن الطيش ليس إحداها. وكورلاث لم ينظر إليها بالطريقة التي ينظر بها الرجل إلى امرأةٍ يُخطط لأن تُشاركه فراشه، ولا بد أن اهتمامه كان قوياً للغاية بالفعل كي يخوض مثل هذه المتاعب الجمة لخطفها. إنه ينظر إليها بدلاً من ذلك كرجلٍ ينظر إلى مشكلةٍ يُفضل

كثيراً ألاّ يتعرض لها. وهي تظنُّ أنه كان مفخرةً من نوعٍ ما أن تُعدَّ مصدرَ إزعاجٍ لأحد الملوك.

كما أنها تجاهلت بسرعة، وعلى نحوٍ شبه تلقائي، فكرة أن يخرج أهلها الحاليون في حملة للعثور عليها، وجلبها إلى البيت مرةً أخرى. إن سكان التلال كانوا على دراية بكل بقعة في صحرائهم؛ على عكس أهل هوملاند. كما أن إقامتها في القصر كحالةٍ تستحقُّ الإحسان لا تضمن بذلَ جهودٍ غير عادية. قالت لنفسها بتجهمٍ: إذا خَمَنَ جاك أين أنا، فسيظنُّ أنني لست بحاجة إلى الإنقاذ ... لكن ديك المسكين سيتمكّن من إقناع نفسه بأن هذا خطؤه، فهو من جاء بي إلى هنا في المقام الأول. ... ومن ثم أخذت عيناها ترمشان على نحوٍ سريع، وعَضَّتْ شَفَتَيْهَا. وقد تنمَّلت ساقاها اللتان كانتا تجلس عليهما مربعتين، وآلمها أسفل ظهرها. فقد كانت معتادة على الجلوس على كراسي. بدأت بنحوٍ خفي في تدليك فخذيها بضربات من قبضتيها حتى بدأت تشعر بـسريان الدم فيهما بنحوٍ مؤلم مرةً أخرى، ثم كرَّرت الأمر على بطني الساقين. وبحلول الوقت الذي تمكَّنت فيه من الإحساس بأصابع قدميها، انحسر الشعور المؤلم حول عينيها، وتمكَّنت من التوقف عن الرمش بعينيها.

دَخَلَ الخدم إلى الخيمة الملكية مرةً أخرى، ورفعوا محتويات المائدة. واستُبدلَ بالخبز والفواكه أوعيةٌ بها شيءٌ داكن ولامعٌ قليلاً. وعندما قُدِّمَ إليها قليل منه، اكتشفت أنه لزجٌ ومقرمش وحلو للغاية، وبحلول الوقت الذي أكلت فيه معظم ما قُدِّمَ لها بسخاء، وما تبقى التصقَ بوجهها وأصابعها، لاحظت أن وعاءَ من الماء ومنديلٍ مائدةٍ نظيفاً قد وُضِعَا بجوار مرفق كل شخص. ثم ساد هدوءٌ لحظيٌّ بينما كان يتنهد الجميع ويتمطّى، وقال كورلاث بضع كلمات للخدم، غادر أحدهم الخيمة على إثرها وظلَّ الثلاثة الآخرون بالداخل للمرور على الجدران؛ لإطفاء المصابيح جميعها باستثناء المصباح الذي علّق منخفضاً على المائدة. لمعت الجدران المنسوجة الثقيلة في ضوء النهار؛ لذا أصبح الداخل مُضاءً على نحوٍ شاحب، وأخذ يحترق المصباح فوق المائدة مثل شمسٍ صغيرةٍ مُلقية أنصاف ظلال في الأركان الهادئة من الجدران البيضاء المتوهجة وفي حدقات العيون. وساد الصمت في الخيمة.

ثم عاد الخادم، وهو يحمل كيساً جليداً داكن اللون نحاسي الحواشي على شكل قرن شراب. وقد كان له شريطٌ يتدلّى من عنقه وقاعدته، والذي وَضَعَهُ الخادم فوق كتفه. وقُدِّمه أولاً لكورلاث، الذي أشار إلى الرجل الذي عن يمينه. فقُدِّمه الخادم إليه بجديّة، وانحنى للتحية، ثم غادر، ولم يكن هناك في الخيمة الآن سوى هؤلاء العشريين الذين يجلسون حول المائدة.

شرب الرجل الأول رشفةً واحدة، ورأته وهو يتركها تنزلق ببطءٍ عبر حلِقِه. ثم وازنَ الكيس على المائدة وحدَّق في المصباح المشتعل. بعد لحظةٍ بدا على وجهه تعبيرٌ كان واضحاً للغاية لدرجة أن هاري شعرت بأنه كان ينبغي عليها تمييزه على الفور؛ لكنها لم تفعل. فصدّمت بسبب قوته وبسبب فشلها في قراءته، وبعد ذلك اختفى. نظر الرجل إلى أسفل، وابتسم، وهزَّ رأسه، وقال بضغ كلمات، ومَرَّ القرن للرجل الجالس عن يمينه.

أخذ كلُّ رجل رشفةً واحدة، وابتلعها ببطء، ثم حدَّق في المصباح. وتكلَّم بعضهم، ولم يتكلّم البعض الآخر. رجل واحد، ذو بشرة داكنة بسبب الشمس مثل لون القرفة، عدا نديةً شاحبة على فكِّه، تحدث لمدة دقيقة أو دقيقتين، فصدّرت كلمات تنمُّ على المفاجأة من العديد من مُستمِعيه. نظروا جميعاً إلى كورلاث، لكنه جلس صامتاً وغامضاً، وقد أسند ذقنه إلى يده؛ ومن ثَم انتقل قرن الشراب إلى الرجل التالي.

هناك رجلٌ واحد تذكَّرتُه هاري على وجه الخصوص؛ كان أقصر من معظم الموجودين، بينما كانت كتفاه عريضتين للغاية ويداه كبيرتين. كان شعره رمادياً وتعبير وجهه متجهماً، وكان وجهه تنتشر فيه التجاعيد بشدة، ولكنها لم تستطع التخمين هل كان ذلك بسبب التقدُّم في السن أو الخبرة أو كليهما. وقد جلس بالقرب من نهاية المائدة على الجانب المقابل لها. وقد شرب، وحدَّق في الضوء، ولم يتفوّه بكلمة، ومَرَّ القرن للرجل الذي عن يمينه. لقد أظهر كلُّ الآخرين، حتى أولئك الذين لم يقولوا شيئاً، تعبيراً ما على وجوههم؛ تعبيراً ظنَّت هاري أنه واضحٌ لأي شخص لديه أعينٌ ليرى ما وراءه، إحساس قوي، سواء كان متعلقاً بالبصر أو بالشعور — لم تستطع حتى تخمين هذا. لكن هذا الرجل ظلَّ بلا أي تعبير، جامداً مثل الجلد والدم والعظام الموجودة في جسده. يمكن للمرء أن يرى عينيَّه تتحرَّكان، وصدَّره يرتفع وهو يتنفس، لم يكن هناك أيُّ مؤشرات لمزيد من التكهّنات. تساءلت ما اسمُه، وما إذا كان قد ابتسم من قبل من الأساس.

بينما كان الكيس الجلدي يدور حول نهاية المائدة ويظهر في الجانب الآخر، ولم يُعد بإمكان هاري رؤيةً وجوه شاربيه؛ أسقطت عينيها على يديها، وهنَّأت نفسها على مدى هدوئها، حيث كانت الأصابع مسترخية، ولم تُمسك بعضها ببعض أو تفرك مفاصلها حول كوبها. كان الكوب لا يزال نصف ممتلئٍ بسائلٍ شاحب، حُلُو المذاق مثل العسل بعض الشيء، لكن دُون (ظنَّت أنها تستطيع الآن أن تستنتج) مخاطر شراب الميد المُسكر ذي المذاق اللطيف، الذي جعلها هذا الشراب تتذكَّره. حرَّكت إصبعاً واحدةً على نحو تجريبي، ونقرت به على الكوب، ثم حرَّكته إلى الخلف ثانية، وأعدت ترتيب يديها كسيِّدة تستعدُّ للحياكة، وانتظرت.

لاحظت وصول قرن الشراب إلى الرجل الذي عن يسارها، ولاحظت الارتجاف الطفيف الذي سرى فيه قبل أن يتكلم مباشرة؛ لكنها أبقت عينيها إلى أسفل، وانتظرت أن يمدَّ كورلاث يده متجاوزاً إياها ويأخذ قرن الشراب الذي ينتظر من يتلقاه. فلم يكن هذا شيئاً من المتوقع أن ينضم إليه أحد الأغراب — وهذا أمرٌ جيد. وأياً ما كان ذلك المشروب، فإن مشاهدة وجوه الرجال عندما كانوا يشربون جعلتها تشعر بقليل من الرجفة.

ولذا فقد فوجئت كثيراً عندما دخلت إحدى يدي كورلاث في نطاق رؤيتها، ولمست ظهر إحدى يديها بالسبابة. فرفعت بصرها.

قال: «تناولي رشفة.» مدت يدها بصعوبة، وأخذت الكيس النحاسي الحواشي من الرجل الذي كان يمسكه، مبقية عينيها على الكيس نفسه فقط. كان دافئاً بفعل كل الأيدي التي أمسكت به، وعن قرب أمكنها رؤية مدى تعقيد التركيبات النحاسية الملتوية. وقد فاحت منه رائحة خفيفة، نفاذة بعض الشيء، ومشجعة بنحو غامض. فأخذت نفساً عميقاً.

قال كورلاث: «فقط رشفة واحدة.»

منع وزن قرن الشراب يديها من الارتجاف. أرجحت رأسها إلى الوراء وأخذت أصغر رشفة ممكنة؛ بضع قطرات فقط. وابتلعتها. كان شراباً غريباً للغاية، من حيث قوة الطعم، لكنها لم تستطع معرفة اسمه؛ إذ لم تتذوق شراباً مثله من قبل.

ومن ثم رأت سهلاً واسعاً من الأرض، بألوان خضراء وصفراء وبُنية، مع حشائش طويلة، وجبالٍ عند حافته، تلقي بظلالٍ طويلة. برزت الجبال على نحوٍ مفاجئ، مثل الأشجار، في مقابل تسطح السهل؛ وبدت شديدة الانحدار والوعورة، ومع وجود الشمس خلفها، بدت سوداء اللون تقريباً. ورأت أمامها مباشرة فجوة صغيرة في تلك الجبال، كانت أشبه بتوقفٍ قصير في مسيرة القمم الحادة للجبال، وقد كانت عاليةً فوق أرض السهل. وأعلى جانب الجبل، بالقرب من القمة، كانت تُرفرف رايةٌ برّاقة.

ورأت فرساناً، لم يكن عددهم يزيد عن أربعين، يجرون بخيولهم بأسرع ما يمكن على المسار الصخري الوعر، وقد أخفضت الخيول رؤوسها وألقتها إلى الأمام، وهي تراقب أقدامها، وتتأرجح مع خطواتها، بينما الفرسان يبذلون قصارى جهدهم للتطلع إلى الأمام، كما لو كانوا يخشون الوصول بعد فوات الأوان. وخلف الفرسان كان يأتي المشاة، وقد علّقوا الأقواس فوق ظهورهم على نحوٍ مائل، يتقاطع مع كِنانات السهام؛ ربما كان عددهم خمسين، وقد كانوا يتبعون الخيول، بخطواتٍ أسرع مثل خطواتها. وتسير بجانبهم أشياء برّاقة طويلة ومتحركة ذات لون بُني، مرنة كالمياه، تنزلق من الضوء إلى الظل بسرعة كبيرة

بحيث لا يمكن تمييزها، وقد كانت ذات أربع أقدام، على ما يبدو؛ ربما كانت كلاباً. انعكس ضوء الشمس على مقابض السيوف، والروابط المعدنية للأحزمة وواقيات السواعد الجلدية، والدروع المتعددة الأشكال، والأوتار الفضية اللون للأقواس.

كانت الجوانب البعيدة للجبال أقلّ انحداراً، ولكن ليست أقلّ وعورة. وامتدَّت التلال السَّفْحِيَّة المتكسَّرة إلى مسافةٍ طويلة، عبر الامتداد الضبابي، ونما قليل من العشب الجافّ أو بعض الشجيرات المتقزمة هنا وهناك. إن الوصول أسفل الفجوة في الجبال عبر أي مسارٍ آخر غير الوادي كان سيصبح مستحيلاً، على الأقل بالنسبة إلى الخيول. وكانت هذه الفجوة من النوع الذي يمكن لقوة صغيرة ثابتة العزم أن تُدافع عنها، مدةً قصيرة.

تجمّع الفرسان والرُماة تحت الراية البراقة في المساحة المنبسطة الصغيرة خلف الفجوة، وأصبحوا مجموعةً واحدة. توجد هناك هضبة صغيرة غير منبسطة، بها شقوقٌ ضحلة، واسعة بما يكفي للمعسكرات الصغيرة، وتؤدي إلى الممرات الصخرية على كلا الجانبين، مع وجود رفٍّ طويل منخفض، متدلٍّ إلى جانب واحد، يُشكِّل ما يشبه الكهف. وتضيّق الهضبة لتنتهي إلى شقٍّ يتسع بصعوبة لمرور اثنين من الفرسان على سهوة جواذيهما جنباً إلى جنب، حيث تتقارب قمم الجبال بعضُها من بعض للغاية، قبل أن تؤدي مباشرة إلى الوادي المغطّى بالشجيرات، والمنحدرات النازلة الوعرة وراءه.

توقّف الفرسان وترجّل بعضهم، وتحرك البعض حتى وصل إلى الحافة واستكشف المكان. كان يتلألُ شيءٌ ما عند الحافة البعيدة للتلال السفحية، وهو أكثرُ قتامةً من أن يكون عشباً، وأكثرُ ارتفاعاً من أن يكون مياهاً. وعندما اندفع عبر تلك التلال، اتَّضحتْ هُويته؛ إنه جيش. سار هذا الجيش ممتطياً خيوله بسرعةٍ أقل من الفرقة الصغيرة التي كانت تُرتَّب الآن نفسها داخل وحول الممر، لكن تعجُّلهم كان أقل. إذ إن أعدادهم الهائلة كانت هي كلّ التكتيكات التي يحتاجون إليها.

لكن الجيش الصغير الذي كان ينتظرهم نظم نفسه بجديّة كما لو كانت لديه فرصة للنجاح فيما هو مُقبل عليه، وربما كان بعض التأخير من جانب الجيش الضخم الذي سيواجهونه هو كلّ ما كان يتطلبه الأمر. تلاًل الغبارُ وراء التلال، ولمع مع اقتراب فرقةٍ وراء أخرى من الجبال ...

ثم بدأ الوقت في التسارع بجنون، ورأت قائد الجيش الصغير يهبط إلى الوادي وبعض جنوده خلفه، وقد استلَّ سيفاً يومض باللون الأزرق في يده. كان يمتطي سهوةً حصان مرتفع ذي لونٍ كستنائي، برّاق مثل ضوء النهار، واكتسح جنوده التلَّ خلفه. لم تستطع

رؤية الرماة، لكنها رأت وابلًا من السهام ينهمر مثل المطر من الأشجار المنخفضة على جانبي الفجوة. قفزت الفرقة الأولى من الجيش الآخر تجاههم بحماسة، وواجه رجلٌ يمتطي صهوة حصان أبيض مرتفع مثل الحصان ذي اللون الكستنائي — كانت شرائطُ حمراء معقودةً في ذيله الطويل — صاحبَ السيف الأزرق بسيف يتلأأ بلون الذهب ...

ثم وجدت هاري نفسها مرةً أخرى داخل الخيمة، وقد يخَّ صوتها كما لو كان من الصراخ، وقد كانت واقفةً على قدميها، بينما تُمسكها قبضتان قويتان من كتفيها، وأدركت أنها بدون دعمهما كانت ستقع على ركبتيها. لم يزل وهج السيوف الشديد في عينيها. فرمشت بعينيها وهزت رأسها، وأدركت أنها كانت تُحدق في المصباح؛ لذا أدارت رأسها ونظرت نحو كورلاث، الذي ينظر نحوها وقد ارتسم على وجهه — لاحظت هذا صدومَةً — تعبيرٌ مثل الشفقة. لم تستطع أن تفكر في شيء لتقلوه، فهزت رأسها مرةً أخرى، كما لو كان لتطرد منه كلُّ ما رآته للتو؛ لكنه ظل حيث كان.

ساد الصمت، لحظةً، أو ربما مدةً طويلة. أخذت نفساً مرة أو مرتين، شعرت بأن الهواء قاسٍ على نحوٍ غير طبيعي في حلقها الجاف. وبدأت تشعر أن كومة البُسط تضغط على قدميها، وخففت يدا كورلاث من قبضتيها على كتفيها. ووقفًا، الملكُ وأسيرته، يواجه كلُّ منهما الآخر، ونظر نحوهما جميع الرجال على المائدة.

قال كورلاث في النهاية: «أنا أسف. لم أظنَّ أن تأثيره عليك سيكون بهذه القوة.» بلغت ريقها ببعض الصعوبة، فوجدت النكهة البرية الجميلة للشراب المجنون الذي تذوّقته للتو لا تزال عالقةً في أركان فمها، وفي أركان عقلها. فقالت: «ما هذا الشراب؟» أوماً كورلاث بإيماءٍ طفيفة، تدل على التقليل من شأنها أو جهلها. وقال: «المشروب ... نحن نسميه ميلداتار ... أي: ماء الرؤية، أو ماء البصيرة.»

«إذن ... فكل ما رأيته ... قد رأيته بالفعل. ولم أكن أتوهمه.» «تتوهمينه؟ هل تقصدين أن تسألي عما إذا كنت قد رأيت أمورًا حقيقية؟ لا أعلم. يتعلم المرء، في النهاية، عادةً أن يعرف، وأن يصبح قادرًا على القول إن كان من المفترض أن يُصدق الرؤى أو أنها ... مجرد خيالات. ولكن أن يتوهمها مثلما تقصدين — كلا. إن هذا الماء يُرسل هذه الأشياء، أو يجلبها.»

ساد الصمت مرةً أخرى، لكن لم يشعر أحدٌ بالاسترخاء، خاصةً هي. إذ يحمل الأمر ما هو أكثر من هذا؛ أكثر من الهلوسة البسيطة — أكانت بسيطة بالفعل؟ نظرت إلى كورلاث، في عبوس. وقالت بهدوء كما لو كانت تسأل عن هلاكها: «وماذا يفعل أيضًا؟»

قال كورلاث، كما لو كان يؤجل الأمر: «هناك شيء آخر». تردّد، وبعد ذلك تحدث بضع كلمات بلغة لم تتعرف عليها. لم تكن اللغة الدارية المعتادة التي سمعت السكان الأصليين حول القصر يتحدثون بها، أو اللغة الأكثر حذرًا بعض الشيء التي يستخدمها ديدام والسيد بيترسون؛ كما أنها لم تبدو مثل اللغة المختلفة النبرة التي يتحدث بها سكان التلال، والتي كانت لا تزال معروفة لمن يتقنون اللغة الدارية. كانت هذه لغة ذات طريقة نطق أكثر صرامة وقوة، على الرغم من أن العديد من الأصوات — الغريبة عن أذنيها التي اعتادت على سماع لغة أهل هوملاند — كانت شائعة في اللغة الدارية المألوفة لديها. نظرت إلى كورلاث، في حيرة، وهو يسترسل قليلاً في الحديث بها. لكنها لم تعرف شيئاً عن هذه اللغة.

قال كورلاث في النهاية: «هذه اللغة ليست مألوفة لديك، أليس كذلك؟» وعندما هزت رأسها بالنفي لتؤكد هذا، قال: «أجل، بالطبع كلا، فكيف يمكن أن تصبح كذلك؟» ومن ثمّ التفت. وقال: «علينا أن نجلس مرة أخرى»، وجلس بتأنٍ كبير. جلست هي أيضاً، في ترقّب. حيث عادت النظرة التي رأتها من قبل على وجهه، نظرة رجل يواجه مشكلة كان يُفضل تجنبها، لترسم عليه، لكنها تغيرت. كانت نظرتُه تدل الآن على أنه قد فهم ما المشكلة، وأنها أكثر خطورة مما كان يتوقع.

فقال: «هناك أمران. إن ماء الرؤية لا يحدث مثل هذا التأثير على الجميع. إنه فقط يجعل معظم الناس يصابون بالإعياء. وهو يُسبب صداماً لعدد قليل؛ صداماً مصحوباً بألوان غريبة وحركات غريبة تجعلهم يصابون بالدوار. لكن هناك قلة قليلة ممن يرون رؤى على نحو واضح — نحن التسعة عشر، الموجودين هنا الليلة، جميعنا شربنا ماء الرؤية عدة مرات. ولكن حتى بالنسبة إلينا، يرى معظمنا فقط صورة موجزة ومفاجئة — أحياناً يستمر المشهد لوقت قصير للغاية بحيث يصعب تمييزه بدقة. وغالباً ما يكون عن شيء مألوف: الأب، الزوجة، الحصان. هناك سمة مميزة لهذه الصور، أو الذكريات، لا تجعلها تشبه أي شيء آخر، مثل ذكرى طوعية قد تستدعيها بنفسك. لكن في غالب الأحيان هذا كل شيء».

أحياناً قد يرى أحد سكان التلال رؤى أكثر من ذلك. مثلما أرى أنا. ومثلما أثبتت أنتِ للتو أنكِ تَرين. وأنا لا أعرف لماذا رأيتِ أنتِ ما قد رأيت. لقد أخبرتنا عن جانبٍ مما رأيته بينما كنتِ تَرينه. ربما شاهدتِ معركةً من الماضي — أو معركة لم تحدث قط — أو معركة قد تحدث في المستقبل؛ في دامار، أو ... في أحد البلاد الأخرى..

وقعت كلمات «قد تحدث في المستقبل» على سمعها كما لو كانت هي الهلاك الذي طلبته، وتذكّرت التألق الغاضب لملك أرض التلال ذي العينين الصفراوين وهو يقف أمام القصر هناك. فقالت، وهي مضطربة، وأدركت بصعوبة أنها تحدّثت بصوت عالٍ: «لكن ... أنا لستُ حتى واحدةً من أتباعك من سكّان التلال. لقد وُلدت ورُبيت في مكانٍ بعيد ... في الوطن. لقد أتيتُ إلى هنا منذ بضعة أشهر فقط. ولا أعرف شيئاً عن هذا المكان.»

قال كورلاث: «لا تعرفين شيئاً؟ أنا قلت لك إن هناك أمرين. وقد أخبرتك الأمر الأول. هو أنك قد أخبرتنا بما رأيته بينما كنتِ تريّنه. لكن هذا هو الأمر الثاني: لقد تحدّثت باللغة القديمة، وهي ما نسميها لغة الآلهة، التي لا يعرفها أحدٌ سوى الملوك والسحرة، وأولئك الذين يسمحون بتعليمها لهم. اللغة التي تحدّثتُ أنا بها إليك للتو، والتي لم تستطعي أن تُميزيها؛ فقد كنتُ أكرر الكلمات التي قلّتها بنفسك، قبل لحظة.»

الفصل السادس

تذكّرت المزيد عن ذلك اليوم. لقد جلست على كومةٍ من الوسائد تبعد قليلاً عن المائدة الطويلة بينما كان يتحدث الملك ورجاله؛ ولم تعلم إن كانوا قد تحدثوا عنها أم لا، لكنها لاحظت أن أحداً غير كورلاث لم يسمح لعينيّه مطلقاً بالنظر نحوها. وقد اختفى الشعور الذي كان لديها في وقتٍ سابق، قبل أن تتذوق ماء الرؤية، بأن التقارب بين الملك ورجاله يدعمها على نحوٍ ما؛ فقد كانت تشعر بالضياع والوحدة البائسة، وقرّرت أنه عندما يصبح هناك ثمانية عشر شخصاً يتظاهرون بأن المرء ليس موجوداً داخل مكانٍ مغلقٍ صغير، فإن هذا أمرٌ أسوأ من شخصين يتظاهران بأن المرء ليس موجوداً في الخارج تحت السماء. تراقصت الظلال بنحوٍ غريب عبر الخيمة، وبدت الأصوات مكتومة. كان هناك رنينٌ في أذنيها — رنين لا يشبه ذلك الناتج عن إحساس الخوف المعتاد نتيجة تدفق الدماء بشدة عبر جسد المرء، ولكنه رنينٌ حقيقي مثل ذلك الذي يصدر عن أجراسٍ بعيدة. حتى إنه كان بإمكانها تمييزُ النغمات تقريباً. أم إنها كانت نغماتٍ بشرية، الذرات المتغيرة لشخصٍ يتحدث، في مكانٍ بعيد؟ يبدو أن الطعم الذي لا يزال عالقاً على لسانها قد غلف عقلها أيضاً. وقد كانت متعبة، متعبة للغاية ...

عندما غادر فرسانُ كورلاث، وقف ينظر إلى جائزته التي اقتنصها. لقد استغرقت في النوم، ولا عجب في ذلك؛ لقد كانت تبتسم قليلاً خلال نومها، لكنها ابتسامة حزينة، جعلته غير سعيد. فعلى الرغم من التكريم الرسمي الذي منحه لها، حيث أجلسها عن يساره، وسخرَ خدمه الخاصّ لخدمتها مثلما يخدمونه، تجهّم وجهه؛ فقد كان يعلم جيداً أنه باختطافها من أهلها قد فعل شيئاً يدفعه إلى الخجل، حتى لو لم يكن لديه أيُّ بديل؛ حتى لو كانت هي وقدرة الكيلار التي لديها ستُفيد بلده الحبيب، على نحوٍ لم كان ليحلبه بخلاف ذلك. ربما كان يمكنها أن تتعلم أن ترى شيئاً مما جعل أرض التلال وشعبها

عزیزین علیہ کائنسان، وليس كَمَلِك ... ربما ستربطها هبُّها بهم. ربما ستركهم بسبب إبعادها عن أرضها وعائلتها. ومن ثم تنهَّد. لم ترغب زوجة فورلوي الشابة في أن تكره أرض التلال، لكن ذلك لم يساعدها.

استيقظت هاري في الظلام. لم تعرف أين هي؛ لم يكن الشيطان الموجودان تحتها يُشبهان الوسادة والمرتبة، ولم تكن رائحة الهواء تشبه على الإطلاق رائحة هواء القصر، أو هواء هوملاند. شعرت لحظةً بتصاعد خوفٍ هستيري بداخلها، وكانت واعيةً فقط بمحاولاتها كبَّحَ، لم تستطع التفكير، حتى من أجل تحديد سبب رغبتها في كبت الهلع؛ لقد خنقت كبرياؤها خوفها على نحوٍ تلقائي بأفضل ما استطاع. بعد ذلك، رقدت وهي مُجهدة، وبدأت تتذكر المكان الذي هي موجودة فيه، وأدركت أن رائحة الهواء هي رائحة أنواع الخشب الغريبة المصنوعة منها الصناديق المنحوتة الموجودة في خيمة ملك أرض التلال. ولكن بينما هي راقدة على ظهرها تُحدق في الظلام، بدأت الدموع تنساب من عينيها وتتدرج على خديها وتبلل شعرها، وكانت متعبةً للغاية لدرجة أنها لم تستطع مقاومتها. لقد انسابت حتى على نحوٍ أسرع، إلى أن التفت ودفنت وجهها في الوسائد الخشنة لإخفاء صوت البكاء الذي لم تتمكن من إيقافه.

كان كورلاث نومه خفيفاً. وبينما كان مستلقياً في الجانب الآخر من الخيمة، فتح عينيهِ والتفَّ مستنذاً إلى أحد مرفقيه، ونظر دون أن يتمكن من الرؤية بوضوح نحو الركن المظلم حيث ترقد أسيرته من الأغراب. وبعد مدةٍ طويلة من تمكن هاري من النوم مرةً أخرى بعد أن أنهكها البكاء، ظل ملك أرض التلال مستلقياً دون نوم، يواجه الحزن الذي تسبَّب فيه ولم يستطع تخفيفه.

عندما استيقظت هاري مرةً أخرى، كان باب الخيمة الذهبي اللون قد رُفع، وسطعت أشعة الشمس على البُسط الثقيلة السمكية، وامتدَّت نحو عينيها وأيقظتها. ومن ثم جلست. كان لا يزال هناك عددٌ من الوسائد السمكية تحتها وحولها؛ حيث ترك النمط المطرز للوسادة أثراً على ظهر يدها التي أسندت خدَّها إليها. وأخذت تتنَّاب وتتمطَّى، وعلى نحوٍ حذر تنفض عن عضلاتها مخاوفَ منتصفِ الليل. اقترب منها أحدُ الرجال الذين كانت لديهم علامةٌ على جبينهم، ونزل على ركبته، ووضع أمامها طاولةً صغيرة مع إبريق وحوض ومناشف وفُرش.

لم تر أيَّ أثر لكورلاث. وبدت الخيمة كما كانت عندما دخلتها في اليوم السابق لأول مرة، وقد أزيلت أجزاء المائدة المنخفضة، ورفع المصباح المتدلي من القمة مرةً أخرى.

عندما انتهت من غسل وجهها، قُدم لها وعاءٌ به حبوب غير مألوفة، كانت ساخنةً ويتصاعد منها البخار مثل العصيدة التي يتناولها أهل هوملاند، ولكنها لم تكن من أي نوعٍ حبوب تعرفه. كان مذاقها جيداً، وفوجئت عندما تناولت كل الكمية بشهية جيدة. وبعد أن وضعت الملعقة، جاء أحد الخدم مرةً أخرى، وانحنى، وأشار إلى أنها ينبغي أن تخرج. شعرت أن ثيابها غير مهندمة؛ إذ كانت ترتدي الملابس نفسها التي نامت فيها، لكنها حاولت بأفضل ما تستطيع أن تبسط تجاعيدها، ولاحظت أنها لم تتجعد على نحو سيئ مثل ملابس أهل هوملاند، ورفعت ذقنها، وسارت إلى الخارج لتجد رجلاً آخر يقف ومعه حذاءٌ كي ترتديه، ومقعد قابل للطلي كي تجلس عليه وهي ترتبطه. لقد شعرت كما لو كانت حمقاء، أطلقت، وإن كان هذا ضد رغبتها، في مجتمعٍ منظم للغاية يرغب الآن في أن تتبع هي أيضاً طريقته في التنظيم: مثل حبة الرمال التي تدخل في قوقعة المحار. ماذا لو كانت الحبة لا تريد أن تصبح لؤلؤة؟ هل حدث من قبل أن طُلب منها الخروج بهدوء والعودة لموقعها القديم كجزء من قاع المحيط؟

هل كانت تريد العودة؟ ما الذي كان يجب عليها أن تعود إليه؟ ولكن ما الذي كان يظنُّه ديكي عن سبب غيابها؟ لم يعد لديها مزيد من الدموع في الوقت الحاضر، لكن جفنيها كانا متيبسين كما لو كانا مصرعين، وحلقها كان يؤلها. كان الناس يتحركون على عجلٍ عبر المساحة المكشوفة أمام خيمة الملك، وبينما كانت تُراقب ما حولها، بدأ أصحاب الخيام البعيدة في تفكيكها. وبدا أنها تتفكك إلى أسفل من تلقاء نفسها، كان كل شيء رشيقيًا وهادئًا. إذا كان أي شخص يُلقي أي لعنة طويلة على تمنع الجمادات، فقد كان يهمس بها فقط لنفسه. كان يجب أن يرى شقيقها هذا. وابتسمت في ألم.

أخذت عيناها تضيقان؛ إذ كانت عيناها تتكيفان ببطء مع ضوء الشمس الساطع. السماء فوقها زرقاء صافية تمامًا، بدرجة اللون الأزرق المعدني الفاتح. إنه الصباح مرةً أخرى؛ لقد نامت يومًا كاملاً تقريبًا. إلى اليسار، ارتفعت سلسلة صغيرة من الكثبان الرملية، على نحوٍ تدريجي جعلها لم تُدرك ارتفاعها إلا من خلال حقيقة أن خط الأفق بالنسبة إليها، من حيث كانت تقف، كان هو قممها. في مكان ما بهذا الاتجاه كان يوجد حصنُ الجنرال ماندي، والقصر، وشقيقها — وعلى مسافة أبعد، أبعد كثيرًا، في الاتجاه نفسه، عبر الصحراء والجبال، والسهول والبحار، كان يوجد وطنها. شعرت بالرمال تحت قدميها، التي لم تكن تُشبه الأرض المتماسكة المليئة بالينابيع في وطنها، كما أن الحذاء

الرقيق الغريب الذي ترتديه لا يُشبه أحذيتها التي كانت ترتديها في الوطن، وقد كان الوزنُ
الفضفاض الغريب لردائها يضغط على كتفَيها.

كانت خيمة الملك تُفكَّكُ أيضًا. في البداية، لُفَّت الجوانب وثُبَّتت، ورأت بدهشة أن
السجاد والمصابيح والصناديق والوسائد قد أزيلت بالفعل من الداخل، وكلُّ ما تبقى هو
الرمال وقد مُهِّدت وفُرِّغت على نحوٍ غريب ممَّا كان موضوعاً فوقها. تساءلت عمَّا إذا كانوا
سيُخرجونها كمسند إضافي إذا لم تكن قد استيقظت، أو ما إذا كانوا سيحزمون كلَّ ما
حولها، تاركين إياها على جزيرة صغيرة من الوسائد في بحرٍ من الرمال الخالية. وقد طُوِّيت
أعمدة الأركان والأعمدة الطويلة عند المركز على نفسها على نحوٍ ما، وهبط السقف على
الأرض على النحو المتَّزن نفسه الذي أُعجبت به في الخيام الصغيرة. ووجدت عشرةً من
الخدم يعملون على لفِّ أجزاء الخيمة وطيِّها وربطها. إذ انحنوا عليها بجِدٍّ وهم يعملون،
فأصبحت الخيمة الكبيرة بعد عدة دقائق فقط مُعبأةً داخل عشر حُرْمٍ أنيقة ذات لون
أبيض وأسود، يمكن حمل أيِّ منها على ذراع أحد الرجال. ومن ثَمَّ ساروا نحو صفٍّ من
الخيول التي وقفت بصبر، بينما تكدَّست على سروجها ذات الإطار العالي صناديقٌ وحُرْمٌ
مثل تلك التي وُضعت فيها أجزاء خيمة الملك. لاحظت مدى الترتيب الدقيق لكل حمولة،
حيث رُبِطت كلُّ قطعة منفصلة، واختُبرت من أجل التوازن قبل وضع القطعة التالية. وفي
النهاية فُحص كلُّ شيء من أجل تحقيق الراحة، وترك الحصان مع تربيته على الأنف أو
الرقبة.

كانت الخيول هي الحيوانات الأكثر شيوعاً في المخيم، وكان عددها أكثر بكثير من عدد
الناس. حتى خيول حمل الأمتعة كانت مرتفعةً وجميلة، لكن كان بإمكان هاري أن تميز
خيول الركوب؛ لأنها أرقى وأكثر كبرياءً، ويتلأأ جلدُها مثل الجواهر. وهناك أيضاً كلاب:
كلاب مرتفعة ذات أرجل طويلة ورءوس جميلة صغيرة طويلة وعيون داكنة مستديرة،
وفراءٍ حريري طويل لحمايتها من الشمس. وقد رُبط بعضها في أزواج، وقد قُسم الجميع
إلى مجموعاتٍ منفصلة من ثلاثة حيوانات أو أربعة. وقد كانت كلاب صيدٍ تعتمد على
حاسة البصر أكثر من حاسة الشم، حسبما ظنَّت هاري. وقد تجوَّلت المجموعات بحرية
مثل الخيول غير المقيَّدة، لكنها لم تُظهر ميلاً أكثر من الخيول للتجول خارج المخيم. وقد
لاحظت باهتمام أن عددًا قليلاً من خيول حمل الأمتعة قد رُبطت في أزواج، مثل الكلاب،
وظننت أنها ربما كانت طريقة تدريب، حيث يُربط الحيوان الأصغر سنًا مع الأكبر سنًا،
الذي يمكن أن يُعلمه حسن السلوك.

كانت هناك قطط أيضًا. لكنها ليست من النوع المنزلي الصغير الذي يمكن للمرء وضعه على حجره؛ فقد كانت هزيلة وطويلة الأرجل مثل الكلاب. وكانت ذات عيون خضراء أو ذهبية أو فضية، وفراء منقّط باللون البني والكهرماني والأسود. وقد بدت إحداها شبه منقطة، باللون الأسود على البني، في حين بدت التالية شبه مخططة، باللون البني المصفر على الأسود. وقد وُضع في أعناق بعضها أطواقٌ من الجلد مثبتٌ عليها قطع فضية أو نحاسية، ولكن لم توضع عليها أي مقاوِد، وكانت كلٌ منها تتجول على نحوٍ منفرد، متجاهلةً أيّ قطط أو كلاب أو خيول أخرى قد تُصادفها. جاءت إحداها إلى هاري حيث تقف، فأمسكت أنفاسها وتذكّرت النمر والفهود. ونظرت القطّة نحوها بلا مبالاة، ثم دفعت رأسها تحت يدها. مرّت لحظةٌ قبل أن تتمالك هاري نفسها بما يكفي لإدراك أن يدها ترتجف لأن القطّة كانت تهتزُّ وهي تُخرخر. فربّدت عليها بحذر، فخرخرت بصوتٍ أعلى. كان الفراء قصيرًا وناعمًا وسميكا للغاية؛ عندما حاولت، برقّة، أن تُمشطه بيدها، لم تستطع رؤية الجلد. كانت القطّة لديها رموشٌ شقراء طويلة للغاية، وقد نظرت نحوها عبرها، وعيناها الخضراوان نصف مغلقتين. تساءلت كيف تعايشَت جميعُ هذه الحيوانات معًا: هل نشبتَ بينها يومًا أيّ معارك؟ وهل سرقت القطط الكبيرة يومًا أحد الببغاوات ذات اللونين الأخضر والأزرق التي تقف على بعض أكثاف سكان التلال؟

فكّكت جميع الخيام، واندحشت من أعداد الحيوانات والأشخاص التي ظهرت أمامها. تساءلت عمّا إذا كان الموجودون بالمخيّم جميعهم من الرجال باستثناءها، واسترجعت محاولة الخدم مساعدتها بينما كانت تستحمُّ في مساء اليوم السابق. لم تستطع أن تُحدد، الآن، من خلال النظر؛ لأن الجميع كان يرتدي رداءً مشابهًا لما ترتديه، ومعظمهم يرتدون أغطية رأس، وعددٌ قليل منهم فقط ذوو لحى.

ناداها صوتٌ كانت تعرفه: «سيدتي»، فالتفتت ورأت كورلاث، يتبعه فايرهارت. فقالت، وهي تشعر بتورّد خديها لمناداة ملك أرض التلال لها بـ «سيدتي»: «هل هذه رحلة طويلة أخرى؟»

«أجل، إنها رحلة طويلة أخرى، لكننا لا نحتاج إلى السفر على نحوٍ سريع». أومأت برأسها، وظهرت ثم اختفت ابتسامةً على وجه الملك، بسرعةٍ شديدة لدرجة أنها لم تلاحظها؛ لأنه أدرك أنها لن تتوسّل، ولن تطرح أسئلة. وقال: «ستحتاجين إلى هذا»، وأعطاهما غطاء رأسٍ مثل الذي كان يرتديه هو وجميع الآخرين. راحت تُقلّبه في يديها وهي لا تعرف كيف تستخدمه؛ لأنه ليس أكثر من أنبوبٍ طويل من قماش ناعم ضيق الطرف، وليست طريقة

ارتدائه واضحة بالنسبة إلى شخص لم يسبق أن رأى له مثيلاً من قبل. أخذه منها مرة أخرى وألبسها إياه، ثم أخرج وشاحاً وأوضح لها كيفية لفّه في مكانه. وقال: «سيصبح الأمر أسهل مع الممارسة.» فقالت: «شكراً لك.»

تحدّث صوتٌ آخرٌ خلفهما، فالتفتَ كلاهما؛ حيث كان يقف رجلٌ مع حصان آخر خلفه. كان هذا الرجل يرتدي ملابس بُنية اللون، عبارة عن بنطالٍ ضيق وقميص فضفاض يصل إلى الركبة فوق حذائه الطويل، ويحمل علامةً بيضاء صغيرة على خدّه الأيمن، فأخبرها كورلاث أن هذه هي ملابس رجال الخيول، أو السُّيَّاس، وكان رجال الصيد، الذين يهتمُّون بالقطط والكلاب، يرتدون ملابس ماثلة، لكن أحزمتهم حمراء، ويضعون أوشحة حمراء فوق أغطية رءوسهم، وتوجد علامتهم البيضاء الدالة على تخصصهم فوق الخدّ الأيسر. قالت هاري بتردّد: «لقد ... لقد ظننتُ أن كلّ سكان التلال يرتدون أوشحة خصر.»

أجاب كورلاث ببساطة: «كلا، فقط أولئك الذين قد يحملون السيوف.» التفتَ الرجل ذو الرداء البني إلى الحصان الذي أحضره لهما. وقال كورلاث: «هذا الحصان اسمه رولينين أو ريد ويند؛» كان حصاناً آخر ذا لون بني محمر، وإن لم يكن براً للغاية مثل فايرهارت. وأضاف: «في الوقت الحاضر، سوف تمتطيته.» فكَرَّت، بعصبيةٍ قليلاً، في مَغزى عبارة «في الوقت الحاضر». لقد كانت سعيدةً بفكرة عدم الارتحال على أعلى سرج حصانٍ شخصٍ آخر، لكن عندما نظرت إلى الحصان المرتفع، ونظر هو نحوها بلطفٍ، استجمعت شجاعته وقالت: «أنا ... أنا معتادة على الشكيمة واللجام.» ثم قالت لنفسها: أنا معتادة على الرُّكَّاب أيضاً، لكن على الأرجح سأتمكّن من التعامل مع الأمر دونها، على الأقل إذا لم يحدث أيُّ شيء مفاجئٍ للغاية. يبدو أنه حصانٌ لطيف يسهل التحكم في خطواته. يا إلهي!

قال كورلاث بصوته الغامض: «أجل»، ونظرت هاري إليه في إحباط. فأضاف: «سوف يُعلمك ريد ويند كيف نركب نحن سكّان التلال الخيل.»

تردّدت دقيقةً، لكنها لم تستطع التفكير في أي شيء آخر لتقوله ولن يُعتبر مُهيناً للغاية، مثل «أنا خائفة». لذلك عندما استند الرجل ذو الرداء البني إلى ركبة واحدة وشبك كفيّه كي تضع قدمها عليهما، وضعتها؛ ومن ثم رُفعت بلطفٍ كي تجلس على السرج. لم يكن هناك زمام. نظرت إلى يديها كما لو كانتا ينبغي أن تكونا في مكانٍ آخر، وفركتهما مدةً وجيزةً أسفل الساقين، ثم وضعتهما على القربوس الأمامي المستدير مثل أرنبين منذهلين أحضرا إلى المنزل بعد صيدهما. انتفضت أدنا ريد ويند للخلف باتجاهها، وعدل

وضع ظهره تحتها. أحاطت جذعُ بساقَيْها على نحوٍ لطيفٍ وانتظرت، وهي تُلقِي السمع، ضغطتْ بلطفٍ فخطا إلى الأمام بِجِدِّيَّة، ثم خَفَّفتِ الضغط فتوقَّفت. بدا أنهما سينسجمان معًا.

امتطى كورلاث صهوةَ حصانه بينما كانت هي تُرتب يديها، وقالت لنفسها على نحوٍ غاضبٍ: أظن أنهم سيتوقعون مني أن أتعلم امتطاءَ الحصان دون مساعدة أيضًا، عندما نظرتْ إلى أعلى عبر أذني ريد ويند المطيعة، تحرَّك فايرهارت، فتبعه ريد ويند على نحوٍ تلقائي.

استمرتْ رحلتهم عدةَ أيام. وكانت تعترم عدَّةَ الأيام، لكن لم يكن ذهنها حاضراً على نحوٍ فوري كي تبحث عن قطعةٍ من الجلد أو الصخر لتُسجل عليها عدَّةَ الأيام أثناء الرحلة، وعندما وصل العدد إلى نحو أربعة أو خمسة أو ستة لم يُعد بإمكانها تحديد العدد بدقة. واستمرتْ أيام الرحلة بعض الوقت بعد وصول عددها إلى أربعة أو خمسة أو ستة؛ ومن ثم شعرتْ بأن كل عضلة في جسدها تصرخ من الألم وتحتجُ بسبب المجهود غير المعتاد، بعد أشهر من المعيشة الناعمة في القصر وعلى متن السفينة. ورغم ذلك كانت ممتنَّةً تجاه هذا الإرهاق؛ لأنه سيجعلها تغطُّ في نومٍ عميق بدون أحلام. وقد أُصيب جسدها بتقرُّحات عند موضع جلوسها على السرج، لكنها كانت تعضُّ على أسنانها من الألم وتتجاهلها، وبدلاً من أن تزداد التقرُّحات سوءاً كما توقَّعت، خَفَّتْ حَدَّتْها ثم اختفت تماماً، ومعها الأوجاعُ والآلام. وعادت مهارتها القديمة في التحكم بالحصان باستخدام السرج، ولم تشعر بافتقار الرُّكَّاب إلا عندما تُحاول الامتطاء — فهي لم تُزل بحاجة إلى شخصٍ ما ليساعدها على الارتقاء لأعلى كي تمتطي صهوة الحصان كلَّ يوم — وعلى نحوٍ بطيء تعلَّمت توجيه حصانها الصُّبور من دون زمام. وأصبح بإمكانها ربطُ حذائها بساقَيْها وكذلك غطاءَ رأسها ببراعة — تقريباً — كما لو كانت تفعل هذه الأشياء طَوَّال حياتها. وتعلَّمت أن تأكل باستخدام أصابعها على نحوٍ لبق. كما التقت بأربع من النساء اللاتي كنَّ جزءاً من مخيم السفر الخاص بكورلاث، وجميعهن كنَّ يرتدين أوشحة الخصر.

وقد عرَفَت اسم القطعة الودودة: ناركنون. وغالباً ما كانت تجدها جالسةً بجوار قدميها تسعى لأن تُبقِيها دافئةً عندما تستيقظ في الصباح. إن ناركنون أيضاً، على الرغم من كل تاريخها كحيوانٍ أكلٍ للحوم، كانت تُحب العصيدة.

استمرتْ هاري في تناول وجبة المساء على مائدة الملك، برفقة الفرسان الثمانية عشرة وكورلاث، واستمرتْ في الجلوس على يسار الملك، واستمرتْ في الحصول على خدمةٍ مهذبة

من جانب الخدم والتعرض للتجاهل التام من جانب الفرسان. وقد بدأت تُدرك، أو على الأقل تشكُّ، أن كورلاث كان يُبقيها بالقرب منه؛ ليس فقط لأنَّ أهل أرض التلال غيرُ معادين على التعامل مع أسرى الأعداء، ولكن أيضاً لأنه كان يأمل في أن يجعلها تشعر بأنها ضيفة مكرَّمة؛ إذ كان سريعاً في الإجابة عن أسئلتها، ربما جزئياً لأنها لم تُسئ استخدام هذا الامتياز، وغالباً ما يتَّسم أسلوبه بالتواضع عندما يُقدم لها شيئاً: عباءة جديدة، أو قطعة من الفاكهة من نوع لم تَره من قبل. إنه يريدني أن أحبَّ العيش هنا؛ هكذا قالت لنفسها. وكانت لا تزال تنام في خيمة الملك، لكن الآن وضعت ستائر بنحو متواضع عند الركن الذي تنام فيه، وعندما كانت تستيقظ في الصباح وتُزيح الستائر إلى الراء، كانت تجد أن كورلاث قد غادر الخيمة بالفعل. كما تجد أحد الخدم بانتظارها، حيث يُحضر لها المناشف والماء ووجبة الإفطار. لقد تزايد إعجابها بالعصيدة، وهم في بعض الأحيان يصنعونها على شكل كعك مسطح صغير، ويقلونها، ويضعون العسل فوقها. كان العسل منتجاً من زهور لم ترَ أو تشمَّ مثلها من قبل، وقد جعلها العبير الغريب الغني الخاص به تحظى بلحظات حاملة.

لم تسأل كورلاث قط عن سبب وجودها هنا، أو ماذا سيكون مستقبلها. في كل صباح، بعد الإفطار، أثناء تفكيك خيام المخيم، أو إذا كانوا سيقيمون يوماً إضافياً بينما تأتي الرسل من أماكن مجهولة للتحدث مع الملك، كانت تمتطي صهوة ريد ويند، ومثلما أخبرها كورلاث، تُعلم نفسها، أو تدعُ الحصان يُعلمها، طريقة أهل التلال في امتطاء الخيل. بعد درس امتطاء الخيل، إذا لم يواصلوا الارتحال في ذلك اليوم، كانت تتجول في المخيم، وتشاهد العمل الذي يقومون به؛ حيث كان يخضع كلُّ شيء للتهوية والغسيل أو التنفيض أو التمشيط، كما كانت جميع الحيوانات تُنظف بالفُرش حتى تبرق. لم يحاول أيُّ أحد، سواءً كان حصاناً أو كلباً أو قطة أو إنساناً، منَع فتاة الأغراب من التجول في أي مكان على وجه الخصوص، أو مشاهدة أي شيء على وجه الخصوص، بل سُمح لها في بعض الأحيان بالتقاط محسّة أو ممسحة أو منفضة، ولكن من الواضح أنه قد سُمح لها بذلك من باب اللطف؛ لأنه ليست هناك حاجة إلى مساعدتها على الإطلاق. لكنها ممتنة لهذا اللطف. وقد كانت تتحدّث باستخدام الكلمات القليلة التي تعرفها من لغة سكان التلال: «هل يمكنني؟» و«شكراً لك»، وكان سكان التلال يبتسمون لها ويقولون ببطء وحرص: «هذا من دواعي سرورنا.» في بعض الأحيان كانت تشاهد خروج حملات الصيد؛ حيث تصطاد الكلاب في مجموعات، والقطط بمفردها أو أحياناً في أزواج. لم يبدُ أن هناك أي

ترتيب فيما يتعلق بأولئك الذين كانوا يخرجون معهم، بخلاف وجود رجل واحد على الأقل من الصيادين، ولم تُشاهدهم يعودون مطلقاً دون اصطياد طرائد: أرانب صحراوية، أو حيوان الأوروبي الحفار الصغير — أخبرها كورلاث بالأسماء — أو حيوان الداندي الضخم ذي القرنين الذي لا بد من تعليقه على قضيب خشبي، وحمله بين حصانين.

كان الحنين إلى الوطن يُعاودها في نوباتٍ غير متوقَّعة قوية للغاية، لدرجة أن ريد ويند، الذي يُعد حصاناً عجوزاً مخلصاً وفقاً لمعايير سكان التلال، ويمكن الوثوق به للأطفال والبلهاء، كان يشعر بتوقُّفها عن الحركة على ظهره، فيرمي برأسه على نحو غير مريح ويتقافز. إنها لم تُعد تبكي إلى أن يغلبها النوم منذ أن فعلت ذلك في أول ليلة لها في خيمة الملك وفكَّرت بعناية وعقلانية، ووجدت أنه من الصعب تحديداً ما كانت تحنُّ إليه بالضبط: لقد مضى وقتٌ طويل منذ أن تركت هولاند، وهي لم تشعر بأنها تفتقد إقامتها في القصر في إيستن التي لم تتجاوز مدتها بضعة أشهر. تذكَّرت وجهي السير تشارلز والليدي أميليا وقد راودها شعورٌ مفاجئ بالحزن، كما كانت تفتقد شقيقها بشدة، وكانت قلقة بشأن ما قد يظنُّه بشأن أخته المفقودة. واكتشفت أنها أيضاً تفتقد قدرة جاك ديدام على فهم الأمور بحكمة وصبر؛ لكنها فكرت فيه مع نوعٍ غريب من المسألة، كما لو أن شعوره تجاه بلده الحالي سيتجاوز الاستحالة المفترضة لما حدث لها، وسيعلم أنها على ما يُرام. إن هذا التأثير نتيجةً اغترابها كان يُراودها غالباً في الأوقات التي تشعر فيها بالارتياح خلال هذه المغامرة الغريبة التي وقعت في خضمِّها. وقد تجد نفسها، بينما تحرق في خطِّ التلال الممتد أمامهم، الذي يقترب كلَّ يوم، وتراقب كيف تُنطاح حافاتها السماء على نحوٍ حاد، وتمتطي ريد ويند الذي يتبع خطوات فايرهارت، مع الرياح الصحراوية التي تلمح خدَّها والشمس المسطَّلة على كتفيها ورأسها المقنَّع، أنها تشعر على نحوٍ مفاجئ بالشيء الذي وصفته بالحنين إلى الوطن. وقد يُراودها وهي جالسة على مائدة الملك، متربِّعة، تتناول جُبْنها المفضَّل، الحلو البنيَّ الهش، وتستمتع بلهفة إلى المحادثة التي ما زالت لا تستطيع أن تفهمها، باستثناء كلمة أو عبارة عارضة.

أنا أفقد ما ليس لدي؛ هكذا قالت لنفسها في وقتٍ متأخر من إحدى الليالي، وهي تتقلَّب على وسائدها. ليس للأمر علاقة بما يجب أن أشعر بالحنين إليه؛ سيفهم هذا جاك، أقدم كولونيل لا يزال في الخدمة، وهو ينظر عبر الصحراء في أرض التلال. إن الأمر هو أنني لا أنتمي إلى هنا. لا يهم أن الشمس تسفع بشرتي لتُصبح في مثل لون بشرتهم الداكن، وأن باستطاعتي امتطاء صهوة حصان طوال اليوم دون شكوى. بل لا يهم أن ماء رؤيتهم

يؤثر في مثلما يؤثر في عددٍ قليل منهم فقط. من المذهل فقط أنه يؤثر في واحدةٍ ليست من سكان التلال، لكن هذا لن يجعلها تُصبح واحدةً من سكان التلال. إنها لسخريةً مريرة أن يرقد المرء مستيقظاً وهو يتمنى شيئاً لا يمكن الحصول عليه، بعد أن كان منذ وقتٍ ليس ببعيدٍ يرقد مستيقظاً وهو يتمنى الشيء المعاكس الذي قد فقده للتو. ليس هذا النوع من التكيف مفيداً للغاية؛ هكذا قالت لنفسها. ثم أضافت على نحو يائس، لكن أي نوع من التكيف — أو القدرة الاستثنائية — سيكون مفيداً بالنسبة إليّ؟ تتبعت ذكريات حياتها حتى مرحلة الطفولة، ولأول مرة منذ سنوات عديدة، تذكرت نوبات الغضب التي عانت منها في وقتٍ مبكر للغاية من طفولتها، لدرجة أنه كان من الصعب تذكرها بوضوح، لكنها تذكرت أنها كانت تُخيفها هي نفسها، على نحوٍ مبهم، وهي لا تزال طفلةً في سريرها؛ إذ كانت تدرك أن هناك شيئاً خطأ بشأنها. لقد أخافت تلك النوبات اثنتين من المربيات وتسببت في مغادرتهما البيت، لكن والدتها هي التي تعاملت في النهاية مع الأمر على نحوٍ ناجح، في تجهم، وتحملتها وتحملت نوباتها. لقد جلبت تلك الذكرى الانتباه إلى ذكرى أخرى قد تجاهلتها أيضاً منذ سنواتٍ عديدة؛ ذكرى، أو معرفة، الشيء الخطأ التي نشأت بعد مرور نوبات الغضب، ومع تلك المعرفة نما أيضاً نوعٌ غريب من السيطرة غير العضلية. لقد فكرت في ذلك الوقت، مع أول لهفة للطفل تجاه اقتراب مرحلة البلوغ، أن هذا نوعٌ من السيطرة قد تعلمه الجميع، لكن الآن، وهي ترقد وسط الصحراء المظلمة، لم تكن متأكدةً للغاية من ذلك. كان هناك شيءٌ ما في حياتها الجديدة، التي لا تزال غير مفسرة وغير متوقعة في أرض التلال، لمس وحاول استعادة هذا الشعور القديم المهمل من ضبط النفس، وشيءٌ بداخلها يحاول بحماسة الإمساك بالدرس، لكنه لم يستطع — حتى الآن — الإمساك به تماماً أو الاستفادة منه. وقد أصبحت هناك، أيضاً، واقعيةً لحياتها الجديدة كانت حياتها القديمة تفتقر إليها، وأدركت على نحوٍ صادم أنها لم تحب أو تكره بنحوٍ حقيقي من قبل؛ لأنها لم ترَ مطلقاً العالم الذي اعتادت على العيش فيه من كتبٍ بما يكفي كي يُثير العاطفة فيها. لكن هذا العالم بالفعل كان أكثر وضوحاً بالنسبة إليها، على نحوٍ مبهم، أكثر وضوحاً بنحوٍ مرعب، من البلد الأخضر الحلو، الذي تتذكره بمودةٍ ولكن على نحوٍ غير واضح، والذي عاشت فيه ما مضى من حياتها.

ليس لديها كثير من الشهية لتناول الإفطار في صباح اليوم التالي، فأعطت وجبتها إلى ناركنون، التي تجشأت في سرورٍ بعد أكلها وعادت للنوم مرةً أخرى حتى أخرجها الخدم وهم يُفككون خيمة الملك. كانوا على مقربة من التلال السفحية بحلول الوقت الذي توقّفوا

فيه في ذلك المساء. كانت الشجيرات القصيرة حولهم قد بدأت في إنتاج الأوراق الحقيقية غير المنتظمة، التي كانت خضراء اللون. ولأول مرة، كان هناك جدولٌ مائيٌّ مكشوفٌ يسري بجوار مخيمهم، بدلاً من الينابيع الصحراوية السريّة الصغيرة، وحصلت هاري على حمام حقيقي في الحوض الفضي الكبير لأول مرة منذ أول أمسية لها في المخيم؛ لأنه ليس هناك غير قليل من الماء لتخزينه منذ ذلك الحين. هذه المرة ترك الخدمُ مناشفَ وِرداءٍ أصفر نظيفاً من أجلها، وتركوها بمفردها، بمجرد أن انتهوا من ملء الحوض.

لقد نصبوا مخيماً خلف قمة تمتد نحو ما كان بالتأكيد هو نفسه تلاً. نُصبت الخيام حول مساحةٍ خالية في الوسط، مع خيمة الملك عند إحدى حافاتها. ودائماً ما كانت توقد حلقة نار في تلك المساحة الخالية خلال المساء، ولكن في هذه الليلة أُشعلت حلقة النار وزُوِّدت بالحطب حتى تأجَّجت وتصاعدت ألسنتها حتى أصبحت أعلى من قامته رجل، ومع انتهاء الجميع من مهامهم، تجمَّعوا وجلسوا حولها حتى شكّلوا دائرة. تحوّل الفراء الشاحب للكلاب إلى اللون الأحمر ولون القرفة في ضوء النار، وأصبح الفراء الداكن للقطط أكثر غموضاً من أي وقت مضى. وقد رُفِع جدار خيمة الملك الذي يواجه حلقة النار، وجلست هاري والملك وفرسانه عند الحافة المفتوحة يُحدقون في النار مع الباقين.

وبعد مدة لم يعد مزيد من الأشخاص الذين أخفت الظلمة تفاصيل ملامحهم يأتون للانضمام إلى الدائرة؛ إذ سقطت ظلال النار وانتشرت على الجوانب، وطفئت بحيث لم تتمكّن هاري من تخمين عدد الأشخاص الموجودين هناك. ثم بدأت النار نفسها تخبو حتى أصبحت مثل نار التخيم الجميلة التي كانت هي وشقيقها يُشعلونها بين الحين والآخر في حديقتهما عندما كانا طفلين، حينما يسمح الطقس ومزاج والديهما بذلك.

ثم بدأ الغناء. كان هناك العديد من الآلات الوترية مثل العود، والعديد من المزامير الخشبية للعزف المصاحب والتناغم. لقد أدركت أنها أغاني شعبية، حتى وإن لم تتمكّن من فهم الكلمات، وتمنّت مرةً أخرى لو أن بإمكانها فهم لغتهم، وتلمّعت فوق البساط الذي تجلس عليه، ونظرت نحو كورلاث. فنظر نحوها، مُقاطعاً ما تشعر به من إحباط، وعلى الرغم من أنه ليس هناك شيءٌ مشجّع بنحوٍ خاص في تلك النظرة، فليس هناك أيضاً شيءٌ غير مشجّع بنحوٍ خاص بشأنها؛ مثلما هو الحال مع نظراته نحوها الآن، ومثلما كان من المعتاد أيضاً، كانت هناك لمحة من الحزن، أو الخجل، في نظرتة. لقد فقد، أو حسبما كانت تظن أنه كان أرجح أكثر، تعلّم أن يكبح الحيرة الحائقة بعض الشيء التي شاهدها في الليلة التي شربت فيها ماء الرؤية. فنهضت وذهبت إليه وجلست بجانبه، وضمت رُكبتَيها

لأعلى وأسندت ذقنها إليها وحدقت في النار، واستمعت إلى الكلمات التي لم تستطع فهمها. لقد كانت تعلم أنه لا بد من وجود شخص آخر على الأقل في المخيم يستطيع التحدث بلغة هوملاند، غير الرجل الذي أدنى مهمة المترجم لكورلاث — على نحو غير ضروري، كما كان بيترسون يعتقد — في القصر، لكنها لم تعرف قط من كان هذا الرجل. شخص آخر ربما يمكنه التحدث معها، ويُعلمها مزيداً من كلمات لغة أرض التلال، كي يمكنها التحدث إلى مَنْ حولها — وربما تتمكّن من ترجمة كلمات الأغاني التي يُغنونها الآن. لكنه شخص اختار ألا يجعلها تعرف هويته، شخص لم يحب مهارته كثيراً بحيث يشعر بالشفقة على عزلتها؛ فهي امرأة من الأغراب لا تنتمي إلى الصحراء وإلى أرض التلال.

كان كورلاث يراقب وجهها بينما تعصف هذه الأفكار بعقلها، وربما قد تمكّن من قراءة شيء منها؛ إذ قال دون أن يستحّته أحد: «إنهم يُغنون عن الماضي، منذ مئات السنين الماضية، عندما كانت حيازة قدرة الكيلار شائعة للغاية بحيث كان يكاد يعتقد أنها هبة، تماماً مثلما يعتقد أن طول الأنف هبة.

وقد أصبح مَنْ يحوزون هبة الكيلار أقلّ بكثيرٍ ممن حازوها في ذلك الوقت. أنا ... نحن ... نعتقد أننا سنتعلم عمّا قريب بأقصى تكلفة يمكن أن نتكبدتها قيمة ما فقدناه.» قال لنفسه، بضجر، بينما كان ينظر نحوها وهو غير قادر على تفسير تعبيراتها: ما الذي تراه؟ كيف تبدو أمامها؟ ومع وجود لمحة من الغضب، أضاف: لماذا هو مُقدّر أنني يجب أن أملّ في فهم امرأة من الأغراب؟ لماذا يجب أن تكون واحدة من الأغراب هي مَنْ تحمل هبةً ثمينة للغاية كهذه؟ هبة قد تختار أن ترفضها أو ... أو أن تستخدمها ضدنا، نحن الذين نحتاج إلى القوة بشدة؟

عانقت هاري ركبتها على نحو أقرب، وللحظة رأت مرةً أخرى صفًا صغيراً برّاقاً من الفرسان يسرون بخطاً متمهلاً صاعدين طريقاً عبر جبل. إذن أنا أمتلك الهبة، هكذا قالت لنفسها، ولكن ما الفائدة من رؤية رؤى غير قابلة للتفسير؟ انتهت لما حولها عندما قال كورلاث: «نحن نُغني لأننا عُدنا إلى تلالنا؛ إن الليلة هي الليلة الأولى التي ننام فيها مرةً أخرى في ظلّها.

استمعي. سوف يُغنون أغنية شعبية عن الليدي إيرين، قاتلة التنانين.» استمعت هاري، استمعت بإمعان، بكل عضلات ظهرها وفخذيها، كما لو كانت لغة الأغنية تُشبه حصاناً جامحاً تحاول ترويضه، وعبر ضوء النار، ظهر شخص ما، تتمايل هيئته مع تراقص السنة النيران ووميضها، وبدا شعره كما لو كان هو نفسه ناراً. كان

شخصًا طويلًا ذا كتفين عريضتين مع وجهٍ شاحب، وفي يده اليمنى يحمل سيفًا طويلًا رفيعًا يتلألأ باللون الأزرق. حدقت هاري حتى شعرت بأن عينيها جافتان مثل الرمال، ثم استطاعت أن تتبين ملامح وجه ذلك الشخص، لتجد أنه وجه امرأة، وأنه يبتسم لها. لكنها لم تكن ابتسامة عادية، بل ابتسامة عريضة، الابتسامة العريضة الحانية الحزينة لأخت كبيرة، وأصاب رأس هاري دوارٌ من الحب واليأس. ثم هزت المرأة رأسها برفق، فاشتعل شعرها وتموج حولها، ومدت يدها اليسرى الفارغة، فوجدت هاري نفسها جاثيةً على يديها وركبتيها، تحاول الوصول إلى يدها. لكن عصفة من الريح هبّت من العدم وضربت النار كما لو كانت كلبًا جامحًا، فاخفت المرأة. سقطت هاري حيث كانت جاثية، ولامس وجهها الأرض. فجلس كلبٌ حقيقي وراح يعوي.

حملها كورلاث بلطف كما لو كانت طفلة، سقطت بعد خطواتها الأولى، ووجدت أن هناك دموعًا تنساب على وجهها. فنهض، وهو يحملها بين ذراعيه، ولم تهتم إلا بأن الليدي إيرين، ذات الشعر الناري وقاتلة التنانين، قد أتت إليها ثم تركتها مرةً أخرى، وحيدة أكثر مما كانت عليه من قبل. فألقت ذراعيها حول رقبة ملك أرض التلال، ودفنت وجهها في كتفه وانتحبت. وشعر كورلاث، بينما كان يحملها، ودموعها تنساب على رقبتة، بأن استيائه يتذبذب ويخفت ويختفي، وشعر بالشفقة بدلًا من ذلك على فتاة الأغراب، مثلما شعر بالشفقة تجاهها عندما تذوّقت الميلدتار. لقد كانت الهبة أمرًا صعبًا بالقدر الكافي بالنسبة إليه، وهو الذي يحملها منذ صغره، ويعرف دائمًا أنها موجودةٌ وقد درّب منذ الطفولة على استخدامها، أو على الأقل تقبلها. كان لديه والده ليُخبره بما يمكن توقُّعه، ولم يسخر منه والده عندما بكى مثلما تبكي فتاة الأغراب الآن، لكنه، في الواقع، احتضنه وهذا من روعه، وخفف من نوبات الصداع التي كانت تتسبب بها الكيلار. ومن ثم كان سيساعد هو هذه الفتاة الآن، بقدر ما يمكنه، مهما بدا لها لصًا وغريبًا عنها. كان سيبذل قصارى جهده.

استيقظت هاري في صباح اليوم التالي في ركنها المعتاد من الخيمة، خلف الستائر المعتادة، ولا يزال وجهها ملطخًا بالأتربة والدموع، وتذكّرت ما فعلته وليس ما رآته، وشعرت بالخجل الشديد وابتلعت ريقها بصعوبة، وتساءلت عما إذا كانت لديها الجرأة على إظهار نفسها خارج ستائرها، حتى لكي تغتسل بالماء. لم تستطع التفكير في رؤية كورلاث مرةً أخرى على الإطلاق. وقالت لنفسها: لا بد أنه قد ألقى عليّ تعويذة جعلت النوم يغلبني مرةً أخرى، كما فعل عندما اختطفني لأول مرة؛ إذ أجبرني على النوم كطفل جامح

لأنني تصرفْتُ كطفل جامح. لم تُبالِ ناركنون بكل هذا؛ إذ سارت على ساقَي هاري وفركت رأسها على وجه هاري المتسخ، فرمشت هاري بشدة وراحت تُداعبها بقوة. ومن ثم أزاحت ستائرهما بجهد، وغسلت وجهها، وتناولت إفطارها كما لو كانت تتناول رقائق خشب، وهي صامتة وقد خلا وجهها من أيّ تعبير. قاطع صوت ما تأملاتها الحزينة، فنظرت إلى أعلى متفاجئة، وازدادت مفاجئتها برؤية أحد الفرسان: الرجل المتجهّم القصير العريض المنكبّين الذي لاحظته خلال أول وجبة لها في خيمة الملك، الرجل الوحيد الذي تذوّق ماء الرؤية ولم يبدُ عليه أيّ تأثر. تحدث إليها مرةً أخرى. وأيًا ما كانت الكلمات التي قالها، فقد كان وقعها على أذنيها مثل عبارة «صباح الخير»؛ لذا قالت: «صباح الخير.» ارتسم تعبيرٌ ما على وجهه واختفى سريعاً، وظل ينظر إليها حتى بدأت تتساءل عمّا إن كانت «صباح الخير» بلغتهم تبدو كأنها إهانة فظيعة، وكان يفكر الآن فيما إذا كان سيقتلها على الفور أو يغفر لها جهلها. ربما كان فقط يفكر ملياً في أفضل السبل للتعامل مع طفلة جامحة.

لكنه تحدث إليها مرةً أخرى، ببُطء، وبصبر، فانصرف ذهنها عن التفكير في خلجها ممّا حدث في الليلة السابقة. وقسم كلماته إلى مقاطع؛ ومن ثم أخذت نفساً عميقاً وقالتها له مرةً أخرى. هذه المرة بالتأكيد تحوّل التعبير الخاطف على وجهه إلى ما يُشبه ابتسامة، على الرغم من أنها لم تكن لتراها قط لو لم تكن تنظر إلى وجهه عن قرب. صحّح لها طريقة النطق، وقالت العبارة مرةً أخرى، ويبدو أنها قالتها هذه المرة بنحوٍ صحيح؛ بعد ذلك انحنى، ووضع يده على صدره، وقال: «ماثين.»

قالت له: «ماثين»، وكانت تعرف اسمه بالفعل حيث كان يُناديه كورلاث به وهو يُجيب. ثم مدّ يده حتى كادت أطراف أصابعه أن تلمس عظميّة الترقوة لديها. فقالت: «هاري»، معتقدةً أن النسخة المكوّنة من مقطعين من اسمها المستحيل ستبقيهما على حدّ سواء بعيداً عن المتاعب، ولم يكن ريتشارد هناك كي يعترض. قال: «هري؟» وقد اندهش بعض الشيء، فأومأت برأسها، وانحنّت له انحناءً بسيطة.

لا بدّ أنه كان يوماً متعباً بالنسبة إلى ماثين. كانت تعلم أنه واحدٌ من الفرسان الثمانية عشرة، ومع ذلك لم يفعل شيئاً حتى غروب الشمس سوى اصطحابها في جولةٍ حول المخيم ولس أشياء مختلفة ونُطق أسمائها. كما تعلّمت بعض الأفعال المفيدة المتعددة الاستخدام، والأسماء — أو على الأقل سمعت الأسماء وحاولت أن تتذكّرهما — الخاصة بنحو نصف الرجال الذين يجلسون حول مائدة كورلاث. كانت بالفعل تعرف فاران وإيناث؛ لأنها التقطت اسميهما عندما كان كورلاث ينادي عليهما، تماماً كما فعلت مع اسم ماثين. نظر

الاثنان نحو عَيْنِهَا بينما كان يُعْرِفُهَا ماثين بهما، وانحنيا بهدوء لتحيتها، كما لو لم تكن لها أيُّ علاقة بالكومة الغريبة التي اختطفها ملكُهما من بلدة الأغراب برفقتهما قبل بضعة أسابيع؛ كما لو كانوا يَرَوْنَهَا لأول مرة. كان فورلوي هو الرجل ذا الندبة على ذقنه، ودابسيم هو الفارس الذي يمتطي الفرسة السوداء التي تفوز في السباقات التي تُجرى غالباً في المساء، إلى أن يمنعها الفرسان الآخرون من الركض.

لم ترَ كورلاث في ذلك اليوم، ولا اليوم التالي. بقي المخيم حيث كان، في ظلّ تلال أرض التلال، على الرغم من أن نار المخيم المسائية عادت صغيرة الحجم مرةً أخرى، ولم يُعد هناك غناء. وقد كانت تخرج فِرَق الصيد كلّ يوم، لتعود محمّلةً بمجموعةٍ متنوعة من الطرائد البرية التي توفّرُها الصحراء. وعلمت هاري أن ناركنون تصطاد بمفردها، وكانت تشتهر بعدم السماح لأيّ حيوان آخر أن يقترب منها، وكانت تعقد أحياناً صداقات مع البشر، لكنها تنتقي تلك الصداقات بعناية. لذا شعرت هاري بالإطراء. ومع مرور الأيام، أصبحت الوجوه والخاصرات العجاف لدى الرجال وحيوانات الصيد أكثرَ سمناً بعض الشيء، لكن ناركنون لم تزل تتوسّل من أجل الحصول على وجبتها من العصيدة.

وفي كلّ صباح كان يأتي ماثين إلى هاري بعد الإفطار. وبحلول نهاية اليوم الثالث، أصبحت تنطق جُملاً، بسيطة، مُجهدة، لا تتبع قواعد اللغة، لكنها وجدت أن بعض كلمات لغة سگان التلال تتسلّل إلى حصيلتها اللغوية الخاصة بلغة هوملاند وتستقرّ هناك، وأصبح القلّة، بالإضافة إلى ماثين الذين حاولت التحدّث إليهم، يتوقّفون للاستماع إليها والإجابة عنها. لم تُعد غير مرئية، وكان هذا هو أفضل ما في الأمر.

أصبحت معجبةً بالخصائص المتفردة في اللغة التي كانت تتعلمها؛ كان هناك، على سبيل المثال، عددٌ من أنواع الخيام. فهناك خيمة الملك الكبرى، ذات الأعمدة الداخلية الكثيرة التي تحملها، وتُسمى زوتار، وهي الوحيدة في المخيم المتنقّل هذا. وهناك الخيام الأصغر حجماً، التي يستخدمها معظم الناس، وتُسمى باركاش، وهناك خيامٌ تُستخدم كإسطبلات للحيوانات وتُسمى بيتوين. وهناك العديد من المصطلحات التي لم تستطع إدراكها تماماً حتى الآن، والتي تُشير إلى كيفية صنع الخيمة، وعدد أركانها، والموادّ التي صُنعت منها، وما إلى ذلك. وهناك الدجوت، وهي خيمةٌ رخيصة، رديئة الصنع، لكن ليس هناك خيام الدجوت في مخيم الملك، وعند الإشارة إلى خيمة رجلٍ آخر بأنها الدجوت، وهي ليست كذلك، فإن هذا يعتبر إهانةً كبيرة.

استيقظت في وقتٍ أبكر من المعتاد في صباح اليوم الرابع من غياب كورلاث، وعلى الرغم من احتجاجات ناركنون، خرجت من الخيمة للتحديق في آخر فلول الليل الرمادية

جهة الشرق التي تُبشر باقتراب فجر الصحراء السريع. وسمعت أغنية قنبرة الصحراء، وهو طائرٌ صغير لونه بني أرقط يُطلق عليه سكان التلال اسم بريتي. كان المخيم يعجُّ بالحركة بالفعل، وقد حيّاها العديد من الرجال الذين استطاعت تذكُّر أسمائهم باسم هري-سول. لقد سمعت هذا الاسم في اليومين الأخيرين، وتساءلت عمّا إذا كان مصطلح احترام أو تعريف أو وسيلة لتحوير اسم أدركت أنه لم يلقَ استحساناً تاماً.

مع سطوع الضوء المبكر على الجبال، رأت الأشجار والتلال الصخرية تبرز من الظلال وتؤكد تفردها. ولم تلحظ أن كورلاث وثلاثه من مرافقيه قد عادوا إلا بعد أن أصبحوا في مركز المخيم ممتطين خيولهم.

التفتت إليه عند سماع صوته، لكن انتباهها تشتت في الحال. كان كورلاث لا يزال جالساً على صهوة فايرهارت، الذي وقف ثابتاً كصخرة حمراء كبيرة، ووقف بجانبهما حصانٌ آخر، بلا فارسٍ فوقه، ذو صهوة مرتفعة كفايرهارت، وفحلٌ مثله، ولكن لونه ذهبي، مثل لون ألسنة اللهب التي كانت تتراقص متصاعدةً من حلقة النار الكبرى قبل ثلاث ليالٍ. سارت نحوهم في صمت، بقدميها الحافيتين على الأرض الرملية التي لا تزال باردة، لكن الحصان الذهبي أدار رأسه ونظر إليها. وسمعت كورلاث يُغمغم بشيء ما وهي تقترب، وبسبب كلماته اتخذ الحصان خطوةً نحوها، وخفض رأسه حتى أصبح بإمكانها أن تنظر في عينه الهادئة ذات اللون البني الماهوجني. رفعت يديها وقربتَهما منه، فشعرت بأنفاسه الدافئة، ولمس أنفه الناعم أصابعها.

نادى كورلاث بصوت عالٍ فظهر أحدُ السُيَّاس في الحال، وهو يحمل سرجاً من الجلد الذهبي الأدكن قليلاً من لون الحصان، مع خياطة ذات لون أحمر، ووضع بعناية على ظهر الحصان الذهبي. تجاهله الحصان، وحتى لم يرجف جلده الذهبي أثناء وضع السرج في مكانه، لكنه لعق أصابع هاري، وأمال خذّه على كتفها.

قال كورلاث: «لقد أحضرته من أجلك»، فرفعتَ عينيها ووجدته ينظر نحوها، وأضاف مبتسماً: «بيدو أن اختياري صائب.»

انتهى الرجل ذو الرداء البني من وضع السرج، ووقف ينظر نحوها مترقباً. قال كورلاث: «هيا، سنُجرب خطواته.» لم تدرك أن كورلاث قد تحدّث معها بلغة أرض التلال إلا بعد أن أُجِلِسَتْ على السرج، وشعرت برجفة الحصان الكبير تحتها، بينما تُحاول ساقاها إيجادَ مكانيهما مقابل الجانبين الطويلين المرنين للسرج.

لقد كان صباحاً رائعاً؛ أكثرَ روعةً من أي صباح مرَّ عليها منذ أن استيقظت لتجد نفسها كومةً مضطربة، مُلقاةً على الجانب المحبوب عن الريح لأحد الكتبان الرملية الخشنة

— أكثر روعةً من أي صباح منذ أن أبحرت قادمةً من الوطن. ترجم لها كورلاث اسم الحصان بلغتها وقال: «إن اسمه هو صنجولد.»

قالت: «صنجولد.» فقال: «تسورنين.»

انطلق كورلاث على صهوة فايرهارت إلى الأمام في خطوة متمهلة طويلة، كما لو كانا سيقفزان نحو الفجر، وبمجرد أن أحكمت ساقها على جانبي الحصان الذهبي الكبير اندفع إلى الأمام كي يتبعهما. كانت، خلال الدقائق القليلة الأولى، خائفةً من افتقارها إلى المهارة، ومن قوة الحصان الكبير، لكنها وجدت أنهما قد فهم كل منهما الآخر. شعرت ببعض الامتنان، وبعض الخجل، من الوقت والصبر اللذين قدّمهما لها ريد ويند الطيب، وشعرت في الوقت نفسه بعدم الارتياح تقريباً لأن الأمر كان بسيطاً للغاية، وأنها فهمت بسهولة. لكنها كانت مأخوذةً للغاية بجماله لدرجة أنها لم ترغب أن تشكّ فيه مدةً طويلة. لو أنها فكّرت في الأمر من الأساس، فقد أخرجته من رأسها في الحال: ألا تستحق شيئاً من أجل كل معاناتها، الجسدية والنفسية، خلال الأسابيع الماضية؟ لم يكن بإمكانها التفكير في شيء أفضل من شعورها بغرة صنجولد وهي تلمس يديها.

عندما أصبحت الشمس فوق رأسها تقريباً، وأشعتها الباهرة تبهر عينيها عندما تنعكس عن رقبة تسورنين البراقة، وبدأت معدتها الخاوية تفرض نفسها كي تُنبهها إلى جوعها على الرغم من كل شيء، قال كورلاث: «هذا يكفي»، وأدار فايرهارت للخلف نحو المخيم. انتظر صنجولد إشارتها، فوقفت لحظة، تنظر أولاً إلى قوائم فايرهارت التي تُهرول بعيداً عنهما، ثم لأعلى، حيث يتمايل صقر بُني عبر تيار هواء صاعد، عاليًا فوق رأسها. ومن أجل اختبار مدى قوتها، وكّزت حصانها بركبتها كي يستدير نصف استدارة إلى اليسار وأطلقت له العنان ليعدو، وبمجرد أن وصل إلى ذروة سرعته، أعادته إلى السير على مهل، واستدارت دورة واحدة، ثم انطلقت خلف كورلاث، الذي توقّف ليشاهد تصرفها الغريب. ومن ثم توقفا بجانب فايرهارت وفارسه، فأوما كلٌّ من الفحلين برأسيهما إلى الآخر. توقعت هاري محاضرةً عن تصرفها الغريب، أو شيئاً من هذا القبيل، وأخفضت عينيها ونظرت نحو أعلى كاهل صنجولد؛ لكن كورلاث لم يقل شيئاً. نظرت لأعلى مرةً أخرى عندما سمعت صليل معدن على معدن؛ كان كورلاث قد سحب السيف المعلق على جانبه.

راحت تُراقبه، في اندهاش، وهو شاهر سيفه، ومُسدّده إلى أعلى، وقد سطعت الشمس على نصله بشدة. تذكرت أنه هذا الصباح، بينما كان يدخل إلى المخيم، كان يحمله، وهي المرة الأولى التي تراه فيها مُسلحاً بأي شيء مخيفٍ عدا خنجر طويل، أو سكين قصير

نحيف مثل الذي يحمله جميع سكان التلال من أجل تقطيع الطعام وأداء أيِّ مهامٍ بسيطةٍ تحتاج إلى شيءٍ نصله حادُّ. وقد نسيَت ذلك الأمرَ بمجرد أن رأتَ صنجولاً، والآن بعد أن رأتَ ذلك عن قُرْبٍ أكثرَ قررتَ أنه لا يُعجبها كثيراً. من الواضح أنه كان سيفَ حرب، وبدا أنه يصعب استخدامه في أيِّ شيءٍ سوى المبارزة والطعن.

أمسكَ كورلاث السيف بيده اليسرى وناولها لها، موجّهاً المقبضَ نحوها. وقال: «خُذي هذا.» فأمسكته، بحذر، وعندما تركه كورلاث، لم يسقط من يدها، ويجعلها تسقط من على السرج، لكنه كان ثقيلاً. فقال: «ارفعيه.» وبينما كانت تُحاول، أضاف: «أنت لم تُمسكي بسيفٍ من قبل.»

فقالت: «أجل.» ورفَعته كما لو كان ثعباناً سيرتكز على ذيله ويلدغها. أبعد كورلاث حصانه أيسفاً كي لا يُصيبه أدنى بينما هي تُجرب بذراعها وكتفها هذا الشيء الجديد عليها. ومن ثمَّ أرجَحته في نصف قوس قصير، فدبَّت الحماسة في جسد تسورنين على نحوٍ مفاجئ، وتقافز إلى الأمام على ساقيه الخلفيّتين، وهو يصهل. فقالت: «أوه»، بينما كان يهبط على الأرض مرةً أخرى، وقد انتصبتَ أذناه إلى الخلف باتجاهها، وقد أصبحت جميع عضلاته مشدودة.

قال كورلاث بهدوء: «صنجولد حصانُ حرب. إنكِ تُدْغرينه بأمور الحرب.» التفتت نحوه ونظرت في سخط، فاقترب إلى جانبها وأخذ السيف. كان هناك بصيصٌ من المرح في عينه وهو يردُّ نظرتها الساخطة؛ ومن ثمَّ التفتا عائدَين نحو المخيم معاً. قال شيئاً لم تستطع سماعه على نحوٍ جيد، وبينما كانت تلتفتُ إليه كي تطلبَ منه تَكَراره، قفز فايرهارت إلى الأمام واندفع مهرولاً، ثم انطلق يركض بأقصى سرعةٍ على نحوٍ مفاجئ. وبعد أن شعرت بالصدمة لحظةً، فهمت التحدي، فانطلق صنجولد في إثرهما، واستطاع اللحاق بهما بحيث أصبح وجهها قريباً من ذيل فايرهارت، ثم اقترب أنف صنجولد حتى أصبح بجوار قدمي كورلاث، وبعد ذلك كانا قد اقتربا من الوصول إلى داخل المخيم، فهذاً الحصانان من سرعتها وتحولاً إلى الخبب، ثم إلى المشي. وقد أصبحت فتحات أنفيهما حمراء اللون أثناء التنفُّس، ووجَّه صنجولد وجَّهه بعيداً عن المخيم، وهو يرغب في مزيد من الركض، لكن هاري قالت: «لا أعتقد ذلك»، فأصدر صنجولد نفرةً طفيفة وتبع فايرهارت في طاعة. ولم تُدرك أنها لا تزال حافية القدمين إلا بعد أن ترجَّلت عن صهوة الحصان. تناول كورلاث وهاري الإفطار معاً، على مربعٍ واحد من المائدة الطويلة. لم تتحدَّث هاري إلا مع ناركنون، التي كانت شبه متجهِّمة، وانصبَّ اهتمام كورلاث على الرجال

الذين جاءوا للتحدث معه، عن الأشياء البسيطة التي حَدَّثَتْ على نحوٍ خاطئٍ في غيابه، وعن الرسائل التي تلقَّوها من أجله، وفهَّمَتْ هاري كثيرًا مما قالوه، وتساءلت عمَّا إذا كان كورلاث يهتمُّ بأنه لم يَعُدْ من الآمن تمامًا التحدُّث عن أسرار في وجود أسيرته التي تنتمي للأغرب. بعد أن أَكَلَا، دخل رجلٌ من الخدم إلى الزوتار وسلَّم الملك حُزْمَةً طويلة رفيعة ملفوفة في قماش كَتَّان. ثم انحنى وانصرف، ففتحتها كورلاث وأمسك سيقًا آخر. كان هذا أصغرَ بنحوٍ ملحوظٍ من الذي يضعه حول وسطه، لكن هاري ظَلَّتْ تنظر نحوه في نفور. مسح كورلاث الغِمدَ على نحوٍ سريعٍ بقطعة الكتان ثم قَدَّمَ لها، مرةً أخرى، المقبض. فأخذته على مضض، وبدلاً من سحبه من غِمدِه بسلاسة، سحبته بنحوٍ أخرج، بحيث خرج مع صوتٍ دويٍّ سخيِّف.

قال كورلاث: «يجب عليك أن تُتقني فعل هذا بطريقةٍ أفضل من ذلك»، وكانت متأكدةً من أنه يجد الأمرَ مُسلِّياً.

قالت: «لماذا؟» وقد بدأ الغضب يتصاعد من مكانٍ ما بداخلها ويشقُّ طريقه إلى السطح. فتأبعت: «لماذا؟ ما لي والسيوف و...» ترددت في إكمال السؤال لأنها قد أَحَبَّتْ صنجولد بالفعل — ثم أضافت: «خيول الحرب؟»

اقترب منها خطوةً أو خطوتين وقد غرست سنَّ السيف على نحوٍ غير مقصود في الأبسطة المتراكمة، وذراعها ممدود، كما لو كانت تُحافظ على الشيء غير المرغوب فيه عند أبعد نقطة عنها؛ ونظر، على نحوٍ متعاطف، في عينيها.

وقال: «إن هذا بسبب ما رأيته. عندما تذوقَتِ ماء الرؤية، رأيتَ جماعتين مقاتلتين على وشك الاشتباك، لقد سمعتُك أنا وكلُّ فرساني وأنت تصفين ما كنتَ تَرينه — باللغة القديمة لأسلافنا هنا، اللغة المستخدمة عندما كانت دامار أرضاً واحدة، أرضاً عظيمةً وخضراء، قبل أن ...»

قالت في نفسها: قبل أن يحتلَّها شعبي، لكنها ما كانت لتقول ذلك بصوتٍ عالٍ إذا لم يقله هو.

وتابع: «وبعد عدة أيام من رؤية المخيم بأكمله الليدي إيرين خرجت من النار كي تُقدِّم لك التحية، وهي تحمل السيف الأزرق، جونتوران، الذي استعادت به تاج البطل وهزمت جيوش الشمال.» تردَّد. ثم تابع: «لم يرَ أحدٌ إيرين منذ أيام والد والدي؛ ومع ذلك، فقد اعتنَّت دائماً ببلادها على نحوٍ جيد، منذ أن امتطت صهوة حصانها وخرجت لأول مرة لمواجهة التنين الأسود، قبل أن يصل جونتوران إلى يدها، وتحدث عنها أعزُّ أساطيرنا.»

انفجرت فقاعات الغضب اللامعة في عينيها واختفت. فأحنت رأسها، وثنت كوعها وجلبت السيف تحت عينيها. ولع أمامهما بريق حده الطويل الذي يحمل طابع الشر. كان ذا مقبض فضي، شبه عادي، مع بعض زخارف رشيقة باهتة على الجزء السفلي من واقي اليد، عند نقطة التقائه مع المقبض. حدقت فيها على نحو غير مسرور: حيث بدا تصميمها مناسباً أكثر لمقعد كنيسة وليس لسيف. بدأ معصمها يهتز تحت تأثير الوزن غير المعتاد. قال على نحو لطيف بقدر استطاعته: «هنا، أي شخص يُمنح هبة الرؤية يُصدق ما يراه؛ إذ يُعتقد أنه بمنزلة إرشاد، وتوجيه، ومساعدة أرسلتها الآلهة، أو أبطال ماضينا الرائع، الذين ما زالوا يهتمون بما يحدث لأحفادهم. إن الأطفال الآن عندما يبلغون العاشرة من عمرهم يبدؤون في ارتشاف ماء الرؤية؛ على أمل أن يُخبروا بالمهنة التي تلائمهم أكثر. لا يرى كثيرون منهم شيئاً، بسبب، كما أخبرتك، أن الماء لا يُحدث تأثيراً في كثير من الناس؛ ومن ثم يُسمح لاعتبارات أكثر بساطة مثل النسب والتوفر أن تحسم القرار. ولكن كل الكهنة لدينا رأوا رؤية الكهنوت وهم في سن العاشرة، وكل فارس من فرساني رأى نفسه يحمل سيفاً ... وسيختار كثير منهم فقط لون حصان الحرب الذي رأوا أنفسهم يمتطونه في الرؤية.»

قاطعته على نحو متوتر قائلة: «لكن هذا لا علاقة له بي. فأنا من الأغراب، ولست من أهل أرض التلال على الإطلاق. إذا كانت الحرب هي ما رأيته، فإن شعبي يخشى الحرب أيضاً؛ ليس من الغريب أنه حتى أنا أشعر بذلك. هذا الشيء الذي فعلته بي، أنا ...» توقفت عن الحديث؛ لأنها سمعت نفسها تتحدث؛ قالت «الأغراب» على نحو غريزي، وكانت تتحدث بسرعة بلغة سكان التلال التي بدأت تتعلمها — أو هكذا ظننت، والآن على نحو يائس لم تكن متأكدة — قبل أيام قليلة، ولم تتقنها بعد. وصدرت عنها تنهيدة كانت ستُصبح نحيباً لو كان عمرها أصغر بعام واحد، لكنها لم تُصبح كذلك. وقفت، وهي ترتجف، بينما تمسك بالسيف، في انتظار أن يتحدث إليها أيضاً، كي يُخبرها بمصيرها المريع.

أمسك كورلاث بمعصمها الأيمن في يده وجعلها تستدير حتى أصبحت تقف بجانبه؛ وأعاد ترتيب أصابعها حول مقبض السيف، ولف إبهامها تحته. شعرت في الحال، على نحو متعب، أن هذه هي الطريقة التي من المفترض أن يُمسك بها، وتساءلت عما إن كانت القدرة على استخدام السيف، مثلها مثل امتطاء حصان حرب والتحدث بلغة غريبة عنها، كانت فجأة ستستشري في دمه مثل المرض.

قال كورلاث من فوق كتفها، ويده اليمنى لا تزال تدعم معصمها: «سيدتي، أعلم أن الأمر صعبٌ عليك. ربما قد يجعله ما سأقوله لك أسهل؛ لقد منحتِ شعبي الأملَ بحضورك، بالرؤى التي تستطيعين رؤيتها، بكونك أحد الأغراب. هذا هو الأمل الأول الذي لدينا منذ أن عرفنا أن جيش الشمال سيعزونا. نحن بحاجة إلى هذا الأمل، يا سيدتي. إنه تقريباً كل ما لدينا.»

أفلتت يدها من قبضته حتى تتمكّن من الالتفاف والنظر إليه. كانت تُحدق في وجهه، وهي مفزوعة، فنظر برفق في وجهها. وتقطب جبينه ببطء. ثم قال: «ماذا يُسمونك ... هري؟ هذا لا يمكن أن يكون اسمك.»

عَبَسَتْ. وقالت: «كلا. إنه ...» لم تعرف الكلمة المقابلة في لغة سكان التلال لكلمة اسم مستعار، ويبدو أن حاستها السادسة الغامضة لم ترغب في توفيره لها. وتابعت: «إنه اسمٌ مختصر. أنا لا أحب اسمي الحقيقي.»

«وما هو؟»

سادت لحظة صمت. ثم قالت في النهاية: «أنجهاراد.»

أخذ يُجرب نطق الاسم بضع مرات. ثم قال: «سوف ندعوك هريماد. هريماد-سول؛ لأنك من رتبة رفيعة. قليلة هي الرؤى التي يمكن أن يراها الآخرون أيضاً على نحو واضح للغاية، مثلما رأى الجميع إيرين-سول تتصاعد من النار.

حاولي أن تتحلّي بالإيمان حتى بهذه الأشياء الغريبة بالنسبة إليك. لقد أخبرتني الكيلار الخاصة بي أن أحضرك إلى هنا، والكيلار الخاصة بك تتحدّث من خلالك الآن. سيدتي، أنا لا أعرف عن مصيرك أكثر من ذلك، لكنني أعتقد، مثلما يعتقد كلُّ الناس في هذا المخيم، أن مصيرك مهمٌ بالنسبة إلينا. كما أن إيرين، التي طالما كانت صديقةً شعبيها، قد منحتك حمايتها.»

هذا لا يجعل من إيرين صديقتي، هكذا قالت لنفسها في انزعاج، ولكن عندما تذكرت ابتسامة الأخت الكبرى العريضة التي منحتها لها إيرين، لم تستطع أن تُفكر فيها على نحو سيئ. وقد أخبرت كورلاث الكيلار الخاصة به أن يُحضرنِي إلى هنا. يا إلهي! أظن أن هذا يُفسر شيئاً ما. هريماد. هاري المجنونة. أتمنى أن تبقى إيرين طويلاً بما يكفي للتحديث معي — وإخباري بما يجري. رفعت نظرها إليه وحاولت أن تبتسم. لقد كان جهداً شجاعاً؛ ذلك الذي بذلته حتى يرتسم على وجهها ما يُشبه ابتسامة. لكن عيني كورلاث البنيّتين ذوّاتي النقاط الذهبية رأتا أكثر من مجرد الشجاعة، وشعر بالتعاطف معها، ثم

ابتعد عنها وصفق يديه، فأحضر أحد الخدم المشروب البني الساخن الذي تذوقته هاري لأول مرة خلف تل رملي خشن، وهي حافية القدمين وفي رובהا الهوملاندي، الذي تعلمت منذ ذلك الحين أن اسمه ملاك.

في ذلك المساء، تناول كورلاث والفرسان وهريماد-سول عشاءً رائعاً مكوناً من العديد من الأطباق، وتعرّفت هاري للمرة الأولى على المستردة بطريقة سكان التلال المصنوعة من بذور الجيكتال، التي لم تُلهب فمها ولسانها فحسب، بل حلّقها وبطانة المعدة، ثم رفع الجزء الأمامي من الزوتار إلى أعلى، حيث جلس في الخارج جزء كبير من بقية المخيم على أبسطة أمام طاوولاتٍ منخفضة صغيرة وهم يأكلون أيضاً، تحت ضوء القمر والنجوم البيضاء. بدأت هاري في عصبية تشدّ أكماتها وتعبث بنهايات حزامها مع اقتراب نهاية الوجبة؛ كان هناك توترٌ يُحلق فوق المخيم، وهو أمرٌ لم يعجبها، وتمنّت ألا يظهر الكيس الجلدي الذي يحمل بداخله ماء الرؤية في هذه الليلة. وبالفعل لم يظهر، لكنها شكّت في أن كورلاث قد لاحظ عصبيتها على نحو يشوبه القلق.

دار الحديث بسرعة كبيرة بالنسبة إليها بحيث لم تُمكنّها من استيعاب كل ما قيل — أو ربما كانت حاستها السادسة قد أجهدت نفسها وكانت الآن تستريح — لكنها فهمت أن الغرض من الرحلة التي قاموا بها هو اكتشاف مدى استعداد القرى الجبلية الصغيرة العديدة، في الشمال والجنوب والشرق من الصحراء المركزية الكبيرة، لصدّ هجمات جيش الشمال، وكم عدد الخيول والأسلحة والمحاربين، والإمدادات ونقل الإمدادات، التي يمكن لكل منها أن تقدّمه. لم تكن رحلةً مبهجة للغاية، خاصةً الجولة الغربية السريعة داخل أراضي الأغراب، حيث رفض رجلٌ عجوز عنيد ومتكبر الاستماع إلى الحقيقة، لكن كورلاث كان قد توقّع ما وجده، وأدرك — حسبما كان يظن — أنه ليس من الجيد أن يجعل هذا الأمر يفت في عضده. لقد أصبّحوا بالقرب من نهاية رحلتهم الآن: في أرض التلال أمامهم، على الرغم من أن الوصول إليها سيستغرق عدة أيام، كانت هناك مدينة كورلاث، التي يوجد بها قصره، ويتمركز جيشٌ متأهب. ظنّت هاري على نحوٍ ما، من الطريقة التي أشاروا بها إليها، أن «المدينة» هي المدينة الوحيدة في مملكة كورلاث، وأن شعبه ليس مُهتماً كثيراً ببناء المدن وصيانتها والعيش فيها، باستثناء مدينة الملك، التي تتمتع بميزة كونها ممثلةً بالكيلار. لكن سكان التلال كانوا مجتمعاً مستقلاً، لقد فضّلوا الاحتفاظ بقطع الأرض الصغيرة الخاصة بهم وزراعتها، حيث لم تُرّق لهم المدن ولا المناصب في الجيش النظامي.

ولأنها قد سمعت الكلمة كثيراً، بدأت هاري تفهم على نحو أفضل ما كانت تشير إليه كلمة كيلار. إنها شيء مثل السحر، والتفسير المحدد للكيلار في إنسان معين كان هو أنها هبة. والكيلار أيضاً كان شيئاً مثل تعويذة أو سحر، عالقة في الهواء في أماكن قليلة في أرض التلال، وأحد تلك الأماكن هي مدينة الملك، حيث قد تحدث أشياء معينة، ويحظر حدوث أشياء أخرى، بطرق مختلفة تماماً عن القوانين الفيزيائية المعتادة. وعندما يفقدون كل الأماكن الأخرى، يمكن لسكان التلال اللجوء إلى داخل المدينة؛ فإذا استولى جيش الشمال على كل شيء آخر أو دمر، يمكن لعدد قليل أن يستمر في العيش داخل المدينة؛ لأن بداخلها بعضاً من قوة دمار القديمة.

ومن ثم بدأت في تخيل المدينة، والتطلع لرؤيتها. وحولها كان يتحدث الملك والفرسان عن إصلاحات يتعين إجراؤها، وأعمال حدادة جديدة يتعين القيام بها، وأفضل الحدادين — دهبوس — وأفضل مُصنعي الجلود — باريزي — في أرض التلال. وقد وضعت ناركنون نصفها الأمامي على حجر هاري، وأخذت تُخرخر لتَهزَّ عظامهما على حدٍّ سواء. أمسى الوقت متأخراً للغاية. وحقق الفرسان في أكوابهم الفارغة، وفي الخارج حدق الرجال في النجوم، وبينما هاري تُغالب النعاس، كانت لا تزال تستمع إلى همهمة في الهواء، ولا تزال غير قادرة على تفسيرها.

قال كورلاث: «ماثين»، فانتفضت هاري واستفاقت. نظر ماثين عبر المائدة، واستقرت عيناه وقتاً وجيزاً على الفتاة ذات الشعر الذهبي في الرداء ذي اللون الأحمر الداكن قبل أن ينظر إلى ملكه. وتابع كورلاث: «ستُقام مُنافسات لابرون بعد ستة أسابيع من الغد على السهول أمام المدينة.» كان ماثين يعلم هذا جيداً، ولكن من زاوية عينه رأى الفتاة تنظر إلى كورلاث، في حيرة، ثم تُلقي نظرة عبر المائدة نحو مُعلم اللغة الصبور الذي يتولى مسئولية تعليمها. وأضاف كورلاث: «ستشارك هريمد-سول فيها.»

أوماً ماثين برأسه؛ لقد كان يتوقع هذا، ونظراً إلى أنه أجرى بعض التقييمات لهاري في الأيام الماضية، لم يكن منزعجاً. بلعت هريمد-سول ريقها بصعوبة على نحو ما، لكنها اكتشفت أنها لم تُفاجأ أيضاً، وبعد يوم من امتطاء أحد خيول الحروب وامتشاق السيوف كان يمكن أن تُخمن نوع تلك المنافسات (لكن ما اللابرون؟). مسكين ماثين. تساءلت عن رأيه في الفكرة — ستة أسابيع لتجهيز مبتدئة عديمة الخبرة، حتى لو كانت قدرة الكيلار تُرشدها — وأقنعت نفسها بأنها لا تعرف.

قال ماثين: «سوف نرحل قبل الفجر بساعتين غداً.»
قالت هاري لنفسها: ستة أسابيع. إلى أي مدى يمكن للمرء أن يتعلم في ستة أسابيع،
حتى لو كانت إيرين تعتني به؟

الفصل السابع

استيقظت في الحال عندما أزعج الخادمُ الستائر عن مكانِ نومها ووضع شمعة على الطاولة البرونزية السطح المنخفضة بجانب وسائدها. فنهضت، وتمطت، وتطقطق جسدها، وتنهدت، ثم استبدلت ملابسها بسرعةٍ بملابس ركوب الخيل، وتجرعت مشروب الملاك الموضوع بجانب الشمعة. احتجت ناركنون على كلِّ هذا النشاط بتذمُّر يشوبه النُّعاس؛ ثم أعادت نفسها تحت الأغطية غير المرتبة واستكملت نومها. خرجت هاري من الخيمة لتجد حصانَ ماثين البنيِّ الداكن وحصانها صنجولد وقد أُعدَّ بالفعل. حوَّل تسورنين رأسه نحوها وصهل لها. همست له: «أنا متفقتٌ معك تمامًا»، فأخذ كتف رداثها بلطفٍ بين أسنانه. ظهر ماثين من الظلام وتبعه حصانُ حملٍ أمتعة.

أوما برأسه لتحيتها، وامتطيا حصانَيْهما واتجها نحو التلال التي ترتفع على مسافةٍ قريبة جدًا من المخيم، على الرغم من أنها لم تستطع رؤيتها الآن. وبينما كانت تتلاشى ظلمة السماء اكتشفت أنهما قد صعدا بالفعل إلى التموجات السفلية لتلك التلال، واختفى المخيم الذي تركاه عن مرمى البصر. وأصبح صوتُ خطوات حوافر الخيول أكثرَ قسوةً الآن وهي تضرب أرض التلال. وبينما كانت تتنفس أصبحت تشمُّ رائحة الأشجار، وتأهب قلبها، على الرغم من مخاوفها، لخوض المغامرة التي كانت بصدها.

استمرا في التجوُّل طوال ذلك اليوم، وتوقفاً فقط لتناول الطعام وسحب السروج من على الخيول لبضع دقائق وفرك ظهورها. كان على هاري أن تجد صخرة لتقف عليها كي تتمكَّن من امتطاء حصانها؛ نظرًا إلى عدم وجود رفاهيةٍ من يساعدها من الخدم ذوي الرداء البني الذين يستندون إلى ركبةٍ واحدة ويشبكون أكفَّهم كي تصعدَ عليها، ومن الواضح أن صنجولد وجد طريقةً فارسته في استدعائه نحوها، وهي تقف فوق صخرةٍ

كبيرة كي تتمكّن من امتطائه، غريبةً للغاية. قال ماثين: «هذا هو أول شيء سأعلمه لك. راقبي هذا.» وضع يداً على كل حافة من حافتي السرج، ودفع نفسه إلى أعلى وجلس على السرج، وهو يُبعد يده اليمنى، التي تُمسك بالحافة الخلفية من السرج، برشاقة عن طريقه بمجرد أن دفع نفسه إلى أعلى.

قالت هاري: «لا يمكنني فعل ذلك.»

قال ماثين: «بل يمكنك. عليك أن تحاولي.»

ومن ثم حاولت هاري. حاولت عدة مرات، حتى مدّ صنجولد أذنيه نحو الخلف وثبّت ذيله بين ساقيه الخلفيتين؛ وعندئذٍ سمح لها ماثين بالعثور على صخرة صغيرة لتقف عليها وترفعها بضع بوصات فقط، وجعلها تُحاول مرةً أخرى. لم يكن صنجولد يرغب في أن تستدعيه نحوها وأن يخوض تلك العملية غير المريحة مرةً أخرى، لكنه جاء، وثبّت قدميه بقوة، ونجحت هاري في الوثب على السرج.

قال ماثين: «ستتمكّن قريباً من فعل ذلك وأنت تقفين على الأرض.»

وهذه ليست سوى البداية، هكذا قالت هاري لنفسها على نحوٍ بائس. كانت تشعر بالألم في معصمَيها وكتفَيها. لم يحمل صنجولد أيّ ضغائن، على الأقل؛ فبمجرد أن امتطته مرةً أخرى، ارتفعت أذناه وخطا بعض الخطوات الصغيرة الراقصة.

سارا على نحو متواصل باتجاه أعلى التلال، إلى أن شعرت هاري بالألم في ساقَيها وهي تُوجه نفسها إلى الأمام فوق السرج في مواجهة الجذب لأسفل. لم يتحدّث ماثين، إلا لإجبارها على ممارسة القفز فوق السرج عند كلّ توقّف، وكانت راضيةً عن الصمت. إن المكان الذي كانا يتجوّلان فيه كان مليئاً بأشياء جديدة عليها، فراحت تنظر إليها جميعاً من كثب: الصخرة الرمادية ذات العروق الحمراء التي تبرز تحت مساحات العشب، وألوان العشب، التي تتراوح من الأخضر المصفرّ الفاتح إلى الأخضر الداكن الذي بدا أرجوانياً تقريباً، وشكل الشفرات؛ العشب الذي يقترب لونه من الأرجواني، إذا كان هو عُشباً بالفعل، كانت له جذورٌ عريضة وأطراف دائرية ضيقة، لكن حصان حمل الأمّعة تهافت على أكله مثل العشب. وقد تحلّى حصانا الركوب بسلوكٍ مهذب ولم يفعلوا مثله، ووقفوا يراقبانه، حتى بعد عدة أيام من الرحلة الصحراوية الجافة. وبرزت زهورٌ صغيرة وردية وبيضاء، مثل زهور البيمشي الخاصة بالليدي أميليا ولكن مع مزيد من البتلات، من الشقوق الصخرية، وغرّدت طيورٌ بُنية مخططة صغيرة مثل العصافير وتفاقرت وتحركت برشاقة فوق رءوس الخيول.

كان ماثين يلتفتُ نحوها وهو فوق سرجه من حين لآخر كي ينظر إليها، وقد انشرح قلبه العجوز من رؤيتها وهي تنظر حولها بسرورٍ مطلق في عالمها الجديد. وقال لنفسه

إن الكيلار الخاصة بكورلاث لم تُخبره بشيء سيئ مثلاً كان يظنُّ في البداية عندما أخبر كورلاث فرسانه بخطته للعودة إلى قاعدة الأغراب لخطف فتاة.

كانا يُخيمان عند الطرف الضيق العالي لركنٍ وادٍ صغير، وقد قالت هاري لنفسها إن ماثين كان على ما يبدو يعرف هذا المكانَ من قبل. كان هناك نبعٌ ينبثق من الأرض حيث نصباً خيمتيهما، وهما خيمتان صغيرتان من نوعٍ يُسمى تاري، كان ارتفاع كلٍّ منهما منخفضاً لدرجة أن هاري كانت تدخل خيمتها على يديها ورُكبتها. وعند الطرف السفلي الأكثر اتساعاً من الوادي، كان النبع يتَّسع ويتحوَّل إلى بركة صغيرة. وقد فُرَّكت الخيول بعناية وقُدِّم لها بعضُ الحبوب، وحُررت من السروج وتُركت لتتحرك في حرية.

قال ماثين: «في بعض الأحيان يُصبح من الضروري، ونحن بعيدٌ عن الوطن وفي مخيمٍ صغير، أن نربط خيولنا؛ لأن الخيول تشعر براحةٍ أكثر وهي وسط قطع، لكن صنجولد هو حصانك الآن ولن يتركك، وويندرايدر وأنا معاً منذ سنواتٍ عديدة. وفيكي، حصانُ حمل الأمتعة، سيبقى مع صديقيهِ؛ لأنه حتى ولو كان القطيع صغيراً فهو أفضلُ من أن يكون بمفرده.»

أعدَّ ماثين العشاء بعد إطعام الخيول، لكن هاري تأخَّرت في الظهور، حيث راحت تُمشط غُرَّة صنجولد وذيله لفكِّ أي تشابك قد يوجد بهما. وعلى الرغم من إرهاقها الشديد، شعرت بالسعادة لأنها تعتني بحصانها بنفسها، ولأنه ليس هناك سائسٌ ليعتني به ويأخذ هذه المتعة منها. وربما ستمتكن من تعلُّم القفز على السرج مثل ماثين. بعد مدةٍ تركت حصانها في سلام، ونظراً إلى أنها لم يكن لديها أيُّ شيء أفضل لتفعله، اقتربت على نحوٍ متردد من ويندرايدر مع فُرشاتها. رفعت الفرسة رأسها وقد شعرت بالمفاجأة على نحوٍ طفيف عندما بدأت هاري تُمشط غرتها الطويلة المنسدلة على أعلى كاهلها؛ لأنها لم تكن بحاجة إلى العناية مثل صنجولد، لكنها لم تعترض. لكن عندما أعدَّ ماثين لهاري طبقاً ممتلئاً بالطعام، تركت الفرشة وذهبت إليه على الفور. فأكلت ما قدَّمه لها ماثين، ثم غرقت في النوم بمجرد أن رقدت في خيمتها.

استيقظت في الليل بعد أن شعرت أنَّ ثقلًا غير متوقَّع، ولكنه مألوف، استقر على قدميها. رفعت ناركنون رأسها وبدأت تُخرخر بشدة عندما تحرَّكت هاري. فقالت هاري: «ما الذي تفعلينه هنا؟ أنت غيرُ مدعوَّة للمشاركة في هذه الرحلة، وهناك شخصٌ ما في معسكر كورلاث لن يُصبح سعيداً على الإطلاق بسبب غيابك عندما تخرج حملات الصيد.» بسطت ناركنون، التي لم تزل تُخرخر، جسدها النحيل بطول رجل هاري، ومدَّت رأسها

الكبير، وفتحت فمها بحيث أظهرت الأنياب المتلألئة التي تقارب طول إصبع إنسان، وعضت هاري، بلطف شديد، في ذقنها. جعل صوت الخوار، من هذه المسافة، عقل هاري يترجح داخل جمجمتها، كما جعلت عضه الأسنان الخفيفة عينها تدمعان.

نهض ماثين عندما سمع صوت هاري. ورأى ذيل ناركنون يمتد من الجانب المفتوح للخيمة، بينما يتلوّى طرفه لأعلى ولأسفل على نحو مطمئن. سمعت هاري، وهي غير مصدقة، ماثين يضحك؛ لم تكن تعرف أن ماثين يمكن أن يضحك.

«سوف يُخمنون إلى أين ذهبت، يا هريمان-سول. لا تشعري بالانزعاج. إن الجو يصبح باردًا في الليل وسيكون أكثر برودة هنا، ستصبحين ممتنة لرفيقة خيمتك قبل أن تغادر هذا المكان. إنه لأمر مؤسف أن أيًا منا ليست لديه المهارة كي يصطحبها للصيد؛ يمكن أن تصبح مفيدة. اخُلدي إلى النوم. أمامنا غداً يوم شاق للغاية.»

رقدت هاري، وهي تبتسم في الظلام، على ملاحظة ماثين اللطيفة: «لا أحد منا لديه المهارة كي يصطحبها للصيد.» وقد بدت فكرة تلقى دروسها على يد هذا الرجل — خاصة الآن بعد معرفتها أن بإمكانه الضحك والتحلي بروح الدعابة — أقلّ تجهماً. ومن ثم غرقت في النوم وقد سرّ قلبها، كما تشجعت ناركنون، بسبب هدوء موقع المخيم الصغير والخيمة الصغيرة، ومدّت نفسها بالكامل بجانب الشخص المفضل لديها، ونامت وهي تضع رأسها تحت ذقن هاري.

استيقظت هاري عند الفجر، كما لو كان من المحتم أن تستيقظ في ذلك الوقت. ولم ترق لها على الإطلاق فكرة الخروج من الخيمة سريعاً، من الناحية العقلية، لكن جسدها وقف على قدميه وعضلاتها كانت تطيل نفسها قبل أن تتمكن من الاحتجاج. وسارت الأسابيع الستة بأكملها التي أمضتها في هذا الوادي تقريباً على هذا المنوال؛ كان هناك شيء سيطر عليها بطريقة ما، أو استولى على جزء منها كانت دائماً تظنّه خاصاً بها على نحو متفرد. ومن ثم لم تفكر، بل تصرّفت، وفعل ذراعاها وساقاها أشياء لم يفهمها عقلها على نحو واضح. لقد كانت تجربة غريبة للغاية بالنسبة إليها؛ لأنها اعتادت على التفكير بنحو كامل في كل شيء. كانت مفتونة بخفة حركتها، ولكن في الوقت نفسه تشككت في أن هذه هي قدرتها الخالصة. ربما كانت الليدي إيرين توجّهها؛ لأن هاري لم تكن هي من توجّه نفسها.

وقد اكتشفت أيضاً أن ماثين يخلط طعامهما بشيء ما. فقد كان لديه جراب صغير، بداخله كثير من الأكياس الصغيرة، ملفوفة مع أدوات الطهي. وتحتوي معظم هذه الأكياس

على أعشابٍ وتوابلٍ غير ضارة، ميَّزَت هاري عددًا قليلًا منها عبر طعمها، ولكن لم تعرف أسماءها. وقد سألت عن تلك الأسماء الجديدة عليها منذ أن تذوّقت طهي سكان التلال لأول مرة، بينما كان يفرّكها ماثين بين أصابعه قبل أن يُسقطها في الحساء، فتصاعد رائحتها وتملأ عينُها وأنفها. كانت قد بدأت في طرح العديد من الأسئلة حول أكبر عددٍ ممكن من الأشياء، حيث تلاشى حدُّها من ماثين باعتباره رجلًا غريبًا غير ودودٍ وحلٍّ محله الإعجاب به كمُعَلِّمٍ ممتاز، وإن كان متعجرفًا في بعض الأحيان. وعلمت أنه يُصبح في مزاجٍ مبتهجٍ أكثرَ عندما يطبخ أكثرَ من أي وقتٍ آخر تقريبًا.

وعندما سألت عن الكومة الصغيرة من المسحوق الأخضر الموجودة في راحة يده، أجابها قائلاً: «إن اسمه ديرث، وهو مأخوذ من شجيرة منخفضة، ذات أوراقٍ لها أربعة فصوص»، وفي مرةٍ أخرى، قال لها: «هذا اسمه نيمينج وهو مسحوق الثمار المجففة لنبات يحمل الاسم نفسه». ولكن كان هناك أيضًا مسحوق رمادي ذو رائحةٍ نفاذةٍ للغاية، وعندما سألته عنه تحفّظ ماثين عن الإجابة، وأرسلها لتنظيف سرج حصانها، رغم أنه لا يحتاج إلى ذلك، وفي مرةٍ أخرى لجلب بعض الماء وهما ليسا في حاجة إليه. وعند المرة الرابعة أو الخامسة التي فعل فيها هذا قالت في حزم: «كلا. ما اسم هذا الشيء؟ إن سروجنا ستبلى من كثرة التنظيف، وصنجولد وويندرايدر نظيفان، وشعر كلٍّ منهما منسقٌ على نحوٍ رائع، والخيمتان آمنتان ضد أي شيء سوى حدوثٍ انهيارٍ صخري، وأنت لست في حاجةٍ إلى مزيد من الماء. ما اسم هذا الشيء؟»

مسح ماثين يديه بعناية ولفَّ الأكياس الصغيرة معًا مرةً أخرى. وقال: «إن اسمه سورجونال. وهو ... يجعل المرء أكثرَ انتباهًا.»

راحت هاري تُفكر في الأمر. ثم قالت: «تقصد أنه ...» لم تستطع إيجاد الكلمة المناسبة بلغة سكان التلال، فاستخدمت الكلمة المقابلة في لغة هوملاند، وتابعت: «مخدر.»

قال ماثين بهدوء: «أنا لا أعرف معنى كلمة «مخدر». إنه عشب منشط، أجل؛ إنه خطير، أجل، لكن ...» وهنا ظهر بريقُ المرح غير المرئي تقريبًا، الذي تعلّمت هاري أن تكشفه في الوجه المربع لمعلمها، وأشعل لهبًا صغيرًا داخل عينيه، فتابع: «أنا أعرف جيدًا ما أفعله. أنا مُعلمك، وأقول لك أن تأكلي وتهدئي.»

قبلت هاري طبقها الممتلئ، ولم تكن أبطأً من المعتاد بنحوٍ ملحوظ أثناء تناوله. وسألت وهي تأكل: «إلى كم من الوقت ... يمكن للمرء استخدام هذا ... المنشط؟»

قال ماثين: «عدة أسابيع، لكن بعد المنافسات، ستريدون النوم كثيرًا. وسيُصبح لديك وقتٌ لاستخدامه في ذلك الحين.»

إن حقيقة عدم قدرة هاري وماثين على اصطحاب ناركنون للصيد لم تُحبط ناركنون على الإطلاق. ففي كل يوم بعد انتهاء الدروس، وعودة هاري وماثين والخيول إلى موقع المخيم، مُتعبين ومُتسخين، مع بعض التقرُّحات في الأرجل على الأقل في حالة هاري، كانا يجدان ناركنون هناك، وقد مدَّت جسدها أمام حفرة النار، مع صيد اليوم — أرنب، أو اثنان أو ثلاثة من الطيور التي تُشبه الديك البري ولكن طعمها مثل البط، أو حتى غزال صغير. وفي المقابل كانت ناركنون تأكل عَصيدة هاري كلَّ صباح. فقال ماثين في صباح اليوم الثالث عندما وضعت هاري ثُلثي وعائها لناركنون كي تأكله: «لم أحضر ما يكفي لإطعام ثلاثة لمدة ستة أسابيع.» قالت هاري: «أفضل أن آكل ما تبقى من لحم الطيور»، ومن ثَم فعلت ذلك.

تعلمت هاري كيفية التحكم في سيفها، ثم حمل الدرع المستدير الخفيف الذي كان يستخدمه سكانُ التلال، ثم التكيف، إن لم يكن الارتياح على نحو تام، مع ارتداء سُرّة جلدية قصيرة مقوَّاة بالسلاسل، وبنطالٍ ضيق أعطاها ماثين لها. وما دام هناك ضوءٌ نهار، فهي تُؤمّر، أو تُجبر، على السير باستخدام خطواتها التي تتحسنَّ باطراد على نحو لافت — مُخيف — كما لو أنَّ شيئًا ما بالفعل قد استيقظ في دماغها، هكذا قالت لنفسها، لكنها لم تُعد تُفكر في الأمر، أو أخبرت نفسها أنها لا تُفكر فيه، كمرَض. لكنها لم تستطع تجنب ملاحظة الإحساس — ليس بالدروس التي كانت تتعلمها لأول مرة، ولكن بالمهارات القديمة المهملة، التي بدأت الآن، بالفعل، تُصقل من جديد. لم تتعلم قط أن تحب سيفها، وتعتز به مثلما كان أبطال القصص التي قرأتها في طفولتها يعتزون بسيوفهم، لكنها تعلمت أن تفهمه. كما تعلمت أيضًا أن تقفز على السرج، ولم يُعد صنجولد يُعيد أذنيه للوراء عندما تفعل ذلك.

وفي الأمسيات، على ضوء النار، علَّمها ماثين الخياطة. وأوضح لها كيفية مواءمة السرج الذهبي حتى يُناسبها بالضبط، وكيفية ترتيب الخطافات والأحزمة بحيث تضع أمتعتها فوق صهوة الحصان على نحو مثالي، وبذلك يُمكنها أن تستل سيفها بسهولة من غمده، ولن ترتطم خوذتها بركبتها وهي معلقة على السرج.

ونظرًا إلى أنها كانت تستوعب دروسها على نحوٍ أسرع وأكثر براعةً، اصطحبها ماثين إلى مزيد من أرض التلال حول مُعسكرهم في الوادي الصغير. ومن ثَم، تعلمت كيفية

التعامل؛ أولاً مشياً على الأقدام ثم على صهوة حصانها، مع أوسع مجموعة متنوعة من التضاريس المتاحة: الصخور المسطحة، والطفل السفحي سهل التفتت، والكتل الصغيرة المنزلة من الحصى والرمال، والعشب والحصى وحتى الغابات، حيث يكون على المرء أن يقلق بشأن الضربات غير المبالية من الفروع وكذلك الضربات المحددة للخصم. نزلت هي ومائتين إلى الصحراء مرة أخرى مدة وجيزة، حيث بارز بعضهما البعض هناك. كان ذلك في نهاية الأسبوع الرابع. ومن الأشجار والصخور والجدول المتدفق، استطاعت معرفة المكان الذي نُصب فيه مخيم الملك، لكن زواره من الناس كانوا قد رحلوا منذ مدة طويلة. وهناك بينما كانت تمتطي حصانها فوق الرمال الرمادية وتسورنين يثب ويغير اتجاهه تحتها، حدث شيء غريب.

اعتاد مائتين دائماً أن يضغط عليها بقوة بالقدر الذي يمكن به أن تُدافع أمامه عن نفسها؛ لقد كان ثابتاً ومنهجياً جداً بشأن هذا الأمر، لدرجة أنها لم تدرك في البداية أنها كانت تتطور. كان صوته دائماً هادئاً، وعالياً بما يكفي كي تسمعه بسهولة حتى عندما كانا يُهاجم كلُّ منهما الآخر بالأسلحة، لكن لم يكن عالياً أكثر من ذلك، ووجدت نفسها تستجيبُ بهدوء، كما لو كان تعلم فنون القتال لعبة منزلية جديدة. كانت تعرف أنه خيال ومبارز رائع، وأنه لا أحد يحصل على لقب فارس الملك ما لم يكن ماهراً للغاية في كليهما، وأنه كان يُدربها. معظم الوقت، خلال هذه الأسابيع، كانت تشعر بالارتباك، وعندما أصبح عقلها أكثر صفاءً، كانت تشعر بالفخر الذي يشوبه بعضُ الأسى، لكن الآن، بعد أن تعلّمت المناورة وتفادي الضربات، وكان يسمح لها بتوجيه الطعنات أو الضربات المسطحة الثقيلة من أن لآخر، وجدت أنها قد بدأت تغضب. تصاعد هذا الغضب في داخلها ببطء في البداية، على نحو خافت، ثم هادر، وأصبحت، على الرغم منه أو في ظله، متحيرة منه مثلما هي متحيرة من كل شيء آخر حدث لها منذ مغادرتها للقصر دون إرادتها. إنه شعور بالغضب، غضب رهيب، وكان يتسم بالخطورة، وهو أسوأ بكثير من أي شيء اعتادت عليه. وبدا أنه لا علاقة له بفقدان أعصابها، وبالانزعاج على وجه التحديد من أي شيء، لم تفهم منبَعه أو غرضه، وحتى مع الألم في صدغيها بسببه، كانت تشعر بالانفصال عنه. لكن أنفاسها أصبحت أسرع قليلاً، وبعد ذلك أصبحت ذراعها أسرع قليلاً، وشعرت بسورنين من سرعتها، ووسط ذلك وجدت لحظة لتقول خلالها لنفسها على نحو ساخر، حتى مع تصاعد الضجيج في أذنيها إلى صدادٍ فظيع، إن صنجولد حصان من الفئة المتميزة بينما من تركبه ليست فارساً من الفئة المتميزة.

اضطربت على نحوٍ طفيف تلك الابتسامة العريضة المعتادة التي كانت ترتسم على وجه ماثين وتدل على التركيز والزَّهو، حسبما كانت تظن هاري مؤخرًا، عندما فاجأته بهجومٍ خاطف، ورفع عينيه مدَّةً وجيزة لينظر إلى وجهها، وحتى عندما التقى السيف بالسيف ... ارتبك.

دون تفكير؛ لأن هذا هو ما كانت تتدرَّب من أجله، تقدَّمت إلى الأمام، فاضطربت خطوات ويندرايدر، وارطم بها صنجولد، كتفًا في كتف، فسدَّت هاري بسيفها ضربةً على سيف ماثين فارتطمت القبضة بالقبضة، وما جعلها تشعر برعب شديد، هو أنها دفعته بقوة وأسقطته من على السرج. فارتطم درعُه بصخرة مُحدثًا صوتَ قعقعة وانقلب رأسًا على عقب، وتأرجح على نحوٍ مثير للسخرية مثل طبقٍ مقلوب.

تباعد الحصانان وهما يتحركان على نحوٍ غير متَّزن وحدثت هي إلى أسفل، في زعر، نحو ماثين الذي كان يجلس على الأرض وسط سحابة من الغبار، وهو يشعر بالقدر نفسه من الاندهاش الذي شعرت به. وقد اختفت الابتسامة العريضة لحظةً — وهذا أمرٌ مفهوم تمامًا، حسبما قالت لنفسها — ولكن بحلول الوقت الذي نهض فيه ليقف على قدميه وانزلقت هي من فوق صهوة صنجولد، واقتربت منه وهي تشعر بالقلق، عادت الابتسامة العريضة لترسم على وجهه من جديد. حاولت أن تُقابل ابتسامته بابتسامة فجاءت مهتزةً ومتوترة، ووقفت وهي تشعر بالحرج وقد وضعت سيفها خلف ظهرها كما لو كانت تُفضل ألا تُذكر بوجوده، ونقل ماثين سيفه المُترب من يده اليمنى إلى اليسرى، وتقدَّم نحوها وأمسك كتفها. كان أقصرَ منها بمقدار نصف رأس، واضطُرَّ إلى النظر لأعلى كي يُوجِّه نظرته إلى عينيها. كانت قبضته قوية للغاية لدرجة أن الدرع الذي هو من الزرد الذي كانت ترتديه وخزَّ كتفها، لكنها لم تلاحظ ذلك؛ لأن ماثين قال لها: «تفضلي بقبول احترامي التام، يا سيدتي، يُشرفني تقديمُ خدماتي لك في كلِّ ما تأمرين به. لم يتمكَّن أحدٌ من إسقاطي عن صهوة حصاني على هذا النحو منذ عشرِ سنوات، ومن فعل ذلك كان كورلاث نفسه. أنا فخورٌ بتعليمك، وأنا، يا سيدتي، لست أقلُّ الفرسان براعة.»

اختفى الغضب تمامًا، وشعرت بالجفاف والبرودة والخواء، ولكن عندما التقت عيناها بعيني ماثين دون رغبةٍ منها رأَتْ فيهما بريقًا من الصداقة، وليس مجرد الرضا الموضوعي لمُعلم عن تلميذٍ نجيب، وقد أرضاها هذا أكثرَ مما فعل الغضب. إذ أصبح لديها هنا في أرض التلال، وهي امرأةٌ من الأغراب، صديقٌ، وهو ليس أقلُّ الفرسان براعة.

استمرت الدروس بعد ذلك، لكنها أصبحت أسرع وأكثر شراسة، ولم يتلأش الاهتمام المرتسم على وجه ماثين قط، لكنه تغير من التركيز القوي لمعلم إلى الحماسة المتقدة لرجل وجد تحديًا. أصبحت الطاقة والقوة اللتان كانتا يستهلكانها تتطلبان الآن أن يتوقفا من أجل الراحة في وقت الظهيرة، عندما تصل حرارة الشمس إلى ذروتها، على الرغم من أن منطقة التلال كانت أقل حرارة بكثير من الصحراء الوسطى. ما كان تسورنين ليعترف قط بالتعب، وكان يُراقب هاري من كثب في جميع الأوقات؛ تحسبًا لأن يفوته شيء ما. وكان ينتظر موعد دروسها على نحو متحمس للغاية، حيث كان يمدُّ أذنيه للخلف ويضرب الأرض بحوافره، ويظلُّ يدور حولهما حتى يُضطرًّا إلى الصراخ في وجهه كي يبتعد. ولكن خلال الأيام العشرة الأخيرة، كان راضيًا بالوقوف في الظل، خافضًا رأسه ومرخيًا إحدى قائمتيه الخلفيتين، في وقت الظهيرة، بينما هي تستلقي بجانبه.

وفي أحد الأيام قالت: «ماثين، هل تُمانع في أن تخبرني شيئًا عن كيفية تدريب الخيول؟» كان ذلك أثناء حصولهما على راحة في وقت الظهيرة، بينما كان يتشممها صنجولد بأنفه؛ لأنها غالبًا ما كانت تُطعمه أجزاءً لذيدة من غدائها.

قال ماثين: «إن عائلتي تُربي الخيول.» كان مستلقيًا على ظهره، وقد شبَّك يديه على صدره، وأغمض عينيه. ثم صمت بعض الوقت، ولم يقل أي شيء آخر، فأرادت هاري أن تستحثه على الكلام إذ لم تستطع معه صبرًا، لكنها تعلَّمت أن مثل هذا السلوك كان سيجعل ماثين يمتنع عن الكلام تمامًا، أمَّا لو أمسكت لسانها وجلست في ثبات، وسيطرت على توترها بهدوء، فإنه كان يُخبرها بالمزيد في بعض الأحيان.

ومن ثم أخبرها بالمزيد هذه المرة: كيف أن والده وإخوته الثلاثة الكبار يُزاوجون ويربُّون ويدربون بعضًا من أرقى خيول الركوب في دامار. قال بلا حماسة: «عندما كنت في مثل سنِّك، دربنا أفضل الخيول على حركات الحرب من أجل دقة السيطرة اللازمة لكل من الحصان والفارس، وليس من أجل أن تصبح جاهزة لخوض المعارك.

لقد درب والدي فايرهارت. إنه عجوز للغاية الآن، ولم يعد يُدرب مزيدًا من الخيول، لكنه لا يزال يحمل معلومات عن جميع سلالاتنا في رأسه، ويُقرر أيُّ الفحول يجب أن يتزاوجوا مع أيُّ الفرسات.» ثم توقَّف عن الكلام، فظنَّت هاري أن هذا هو كل شيء، لكنه أضاف ببطء: «إن ابنتي هي من دربت صنجولد.»

ساد صمت طويل. ثم سألت هاري: «لماذا لم تظلَّ معهم وتُدرَّب الخيول أنت أيضًا؟»

فَتَحَ ماثين عينيه. وقال: «بدا لي أن والدي، وثلاثة إخوة وعائلاتهم، وزوجتي، وابنتي، وولدي، يُعتبرون عددًا كافيًا من عائلة واحدة لفعل الشيء نفسه. لقد درّبت العديد من الخيول. فأنا أعود إلى المنزل ... في بعض الأحيان، حتى لا تنسى زوجتي وجهي، لكنني دائمًا كنتُ أرغب في الشرود. وكفارس، يمكن للمرء أن يشرد. من الممكن أيضًا أنني لم أكن بارعًا بما فيه الكفاية. لم يرغب أيُّ من بقية عائلتي يومًا في ترك ما يفعلونه، ولو ليوم واحد. أنا الوحيد في عائلتي منذ أجيالٍ الذي امتطى حصانه وشارك في منافساتٍ لابرون؛ كي أفوز وأحصل على سيفي.»

قالت هاري: «لماذا آل الأمرُ لأن تصبح أنتُ مُعلمي؟ هل كنت ... هل أمرك كورلاث بذلك؟»

أغمَضَ ماثين عينيه مرةً أخرى وابتسم. ثم قال: «كلا. في اليوم التالي بعد أن تناولتُ الميلدتار ورأيتُ المعركة التي في الجبال، تحدثتُ أنا إلى كورلاث؛ لأنني علمتُ من تلك الرؤية التي رأيتهَا أنكِ ستُدْرِبين من أجل المعركة. كان من الممكن إسنادُ المهمة إلى فورلوي، وهو الوحيد بيننا الذي يتحدّث لغة الأغراب، أو إلى إيناث، وهو أفضلُ خيَال بيننا، لكنني أكبرُ سنًا، وربما أكثرُ قدرةً على الصبر، وقد درّبتُ كورلاث وهو صغير، منذ زمن، عندما كنتُ فارسًا من فرسان والده.»

فورلوي، هكذا قالت هاري لنفسها. إذن إن اسمه فورلوي. بدأتُ تقول: «ماثين ...» وكان صوتها غيرَ سعيد. كانت تُحدق في الأرض، وتقطف قطعًا من العشب الأرجواني وتمزّقها، ولم تلاحظ أن ماثين استدار لينظر إليها عندما سمع صوتها غيرَ السعيد. إذ لم يبدُ صوتها هكذا منذ أسابيع، وكان سعيدًا لأن الأمر كان ينبغي أن يكون كذلك.

وتابعت: «لماذا ... لماذا لم يتحدّث فورلوي معي قط، قبل أن ... قبل أن تبدأ أنت في تعليمي التحدّث بلُغَتكم؟ هل يكره الأغرابُ للغاية؟ ولماذا تعلّم لغتي من الأساس؟»

التزم ماثين الصمت إذ أخذ يُفكر فيما يمكن أن يقوله لصديقه الجديدة دون أن يخون صديقَه القديم. ثم قال: «لا تحكمني على فورلوي — أو على نفسك — بقسوةٍ مُفرطة. عندما كان في مثل عمرك وقبل أن يُصبح فارسًا، وقع فورلوي في حبِّ امرأةٍ التقى بها في معرض الربيع في إيستن. لقد ولدت ونشأت في الجنوب، وذهبت للخدمة لدى عائلة من الأغراب هناك؛ وعندما أرسلوا إلى إيستن، ذهبت معهم. وفي العام الثاني، خلال المعرض التالي، عاد ووافقتُ هي على الذهاب معه إلى أرض التلال. لقد أحبّت فورلوي، على ما أعتقد، وحاولتُ أن تُحب بلده من أجل خاطره، لكنها لم تستطع. وعلمته لغة أرض الأغراب، حتى

يُمكنها تذكرُ حياتها هناك عبر ترديد الكلمات. ولم تكن لتتركه؛ لأنها تعهدت بنفسها أن تعيش معه في أرض التلال، لكنها ماتت بعد سنواتٍ قليلة فقط. وظل فورلوي يتذكر لغتها إكرامًا لذكراها، لكن هذا لا يعني أنه يحبُّ تلك اللغة». سكت، وأخذ يُراقب أصابعها التي استرخت، وتركت السيقان الأرجوانية لتسقط على الأرض. ثم تابع: «لا أظن أنه قال أي كلمات من تلك اللغة طوال سنواتٍ عديدة، وكورلاث لم يكن ليطلب منه التحدث بها إلا لسببٍ مهم للغاية».

قالت هاري لنفسها: كورلاث. إنه يعرف قصة ... الشابة الأجنبية التي لم تزدهر عندما زُرعت في أرض سگان التلال. وقد وُلدت ونشأت في داريا، وقد جاءت بكامل إرادتها. ثم قالت لماثين: «وكورلاث؟ كيف تعلَّم كورلاث لغة الأعراب؟»

قال ماثين بعد تفكيرٍ عميق: «يؤمن كورلاث بضرورة معرفة ... منافسيه. أو أعدائه. فهو يُمكنه أيضًا التحدث بلغة أهل الشمال، وقراءتها وكتابتها، بالإضافة إلى لغة الأعراب، وكذلك لغة أرض التلال. هناك قليل منا ممن يستطيعون قراءة لغتنا وكتابتها. وأنا لست واحدًا منهم. فأنا لا أتمنى أن أصبح ملكًا».

لم يتبق سوى أيام قليلة للتدريب قبل منافسات لابرون. وقد استغل ماثين أوقات الراحة بين دروسهما التي أصبحت أكثر نشاطًا لتعليمها مزيدًا من لغة أرض التلال، وبدأ أن كل كلمة علمها إيّاها قد أيقظت خمسًا أخرى من المكان الذي تكمن فيه داخل الجزء الخلفي من عقل، حسبما كانت تعتقد هي، يتشارك الآن في مساحة التفكير والنهايات العصبية مع عقلها. لقد تقبّلت هذا العقل؛ فهو مفيد، حيث سمح لها بالعيش في هذه الأرض التي أحببتها، حتى لو أحببتها دون سبب، وقد بدأت تعتقد أنه سيُمكنها بدورها من أن تُصبح مفيدة لهذه الأرض. وقد أكسبها صديقًا. لم يكن بإمكانها أن تشعر بالزهو بذلك العقل؛ لأنه ليس عقلها، لكنها كانت ممتنة له، وكانت تأمل، لو كان لمسة من إيرين-سول أو الكيلار، أن يُسمح لها بالاحتفاظ به حتى تفوز بحقها في البقاء.

ومع دروس اللغة، أخبرها ماثين عن أرض التلال التي كانوا فيها، وفي أي مكان تقع المدينة من الوادي الصغير الذي هما فيه الآن، وأخبرها عن نوع الحطب الذي يحترق على نحوٍ أفضل، وكيف تجد الماء عندما يبدو أنه غير متوفر، وكيفية مواصلة الرحلة مع حصانٍ مصاب بالتهاب الحوافر. وقد عززت دروسها في أساليب الحرب ذاكرتها، أو قدرتها على الاستفادة من تلك الذاكرة الأخرى؛ لأنها تذكرت ما قاله لها. ومما أثار دهشتها أنه أخبرها أيضًا بأسماء جميع الزهور البرية التي رأتها، والأعشاب التي يمكن تحويلها إلى

شاي ومرَّبى، وتحدث عن هذه الأشياء مع التعبير اللطيف على وجهه الذي تراه فقط عندما ينحني فوق نار الطبخ، وحتى هذه الأشياء تعلَّمَتها. وأخبرها أيضًا عن أفضل أوراق النباتات لوقف تدفُّق الدم من الجروح، وثلاث طرق لإشعال نار في البرية.

نظر إليها على نحو غير مباشر بينما كان يتحدث عن إشعال النار. وقال: «هناك طريقة رابعة، يا هاري. قد يُعلمها لك كورلاث يومًا ما.» كانت هناك دعابة هنا أشعرته بالمرح. فتابع: «أنا شخصيًا، لا أستطيع.»

نظرت إليه هاري بصبرٍ قدَّرَ استطاعتها. كانت تعلم أن سؤاله عندما يُثير فضولها على هذا النحو لن يُفيدها. وفي مرة، بعد يوم أو يومين من السقوط غير المتوقع لماثين، كانت قد سمحت لبعض من إحباطها بالظهور بقدرٍ أكبر مما كانت تقصده، وقد قال ماثين: «يا هري، يا صديقتي، هناك أشياء كثيرة لا أستطيع إخبارك بها. سأخبرك ببعضها في الوقت المناسب، وسيُخبرك آخرون بالبعض الآخر، وبعضٌ ثالث قد لا تعرفينه أبدًا، أو قد تُصبحين أولَ من يعثر على إجابات له.»

نظرت عبر نارهما الصغيرة نحوه، وفوق رأس ناركنون. كان كلاهما جالسين متربَّعين بينما ترعى الخيولُ بنحوٍ مريح على مقربة، بحيث يمكن سماع صوت فكوكها على الرغم من طقطقة النار. كان ماثين يُعيد ربط حلقة مفكوكة على سترته المرصعة بالسلاسل. فقالت: «حسنًا. فهمت قليلًا، ربما.»

ضحك ماثين بصوت عالٍ، فتذكرت كيف كانت تظن أنه متجهَّم وصامت، هو على وجه التحديد من بين جميع فرسان الملك. وقال: «أنت تفهمين الكثير، يا هريما-د-سول. أنا لن أحسد الآخرين عندما يزونك مرةً أخرى. فقط كورلاث هو من يتوقَّع على نحو صحيح ما سأعود به من هذه التلال.»

كانت هذه المحادثة قد جعلت الأمر أسهل بعض الشيء بالنسبة إليها عندما أخبرها بمكرٍ عن أشياء، مثل الطريقة الرابعة لإشعال النيران، التي رفض توضيحها. لم تفهم الأسباب، لكنها كانت أكثر استعدادًا لتقبُّل وجود سبب. لقد فاجأها مقدارُ ما أخبرها به عن نفسه؛ لأنها علَّمت أنه لم يجد الحديث معها عن هذه الأمور سهلاً، لكنها فهمت أيضًا أنها كانت طريقته للتعويض، قليلًا، عمَّا كان يشعر بأنه لا يستطيع أن يُخبرها به. كما أن هذا، مثلما لا بد أنه كان يقصد، جعلها تشعر كما لو أنَّ سكان التلال مألوفون لها؛ أن ماضيها لم يكن مختلفًا كثيرًا عن ماضيهم، وبدأت تتخيَّل كيف سيُصبح الحال لو نشأت في هذه التلال، وأن تراها دائمًا باعتبارها وطنها.

كان أحد الأشياء التي سيُخبرها ماثين بالقليل عنها هو إيرين، قاتلة التنانين والسيف الأزرق. كان سيُشير إلى العصر الذهبي لدامار، عندما كانت إيرين ملكة، لكنه لن يُخبرها متى كان ذلك، أو حتى ما الذي جعله ذهبياً. لقد علّمت أن إيرين كان لها زوج اسمه تور، وقد حارب أهل الشمال؛ لأنهم أعداء دamar منذ الأزل وأرض التلال، وكان لكل عصر داماري قصته عن الصراع بينهما، وأن الملك تور كان لقبه هو العادل.

قالت هاري: «يبدو الأمر مُملاً للغاية، عندما تقتل زوجتك التنانين، بينما أنت العادل»، وبينما سمح ماثين لنفسه بابتسامة، لم يكن يسمح لها بأن تُجرجه ليُخبرها بالمزيد. لقد اقتنصت منه شيئاً آخر. إذ قالت: «ماثين. يظن الأغراب أن ال... ال... كيلار الخاصة بأرض التلال يمكن أن تتسبب، أوه، في منع الأسلحة النارية من إطلاق مقذوفاتها، وسقوط الفرسان بدلاً من الاشتباك مع العدو، و... أشياء من هذا القبيل.»

لم يقل ماثين شيئاً؛ كان قد نزع قطعاً من لحم أحدث الضباء التي اصطادتها ناركنون في صوص حريف للغاية، وكان يشويها الآن على عودين فوق النار الهادئة. فتنهت هاري. نقل ماثين نظره من عوديه إلى أعلى، رغم أن أصابعه استمرت في تقليبهما ببطء. وقال: «إنها لحكمة من جانب الأغراب أن يُصدقوا الحقيقة.» ومن ثم غرس أحد العودين، من طرف المقبض، في الأرض، وغرس سكينه القصير في القطعة الأولى من اللحم. وراح يتأكد بدقة من اكتمال نضجها بتذوق بعضها، مع تقطيب جبهته في تركيز مثل فنان يُقيم عمله. ثم استرخى وجهه وأعطى هاري العود الآخر. لكنه لم يقل المزيد عن الكيلار.

لم يسقط ماثين عن صهوة حصانه مرةً أخرى، وبحلول منتصف الأسبوع السادس شعرت هاري أنها قد نسيت دروسها الأولى؛ حيث قد مرَّ عليها وقتٌ طويل. لم تستطع أن تتذكر وقتاً لم تكن فيه راحةً يدها اليمنى تحمل خطوطاً جلدية متبيسة بسبب مقبض السيف، ولم تشعر فيه بأن السترة الثقيلة كانت عبئاً عليها وغير مألوفة، أو وقتاً لم تكن فيه قد ركبَت تسورنين كل يوم.

كانت تتذكر بالطبع أنها قد وُلدت في بلدٍ أخضر بعيد لا يُشبه البلد الذي تسكنه الكيلار الذي وجدت نفسها فيه الآن، وأن لديها أخاً اسمه ريتشارد لا تزال هي تُسميه ديكي، مما يُثير استياءه الشديد — أو كان سيفعل ذلك، إذا كان بإمكانه أن يسمعها وهي تتأدبه به — وتتذكر الكولونيل جاك ديدام، الذي أحبَّ أرض التلال حتى مثلما كانت تُحبها هي. سبخت فكرةً في عقلها؛ ربما سنلتقي مرةً أخرى، ونخدم دamar معاً.

في اليوم الرابع من الأسبوع السادس، قالت بتردد لماثين: «أظن أن المدينة تقع على بُعد مسيرة يوم واحد من هنا.»

أجاب ماثين: «إن ظنَّكَ في محله، ولكن ليست هناك حاجةٌ إلى وجودك في اليوم الأول من المنافسات.»

فنظرت نحوه، مطمئنةً قليلاً، ولكن قلقة كثيراً بعض الشيء.

قال ماثين: «لا تخافي، يا صديقتي التي يُشرفني خدمتها. ستصبحين أشبه بصاعقة من السماء، وسيُعْمي جانباً تسورنين أعينَ أعدائك.»

ضحكت. وقالت: «إنني أتطلع إلى ذلك.»

فقال: «ينبغي أن تتطلعي إلى ذلك. لكنني، أنا الذي أعرف ما سيحدث، أتطلع إلى ذلك حتى أكثر.»

الفصل الثامن

في اليوم السابع غادرا الوادي الذي كانا يُخيمان فيه. شعرت هاري بالحزن بعض الشيء، على الرغم من أنها اعتقدت أن بعضًا من الحنين الذي كانت تشعر به هو قلقٌ من المستقبل. وقبل أن يمتطيا صهوة حصانَيْهما، جاء ماثين ووقف أمامها، مع قطعة طويلة من الحرير الأحمر الداكن في يده. كانت هاري ترتدي سترَةً طويلة حمراء مشقوقة الجانب فوق سروالٍ طويل كامل من اللون نفسه، ومعطفًا أزرق داكنًا، لقد أصبحت معتادةً على ملابس أهل التلال الآن، وتشعر بالراحة وهي ترتديها، على عكس أمسياتها الأولى في مخيم الملك.

قال ماثين: «ارتدي هذا، هكذا.» وأشار إلى خصره؛ إذ كان يرتدي وشاحًا ذا لونٍ أخضر داكن. نظرت نحو خصرها. فألقى ماثين الوشاح الأحمر الداكن فوق كتفه، وأبعد يديها عن جانبيها. وفكَّ الحبل البني الذي كانت تستخدمه حزامًا، وألقاه كما لو كان من المهملات، ولفَّ وشاح الحرير الأحمر الداكن مرتين حول خصرها، وطوى طرفيه بطريقةٍ غير مرئية. فنظرت إلى أعلى لتجد أن ماثين كان يبتسم الابتسامة العريضة الشرسة التي اعتادت على رؤيتها عندما كانا يتبارزان بالسيوف. ثم قال: «يجب على أيِّ فتاة من أهل التلال أن ترتدي وشاحٍ خصرٍ عندما تذهب إلى منافسات لابرورن، حيث ستثبت أنها تستحق ارتدائه.» والتفت مبتعدًا كي يمتطي ويندرايدر.

وقفت هاري في مكانها لحظةً، وأخذت تتحسّس موضع ضغط الوشاح على أضلاعها السفلية أثناء تنفّسها. ثم وضعت يديها على مقدمة السرج ومؤخرته وقفرت فوق صهوة صنجول؛ إذ أصبح بإمكانها الآن فعل ذلك بسهولة، وبدأت تُفكر فيما إذا كان بإمكانها أن تتعلم طريقة كورلاث في الامتطاء، التي يبدو أنها لا تتطلب استخدام اليدين.

ظلاً يركضان ببطء على نحوٍ منتظم طَوَالَ ذلك اليوم، على الرغم من أن حصان حمل الأمتعة كان ميّالاً لإبداء بعض التذمّر. فقد أمضى ستة أسابيع مريحة، ولم يكن بإمكانه على الإطلاق — حتى بعد أن أصبحت الأحمال التي يحملها أخفّ بكثير مما كانت عليه قبل ستة أسابيع — مجاراة سرعة خيول الحرب القوية التحمّل. كانت ناركنون تسير بخطوات سريعة بجانبهما، وقد تنحرف باتجاه الشجيرات من حين لآخر لممارسة أمورها الخاصة، وتظهر مرةً أخرى في صمت وقد سبقتهما، لتقفّ في انتظارهما حتى يلحقا بها. وقد توقّفا لتناول الغداء والعشاء من المأكولات المجفّفة، لكنهما واصلتا رحلتها عند الشفق. وبعد غروب الشمس، استطاعت هاري رؤية توهّج باتجاه الشمال الشرقي.

فقال لها ماثين: «إنها حلقة نار احتفالية ضخمة في السهل الواقع أمام المدينة؛ إيدانًا بافتتاح المنافسات غدًا عند الفجر». تساءلت هاري عمّا إذا كان أيّ من فرسان المنافسات الآخرين يرى أشياء في السنة لهب النيران.

أراد عقلها أن تشعر بالتوتر والقلق في تلك الليلة، لكنّ جسدها المدرب جيدًا وهذا الأمر الإضافي أيّا ما كان هو جعلها تغرق في النوم قبل أن يُتاح لها الوقت للجدال. عند الفجر عندما كانت المنافسات على وشك البدء، امتطيا حصانيهما مرةً أخرى، وسارا على نحوٍ متمهل وهما يستمعان إلى صوت النسيم، وقد توقّعت هاري أن تسمع الصدام والصراخ البعيد للصراع. سارا ببطء طوال ذلك اليوم، حتى لا يصلا متعبين. وقد تخلّى حصان حمل الأمتعة عن الشكوى، وسار على نحوٍ مستسلم.

سارا حول حافة أحد الأسطح الصخرية الرمادية الكثيرة عند غروب الشمس، وعلى نحوٍ مفاجئ وجدت أمامها سهلاً واسعاً، ترتفع التلال بنحوٍ حادٍّ حول محيطه. وقد انتشرت حلقات النار الاحتفالية عبر أرض السهل، ووسط الظلال المتساقطة على نحوٍ سريع، أمكنها أن تُميز بصعوبة الأشكال ذات الأرجل العديدة لخيولٍ محتشدة ورجالٍ محتشدين، والأشكال المعتمة المائلة للخيام. كان هناك كثير منهم، فقفز قلبها من موقعه المعتاد وبدأ ينبض بنحوٍ محموم مقابل قاعدة حلقها. فرفعت عينيها إلى التلال المحيطة بالمشهد مرةً أخرى: بالتأكيد لم يكن هذا السهل المسطح الضخم ظاهرةً طبيعية في هذه الأرض الوعرة؟ ومع ذلك، ما نوع الأعمال البشرية التي يمكنها تسوية التلال على هذا النحو؟

كان ماثين يُحدّق عبر حلقات النار كما لو كان يُمكنه تمييز أصحاب الخيام المعتمة غير واضحة المعالم حتى من على هذا البُعد. قالت لنفسها ربما يتمكّن من ذلك باستخدام

بصره الحاد. ثم سألته: «هل تعرف كيف نشأ هذا السهل، يا ماثين؛ هل كان هنا منذ الأزل؟»

قال ماثين، الذي لم يزل ينظر عبر السهل: «هناك قصةٌ تحكي أن تور قد واجه أهل الشمال في هذا السهل، وصدَّهم بعيداً عن المدينة لمدة تسعة أيام، وقد أذابت حرارة تلك المعركة صخور التلال، التي صنعت بركة، وعندما أصبحت تلك البركة صلبة مرةً أخرى، شكَّلت هذا السهل.»

سألت هاري: «ماذا حدث في اليوم العاشر؟» لكن ماثين حثَّ ويندرايدر على الهرولة دون أن يُجيبها. فهرول صنجولد خلفها على نحوٍ مطيع، وقد انتصبت أذناه بقوة عند رؤية المشهد الذي أمامه. كان مُستعداً لأي شيء قد تطلبه هاري منه؛ مما منحها قليلاً من الثقة. لكن الفرسان الآخرين هنا كانوا يعرفون معلومات عن منافسات لابرون ربما منذ نعومة أظفارهم، وربما كانوا يتدربون لخوضها منذ ذلك الحين.

نظر ماثين نحوها. وقال: «نحن في مواجهة مدخل المدينة، لا يمكنك رؤيته من هنا. سترينه بعد أن نجتاز ساحة المنافسات.»

«ماثين.»

التفت برأسه نحوها بحذر، وهو يتوقَّع سؤالاً قد لا يرغب في الإجابة عليه. رأت عينيه تلمعان ببريقٍ أصفر من ضوء النار.

«هل تشارك نساءً أخريات في المنافسات؟»

نخر، فاعتبرت ذلك علامةً ارتياح لأنها لن تُزعجه أكثرَ بالتساؤل عن الملك العادل تور، الذي على الأرجح لم يكن مُملأً بهذا القدر إذا كان باستطاعته صدُّ أهل الشمال لمدة تسعة أيام وإذابة صخور التلال صانعاً سهلاً منبسّطاً، وكذلك إيرين والتنانين الخاصة بها. قال بصوتٍ أجش: «عدد قليل. هناك دائماً عددٌ قليل. فيما مضى كان هناك عددٌ أكبر.» تقدَّم بويندرايدر إلى الأمام مرةً أخرى، ومع نقر الحوافر، كان عليها أن تبذل جهداً أكبر كي تسمع كلماته الأخيرة: «سيُصبح أمراً رائعاً بالنسبة إلينا، وبالنسبة إلى بناتنا ... دامالور-سول.»

دامالور-سول. أو البطلة.

ومن ثَمَّ نصبا خيمتيهما الصغيرتين والملطختين بالأتربة من وُعْثاء السفر على مقربة من حلقة التلال التي غادراها للتو. شعرت بالظلال المقتربة لبعوض من أهل التلال الآخرين وهي تُمسد تسورنين، وعندما عادت إلى ضوء نار المخيم الصغيرة التي أوقدتها أمام

خيمتيهما اللتين من نوع تاري — على نحوٍ فعالٍ إلى حدٍّ كبير، حسبما كانت تظن، بالطريقة الأولى من الطرق الثلاث لإيقاد النار التي تعلّمتها من ماثين، والتي تضمّنت ببساطة الاستخدام الصحيح لصندوق إشعال النار — وجدت حولها أربعة من هذه الظلال التي كان يجلس أصحابها على كعوبهم. اقترب ماثين نحو الضوء كما فعلت، وهو يحمل سرجه. وانضمَّ إلى هؤلاء الأربعة، وبعد تردّد للحظة، فعلت مثله. تقدّمت للأمام، وهي تتظاهر بأنها جريئة، نحو فجوةٍ بين مرفقين، فأفسح لها صاحبا المرفقين مساحةً مثل تلك التي قد يُفسحانها لأحد رفاقهما.

قال ماثين: «كيف تسير أمورُ المنافسات، يا إخواني؟» فأدهشها صوته وهو يتحدث إلى شخصٍ آخرٍ غيرها.

هزَّ صاحب أحد الظلال كتفيه. وقال: «مثلما تسير في اليوم الأول من كل المنافسات السابقة.» كان قد أخبرها ماثين أن اليوم الأول مخصّص لأولئك الذين حصلوا على تدريبٍ منخفض المستوى، والذين لا يسعون إلى الفوز بأوشحتهم، وقد تنهّدت. فقال لها ماثين: «ستجدين أنها منافساتٌ مملة، في اليوم الأول. صدقيني.» ميّزت هاري، بعد لحظة، صاحب الظل على أنه إيناث، فشعرت بالاسترخاء قليلاً.

«وكيف حالُ بطلتنا الخارقة؟»

رمشت هاري بعينيها في اندهاش. لقد استغرق الأمرُ منها ثانيةً لتذكّر كلمة «بطلة خارقة»، وحينها شعرت بالقلق والتشجّع في وقتٍ واحد نتيجة قوله «بطلتنا». قال ماثين قبل أن يبتسم لها ابتسامة عريضة: «إنها بطلةٌ خارقة بالفعل.» فابتسمت له ابتسامة خافتة.

أوماً أصحاب الظلال ووقفوا على أقدامهم، لكن كل واحد منهم لمس كتفها ثم رأسها وهو يمرُّ خلفها. كان الأخير هو إيناث، وظلّت يده على شعرها مدةً طويلة بما يكفي لأن يُتمتم قائلاً: «تحلّي بالشجاعة، أيتها البطلة الخارقة»، ثم انصرف هو أيضاً.

استيقظ المخيم قبل الفجر، وفُضّت الخيام، وأطفئت النيران، بعد غلي مشروب الملاك والعصيدة، وتسخين خبز الإفطار — في يوم من الأيام، هكذا قالت لنفسها، سأخبر هؤلاء الناس عن التوست. أُعطيت ناركنون كميةً من العصيدة أقلّ مما اعتادت؛ لأنها كانت ستحتاج بلا شك إلى كامل قوتها، وهي غير مُتحمّسة مثلما كانت شهيتها في الوقت الحاضر. ثم امتطت حصانها وانتظرت أن تُرسل إلى مصيرها. مرةً أخرى، افتقدت اللجام والزام، وبدا غمد سيفها غريباً عليها، واعتدلت فوق السرج، فارتطم الدرع الصغير على نحوٍ أخرق

بفخذه. قاد ماثين حصانه بجوارها، وتبعه حصانُ حمل الأمتعة على مضض. قال مع إيماءة في اتجاه بوابة المدينة غير المرئية: «إن طريقك يقع هناك. ستجدين رجلاً يرتدي ملابس حمراء بالكامل، كايسين، يمتطي حصاناً أسود اللون مع سرجٍ أحمر». وأضاف، كما لو أنها قد تحتاج إلى تذكير: «أخبريه باسمك — هريماد-سول». ربما كانت تحتاج إلى ذلك فعلاً. فتابع: «سيعرف مَنْ أنتِ». أزاحت على نحو خفي الدرعَ مسافةً بوصة واحدة أو نحو ذلك إلى الأمام، وحرّكت يديها على فخذيهما. فأحسّت بأن الجلد يلتصق بها على نحو طفيف. من سيظنّها كايسين؟ إنها لا تستطيع حتى ربط وشاحها دون مساعدة. اقترب منها ماثين، وجذب وجهها تجاهه، وقبّلها على جبهتها. وقال: «قُبلة الحظ. إنك ليس لديك أبٌ أو أمٌّ ممن يحملون الوشاح كي يمنحوها لك. اذهبي كائنة الفرسان. انطلقِي».

فالتفتت مبتعدةً. كان إيناث يقف مع فحله الرمادي الكبير خلفها تمامًا. فابتسم لها ابتسامةً صديق. وقال: «تحلّي بالشجاعة، يا ابنة الفرسان».

كان الطقس في الصباح حارًّا بالفعل، ولم يكن هناك موضعٌ واحد في السهل به ظل، وبدا أن حلقة التلال تحتفظ بالحرارة مثل الماء في الوعاء. وجدت هاري الرجل ذا الرداء الأحمر وأعطته اسمها، وظنّت أنه نظر إليها بحِدّة، لكنه ربما نظر بحدة إلى جميع مُرشّحي منافسات اللابرون. أوماً برأسه وأعطاها خرقةً بيضاء لربطها حول ذراعها، وأرسلها نحو حشدٍ من الخيول المتوترة وحتى الفرسان الأكثر توترًا. نظرت نحوهم على نحو متفحص، كانت هناك بعضُ الخيول الرائعة، لكن لا أحد يستطيع أن يتفوّق على حصانها، وقليلٌ جدًّا يمكن أن يقترب منه. كانت هناك فرسةٌ ضخمة ذات لونٍ بُني داكن لفتت انتباهها، يمتطيها فتى يرتدي زيًّا باللون الأزرق وتبدو عليه علاماتُ القوة. تساءلت هاري عمّا يعتقده المنافسون الآخرون عن تلك المنافسة ذات الوشاح الأحمر الداكن التي تمتطي الحصانَ الذهبي الكبير.

كان هناك قليل من المحادثات. هناك المتنافسون الذين قدّموا أسماءهم للرجل ذي الرداء الأحمر وانضمُّوا إلى الحشد المتزايد باستمرارٍ هنا في طرف السهل القريب من المدينة، وكان هناك آخرون — الجمهور، حسبما ظنّت — احتشدوا خلف حواجز لم تستطع رؤيتها، وكانت تمتدُّ من قدَمي حصان الرجل ذي الرداء الأحمر وحتى الجانب البعيد من السهل. حول هاري، حرّك بعضُ المشاركين في المنافسات خيولهم في دوائر على نحو قلق؛ فقط لتجنّب الوقوف دون حراك، بينما راح البعض ينظرون إلى أنفسهم كثيرًا، كما لو كانوا

يتفحصون أنفسهم للتأكد من أنهم جميعاً ما زالوا هناك. لفت هاري شعر غرة صنجولد بين أصابعها الرطبة وحاولت منع أسنانها من اصطكاك بعضها ببعض. كانت هناك الأصوات الخافتة المملّة لحركة حوافر الخيول، واندفاع تنفّسهم، وصرير الجلد، وحفيف القماش، بينما الشمس مُسلّطة فوق الرعوس. ومحاولة لإراحة ذهنها عن التفكير في المنافسات مدة قصيرة؛ نظرت إلى أعلى، بحثاً عن أي علامة تدل على المدينة، أو طريق ما إلى بوابتها، فلم تر شيئاً سوى الصخور. قالت لنفسها: إنها أمام عيني مباشرة ولا أستطيع رؤيتها، وداهمها الهلع لحظة. حرّك تسورنين، الذي أصبح بإمكانه قراءة العديد من أفكارها بحلول هذا الوقت، أدناً واحدة للخلف باتجاهها، كما لو كان يقول لها: توقّفي عن ذلك. فتوقّفت.

بدأت المنافسات قبل منتصف الصباح بقليل. في البداية أُخذت أسلحتهم منهم واستبدلت بها سيوف خشبية مسطّحة، واكتشفت هاري أنها مولعة بشدة بسيفها أكثر مما كانت تظن في السابق. كان الجميع يُثبتون خوذاتهم فوق رعوسهم؛ لذا حلت خوذتها من أربطتها وثبتتها فوق رأسها. شعرت بأنها أثقل من المعتاد، وبدت غير قادرة على الرؤية حول الأجزاء المثبتة على خدّها بوضوح. ثم قُسم المتنافسون إلى مجموعات مكوّنة من اثنين، وثلاثة، وخمسة، وثمانية. في هذه المجموعات الصغيرة كانوا يركضون بقوة حتى نهاية ذلك الطريق الممتد بين المشاهدين، ثم يلتفون ويعودون. ثم كانوا يُقابلون مجموعات أخرى من اثنين، وثلاثة، وخمسة، وثمانية، يندفعون لمقابلتهم، فينحرفون عن الطريق ويصطدمون بهم، فيسقط من يسقط منهم في التراب، وتفرّخيولهم. لكن هذا لم يحدث لها، ولا لتسورنين. كما لم يحدث للشاب ذي الرداء الأزرق ولا لفرسته ذات اللون البني الداكن. وجدت بعض الصعوبة في جعل تسورنين يلحق بالآخرين؛ إذ لم يكن مسروراً بالحشود، لكنه فعل ما طلبته؛ لأنها قد طلبته. أولئك الذين ظلّوا فوق صهوة خيولهم في كل عملية اكتساح كانوا يركضون ذهاباً وإياباً مراراً وتكراراً، ومع كل اشتباك كانت تظهر عقبة أخرى على طول الطريق الممتد يجب القفز عليها أو الصعود فوقها؛ جدار من الخيام المطوية، المكدّسة معاً، سياج من أعمدة الخيام، كومة من الحجارة الصغيرة مع بعض الشجيرات المكوّمة فوقها. سألت قطرات العرق الأولى على كتفي تسورنين بينما كان يُعطيها رَفعة طفيفة احتاجت إليها لتركل حذاء منافس مجاور وترميّه على الأرض.

تبقت مجموعة صغيرة مكونة من عشرين متسابقاً عند انتهاء الاشتباك الأخير. نظرت هاري حولها، وهي تتساءل عن عدد الذين ألقوا من فوق خيولهم أو جرحوا، فخمّنت أنه

كان هناك عدة أضعاف من هؤلاء العشرين في البداية. مرّت بضعة دقائق بينما كان العشرون المضطربون يسرون على خيولهم ويتنفّسون بعمق وينتظرون. ثم جاء المشاهدون نحوهم، وتجمّعوا مرةً أخرى عند طرف السهل القريب من المدينة، كان يمتطي بعضهم الخيول، بينما يحمل جميعهم عصياً خشبية طويلة. قالت هاري لنفسها: ماذا سيحدث؟ وعندئذٍ هوت عصاً على رأسها التي تحتمي بالخوذة، وتعثّر الحصان الذي أمامها وسقط عند قدمي صنجولد. قفز صنجولد فوق الأرجل المضروبة بلا مبالاة كما لو كانت أطراف حشائش. بدأت هاري في الهجوم بسيفها الخشبي. وانغرست عصاً تحت ركبتها وحاولت إزالتها من فوق سرجها. استدار صنجولد على ساقيه الأماميتين؛ مما منحها التوازن، فكسرت العصا المهاجمة بمقبض سيفها المزيف. بدأت تشعر بالحرّ والانزعاج. وجعل العرق سترتها الطويلة تلتصق بجسدها، والسترة الجلدية تُصدر صوت صرير مع الاحتكاك. حاول ضوء الشمس الحارق دفعها للسقوط من فوق السرج مثلما فعلت العصي في أيدي المهاجمين. ما هذا الهراء؟ استخدمت العصا الخشبية السخيفة، ووقف تسورنين على قائمتيه الخلفيتين ونزل على الأرض بقوة واندفع إلى الأمام. وكسرت هي بضع عصي أخرى. وشعرت بابتسامة ماثين العريضة ترتسم على شفتيها. ضربها شخص ما بحدّة في كتفها بعصاً، ولكن مرةً أخرى، وبينما هي تترنّح، انزلق صنجولد جانباً ليظلّ تحتها، فضربت هي هذه العصا ضربةً خلفية ورأتها تقع بعيداً عن يد من يحملها وهي تدور.

قفز تسورنين فوق حصان آخر متعثّر. ورأت فجأةً أن المشاهدين يُحاصرون المتنافسين، وإذا اندفع أحدهم بالقرب من المشاهدين، فقد كان يُصد بضراوة وينسحب إلى الوراء. لاحظت ذلك باهتمام، وبدأت تُحاول الخروج في عزم، ولكن كان هناك عدة مئات يُحاصرون عشرين، ولم يكن هناك سوى عددٍ قليل من أولئك العشرين لا يزال ممتطياً حصانه.

بدأت تشعر بمدّ الغضب الذي تذكّرت منذ اليوم الذي أطاحت فيه بماثين من فوق صهوة حصانه، فأمسكت بشخص ما من عظمة الترقوة، وألقته من فوق حصانه مع عصاه، وشعرت أنّ بإمكانها الإفلات من الحصار. كان تسورنين يتراجع، في الغالب على قائمتيه الخلفيتين. ثم التفت، ونزل على الأرض، ووجّهت هي ضربةً عنيفةً أخرى بنصلها الخشبي البائس، فأصدر المقبض صريراً مشنوّماً، لكن هذا لم يكن مهماً؛ فقد أصبحت ... خارج الحصار.

وهنا صاح الرجل ذو الرداء الأحمر بصوتٍ عالٍ. لقد انتهى الأمر.

تفرَّق الحشد على الفور، كما لو أن صيحة الرجل ذي الرداء الأحمر قد قطعت الحبل الذي يربطهم جميعاً معاً. كان هناك العديد من الخيول الطليقة التي تقفُ بلا راكبيها، والتي بدت محرجة لأنها تصرفَت بنحوٍ سيئٍ للغاية، لدرجة أنها أوقعَتهم من فوق ظهورها، والعديد من الأشخاص الذين يعرجون والذين انفصلوا عن الآخرين وعادوا للانضمام إليهم. جلسَت هاري حيث كانت، وأخذ المدُّ الغاضب ينحسر، تاركاً وراءه بعضاً من الصداق، وهي تُشاهد الآخرين وهم يمرُّون من حولها مثل حَبَّات الرمل التي تتغربلُ حول صخرة. رأت ماثين من مسافةٍ بعيدة؛ كان يحمل عصاً على أعلى كاهل ويندرايدر، وكان هناك جرحٌ سطحي فوق إحدى عينيّه، وقد نزَف على خدّه. ولم ترَ أيّاً من الفرسان الآخرين.

حدقت بعينين نصف مغمضَتين في السماء. كانت التلال سوداء بسبب الظلال، لكن السماء كانت زرقاء صافية، وشعرت بالحرارة تتصاعد مرةً أخرى من تحت الأقدام. وسط الهدوء — لأنه، حسبما حدث هذا الصباح، لم يتحدَّث أحد، وحتى الخيول بدت وكأنها تخطو بهدوء — بدت الحرارة شبه مسموعة. فجعلت تسورنين يوجّه نفسه ويسير على نحوٍ يمنحه التبريد قدر الإمكان. وربّت على رقبتّه، وترجّلت من فوق صهوته كي يسيرا معاً. كان يتصبّب عرقاً لكنه لم يشعر بالضيق، وهز رأسه لها. استردّت سيفها من الكايسين الذي حيّاها. ولم يوجه التحية إلى متنافس لابرون الذي كان أمامها مباشرة. عاد ماثين إلى الظهور، وأخبرها أنها يُمكنها الراحة بعض الوقت. غُسل خدّه بالماء وأصبح نظيفاً، وربطت قطعةً من القماش الأبيض فوق حاجبه. وقال: «ستُقام المبارزات الفردية طوال وقتٍ ما بعد الظهر، وستُدعَى إلى المشاركة في وقتٍ لاحق.»

وجدا بقعةً من الظل على حافة السهل وسحب السروج من فوق الخيول. أعطاهما ماثين بعض الخبز وبعض الجُبْن الأبيض الرطب الذي لا طعم له. امتصّته ببطء وتركتّه يسيل في حلقها الجاف. فشعرت بهدوءٍ شديد وتساءلت عمّا حلَّ بها. وقالت: «هل كل المنافسات متشابهة، يا ماثين؟ هل ركضت وضربت الناس بعضاً خشبية في منافساتك؟» «كلّاً وأجل. إنهم يختبرون فروسيّتك بطرقٍ مختلفة؛ أولئك الذين يُشاهدون دائماً لديهم فرصةٌ للمساعدة — أو الإعاقة، وأسلحة الخشب أكثرُ أماناً. لكن مبارزات وقتٍ ما بعد الظهر لا تتغيّر أبداً، متسابقٌ واحد ضد آخر، وكلُّ منهما يحمل سيفه الخاص. إذا أعلن كايسين أن متنافساً ما كان سيئاً في المنافسات العامة، فلن يُسمح له بالاشتراك في المنافسات الفردية.»

راقباً سُحب الغبار القادمة من المبارزات وشقوق الألوان البرّاقة التي تدور فيها، لكن ماثين لم يتحرك للعودة إلى طرف السهل هذا، وانتظرت هاري بجانبه، متكئة على مرفقيها على الرغم من كتفها المتألمة.

انتصفت الشمس في كبد السماء عندما امتطيا حصانَيْهما مرةً أخرى. ورفض صنجولد، للمرة الأولى منذ أن عرفتَه، أن يسير، وتقافز على نحو جانبي، وهو يُلقي برأسه. فصاحت فيه بلغة هوملاند: «توقف عن ذلك، أيها الأحمق»، فتوقف وهو يشعر بالاندھاش. أدار ماثين رأسه ونظر إليها بلا مبالاة.

وقفا على مقربة من الحشد الآن، وهما يُراقبان المقاتلين. كان هناك خمسة أزواج، كلٌ منها يُشكل حلبة حرب خاصة، وأصبح هناك عشرة رجال من ذوي الزي الأحمر فوق خيول رمادية أو سوداء. إذ خُصص لكل زوج من المقاتلين رجلان من ذوي الزي الأحمر، وكان يحمل أحدهما جرساً نحاسياً صغيراً، عندما كان يرن الجرس تنتهي المباراة، ويتباعد الحصانان، ويلهث المتنافسان وحصاناهما متنفسين الهواء الساخن. كان جميع متنافسي لابرون يرتدون ألواناً زاهية، كان هناك قليل من اللون الأبيض ولم يكن هناك لون بني مائل للرمادي، أو رمادي كئيب، ومع الكايسين ذي الرداء الأحمر، كان مشهداً زاهياً للغاية. ومن ثم قُرع جرس، مع رنين طويل مبهج، ونظرت إلى المتنافسين اللذين انتهى نزألهما. كان أحدهما يرفع سيفه ويهزه حتى ومض عليه ضوء الشمس. وجلس الآخر في هدوء، وسيقه على الأرض عند القائمتين الأماميتين لحصانه، ولاحظت مع شعور مضحك في أعماقها أن وشاح خصره قد قُطع بدقة من حول خصره، وقد أُلقي جزء منه على ردف حصانه، والجزء الآخر على الأرض.

قال ماثين: «إنَّ أفضل طريقة لهزيمة خُصمك أن تقطع وشاحه. الكايسين يلاحظ كل الضربات، لكن قطع وشاح المنافس هو أفضل تصرف. وهذا ما ستفعله.»

قالت هاري: «أوه.»

وأضاف ماثين مستدركاً: «يُمكنك، إذا رغبت في ذلك، أن تُسقطيه من فوق حصانه أولاً.»

قالت هاري: «شكراً.»

«لكن يجب ألا تُصيبه بجرح ينزف دماءً؛ لأن هذه علامة على الحماقة. باجا، هذا ما نطلقه على الشخص الذي يجرح خُصمه أثناء منافسات اللابرون — باجا؛ أي: جزار. إنها مهارة نبحث عنها. هذا هو سبب عدم السماح باستخدام الدروع في المبارزات الفردية.»

قالت هاري: «بالطبع».

ابتسم لها ماثين ابتسامة عريضة. وقال: «بالطبع. أليس هذا ما كنتُ أعلمكِ إياه؟» شاهد المتبارزين التاليين يُقدم كلٌّ منهما التحية للآخر، ورنَّ جرسٌ آخر من مبارزة متنافسين آخرين؛ إن كل جرس من الأجراس الخمسة كان يصدر نغمةً مختلفة. وأضاف ماثين: «تعود المنافسات إلى أجيالٍ عديدة سابقة، كانت تُقام قبل ذلك كلِّ عام، لكن لم يُعد هناك ما يكفي منّا في أرض التلال لنُحافظ على هذا التقليد؛ لذا، أصبحت تُقام الآن كلَّ ثلاثة أعوام، وذلك منذ عهد والد كورلاث.

إن قطع الوشاح — تشوراكاك — هو مبارزة شرفٍ قديمة قَدَم دامار؛ أقدم بكثير من منافسات لابرون نفسها، على الرغم من أن القليل الآن هم من يتبارزون بطريقة تشوراكاك خارج المنافسات».

وأضاف بتمعن: «لقد تبارزت إيرين بطريقة تشوراكاك عدة مرات. لا شك أن شعرها الأحمر جعلها سريعة الغضب».

صاح كايسين: «هريما»، فاندفع تسورنين للأمام قبل أن تُسجل هاري اسمها. كانت تُواجه فتًى يرتدي رداءً أخضر ووشاحاً أصفر، وقال الكايسين: «ابداً»، فحُتَّت هاري تسورنين على المناورة إلى اليسار، وإلى الخلف، وإلى الأمام، وسقط سيفُ الفتى على الأرض، وسقط وشاحه الأصفر نحو الأرض ليُغطي السيف. فرنَّ جرس.

اندهشت هاري قليلاً. لوَّح لها الكايسين كي تتنحى جانباً. بسط تسورنين أذنيه؛ فهو لم يكن مُهتمّاً بالفتيان الذين لا يعرفون ماذا يفعلون. وفي المباراة التالية، أزال هاري وشاحاً برتقالياً داكناً من حول رداءٍ أزرق سماوي، وبعدها، وشاحاً أبيض من رداءٍ أرجواني. وبدأت هاري تشعر بالعصبية مثل حصانها، ومع كل نداء عليها «هريما» كان يلتفت الاثنان ويقفان ويُهاجمان ويتساءلان متى ستبدأ المبارزة القوية. بدأت هاري في الإطاحة بمنافسيها من فوق خيولهم قبل أن تقطع أوشحتهم لمجرد إعطاء نفسها شيئاً ما لتفعله.

بدأت ظلالُ التلال في الزحف نحو أقدام الخيول الراقصة التي تخوض المبارزات، وصنعت أشعة الشمس الآخذة في الانخفاض انعكاساتٍ خطيرةً على الجوانب اللامعة للسيوف ونحو عيون المتبارزين. أصبح لونُ تسورنين داكناً بسبب العرق، وانساب الزبدُ على جوانبه، لكنه لم يتباطأ ولو بقدر ضئيل، وبدا لهاري أنهما يركضان في قاعةٍ طويلة من التماثيل مع سيوفٍ مثبتة بقوة في أيدي مرفوعة، في انتظار أن تميل هي بهدوء من فوق رقبة صنجولد وتقطع أوشحتهم.

دَقَّتِ الأجراس الخمسة كلها في وقتٍ واحد عندما سقط الوشاح الأخضر من سِنِّ سيف هاري على الأرض، ونظرت حولها فأدركت أنها وخَصَمُها الأخير كانا آخِرَ مَنْ انتهيا. اقترب الوقت من الشفق، وفوجئت بأنهم استمروا مدةً طويلة. الآن بعد أن توقفت لتفكر في الأمر، كان من الصعب رؤيته نوعاً ما؛ كان الأمر كما لو أن الغسق قد حلَّ عليهم بمجرد أن توقفوا عن الحركة. اتسعت واحمرَّت فتحتاً أنفِ تسورنين وهو يُدير رأسه. نظرت إلى حيث كان ينظر. وقف حصانٌ ضخم داكن اللون كما لو كان ينتظرهما. رمشت هاري بعينيهما وحدقت نحوه، ومدَّ الحصان الآخرُ رأسه. هل كان كستنائيَّ اللون أم أسود؟ بدا لها أن عينيها مُجهَّدتان؛ فرفعت إحدى ذراعيها وفركتهما على كمَّها المتسخ، ونظرت مرةً أخرى، لكن الحصان والفارس كانا لا يزالان يومضان أمام بصريها، وميضاً من الظلام بدلاً من الضوء. كان الفارس الطويل القامة يرتدي عباءةً جعلتها الظلالُ داكنةً وقد انسدت على كتفي حصانه حتى وصلت إلى أعلى حذائه، هزَّ كتفيه ليُلقيها خلفه، فظهر من تحتها رداءٌ أبيض ووشاحٌ أحمر. تملل الحصان باتجاه أحد الجوانب، وظهر بريقُ اللون الكستنائي على طول جانبه الداكن.

تحركَ المشاركون في المنافسات والمشاهدون لتشكيل حلقةٍ حولهما، الحصان الكستنائي الذي حوَّلته الظلال إلى لونٍ داكن وتسورنين. ومن ثم ساد الصمت، بعد صوت ضرب الحوافر والنخرات والضربات والصدمات، على نحوٍ غريب، وغاصت الشمسُ أكثرَ خلف التلال. وهبت أولُ نسمة من رياح المساء عبر التلال، ولمست إصبعها الباردة خدَّ هاري، وجعلها تشعر بالخوف.

ثم ظهرت شعلة، رفعها عاليًا أحدُ المحيطين بهما، وكان شخصاً يمتطي سهوةً حصان. ثم أوقدت شعلةً أخرى، وأخرى، وأخرى. غُمِرت الأرض المرهقة بين هاري والفارس الصامت عند الطرف الآخر من الدائرة بالضوء الخافت. ثم رنَّت الأجراس النحاسية مرةً أخرى، مثل صوتٍ مدفع من مدافع الأغراب في أدنى هاري، وعادت الحياة إلى صنجولد، فصهل، وردَّ عليه بالمثل الحصانُ الكستنائي.

لم تعرف هاري إن كانت المباراة قد استمرت مدةً طويلة أم قصيرة. لكنها عرفت على الفور أن هذا المبارز، المتخفي خلف وشاحٍ ملفوف حول رأسه ووجهه بحيث لا يُظهر سوى عينيهِ، كان بإمكانه تقطيع أوصالها متى أراد. بدلاً من ذلك، جعلها تُهاجمه، وكشف دفاعه ليبحثها على القيام بكلِّ الحركات العديدة التي علَّمها لها ماثين، كما لو كان مديرَ مدرسةٍ يختبر إتقانها لدروسها. وقد واجه الأمر بسهولة لدرجة أن هاري بدأت في

الشعور بالغضب، وبدأت في إخلاء مساحة صغيرة في ذهنها للتفكير في خطة خاصة بها، فازداد غضبها وأصابها بصداع حتى ازداد احمرار ضوء الشعلة أمام عينيها بسببه، لكنها لم تهتم؛ لأنها أدركت الآن أنه يمنحها قوة. وهي قوة كانت في حاجة إليها؛ لأنها كانت متعبة، وكان جصانها متعباً، وكان بإمكانها ملاحظة أن الحصان الكستنائي كان في كامل نشاطه، وأمكنها أن تشعر عبر ذراعها عندما يلتقي السيفان بأن الفارس لم يبذل أي مجهود لمقاومتها. لكن غضبها المتصاعد حمسها ونشط صنجلود، وبدأت تضغط بعنف على الفارس الممتطي صهوة الفحل الكستنائي — حتى ولو قليلاً؛ إذ كان لا يزال قليلاً. هاجمت من الأمام وتراجع الحصان الكستنائي خطوة أو خطوتين، فشقق المشاهدون؛ وبضربة سريعة ورشيقة، لمس طرف سيفها الوشاح الملتف حول وجه الفارس ومزقه من عند الذقن. أساءت تقدير قوة اللمسة بمقدار شعرة، فسالت قطرة دم واحدة من زاوية فمه. حدقت في الوجه، مذهولة، وهي تشعر بأن وشاحها ينزلق على ساقيها وقد مُزق إلى قطعتين وسقط على الأرض؛ إذ اكتشفت أنه وجه كورلاث.

الفصل التاسع

شَعَرَتْ، وهي تُحْدَق في ملك أرض التلال الذي جعلت الظلالُ ثيابه داكَنَةً وهو فوق صهوة حصانه البنيّ المحمر، بأنها أصبحت أسيرة السماء، والنجوم التي تتلألأ في المساء الجديد، والرمال والتلال المحيطة؛ إذ أمسك بها كلُّ هؤلاء وأحكموا قبضتهم عليها. لقد أُمِسَتْ شخصيةً في قصة أخرى غير قصتها؛ شكلاً مطرّزاً في إحدى المنسوجات الجدارية الخاصة بأرض التلال، تمثيلاً لشيءٍ لم يكن موجوداً في وطنها. ثم أصدر المشاهدون زئيراً واندفعوا نحوها، فأغمضت عينيها. لكنهم أخذوا يربتون على كاحليها، ورجليها، وظهرها، ويجعلونها بشريّة مرة أخرى؛ بُحيرة بشريّة وحظاً بشريّاً. بدأت في تمييز الكلمات وسط الزئير: كانوا يصيحون: «هريمد-سول! لابرون مينتا! مينتا-ماستي! هريمد-سول!» واقتيدَ تسورنين وأيسفاهل معاً، ووقفَا بصبرٍ بينما تزايد الحشد وتقاذف حولهما. أدار أيسفاهل رأسه وأدار تسورنين رأسه، حتى تلامست أنفاهما المتوهّجان مدةً وجيزة كنوع من التحية.

وبطَرْفَ عينيها، رأت هاري كورلاث وهو يمسح قطرةً الدم من جانب فمه بظهر يده. تفرّق المشاهدون بعيداً عن مركز الحلقة التي كانوا يُشكّلونها، وكوّنوا مجموعاتٍ أصغرَ كانت تضحك وتتدافع بالأذرع والأيدي والأكتاف. وابتعد صنجولد وفايرهارت أحدهما عن الآخر، وظل راكبهما صامتين وبلا حراك. لم تستطع هاري النظرَ إلى كورلاث. فمدَّ يده تجاهها، ربما للمسيها، لكن تسورنين ابتعد جانباً خطوةً واحدة فقط، فسقطت يدُ كورلاث بعيداً.

ظهر ماثين على الجانب الآخر من هاري ولمس مرفقها، وابتسمت هاري بامتنانٍ لوجهه المألوف. لم يتحدّث ماثين معها، لكنه استدار مبتعداً، فانزلقت عن صنجولد وتبعه الاثنان، وهما يمشیان ببطء، وقد سمحا لتعبهما بالسيطرة عليهما في نهاية المطاف. توقّف

ماثين حيث نُصبت خيمتا التاري الخاصتان بهما بالفعل، وانحنى على ركبتيه لإشعال نار، متجاهلاً تلميذيه على نحوٍ ودي، وكانت هاري سعيدةً بترك مجد لابرون-مينتا جانباً. بدأ ضباب الصداق والشعور بالاغتراب ينحسران بينما كانت تخلع سرج صنجولد على نحوٍ آلي وتُمسّد جسده. تسلّلت رائحةٌ طبخ ماثين لتُحييها وتُبهجها، وتذكّرُها بمن كانت، أو من أصبحت. فقد كانت ابنةً الفرسان.

أكلت هاري كثيراً جداً في تلك الليلة. أكلت حتى أَلَمَتْها معدتها — كان ماثين قد حرّص على أن يتّبعاً نظاماً غذائياً صارماً أثناء التدريب — لكنها لم تكن تُدرك على نحوٍ كامل نوعَ ما كانت تأكله. جاء إليها العديدُ من المتنافسين في اللابرون الذين واجهتهم اليوم، ليلمسوا يدها ويُقدّموا ما بدا كأنه نوعٌ من الولاء، وقد تجسّدوا على حافة ضوء النار، غيرَ واضحين مثلما قد بدؤوا لها بعد ظُهر ذلك اليوم؛ كانوا يرتدون أرديةً حمراء وزرقاء وبُنية وسوداء؛ لأن أحداً منهم لم يكن يرتدي وشاحٍ خضر، وكانت سيوفهم معلّقةٌ في أغمدة على جانبيهم بدلاً من إشهارها في وجهها. وخاطبوها باسم هريمد-سول ولابرون-مينتا، وكانت أصواتهم خفيفةً وموقرةً. أكلت هاري كثيراً جداً لأن هذا جعلها تشعرُ بأنها إنسانةٌ حقيقية أكثر.

وفي وقتٍ لاحقٍ من المساء نُصبت خيمٌ تاري أخرى في مكانٍ قريبٍ منهما؛ كانت قد لاحظت أن ماثين استخدم إناءً طهي أكبر من الذي كان يستخدمه كلّ ليلة من أجل طعامهما مدة ستة أسابيع. وسرعان ما وجدت أنهما كانا يتشاركان النار والعشاء مع إيناث وفاران وفورلوي ودابسيم وآخرين من فرسان الملك. كانوا يشاهدون دون تعليق عندما جاء مُتنافسو اللابرون لتقديم أنفسهم لابنة الفرسان، التي استمرّت في وضع مزيد من الطعام في طبقها، بينما هم يأتون ويغادرون. وبعد ذلك عندما نظرت هاري لأعلى رأت ماثين يُقدّم طبقاً لكورلاث. جلس الملك على نحوٍ مسترخٍ، مُربعاً، وبدأ يأكل. ودّت هاري أن تسأل لماذا كان متنافسو لابرون يُحيونها؛ لأن الأمر بدا أبعد من مجرد إقرار من جانب الخاسر بانتصار الفائز، لكنها لم تسأل. لقد علّمها ماثين الصبر، وقد ظلّت هي طوال حياتها تتعلم كيف تتّسم بالعناد.

بدا أنه من الظلم بعض الشيء أن أشتكي، هكذا قالت لنفسها، مثلما اتضح الأمر — أو اتضح لي — في النهاية؛ لكن ألم يكن من الممكن أن يُخبروني قبل ذلك بقليل؟ نظرت في عيون أولئك الذين أتوا إليها ونادوها بهريمد-سول، وحاولت التفكير فيهم كأفراد، وليس كأرديةٍ وسُترات طويلة وأوشحةٍ ساقطة. ذهب كلّ متنافسي لابرون بعيداً دون أن

تُضطرُّ إلى التحدُّث إليهم؛ لأنهم لم يتوقعوا منها على ما يبدو أن تردَّ عليهم بأي شيء سوى حضورها. كان هذا مريحًا ومزعجًا في الوقت نفسه.

كان أحدُ متنافسي لابرُون امرأة. وقد طرَحَتْ عليها هاري سؤالًا: «ما اسمك؟»
كان ردُّ الفتاة أزرق اللون، وفجأةً ميَّزَتْها هاري على أنها الفارس الذي كان يمتطي
الفرسةَ الكستنائية. فأجابت قائلةً: «سيناي.»
«أين تسكنين؟»

استدارت سيناي لتواجه اتجاه الشمال الغربي. وقالت: «شبارديث». وأضافت: «إنها
هناك»، وأشارت نحو الظلِّمة. ثم تابعت: «على بُعد اثني عشر يومًا على حِصان سريع.»
أومأت هاري برأسها، وغادرت الفتاة لتعود إلى حلقة النار الخاصة بها، وجاء آخرون
للتحدُّث إلى لابرُون-مينتا التي كانت تجلس مع الفرسان والملك. وعندما نظرت حولها مرةً
أخرى أدركت أن هناك ثمانية عشر شخصًا لم يُظهر الظلامُ هِئاتهم بوضوح بالإضافة
إليها هي والملك؛ كان كلُّ الفرسان قد عادوا، وذلك من أي مكان كانوا فيه.
وعادت ناركنون إلى الظهور، وعانقَتْها هاري بشغف؛ لأنها شعرت بالحاجة إلى شيءٍ
تُعانقه. وقَدَّمت لها نصيبها من اللحم، والتي قبلتها ناركنون بسرور، على الرغم من أنها
حاولت أن تدسَّ أنفها في طبق هاري بنفسها؛ للتأكُّد من أن هاري لم تحتفظ ببعض من
أفضل القطع لنفسها.

ومن ثَمَّ خلَدت هاري إلى النوم ولم تُراودها أيُّ أحلام، ويدها مُمسكة بمقبض سيفها،
وعندما استيقظت وجدت يدها على هذا الحال، حدقت في يدها كما لو أنها لم تكن تنتمي
إليها.

زحفت خارج خيمة التاري ونظرت حولها. كان ضوء الصباح قد ظهر في السماء؛ ومع
ذلك، فإن معظم النائمين داخل خِيَم التاري كانوا لا يزالون نائمين بداخلها، وكان هناك
مزيد من الأشخاص الملتحفين بالبطانيات النائمين بلا حراكٍ حول حلقات النار الخاملة
أو المحاطة بالصخور. تحرَّكت شفتا ماثين بينما كان يُعيد بناء حلقة النار الخاصة بهما.
استدارت لتتظر خلفها. فوجدت أن كورلاث قد ذهب، لم يكن هناك سوى تموجٍ صغير في
الرمال حيث كان يرقد، أو ربما كانت تلك آثار الرياح فقط. قدَّم لها ماثين كوبَ مالاك.
أُعيد تسخينه بعد أن بردَ من الليلة الماضية، وكان مُرًّا. هزت هاري كتفها في معطفها
القاسي المتسخ، وهي تأمل أن تحظى بالاستحمام في وقتٍ ما من اليوم، وتُفكر بحزنٍ في
الوادي الصغير خلفها، وبركته الخضراء. كان وشاحها المقطوع مُلقًى بجانبها، حيث كانت

قد وضعته عبر فتحة باب الخيمة المفتوح في الليلة السابقة. فالتقطته، وبعد لحظة من التفكير، لفته حول خصرها مرة أخرى، وربطت حافات الممزة معاً حتى يظل مثبتاً. لم تفعل ذلك على نحو جيد للغاية، وفكرت في طلب المساعدة من ماثين، لكنها اختارت عدم القيام بذلك.

بعد وحشية الليلة السابقة، انخرط الجميع في ذلك الصباح بهدوء في مهمة حزم أمتعتهم والعودة، على ما يبدو، إلى المكان الذي أتوا منه. وظلّ عدد قليل منهم: هاري والعديد من فرسان الملك، حيث اختفى كثير منهم مع كورلاث، وربما مجموعة ممن يركبون الخيول لا تعرفهم، وعدد قليل من مُتَنَافِسي اللابرون. بحثت عن سيناى على نحو يحدوه الأمل، لكنها لم ترها. أصدرت الرياح حفيفاً فوق الأرض الجرداء. ولولا الحفر السوداء لحلقات النار الخامدة، لم يكن هناك ما يُظهر أنّ عدة مئات من الأشخاص قد أمضوا الأيام الثلاثة الماضية هنا.

وجه ماثين ويندرايدر شرقاً، شرقاً حيث كانت المدينة تقع بالضبط خلف أحد الأسطح الصخرية الغامضة أمامهم. وبدأ تسورنين يسير بالوتيرة نفسها بجانب ويندرايدر، وجاء فيكي خلفهما، وهو لا يزال يتذمّر بينه وبين نفسه، ثم جاء الآخرون، نحو ثلاثين راكباً للخيول، يصطفون خلفهم. نظرت هاري من فوق كتفها عدة مرات، لتُشاهد الموكب المتعرج خلفها، إلى أن رأت التعبير الدالّ على التسلية المنضبطة الذي ارتسم على وجه ماثين عندما نظر نحوها. بعد ذلك ظلت تنظر إلى الأمام فقط. وأخذت ناركنون تخطو بهدوء بينهم جميعاً. كان معهم قطّ صيد كبير آخر، ذكرٌ ماهوجانيّ اللون مرقطٌ وسيم أكثر ارتفاعاً بمقدار بوصة أو بوصتين من ناركنون، لكنها كانت تحتقره.

انطلق تسورنين وكأنه حصان يبلغ من العمر عاماً كان قد رأى العالم لأول مرة خارج مضمار ترويضه. حاولت هاري إبقاء ظهرها مستقيماً وساقها هادئتين عليه. أمس كانت سعيدةً بسرجهما المناسب تماماً؛ لأنه منحه الليونة والأمان، واليوم كانت سعيدةً به لأنه دلّها على الموضع الذي من المفترض أن ترتكز عليه ساقها حتى عندما شعرت وكأنهما كتلتان من الخشب. إن كتفها كانت تؤلمها، ورأسها كان مضطرباً، ومعصمها الأيمن كان ضعيفاً للغاية، كما أنها كانت مصابةً بكدمة كبيرة أرجوانية اللون في بطن الساق اليسرى. وقالت لنفسها: إن حصاني يتجاهلني. أو ربما يُحاول أن يُشعرني بالبهجة. لقد أولّته عنايةً كبيرة في مساء اليوم السابق، ومرة أخرى هذا الصباح، ووضعت دواءً ملطفاً على الخدوش الصغيرة القليلة التي أُصيب بها. لم تكن لديه تورماتٌ تُثير القلق، ولا عرج،

وكانت عيناه لامعتين وخطوته نشيطة. ومن ثم جعلها تشعر بمزيد من الاضطراب. فقالت له وهي تنظر نحو غُرَّتِه: «هل تُحاول أن تجعلني أشعر بالبهجة؟» فرفع لها أذنه على نحوٍ يوحي بأنه سعيدٌ ومشى مختلاً.

كانوا قد بدّءوا للتو في الصعود من السهل إلى التلال عندما التّفوا حول كتفٍ مفاجئةٍ أخرى من الصخور، مثل تلك التي مرت بها هي ومائين عند رؤيتها لساحات لابرون لأول مرة، وهنا كان يوجد طريقٌ ممتدٌ متّسع يرتقي على نحوٍ حادٍّ إلى بوابات ضخمة ليست بعيدة. وهناك كانت تقع المدينة.

مرّوا عبر البوابات، الواقعة تحت قوسٍ تبلغ سماكته طولَ حصانين، حيث تردّد صدى حوافر خيولهم على نحوٍ أجوف. كانت هناك رائحةٌ غريبة باردة، مثل رائحة الكهوف، على الرغم من أن البوابات مقامةٌ منذ ألف عام. ساروا في طريقٍ عريض حيث يمكن أن يسير فيه ستة فرسان جنباً إلى جنب. وقد كان مرصوفاً بالحجارة الضخمة المسطّحة، التي كان بعضها رمادياً أو أبيض أو أسوداً ذا تجزيعاتٍ حمراء، وعلى الجانبين نمت أشجارٌ رمادية نحيلة. وخلفها كانت توجد ممرّات حجرية يلعب فيها الأطفال، ووراءها كانت توجد متاجرٌ وإسطبلات ومستودعات وبيوتٌ حجرية، وقد وضعت أواني الزهور الحجرية في المداخل وعلى حافات النوافذ. ووقفت الببغاوات ذات اللونين الأخضر والأزرق التي كانت قد رأتها هاري في معسكر السفر فوق كثيرٍ من الأكتاف، وشارك بعضها، مبتهجين وصاخبين، في ألعاب الأطفال. ففي كثيرٍ من الأحيان بخفقةٍ من الأجنحة كان يحمل أحدها الحجر، أو العلامة، الذي كانت تستخدمه مجموعةٌ من الأطفال، بينما يصيح الأطفال فيه، وأحياناً كانوا يرمون عليه الحصى، ولكن ذات الحجم الصغير للغاية تلك.

قالت هاري: «ألا توجد أخشابٌ هنا؟ أليس هناك شيءٌ سوى الحجر؟» نظرت إلى السقف والجدران والجمالونات المتصاعدة على جانب التلّ خلف البوابات، فقط طبقات من الحجر المتعدّد الألوان، وليس هناك ألواحٌ أو شرائحٌ أو أفاريز خشبيةٌ منحوتة، أو مصاريعٌ أو إطارات نوافذ.

قال مائين: «يوجد لدينا أخشابٌ هنا، لكن لدينا أحجارٌ أكثر.»

كان إيناث يسير على الجانب الآخر لهاري مُمتطياً حصانه. فقال: «لا يمكن لمائين أن يرى غرابة هذا المكان؛ فقريته تستخدم الحجر أكثر مثل المدينة، لكنها فقط أصغر في المساحة. أما في موطني، فنحن نقطع الأشجار ونجعل سطحها ناعماً ونشقّها معاً، كما

أن منازلنا وحظائرنا دافئةٌ وجيدة التهوية، ولا تدوم إلى الأبد، ولا تُطاردك بأشباحِ عمرها ألف عام.»

قال ماثين: «نحن نستخدم الخشب.»

أوما إيناث إيماءة لا مبالية. وقال: «إن قاعات الاستقبال الكبيرة هنا بها ألواح خشبية — سترين بعضُها في القلعة — وغالبًا ما تحتوي الردهات، حيث يعيش الناس في الواقع، على واجهات خشبية كزينة.»

قال ماثين: «وهناك كراسي وطاولاتٌ وخزائنٌ خشبية.»

قال إيناث: «هناك كراسي وطاولات وخزائن حجرية أكثر. إنهم لا يُعيدون ترتيب الأثاث هنا غالبًا.»

نظرت هاري حولها. فرأت الأبواب معلّقة بنحوٍ جيد على مفصلاتها بحيث كان يمكن فتحها وإغلاقها بلمسة خفيفة، ومع ذلك كانت مصنوعة من ألواح حجرية ثقيلة للغاية، لدرجة أنها تساءلت كيف تُثبت في أماكنها في المقام الأول. ورأت أن الجدران القائمة بذاتها كانت في كثيرٍ من الأحيان بعرضٍ يصل إلى عرض ذراعيها مبسوطتين، ومع ذلك غالبًا أيضًا ما كان الجدار الداخلي المواجه للفناء المحاط بالمنازل العالية ناعمًا جدًا وغير سميك، ومنحوتة عليه زخارفٌ معقدة للغاية، وبدا وكأنه قد يهتز بسبب أي نسيم خفيف، كما لو أن بإمكان المرء لفةً مثل قطعة من الحرير وتخزينه على رف.

قال ماثين: «إن من يمتهن أعمال البناء أو النجارة هنا يحظى بالاحترام. كما يُكرم البارعون منهم على نحوٍ كبير.»

قال إيناث: «اسمعي لما يقوله مُروّض الخيول.»

فابتسم ماثين.

بدأ الأطفال يتصايحون: «لقد عاد مُتنافسو لابرون! والفرسان ... ولابرون-مينتا!»

صاح إيناث باتجاههم: «هريماد-سول»، فاحمرّت وجنتا هاري.

وردّد الأطفال خلفه: «هريماد-سول»، وخرج الناس من المنازل وعبر الشوارع الأضيّق المتفرعة من الطريق المركزي الواسع كي يلقوا نظرة. حاولت هاري أن تنظر حولها دون أن تنظر إلى أي شخص بعينه، لكن العديد من الناظرين حاولوا النظر إلى عينيها، وعندما كان ينجح أحدهم، كان يلمس جبهته بمعصمه الأيمن، ثم يبسط راحة اليد الفارغة باتجاهها. وسمعتهم يقولون: «هريماد-سول»، ويُضيفون في حماسة: «دامالور-سول.»

ورقص الأطفال أمام قدمي تسورنين ليجعلوها تنظر إليهم، وصفقوا بأيديهم؛ فابتسمت ولوّحت لهم في خجل، وسار تسورنين بحذر شديد.

واصلوا السير. في البداية كانت التلال مرئية خلف المباني المنخفضة، ولكن مع تقدّمهم داخل المدينة، كانت المباني تزداد ارتفاعاً، وبدأت كما لو أنها جزء من التلال نفسها، وكانت الأشجار التي تصطف على جانبي الطريق تزداد ضخامة، حيث كان يمكن الشعور بظلالها بينما يمر المرء تحتها. ثم وجدوا أمامهم بوابة أخرى، والجدار من حولها كان يمتد إلى جوانب الجبال كما لو كان الجدار والبوابة قد تشكّلا مع الجبال منذ قديم الأزل. مرّوا عبر هذه البوابة أيضاً، ودخلوا إلى فناء مسطح واسع من الحجر المصقول. كان لون هذا الحجر أبيض يمكن رؤية انعكاس الصور عليه، وقد كان براقاً للغاية بسبب انعكاس ضوء شمس الصباح عليه، وشعرت هاري كما لو أنها خرجت من تحت الأرض. فرمشت بعينها.

رأت أمامها قلعة كورلاث، لم يكن من الضروري أن يشرح لها أحد ما هو هذا الصرح الحجري الضخم. وأمالت رأسها إلى الورا ل ترى القمم المدببة للأبراج، وهي تتلأأ مثل الماس. كانت القلعة جبلاً في ذاتها، شامخة على نحو متفاخر، وهي تجلس وسط إخوتها، بينما تلمع واجهاتها بنحوٍ خطير. كانت الظلال التي تعكسها غير متشابهة، لكنها تنسم بالنقاء؛ إذ يعكس أحد الجدران اللون الأبيض، ويعكس الآخر اللون الأسود. وكان الجزء الأوسط أكثر طولاً من قمم التلال هنا، وصل الطريق الذي صعوده إلى نقطة بالقرب من قمة التلال الداكنة، ومثل جزيرة في بحيرة فوهة بركانٍ خامد، كانت القلعة قائمة في فنائها الحجري الذي يلمع مثل الماء تحت الشمس.

فتنهّدت هاري.

كان السّياس يقتربون منهم بالطريقة السريعة، ولكن غير المتعجلة التي كانت تتذكّرها من الأيام التي مرّت عليها في الصحراء أثناء مخيم السفر، وشعرت بإحساسٍ حادٍّ ومفاجئ بمرور الوقت، كما لو كان هذا منذ مدةٍ طويلة مضت، وكان الحاضر حزيناً ومرهقاً. انزلقت من فوق ظهر تسورنين، وقيل هو على مضض أن يُقاد عندما تحدّث إليه أحد الرجال ذوي الرداء البني بلطف ونداه باسمه، ووضع يده فوق مقدمة ظهره. جلست ناركنون على نحوٍ منظم عند قدمي هاري؛ إذ يمكن لهاري أن تشعر بذيلها وهو يتحسّس كاحليها.

وبدأ أفراد الموكب الذي صاحبها في الانصراف، كلٌّ إلى غايته على نحوٍ عازم. وقال لها ماثين: «يتوجّب عليّ أن أتركك هنا. ربما يُسمَح لنا بمنافسة بيننا مرةً أخرى ويُتاح لك

صَقَلُ مهارتك معي، يا ابنة الفرسان.» ثم ابتسم. وأضاف: «سنلتقي مرةً أخرى على مائدة الملك، هنا في المدينة.»

نظرت هاري نحو القلعة عندما تركها ماثين، وشعرت ببعض الوحدة، ثم فوجئت بأن كورلاث بنفسه هو مَنْ خرج لمقابلتها. فازدردت لُعابها بصعوبةٍ بعض الشيء، وامتنت لأشعة الشمس التي أكَسَبَتْ خَدَّيْهَا سُمْرَةً من شأنها منع احمرارهما الشديد من الخجل أن يظهر بوضوحٍ مثلما يظهر على البشرة الفاتحة لفتاةٍ من الأغراب.

قال كورلاث: «ها نحن نلتقي مرةً أخرى يا هريما-سول.» كانت هناك قشرةٌ جُرح صغير عند إحدى زاويتي فمه، وقد نظر نحوها بوقارٍ يخلو من أي تعبيرات، هكذا قالت لنفسها؛ فهو سيد هذا المكان، ومَنْ أكون أنا؟ حتى لقبُ ابنة الفرسان لم يستطع أن يُشعرها بالارتياح بينما كان يقف كورلاث أمامها وقلعته خلفه متلائة للغاية.

ولكن بعد ذلك أفسد تأثير هالة الوقار — أو ربما كان تأثير تلك الهالة قد ارتسم في الأساس أمام عيني هاري فقط — عندما قال: «إذن ذلك هو المكان الذي اختفت فيه هذه القطعة الملعونة. كان يجب أن أضمن هذا.»

لم تبدُ عليه هيبة الملوك وهو يُحدق في قطعة؛ لذلك قالت هاري بفضاضة: «أتمنى لو كنتُ أعرف ما الذي يحدث.»

نظر كورلاث نحوها نظرةً متمعنة، ونهضت ناركنون، برشاقة القطط المعتادة، وذهبت لتتمسح بساقي كورلاث. فانبسط وجه كورلاث ومسَدَ أذنيها. واستطاعت هاري سماعها وهي تُخرخر، وشعرت بصوتها تقريباً عبر نعلي حذاءها على الحجر الأبيض. كانت ناركنون بطلةً في الخُوار. فقالت هاري: «ولا تُخبرني أنه لا أحد يعرف ما يحدث، وأن الآلهة هي التي تُقرر.»

حرك كورلاث وجهه ثم ظهرت عليه ابتسامة، لكن لم تستطع هاري أن تُحدد إن كانت لها أم لناركنون. وقال: «حسناً. لن أقول لك هذا. لكن سأقول إنك حصلتِ على المركز الأول في منافسات لابرون، وأصبحتِ لابرون-مينتا، وهو الأمر الذي أصبحت تعرفينه؛ ومن ثم فأنت أهمُّ متنافسي لابرون، التي لم تُختبر في المعارك الحقيقية بعد.» ظَلَّت يد كورلاث مُلقاةً بلا حراك على رأس ناركنون. وأضاف: «سيتحرك الجيش، ليفعل ما في وسعه، بعد أقلَّ من أسبوعين. وستنضمين لنا أنت وأفضل متنافسي لابرون.» ضربت ناركنون يد كورلاث في غضب فتحركت أصابعه، ثم بدأت في تمسيدها مرةً أخرى.

وتابع كورلاث بنبرة أقل جدية: «في السنوات الماضية التي أقيمت خلالها منافسات لابرون، كنا نُقيم احتفالاً لمدة أسبوع في نهايتها، حيث تُعنى العديد من الأغاني الجميلة، ويروي بعض الأشخاص أكاذيب حول براعتهم، ويزعم الفائز أن منافسات عامه كانت هي الأفضل، ويُشرب كثير من الجعة والنبيذ، وتسود حالة مبهجة للغاية. لكن في هذا العام ليس لدينا الوقت، والعديد من أولئك الذين كانوا سيشاركون فيه بعيدون للغاية عن المدينة، وأولئك الذين هم موجودون هنا مشغولون للغاية، والعمل الذي يقومون به مُتعب للغاية.» سكّت كما لو كان يأمل أن تقول شيئاً ما، أو على الأقل ترفع عينها عن وجه ناركنون الناعس وتنظر إليه، ولكن عندما نظرت أخيراً، حدّق على الفور في السماء. وقال: «لكن الليلة ستقام وليمة على شرفك. فأنت لست الأقل من بين أولئك الذين فازوا بمنافسات لابرون. وهناك الكثيرون الذين سيأتون الليلة فقط لإلقاء نظرة عليك.»

توقفت هاري عن الابتسام في وجه القطة. وقالت: «أوه.»

فقال كورلاث: «تعالى معي. سأريك أين ستقيمين إلى أن نغادر المدينة.»

تبعته عبر الفناء الأملس وحول أحد أجنحة القلعة، وعندما التقيا حول نهايته برز من الحافة، وكان محمياً بالحجم الكبير للقلعة جدارٌ بدا منخفضاً في البداية، ولكن عندما اقتربا منه وجدته بارتفاع عشر أقدام. وقد انحنى للخلف على نفسه كما لو كان يحمي شيئاً ما بداخله ثميناً للغاية. وكان يوجد في الحائط باب، بارتفاع رجلٍ طويل. فتحه كورلاث، والتفت حوله باحثاً عنها. فدخلت هي أولاً، بينما تزامحها ناركنون عند كعبيها، مع شعورٍ غريب بأنه كان يُراقبها بقلقٍ من أجل معرفة رد فعلها.

كان المكان جميلاً للغاية. هنا لم يكن الفناء حجرياً، بل عُشب أخضر، وينساب عبره جدولٌ من طرَفٍ إلى آخر، مع وجود نافورة في المنتصف، وحصان حجري يقف على قائمتيه الخلفيتين في وسط الرذاذ المتساقط. وعلى جانبي الماء المنساب كان هناك مسارٌ من حجارة الرصف، باللونين الرمادي والأزرق، يلتف حول النافورة بالكامل. كما كانت توجد مقاعدٌ حجرية منحنية على جانبي النافورة، ينساب الماء بينها. ووراء كل هذا، كان يقع ما اعتقدت هاري على الفور أنه قصر، على الرغم من حجمه الصغير؛ فهو لم يكن أكبر من كوخ الحارس في منزل والدها، الذي أصبح الآن ملك ريتشارد، هناك في الوطن. لكن هذا الكوخ كان يحتوي على أبراج ذات قمم رفيعة في كل ركن من أركانه الخمسة، وقبة في وسط السقف المائل، مع سياجٍ رائع يحيط به. وباستثناء القبة، كان ارتفاعه طابقاً واحداً، وكانت النوافذ طويلة ورفيعة. أما الجدران والسقف فعبارة عن فُسيفساء من آلاف

الأحجار الصغيرة المسطحة ذات اللون الأزرق، بألوانٍ تتنوّع من الزّبرجد إلى الفيروزيّ إلى الياقوتي الأزرق، لكن لم يكن لدى هاري أيّ فكرة عن ماهيّة هذه الأحجار؛ لأنها كانت غير شفافة، ومع ذلك كانت تتلألأ مثل عرق اللؤلؤ. صَدَرَتْ عنها شهقة، وبعد ذلك شعرت بأن عينيهما تملؤهما الدموع وهو ما أربعها؛ لذلك ركضت إلى الأمام. بدا الأمر كما لو أن حذاء الركوب الجلديّ الذي كانت ترتديه لم يُصدر أيّ صوت على الحجر هنا، فغمّرت يديها في مياه النافورة، ووضعت وجهها تحت الرذاذ. فهذاّتها برودته، وتراقصت القطرات حولها. وصعدت ناركنون على أحد المقاعد واستلقت.

تبعهما كورلاث من خلال الباب الذي في الحائط ثم ذهب إلى قصر الفسيفساء الصغير. لم يكن هناك بابٌ في المدخل الذي يعلوه قوس. دخلت هاري ببطء. هنا التفّ مسار الجدول حول الخلف ودخل المكان بطريقةٍ ما من فتحة خلفية؛ لأنه في وسط الحجرة الأمامية كانت توجد نافورةٌ أخرى، وامتدّ مسار الجدول تحت الجدار الخلفي، ولكن هنا كان التمثال لحصانٍ حجري يقف على جميع قوائمه الأربعة ورأسه مُنحنٍ ليشرب من البركة عند قدميه. لقد كانت توجد منسوجاتٌ تزيينية على الجدران، وأبسطة ووسائدٌ على الأرض، وكانت هناك مائدة واحدة منخفضة، وكان هذا كل شيء. فتح كورلاث الباب الحجري بجانب المكان الذي يمتدّ منه مسار الجدول تحت الجدار. فنظرت إلى الداخل. كان المسار يُشكل شلالاتٍ صغيرةً من ثلاث درجات حجرية تحت الجدار البعيد، ليمتدّ تحت الجدار القريب ويخرج إلى النافورة في الحجرة الأمامية. وقد كان الماء يُصدر صوتَ رنينٍ بينما كان يتساقط. كانت أرضية هذه الحجرة مغطاةً بأبسطة سميكة، وأمام الجدار المقابل للجدول كان يوجد الشيء الطويل الذي يشبه المسند الذي استخدمته من قبل في مخيم السفرة، وعلمت أن هذه هي فكرة أهل التلال عن السرير، على الرغم من أنها كانت لديها آمالٌ أكبر في ارتفاع مستوى الأثاث داخل المدينة. كانت هناك وسائدٌ طويلة عند أحد طرفيه، وأغطية بحجم جسم الإنسان مطوية عند الطرف الآخر.

عادت إلى الحجرة الكبرى ونظرت حولها مرة أخرى. كان هناك بابٌ آخر بين اثنتين من المنسوجات الجدارية الطويلة اللتين باللونين الأزرق والأخضر. فاتجهت إليه وفتحته، متسائلةً عما إذا كانت ستعثر على تنينٍ ينفث نيراناً وهو يقف على كومة من الماس، أو مجرد فجوةٍ لا قاع لها تحيط بها أحجارٌ زرقاء، ولكنها بدلاً من ذلك وجدت مزيداً من الفناء العشبي، وعلى بُعد خطوات قليلة كان هناك بابٌ في الحائط الذي يُحيط بهذا المكان السحري يؤدي إلى ما ظنّت أنه لا بد أن يكون القلعة نفسها.

أغلقت الباب وعادت إلى الورا، حيث كان يُدلي كورلاث أصابعه في البركة أمام الأنف الحجري للحصان مباشرة. بدا كما لو أنه كان يُفكر ملياً في شيء ما. استندت هاري إلى الباب خلفها، وحدقت فيه متسائلة عما كان ينظر إليه، وانتظرت حتى يتذكر وجودها. نظر إلى أعلى أخيراً، والتقت عيناه بعينيها. لم تعتقد أنها قد جفّلت. وقال: «هل أعجبك المكان؟»

أومأت برأسها، غير متأكدة تماماً من قدرة صوتها على الخروج. فأضاف: «لقد مضى وقتٌ طويل منذ أن سكّن هذا المكان أي شخص»؛ أرادت أن تسأل كيف أنشئ هنا من الأساس، ومن الذي بناه بكل هذا الشغف ولماذا، لكنها لم تفعل. تركها كورلاث هناك. وسار خارجاً متجاوزاً نافورة الحصان الذي يرتكز على قائمتيه الخلفيتين، وعند الباب الذي دخل منه، توقف وعاد نحوها. كانت قد تبعته من الكوخ الصغير المرصع بالجواهر، ووقفت بجوار المقعد المنخفض حيث كانت ترقد ناركنون مسترخية. لكنه لم يقل شيئاً، واستدار مبتعداً مرة أخرى، وأغلق الباب من ورائه. ذهبت إلى الحجرة الخلفية الصغيرة التي يوجد بها الفراش وخلعت معطفها. ثم لمست يداها وشاحها الممزق، فلقت أصابعها حوله وخلعته وألقت القطعتين بعيداً عنها. فتطايرا نحو الأرض. ثم استلقت فوق الفراش على نحوٍ متمهل، تاركة النصف السفلي من ساقها اليسرى معلقاً على حافته، إذ لم يجب أن تلمس الكدمة التي فيها أي شيء، وأراحت كتفها المتألمة برفق.

أيقظتها امرأة شابة، لكنها كانت ترتدي مثل زيّ الخدم من الرجال؛ أي: رداء أبيض طويلاً بدون وشاح، وكانت توجد على جبهتها العلامة نفسها التي كانوا يحملونها. وقالت الخادمة قبل أن تنحنى: «ستبدأ المأدبة قريباً»، فأومأت هاري وجلست بصعوبة، وتشاءبت، وراحت تتأمل كدماتها التي بدت كأنها تنتشر. ثم مدت قامتها، ونهضت لتقف على قدميها. لبست رداءها الأزرق لكنها تركت الوشاح ملقى على الأرض، وتبعت الفتاة خارج القصر الفسيفسائي وعبر باب القلعة إلى حجرة انتظار. نظرت إلى اليسار ورأت حجرة بها موائد، موائد مرتفعة، وكراسي حقيقية، ليست كراسي مثل تلك التي اعتادت أن تراها في موطنها، لكن رغم ذلك كراسي لكل منها ظهرٌ وأرجل وبعضها بمساند للذراعين. وجّهتها الفتاة إلى اليمين وإلى حمام ضخم، حيث كان حوض الاستحمام نفسه غاطساً في الأرضية، وكان بحجم بركة الماء المستخدمة خزائناً لطاحونة، وكان يتصاعد منه البخار. ساعدتها الفتاة على خلع ملابسها، وجلست هاري لحظة على حافة الحوض، ووضعت قدميها المتعبتين فيه ببطء. أصدرت خادماتها صوت هسهسة من فمها على نحوٍ متعاطف عندما رأت الكدمات.

وبمجرد أن غمرت كامل جسدها في حوض الاستحمام، ظهرت فتاتان أخريان، وقَدَّمت لهما إحداهما قالباً من الصابون الأبيض. وأخذت الفتاة الثالثة تفكُّ شعرها المبلل — الآن بعد أن أصبح مبتلاً، فاحت منه رائحةٌ تشبه رائحة الحصان — وبدأت في فركه بالصابون السائل. وكانت رائحة هذا الصابون السائل مثل الزهور. فقالت هاري لنفسها: أراهن أن الصابون السائل الذي يستخدمه كورلاث ليست رائحته مثل الزهور. وكانت تُفضل أن تخلع ملابسها بنفسها — على الرغم من الأوجاع والآلام — وأن تغسل شعرها بنفسها. وراحت الفتاة التي أعطتها قالب الصابون تغسل ظهرها بإسفنجية خشنة، وكَبَّتْ هاري رغبتها في الضحك؛ إذ لم يُساعدوا أحدٌ في غسل ظهرها منذ أن كانت في الخامسة من عمرها. وبعد أن انتهت من الاستحمام، لَفَّت الفتيات جسدها بالمناشف، وجَلَسَتْ بصبر تام بينما كانت الفتاة التي غسلت شعرها تُحاول الآن أن تفكَّ التشابك منه. كان طويلاً وسميماً ولم يُمشط بنحوٍ ملائم منذ أسابيع. قالت هاري لنفسها على نحوٍ مبتهج: إنها سَتُمشطه بطريقةٍ أفضل ممَّا لو كُنْتُ أنا من أمشطه؛ هناك مزايا للخدم، بلا شك، وهذه الفتاة لطيفة جداً. وجدت هاري نفسها تغفو. فقالت لنفسها: أظنُّ أنني سأبدو حمقاء في المأدبة الخاصة بي إذا لم أتمكَّن حتى من البقاء مستيقظة. أظن أن الأسابيع الستة الماضية ستُسبب لي عواقبَ غير سارة الآن، وكذلك غبار ماثين الرمادي.

وفي النهاية قامت عن كرسيِّها الذي بلا ظهر، وسَقَطَت المناشف، وأُسِدِلَ قميصٌ تحتي أبيض ثقيل فوق رأسها. ووضعت الخادِماتُ خُفًّا مخملياً في قدميها ورداءَ أحمر حول كتفيها، ولَفُّوا رباطاً ذهبياً حول شعرها لكن تركوه يتدلى خلفها؛ لذا كان عليها أن تنفض طرفه جانباً عندما تجلس. في موطنها، لم تكن تترك شعرها منسدلاً بعد أن كَبُرَتْ ولم تعد طفلة؛ إذ في الليل كانت تُضفره، وأثناء النهار كانت تربطه. هَزَّتْ هاري شعرها، وأحست بأن الأمر ممتع. في الأسابيع الماضية كانت تربطه وتُثبت به بشدة تحت خوذتها، حيث لا يمكن أن ينشبك في أي شيء، مثل فرع شجرة، أو سيفٍ ماثين، أو تحت سَرَجِها. وقد وضعت الفتاة التي أيقظتها بعضاً من الدواء اللطيف لتخفيف كدمات كتفها وساقها قبل أن يُساعدوها في ارتداء ملابسها، ووجدت هاري أنها تستطيع التحرك بحرية أكبر، كما كان الرداء خفيفاً، وقميصها التحتي ناعم الملمس.

رافَقَتْها الفتيات الثلاثة عبر حجرة الانتظار إلى الغرفة ذات الكراسي، وانحنين جميعاً لتحيتها، ونظرنَ إليها بخجل والابتساماتٍ تحوم في أعينهن، فابتسمت ابتسامةً عريضة لهنَّ وثَنَّتْ حافاتِ ردائها القرمزي النظيف نحوهن، فابتسمنَ بسعادة وغادرن.

جلست هاري في ترددٍ على أحد الكراسي ذات الأرجل الملتوية الغريبة، ومالت إلى الخلف على نحوٍ مستمتعٍ بالرفاهية. يمكن أن تكون الأبسطةُ والوسائدُ والمقاعد مريحةً للغاية، لكنها مع الأسف بلا مسندٍ للظهر، كما لم تُصنع على ما يبدو كي يُمكنها الاتكاءُ على جدار الخيمة؛ لم يفعل ذلك أحد، على الأقل، لذلك لم تُحاول هي. تموّج القميص التحتيّ حولها وهي تبسط كتفّيتها أكثر على الكرسي؛ بسبب عدم ارتداء وشاحٍ خصر، بحسب ظنّها.

كانت هناك قاعةٌ طويلة تستطيع أن تراها من خلال بابٍ مفتوح؛ وبعد بضعة دقائق، ظهر ماثين من باب آخر عند طرفها البعيد وتوجّه نحوها. كانت في يده قطعةٌ قماش باللون الأحمر الداكن، وعندما دخل من الباب، فاحت من الهواء الذي اندفع إلى الحجرة معه رائحةُ الزهور. فابتسمت هاري.

قال ماثين: «سعيد للقائك ثانيةً، يا ابنة الفرسان»، ومدّ ما كان يحمله في يده. كان وشاحها القديم بعد أن غُسل. تركت الابتسامةُ وجه هاري، وعندما قرّب ماثين الوشاح منها، وهو لا يزال مُمزقاً إلى قطعتين، كما لو كان سيلفُهُ حول خصرها، تراجعت خطوةً إلى الخلف.

توقف، متفاجئاً، ونظر إلى وجهها، الذي اكتسب سُمرة غطّت على لونه الأبيض. وقال ببطء: «أظن أنك لا تفهمين حقيقة الأمر.» ومدّ ذراعيه إلى جانبيه، وأشارت يدهُ إلى خطأ على وشاحه الأخضر الداكن. وأضاف: «انظري هنا.»

نظرت هاري ورأى تمزقاً مشابهاً، لكنه أصلح بعناية، بغُرْزٍ دقيقةٍ صغيرة من الخيط الأصفر. فقال: «إن كل الفرسان يرتدون أوشحتهم هكذا. لقد ربح كثيرٌ منا الوشاح على يد الملك بعد أن فاز بالمركز الأول في منافسات لابرون — مثلما حدث لي، منذ سنواتٍ عديدة. وكان والد كورلاث هو من تسبّب في هذا التمزق. اثنان أو ثلاثة منا فازوا به في أوقاتٍ أخرى. أي شخص محظوظ بما يكفي للحصول على وشاحٍ مقطوع من قبل سول أو سولا سيرتدي ذلك الوشاح بعد إصلاحه على الدوام.»

سمعت هاري، بصوتٍ ضعيف في مؤخرة عقلها، بيث تقول: «إنهم يأتون في تلك الأردية الطويلة التي يرتدونها دائماً، والتي تغطي وجوههم أيضاً؛ لذلك لا يمكنك معرفة ما إذا كانوا يبتسمون أم يعبسون، وبعضهم يرتدي تلك الأوشحة المرقعة المضحكة حول الخصر.»

قال ماثين: «سأعلمك كيف تُصلحين وشاحك؛ يجب أن تفعل ذلك بنفسك، مثلما تُنظفين سيفك وتُقدمين الولاء للملك أمام الجميع.» ونظر إليها بمكر وأضاف: «تأكّدي أن

كلّ تلك الأوشحة التي مرّقتها أنت من على خصور أصحابها سيحتفظون بها ويُصلحونها، وسيتباهون بالتمزّقات التي تسبّبت بها دامالور-سول التي شوهدت براعتها لأول مرة عندما فازت بالمركز الأول في منافسات لابرون.»

سمحت هاري لماثين بوضع الوشاح الأحمر الداكن حول خصرها مرةً أخرى. ولم يربط طرفي التمزّق معاً، مثلما فعلت هي، بحيث لا يظهر التمزّق؛ وبدلاً من ذلك، أظهره نحو الأمام بفخر — فصرت هاري على أسنانها — وثبته بدبوس ذهبي طويل. ثم تبعته في صمت عبر الممر.

كانت هناك أعمدة يصل ارتفاعها إلى ثلاثة طوابق وتحمل الأسقف المقوّسة، وقُسمت الأرضيات إلى مربعات كبيرة، بطول خطوتين واسعتين، ولكن داخل كلّ إطار أبيض وأسود كانت هناك مناظرٌ مرسومة ببلاط الفسيفساء الصغير. حاولت هاري أن تنظر إليها وهي تمشي فوقها، فرأت عدداً كبيراً من الخيول، وبعض السيوف، وبعض مناظر لشروق الشمس وغروبها فوق التلال والصحاري. كانت عيناها منشغلّتين للغاية بالنظر نحو الأرض لدرجة أنه عندما توقّف ماثين اصطدمت به.

وقفا تحت أحد الأقواس ذات الارتفاع الذي يبلغ ثلاثة طوابق التي تحملها الأعمدة، ولكن على جانبيهما امتلأت الفراغات بين الأعمدة الطويلة، وقد علّقت المنسوجات الجدارية على هذه الجدران، ووقفا عند مدخل حجرة ضخمة. كان ارتفاعها أيضاً ثلاثة طوابق، وتدلّت ثرياً من السقف على سلسلةٍ بدت بطول مئات الأقدام. نزلت هي وماثين ستّ درجاتٍ سلّم، تمتد إلى اثنتي عشرة خطوةً واسعة من الأرضية، وصعدا تسع درجاتٍ إلى منصةٍ مربعة واسعة؛ وحول كلّ من الجوانب الثلاثة للمنصة وُضعت مائدة بيضاء اللون. وعند جانب المنصة الذي لا توجد أمامه مائدة، كانت هناك ثلاثُ درجاتٍ أخرى تصل إلى مائدةٍ مستطيلة طويلة على منصةٍ أصغر حجماً، وحول هذه المائدة جلس كورلاث وسبعة عشر فارساً. كان هناك مقعدان خاليان عن يمين كورلاث. كانت كراسيٌّ، هكذا قالت هاري لنفسها بسعادة. تبدو الكراسي شائعة جداً في المدينة، حتى لو لم يفهموا كيف تكون الأسرة.

ومن ثمّ جلسا وأحضر الخدم والخادmates الطعام، فأكلا. ألقت هاري نظرةً فاحصة على أولئك الذين كانوا يحملون الأطباق؛ بدا أن مَنْ يقومون بالخدمة هنا في المدينة مُقسّمون تقريباً بالتساوي، رجال ونساء. فالتفتت هاري باندفاع إلى ماثين، وقالت بهدوء حتى لا يسمع كورلاث: «لماذا لم تكن معنا خادmates في مخيم السفر؟»

ابتسم ماثين وهو ينظر إلى ساق الدجاجة التي كان يتناولها. ثم قال: «لأنه كان هناك عددٌ قليل جداً من النساء معنا في الرحلة.»

قال كورلاث: «سيذهب معنا بعضهن بعد عشرة أيام، إذا كنتِ ترغبين في ذلك؛ لأنه حتى الجيش وهو في طريقه إلى الحرب يحتاج إلى بعض الرعاية.»
قالت هاري بصرامة: «إذا لم تكن رغبتني هذه حمقاء، فسيُسعدني أن أرى خادماً يأتين معنا.»

وأما كورلاث برأسه بجديّة، وفكّرت هاري في المأدبة الأولى التي حضرتها، بينما كانت لا تزال تشعر بالدوار والخوف من رحلتها عبر الصحراء، وهي تصطدم لأعلى ولأسفل على قربوس سرج كورلاث. كانت لا تزال تشعر بالدوار والخوف؛ هكذا قالت لنفسها بحزن، ولمست الدبوس الذهبي في وشاحها؛ كان بارداً على أصابعها.

ودار حديثٌ بينما كانوا يتناولون الطعام عن منافسات لابرون التي انقضت للتو، وكيف أنّ ابن فلان وفلان كان يمتطي حصانه بنحوٍ جيد أو سيئ؛ كان جميع الفرسان يُشاهدون المنافسات باهتمام شديد ازداد بسبب قرب هجوم جيش الشمال. ذكر ماثين أنّ امرأةً شابة تدعى سيناى قد أبلت بلاءً حسناً؛ كان يجب أن يُعرض عليها مكانٌ عندما يصبح الجيش مُستعداً للتحرك. صنّفها الكايسين في مرتبةٍ عالية؛ ولذا فهي كانت لا تزال في المدينة، على أمل الحصول على مثل هذا الاستدعاء.

سأل كورلاث: «من أين هي؟»

قطّب ماثين حاجبيه، محاولاً التذكّر.

فقالت هاري: «شبارديث.»

قال ماثين متفاجئاً: «شبارديث؟ لا بد أنها ابنة ناندام العجوز. كان يقول دائماً إنها ستتنضم للجيش. لقد أحسنت صنعاً.»

قال إيناث: «إن ماثين يتحوّل إلى بيليتو مع تقدّمه في العمر، ألا تظنون ذلك؟» وانطلقت الضحكات حول المائدة. التفتت هاري لتتنظر إلى ماثين، واعتقدت أنه كان يبدو أكثر صرامةً من المعتاد. قال ماثين بحزم: «أنا أختار الأفضل فقط»، فضحك الجميع مرةً أخرى. البيليتو هو عاشق النساء. فابتسمت هاري دون رغبةٍ منها.

لم يذكر أحدُ الأداء الرائع للفتاة فارسة الحصان الذهبي الكبير تسورنين التي كانت محظوظة كي تفوز بالمركز الأول، وبدأت هاري في الاسترخاء مع مواصلة الجميع تناول الطعام، على الرغم من أنها أدركت، هكذا قالت لنفسها، عندما حدّقت في كأسها، أن النبيذ هو على الأرجح سببُ استرخائها.

في النهاية رُفِع الطعام والشراب، ثم ساد الصمت مدّة محسوبة ومتوقّعة، لدرجة أن هاري كانت تعلم قبل أن ترى الرجل الذي يحمل الكيس الجلدي أنهم سيحضرون ماء الرؤية. استطاعت هذه المرة أن تفهم عندما تحدث الفرسان عما رأوه؛ كانت الحرب تظهر في أعين الجميع تقريباً، الحرب مع جيش الشمال، الذين كان يقودهم شخصٌ كان أكثر من مجرد رجل؛ وميضٌ سيفه من ضوءٍ هو لون الجنون، ويملاً الرعبُ قلبَ كلِّ من يُحاول مبارزته.

ضحك فاران ضحكةً قصيرة لا تدل على البهجة، وقال إن ما رآه غير مفيد لأي أحد؛ ورأى هانتل قومه قادمين نحو المدينة فوق خيولهم وهم عابسون ويحملون رسالة لم يكن يعرف فحواها. كان هانتل من قرية في الجبال الواقعة على الحدود الشمالية لدامار. وقال: «أنا لا يُعجبني ذلك. إذ لم أرَ والدي قَط يبدو بمثل هذا التجهم.» تنهَّد إيناث بسبب الرؤية التي رآها. وقال: «أرى بحيرة الأحلام، كما لو كان الوقت مبكراً في الربيع؛ لأنّ الأشجار تحمل براعمها. ويسير الفرسان بخيولهم على طول حافتيها، لكن عددنا هو خمسة عشر فقط.»

تناول ماثين رشفةً من الماء في فمه، وحقق أمامه؛ وبدا كأنه تحوّل إلى حجر، تمثال في المدينة الحجرية، لكن وجهه تعرّق، وتدحرجت القطرات من جبهته. ثم تحرك، وعاد إنساناً مرةً أخرى، لكن العرق كان لا يزال ينحدر منه. كان صوته خشناً عندما قال: «أنا منفعل بشدة. لا أعرف أكثر من ذلك.»

بمجرد أن أمسكت يدا هاري بعنق القارورة، سبّحت أمامها صورة؛ في الجلد البنيّ للكيس، من بين الزخارف المعدنية عليه، كانت هناك صورةٌ أخرى لم يضعها أيُّ صانع جلود. رأت تسورنين واقفاً في الصحراء، ويحمل راكبه علماً أبيض، أو قطعةً قماش بيضاء مربوطةً بنهاية عصا. سأل كورلاث بلطف: «ماذا ترين؟» فأخبرته. لم تستطع رؤية وجه الراكب؛ لأنّ أنفه وذقنه كانا مُغطَّيْن بقطعةٍ من القماش الأبيض، لكنها ارتجفت من فكرة رؤية وجهها وقد بدا مخيفاً للغاية، والأسوأ من ذلك، ماذا لو لم يكن وجهها؟ سار تسورنين ببطء ثم ركض، ورأت هاري ما اقترب منه؛ البوابة الشرقية لحصن الجنرال ماندي. ثم تلاشت الصورة، وعادت تنظر إلى الجلد المثير للفضول لكيس ماء الرؤية. ورفعت الكيس إلى شفتيها.

حدّث شيءٌ مثل انفجار في رأسها وهي تتذوّق ماء الرؤية. فارتجفت من الصدمة. كانت ذراعها اليمنى قد أصابها التنميلُ حتى الكتف، وكانت قبضة يدها اليسرى على عنق

الكيس هي التي منعتها من إسقاطه. ثم شعرت بصدمة أخرى كالأولى، وأدركت أنها كانت تمتطي تسورنين، الذي سهل بغضبٍ وخوف. وبدت السماء سوداء، وكانت هناك صيحاتٌ وصرخات في كلِّ مكان حولها، وقد تردَّد صداها كما لو كانت في وادٍ عالي الجدران. ومع صدمة أخرى من تلك الصدمات كانت ستقعُّ من على السرج. شعرت أنها مهيأة للسقوط عليها، ثم لم تُعد ترى شيئاً، وظهرت المائدة أمام بصرها مرةً أخرى. نظرت إلى يدها اليمنى؛ كانت لا تزال هناك. ورفعت بصرها. وقالت: «أنا لا ... أنا لا أعرف بالضبط ما رأيته. أعتقد أنني كنتُ في معركة و... بدا لي أنني كنتُ أخسر.» ابتسمت بضعف. كانت ذراعها اليمنى ما تزال لا تتحرَّك بنحوٍ صحيح، وأخذ كورلاث الكيس من يدها اليسرى.

أخذ رشفةً بدوره؛ وشاهدت هاري، وهي تُراقبه، عينيه وقد تغيَّر لونهما حتى بدتا صفراوين كما كانتا في المرة الأولى التي رآته فيها في فناء القصر في إيستن. ثم أغلقهما، ورأت عضلات وجهه ورقبته وظهرَ يديه متوترَةً، حتى ظنَّت أنها ستنبثق من الجلد، وبعد ذلك انتهى كلُّ شيء، وفتح عينيه، وكانتا بُنيتين. ونظر نحوها، فظنَّت أنها رأت شيئاً من رؤيته لا يزال عالقاً هناك، وكان شيئاً مثل رؤيتها.

قال كورلاث بهدوء: «لقد رأيت وجه عدوِّنا، إنه ليس جميلاً.»

ثم جاء الرجل ليحمل ماء الرؤية بعيداً، وعاد بالنبيذ، وأبعدت الصور قليلاً. بدأ الفرسان ينظرون بترقبٍ نحو كورلاث، لكن هذا كان ترقباً أكثرَ سعادةً من ذلك الذي توقَّعه الميالداتار، وقد شعرت هاري بالحماسة بنفسها، على الرغم من أنها لم تكن تعرف ما الغرضُ منه، وبحثت حولها عن تفسير.

كانوا قد تناولوا وجبتهم وحدهم في القاعة الواسعة، وارتفعت أصواتهم القليلة إلى السقف مثل أشياء حية لها إرادتها الخاصة. ولكن بعد أن أخذ كيس ماء الرؤية بعيداً، بدأ الناس في الظهور حول المنصة الصغيرة حيث كان يجلس الملكُ وفرسانه؛ وقد دخلوا من جميع الجهات واستقرُّوا على وسائلٍ أو كراسي. ارتقى بعضهم المنصة السفلية وجلسوا حول المائدة الكبيرة التي كانت تحيط بالفرسان. ظهر مزيد من الخدم، بعضهم يحمل صواني وبعضهم يحمل موائد منخفضة، ووضَّعوا مزيداً من الطعام، أو مرَّروه بين الجمهور المتزايد. ومن ثمَّ سرَّت مهماتٌ بينهم، خافتة ولكنها متحمسة. فركت هاري أصابعها لأعلى ولأسفل بطول الدبوس الذهبي في وشاحها إلى أن عاد غير بارد.

أحضر أحدُ الرجال لكورلاث سيفه، فنهض وربط حزامه حول وسطه. تساءلت هاري بحدَّةٍ عن عدد السنوات التي يستغرقها المرء لتعلَّم كيفية ربط حزام السيف حول الوسط

بنفس سهولة التثاؤب، ثم تساءلت عما إذا كانت تريد أن تقضي سنواتٍ طويلة لتعلم ذلك. أو إذا كان سيكون لديها الخيارُ لفعل ذلك. لم تكن تحبُّ الاستيقاظ لتجد نفسها ممسكةً بمقبض سيفها مثلما قد يُمْسك الطفل بلعبةٍ مفضلة. ربما كان من الجيد أيضًا التفكيرُ في الكتف والخصر، والحزام والإبزيم. دخل رجلٌ آخر يحمل سيفًا آخر. فأخذ كورلاث هذا أيضًا، وأمسك الغمد في يده اليسرى، وترك الحزام يتدلى، وشهره ولوح به، وكان يلمع، تحت ضوء الشموع في الثريا الكبيرة. كان هناك حجرٌ أزرق مثبَّت في قبضته، وقد تلاًلاً بتحدٍّ في الضوء. كان هذا السيف أقصر وأخفَّ من سيف كورلاث، لكن مرونته وطريقة تدليّه، وهو ينتظر، في الهواء، أعطاه مظهرًا من العمر اللامتناهي، والوعي، كما لو كان ينظر إلى أولئك الذين ينظرون إليه. قال كورلاث: «هذا هو جونتوران»، وانتشرت في القاعة مهمماتٌ بالموافقة والاعتراف، وكان الفرسان صامتين. فتابع: «إنه أعظم كنز لدى عائلتي. حتى سنواتٍ قليلة في طفولته حمله كلُّ ابن من أبناء العائلة، لكن ليس من المقدَّر أن تحمله يدُ رجل، وتقول الأسطورة إنه سيخون الرجل الذي يجرؤ على حمله بعد عامه العشرين. هذا هو سيف الليدي إيرين، وقد مرَّت أعوامٌ طوالٌ منذ أن كانت هناك امرأةٌ تحمله.»

كانت هاري تُحدق في النصل، ولم تسمع تقريبًا كلمات كورلاث؛ كانت تُشاهد امرأةً ذات شعر أحمر تمتطي حصانها في غابةٍ بدا أنها تتسع على صفحة السيف اللامع؛ وفي يدها سيفٌ آخر، والمقبض يلمع باللون الأزرق.

كان جميع فرسان الملك الآخرين واقفين، ومدَّ كورلاث يده وأمسك بمعصمها. ثم قال: «قفي أيتها الديسي. أنا على وشك أن أمنحك لقبَ فارس الملك.» وقفت مذهولة. كان ديسي تعني طفلةً سخيقة. لكن كان هناك شخصٌ آخر يمتطي حصانه مع المرأة التي حملت السيف الأزرق؛ ويسير خلفها ببضع خطوات.

قالت هاري: «فارس الملك؟»

أجاب كورلاث بحزم: «أجل، فارس الملك.»

أبعدت عينيها عن حدِّ السيف البراق ونظرت إليه. وضع رجلٌ آخرُ من الخدم إناءً مسطحًا صغيرًا من دواءٍ ملطَّف أصفر عند يد كورلاث اليمنى. غمس الملكُ أصابع تلك اليد فيه، ثم سحبها ليدهن كفه بالدواء. كان قد نقل جونتوران إلى يده اليسرى؛ الآن أمسك النصل بالقرب من الحافة بيمينه، وضغط عليه بسرعة. فقال: «اللعنة!»؛ إذ نزل الدَّم من بين أصابعه وتقطر على الأرض. فالتقط منديلًا مائدة واعتصره. ثم قال: «خذي سيفي، يا هريمد-سول، وافعلي الشيء نفسه، لكن ليس بحماسة شديدة. أعتقد، مع ذلك، أن سيفي كاتوتشيم لا يتمتع بروح الدعابة التي يتمتع بها جونتوران؛ لذلك لا تخافيه.»

غمست أصابعها في الدواء الأصفر ووضعتها برفق في راحة يدها، ثم مدت يدها، وعلى نحوٍ ينمُّ على الحرج كما لو أنها لم تتعلَّم قط درسًا واحدًا من ماثين، سحبَت سيفَ كورلاث من غمده. لقد كان سيفًا طويلًا جدًّا حتى إنها اضطُرَّت إلى تثبيت المقبض على الطاولة للحصول على زاويةٍ معقولة على الحافة. أغلقت أصابعها حوله، وفكرت في شيءٍ آخر، وشعرت بجلدِ راحةِ يدها قد جُرح. ثم فتحت يدها، فنزلت ثلاث قطرات من الدم فقط من أكثر الخطوط الحمراء نحافةً عبر جلدها. قال ماثين من فوق كتفها: «أحسنَت!» وهتف الفرسان، وهتفت القاعة بأكملها بدورها، بأعلى صوت.

ابتسم لها كورلاث ابتسامةً عريضة، ولم تستطع سوى أن تبتسم له. قال كورلاث لها، بهدوء، وسط الهدير المحيط بهم: «كان هناك ملوكٌ وفرسان أكثر رشاقةً منذ بدء الخليقة، لكننا جيّدان أيضًا. خُذي سيفك، واهتمّي بالعناية به. سيُحاسبك ظل إيرين إن لم تعتني به على النحو اللائق.»

أغلقت أصابع هاري حول المقبض الأزرق، وعرفت على الفور أنها ستتحكّم بهذا السيف على نحوٍ جيد جدًّا بالفعل — أو أنه هو من سيتحكم بها. وجدت نفسها لحظةً تتمنّى لو أنها كانت تحمل جونتوران يوم المنافسات، وبسبب هذا ارتسمت ابتسامةً بطيئةً ماكرة على وجهها. رفعت عينها إلى وجه كورلاث الذي استعاد سيفه ووضعه في غمده، بينما كان يربط أحد الفرسان منديل المائدة حول اليد المصابة وهو يقول شيئًا ساخرًا؛ لكن كورلاث ضحك فقط والتفت لمشاهدتها. وابتسم لها الابتسامة البطيئة الماكرة نفسها في المقابل؛ مما جعلها تظنُّ أنه كان يعرف ما كانت تفكر فيه. ومن ثم، صاح الناس: «دامالور-سول! دامالور-سول!»

الفصل العاشر

عانت هاري من الأرق في تلك الليلة، فراحت تستمع إلى الصوت العذب الصادر عن الماء في انسيابه على الدرجات الحجرية الثلاث، وظلّت مرارًا تمدّ يدها لتلمس مقبض السيف الأزرق الذي كان بجانبها، حيث وضّعه بعناية على بساط صغير باللون الأزرق والأخضر والذهبي كانت وجّده في ركن إحدى القاعات في طريق عودتها إلى قصرها الفسيفسائي بعد الوليمة. فأخذته، وطوّته، ودسّته تحت ذراعها، ونظّرت بغضب إلى الخادمة التي كانت تُرشدها إلى الطريق. خفّضت المرأة عينها، لكنها لم تبدّ منزعةً بدرجة مبالغ فيها. من ذا الذي سيبخل ببساط صغير على دامالور-سول؟ هكذا قالت هريماد-سول لنفسها بمرح. لكن في كل مرة تلمس السيف الأزرق، كان الأمر كما لو أنّ صدمة تسري في أوصالها، وراحت تُضغي إلى الليل الهادئ، مستمعةً لأصداء الأصوات التي تردّدت وتلاشت منذ مئات السنين. جعل اضطرابها ناركنون تُخرخر نحوها، على الرغم من أن القطة لم تعرض مغادرة السرير والنوم في مكان آخر. وأخيرًا طوّت هاري يديها بثبات تحت ذقنها ونامت، وفي نومها رأت إيرين-سول مرة أخرى، وابتسمت إيرين لها. وقالت: «سيفيك جونتوران، على ما أعتقد، يا صغيرتي، مثلما أفادني. يمكنك أن تشعرني بذلك من الطريقة التي يتعلّق بها في يدك، أليس كذلك؟» أومأت هاري، في حلمها. فتابعت إيرين: «إن جونتوران أقدم مني بكثير، لقد مُنحت إياه بثقل سنواته والأسطورة التي يحملها بالفعل. لم أعرف قط كلّ ما قد يقود حامله إليه — وهكذا، تعلّمت الكثير.

إن جونتوران لديه إحساسه الخاص بالشرف، يا صغيرتي. لكنه ليس بشراً، ولا يجب أن تثقي به كإنسان؛ تذكري ذلك. إنه صديق حقيقي، لكنه صديق له أفكار خاصة به، وأفكارُ الآخرين خطيرة.»

توقفت إيرين، وبدأ الحلم يتلاشى، كان وجهها شاحباً، وشبه متخيل، مثل سحابة في فجر الصيف، وشعرها هو شروق الشمس. ثم قالت: «أتمنى أن يُحالفك كلُّ الحظ، الذي حالفني.»

استيقظت هاري، ووجدت السيف يلمع باللون الأزرق في ضوءٍ يبدو أنه أتى من الجدران الفسيفسائية الزرقاء، ومن الجوهرة الزرقاء في المقبض، وحتى من المياه الفضية لجداول الماء.

مرت عدة أيام، خرج خلالها بعضُ فرسان الملك في مهمّات، لكنَّ أحدث فارسة منهم لم تخرج. حيث أمضت ساعاتٍ طويلةً في قصر الفسيفساء، تُحدق في الهواء الذي كان مُعلّقاً، أو هكذا بدا لها، مثل بساطٍ جداري مطرّز من حولها؛ وفي ذلك البساط، نسج كلُّ التاريخ — تاريخها، وتاريخ هوملاند، وكذلك تاريخ دامار. في بعض الأحيان كانت ترى بريقاً ساطعاً ضئيلاً كأنَّ شخصاً ما يُرسل شعره الكثيف الطويل الأحمر الناري للخلف، وكانت أحياناً ترى بريقاً جوهرة زرقاء — لكن ذلك بلا شك لم يكن سوى انعكاس بالصدفة من الجدران اللامعة المحيطة بها.

لكنها نامت أغلب الوقت. كان ماثين مُحقّقاً بشأن السورجونال. فقد ظلت عدة أيام راضيةً أنها تنام، وتستيقظ فلا تفعل شيئاً على وجه الخصوص، وتنام مرةً أخرى. واستمتعت ناركنون بهذا بقدر ما استمتعت هي. فقالت هاري للقطعة: «أنا متأكدة من أن ماثين لم يضع أيّاً من ذلك الشيء في العصيدة؛ لا يوجد لديك عذر.»

في صباح اليوم الرابع، جاء إليها ماثين فوجدها تسير من نافورة إلى نافورة ومن جدار إلى جدار. وقال: «هذا ليس قفصاً ليحبسك، يا هري.»

استدارت فزعةً لأنها كانت مستغرقةً في أفكارها ولم تُحسّ باقترابه. ثم ابتسمت. وقالت: «لم أشعر بأنني محبوسة. لقد ... نمت كثيراً، مثلما حدّرتني. لقد بدأت اليوم فقط في ... التفكير مرةً أخرى.»

في المقابل ابتسم لها ماثين. وقال: «هل هو مرهقٌ للغاية، هذا التفكير؟»

أجابت: «لماذا اخترتُ كي أُمنح لقب فارس الملك؟ لا يوجد سببٌ يجعل كورلاث يمنحه فتاةً من الأغراب، حتى لو كانت لابرون مینتا. إن فرسانه هم أفضل ما لديه. فلماذا؟»

انزوت ابتسامه ماثين. وقال: «لقد أخبرتك، من مدةٍ طويلة ... من مدةٍ طويلة، منذ أكثر من أسبوع. من مصلحتنا أن يُصبح لدينا دامالور-سول. من مصلحتنا أن يُصبح لدينا شيءٌ نتطلع إليه، من أجل الأمل. ربما تُحققين أنتِ أيضاً لنفسك بعضَ المجد.»

نخرت هاري. وقالت: «هل صنعتن لابرون فارساً من فرسان الملك من قبل؟» استغرق ماثين وقتاً طويلاً للإجابة. ثم قال: «كلا. أنتِ أولُ مَنْ يتحمَّل هذا العبء..» «وأنا فتاةٌ من الأغراب أيضاً.»

«أنتم الأغراب بشرٌ مثلنا، على أي حال — لكن أهل الشمال ليسوا كذلك. ليس من المستحيل أن يكون لدى بعض الأغراب ... هبة، كيلار، مثلُ قدرة الكيلار لدينا، مثلما لديك أنتِ؛ فأنتِ لديكِ قدرةُ الكيلار. هناك شيءٌ فيكِ نُقدِّره، ونعلم أنه موجود؛ لأن الليدي إيرين قد اختارتكِ بنفسها. وقد منحكِ كورلاث لقبَ فارسةِ الملك كي ... كي يستفيدُ من أيِّ ما كان ذلك الشيءُ الذي تحمليه في دمايكِ التي تنتمي للأغراب، وجعلكِ من أهل دامار، حتى ضدَّ إرادتكِ..»

هزَّت هاري رأسها ببطء. وقالت: «ليس ضد إرادتي. على الأقل لم يُعد الأمر كذلك. لكنني لا أفهم.»

«أجل، وأنا أيضاً لا أفهم. ولا حتى كورلاث. إنه ...» توقَّف ماثين عن الحديث. فنظرت هاري إليه بحدة. وقالت: «إنه ماذا؟»

ارتسمت الابتسامة الخافتة على وجه ماثين مرةً أخرى. وقال: «إنه لم يخطفك بمحض إرادته. لقد طلبتِ الكيلار الخاصةُ به أن يفعل ذلك.»

ابتسمت هاري. وقالت: «أجل، لقد خمنتُ ذلك، وقد أخبرني هو مرةً — بشيء من هذا القبيل. فقد رأيتُ الاضطراب على وجهه مراراً، في تلك الأيام الأولى.»

كان وجه ماثين خالياً من التعبيرات عندما رفعت عينيهَا مرةً أخرى إلى عينيه. وقال: «لم تُشاهدي الاضطرابَ على وجهه منذ ذلك الحين.»

قالت: «كلا»، واتجهت عيناها لا إرادياً نحو الجدران الفسيفسائية حولها.

قال ماثين: «أنتِ رمزٌ، سحرٌ، بالنسبة إلينا، ابنة الفرسان وفارس الملك ودالمور-سول.»

قالت هاري بنبرة لا تخلو من الاستياء: «تقصد تميمة حظ»، وهي لا تزال تنظر إلى الجدران الفسيفسائية. ثم سألت بخجل، وهي غير متأكدة من دوافعها: «هل لدى كورلاث عائلة؟ إنني أرى هنا، في القلعة، الخدم، و... نحن ... فرسان الملك، لكن لا أحد آخر. هل هذا فقط بسبب أنهم معزولون، أم لأنني معزولة؟»

هزَّت ماثين رأسه. وقال: «إنكِ تتطلَّعين إلى كل ما هو موجودٌ هنا لرؤيته. في زمن إيرين، كانت عائلةُ الملك تملأ هذا المكان، اضطرَّ البعض إلى أن يعيش في المدينة، أو اختار ذلك،

من أجل الخصوصية. لكن الملوك في زمننا هذا ... لقد تزوّج والد كورلاث في سنٍّ متأخرة، وكورلاث هو الطفل الوحيد الباقي على قيد الحياة من زوجته الملكة؛ لأنها كانت سيّدة ضعيفة. وكورلاث نفسه لم يتزوج.» ابتسم ماثين ابتسامةً باهتة. وتابع: «يجب على الملوك أن يتزوّجوا في سنٍّ مبكرة وأن يُنجبوا ورثةً مبكرًا؛ حتى لا يُصبح هذا الأمر مصدرَ قلقٍ لشعوبهم. لم يحظَ أحدٌ منذ أجيالٍ بقدرة كيلار قوية مثل التي حظيَ بها كورلاث؛ هذا هو السبب في أن القوم المنتشرين على طول حدودنا وفي المكامن السرية في تلالنا، الذين لم يعترفوا بأيِّ ملكٍ من دامار لسنوات عديدة، يحتشدون الآن تحت إمرة كورلاث. وحتى حيثما لا يذهب هو بنفسه فإنَّ مرسوليه ينشرون الأمر.»

بعد أن تركها ماثين، فكّرت هاري في أخذ قيلولة أخرى، لكنها قرّرت عدمَ فعلِ هذا. بدلاً من ذلك، امتطتُ صهوةَ صنجولد وخرّجتَ تتجول، وتنازلت ناركنون ورافقتُهما. ومن ثمَّ وجدتُ في الجزء الخلفي من القلعة الحجرية وراء الإسطبلات الحجرية ساحةَ تدريب، ممتدّة حتى جوانب التل، من أجل أولئك الذين يرغبون في التدرّب على الفروسية والحرب. كانت مهجورة، كما لو أن خطر جيش الشمال كان قريبًا للغاية، لدرجة لا تسمح بتخصيص وقت للتدرّب. لكنها ركضت ببطءٍ حول الميدان الخالي، حيث كان صنجولد يتقدّم أو يتراجع عندما يصلون إلى كل حافة، وقرّرت التدرّب على أي حال؛ هي التي فازت بمنافساتٍ لابرون، التي لم تُمسك سيفًا طوال حياتها حتى قبل أسابيع قليلة، والتي أصبحت فجأةً من فرسان الملك، شعرت، على نحوٍ جامح قليلًا، أنها بحاجة إلى كل التدريبات التي يمكن أن تحصل عليها.

كانت تضعُ حزام سيف جونتوران حول خصرها، مع قليلٍ من الاستحياء، لكنها شعرت بطريقةٍ ما أنه لن يكون من التهذيب أن تتركه في حجرتها. واستلّته من غمده وتساءلت عمّا إذا كان السيف القديم قد استُخدم من الأساس في تقطيع هياكل من القشّ والهجوم على بلاطات خشبية متقلقلة. ركضت بتسورنين للقفز فوق أعمدة موضوعة على الأرض، وأكوامٍ من الحجارة وجذوع الأخشاب، وذهابًا وإيابًا على مرتفعاتٍ مغطّاة بالأعشاب، وفوق خنادق. شعرت بقليلٍ من السخافة، لكن تسورنين أوضح أنه مستمتعٌ بالأمر تمامًا، أيّا كانت طبيعته ومهما كان متواضعًا، كما كان جونتوران يُصيب الهدف دائمًا.

أعادت هاري تسورنين إلى الإسطبل ونزعت عنه السّرج بنفسها، متجاهلةً عن عمد سائسة الخيل ذات الملابس البنية وهي تتجول بالقرب منها. كان وجهها هو أول وجهٍ

بشري تراه منذ أن خرجت على صهوة حصانها. كانت الإسطبلات في حجم القلعة نفسه؛ كبيرة ومتسعة، والأكشاك الواسعة بحجم حقول صغيرة. هناك أكثر من مائة كشك — لم تتمكّن هاري من إحصائها عندما حاولت تحديد عددها في رأسها — في الحظيرة التي كان صنجولد مقيمًا فيها، وحظيرتان أُخريان بالحجم نفسه على جانبيها. كان إسطلب صنجولد شبه ممثلي؛ حيث برزت أنوف فضولية ملساء لخيول أخرى نحوهما أثناء مغادرتهما وعودتهما. لم تر هاري رجالاً أو نساء آخرين من سيّاس الخيول؛ لا بد أنهم سيظهرون مرة أخرى، هكذا قالت لنفسها، في مرحلة ما لرعاية الخيول. ما لم تكن خيول أرض التلال قد دُرّبت على الاعتناء بنفسها — وهذا لن يُفاجئني. كان الصمت غريبًا. فقد تردّد صدّى حوافر تسورنين في جميع أنحاء ميدان التدريب، وعندما شكرت هي المرأة ذات الملابس البنية وقالت لا، وأنها لم تكن بحاجة إلى شيء، بدا صوتها غريبًا في أذنيها.

خلال الأيام القليلة التالية، راحت تتدرّب على صهوة حصانها مرارًا وتكرارًا، وتقضي بضع ساعات تقتل هياكل القشّ المصمّمة على هيئة رجال بسيف قاتلة التنانين، ثم تخرج بضع ساعات من الحلقة الحجرية للقلعة، إلى المدينة الحجرية، عبر الطرق الممهّدة. كان أغلب من تراهم نساءً وأطفالًا صغارًا، ولكن عددهم قليل في أغلب الأحيان. كانت النساء تُراقبها بخجل، وبيتسمن بحماسة إذا ابتسمت هي لهنّ أولاً، والأطفال يريدون مداعبة صنجولد، الذي كان طيبًا للغاية ويسمح لهم بذلك، وناركنون، التي عادةً ما تُراوغهم، وفي بعض الأحيان كانوا يُحضرون لها الزهور. لكن المدينة كانت فارغة مثل القلعة؛ هناك بعض من الناس، لكن بأعدادٍ أقلّ كثيرًا مما قد تتّسع لها أسوارها. كانت تعرف أن أحد أسباب هذا أن الجيش كان يحتشد في أماكن أخرى — في ساحات لابرون، قبالة المدينة؛ حيث يأتي الرسل ويذهبون بسرعة، وتجلّى حشد القوات ثقيلًا في الأجواء. ولكن السبب الأكبر هو أنه مثلما قلّ عدد أفراد أسرة الملك، قلّ كذلك عدد شعب الملك، فلم يبق سوى عددٍ قليل من أهل دامار.

فكرت مرةً أخرى في الأشياء الغريبة المتزايدة في حياتها مؤخرًا؛ وكانت تتمنّى، إذا كانت ستهبّ حياتها لدامار، مثلما يبدو أنها ستفعل، ألا تحصل على أوقات توقّف طويلة من الخمول تُضطرّ خلالها أن تُفكر في كل الأمور التي حدثت لها.

كانت إحدى الشابات اللواتي ساعدنّها في الاستحمام تُحضر لها طعامها، في الحجرة الأمامية الزرقاء ذات النافورة، أو في الخارج تحت أشعة الشمس حيث تتراقص النافورة

الأخرى، وقد تمكّنت من إقناعها هي والنساء الأخريات المرسلات لخدمتها أنها، على الأقل ما دامت لم تعد هناك مآدب تتطلّب استعدادات خاصة، ستستحمّ بنفسها. على مدار ثلاثة أيام أخرى تالية ظلّت تنام وتشاهد وميض الهواء، وتمتطي تسورنين، وتلعب مع ناركنون. لقد صار هناك صداقة بين الحصان وقطة الصيد الآن، وكان أحدهما يطارد الآخر حول حواجز ميدان التدريب، حيث يتمايل ذيل ناركنون وتنبسط للخلف أذنا صنجولد في غضبٍ مصطنع. وفي مرةٍ اختبأت القطّة الكبيرة خلف مرتفعٍ عُشبي، حيث لم تتمكّن هاري وصنجولد من رؤيتها، وبينما كانا يسيران بالقرب منها قفزت نحوهما، لتطير من فوق صهوة صنجولد بينما هاري تمتطيه. فأخفضت هاري رأسها وانحرف صنجولد، ثم استدارت ناركنون وعادت إليهما وقد رجعت أذناها إلى الوراء، وجعلت شواربها تهتزّ فيما كان من الواضح أنه ضحكة قطة.

وكانت هاري تلمّع سيف جونتوران، وتُحاول ألا تستسلم للتفكير والقلق، كما كانت تنظر كثيرًا إلى الندبة البيضاء الصغيرة في راحة يدها. لكن مع كل تأملاتها التي لا مفرّ منها، وجدت أن نوعًا من السلام الداخلي قد حلّ بها ووجد طريقه إلى قلبها. لم يكن مثل أي شيء عرّفته من قبل، ولم تجد له تسمية إلا في ذلك اليوم الثالث؛ القدر. ولكنها كانت تتمنى ألا يكون شأنُ الحرب مستغرقًا للجميع؛ حتى تجد من تتحدث معه.

في اليوم الرابع عندما أحضرت الخادمة وجبتها لوقت ما بعد الظهر، جاء كورلاث معها، وكان جليًا أن حضوره كان متوقّعًا، وإن لم يكن من قبل هاري؛ إذ قد وضعت كأسان وطبقان على الصينية، وطعام أكثر بكثير ممّا يمكن أن تأكله بمفردها. كانت جالسة على المقاعد الحجرية بجانب النافورة تحت أشعة الشمس، تُراقب جزينات ألوان الطيف التي تُلقِيها القطرات المتساقطة في الهواء، وكانت ناركنون تُلَعق وجه هاري بلسانها الخشن، وتُحاول هاري ألا تُمانع. تُحاول ألا تُمانع مع استغراقها في تركيز جعلها لم تدرك إلى أن رفعت ناظرها، وهي لا تزال منبهرّة بالألوان الدقيقة المعقّدة، أنه قد حصر، وظلت جالسة، تنظر نحوه وعيناها ترمشان، بينما وضعت المرأة الصينية وغادرت المكان.

قال كورلاث: «هل تسمحين لي بأن أكل معك؟» وأحسّت هاري أنه يشعر بعدم ارتياح. فقالت: «بالطبع. هذا ... إحم ... يُشرفني.» ودفعت رأس ناركنون بعيدًا، وكانت على وشك أن تنهض واقفة، لكن كورلاث جلس بجانبها في صمت؛ لذا استقرّت مرةً أخرى في جلستها، ممتنة لأن عظامها قرّرت عدم إصدار صرير. أعطاها طبقًا وأخذ طبقه، وجلس يُحدّق في النافورة مثلما تفعل من قبل، وتساءلت، بينما تُراقبه، عمّا إذا كان يشعر بأيّ

من السكينة الغريبة التي تسلَّت إليها بالمظهر نفسه، وإذا كان سيُسميها بالتسمية نفسها التي قد اكتشفتها.

ثم قالت: «ثمانية أيام»، فتوقفت عيناه عن النظر إلى رِذاذ الماء وتلاقت بعينيها. فكَرَّرَتْ: «ثمانية أيام. أنت قد قلت أقل من أسبوعين.»

أجاب: «أجل. لقد بدأنا العدَّ التنازلي الآن.» وأصدر حركةً كاسحة سريعة بيده اليمنى، فقالت هاري فجأة: «أرني يدك.»

بدا كورلاث في حيرة من أمره لحظةً، لكنه بعد ذلك مدَّ يده اليمنى، وراحتها لأعلى. كانت توجد علامةٌ شاحبة واحدة قصيرة مستقيمة عبرها، من الواضح أنها جديدة، وكثير من الندبات البيضاء الصغيرة، لم يكن عليها أن تعدّها لتعرف أنها ثمانى عشرة ندبة، وأن التاسعة عشرة هي الأحدث، والأطول. تفرَّست في اليد لحظةً، وهي تحتويها بيدها، ولم تُفكر في أنها كانت تتفرَّس في يد ملك، ثم نظرت إلى راحة يدها اليمنى. فرأت خطأً مستقيمًا صغيرًا واحدًا.

أطبق يده وأراحها على ركبته. وقالت هاري: «إنها لا تتلاشى. الندبات القديمة لا تختفي.»

قال كورلاث: «أجل. بسبب الدواء الملطف الأصفر، الذي نضعه قبل أن نُجري القطع، إنه مصنوعٌ من عُشب يُسمى كوريم — أي: إلى الأبد.»

تفرَّست في راحة يدها مرةً أخرى للحظة. قطعت الندبة الخطوط التي قد يُسميها عَرَّافُ خطِّ عمرها وخطَّ قلبها، وتساءلت عما قد يراه العرافون الداماريون في يدها. ثم رفعت نظرها إلى كورلاث، الذي وُضع قطعة خبزٍ في فمه بشروءِ ذهن وبدأ يمضغ، بينما عاد يُحرق في النافورة. ازدرد وقال: «نُمة قصةٌ عن أحدِ فرسانِ جَدِّي: كانت الحدود الشمالية مضطربةً حينئذٍ، لكنه مجرد اضطراب، ومضى هذا الرجل شمالاً ليرى ما يمكن أن يجمعه من معلومات. لكنه أُسر، وتبيَّنوا أنه من دامار، لكنه علم أنهم سيعثرون عليه قبل أن يفعلوا ذلك بقليل، فجرَّح يده حتى لا يجدوا العلامة ويحتجزوه مقابل فدية ... أو يُعذبوه؛ لأن أهل الشمال، إن أرادوا، يُمكنهم التعذيب بسحرٍ مخترق متقن لا يستطيع أيُّ عقل مقاومته.»

قالت هاري في نفسها: إذا كان أهل الشمال يعرفون علامة فرسان الملك، فسيتأخرون قليلًا في التساؤل بشأن جاسوس قُبض عليه بيد مجروحة.

تابع كورلاث بعد لحظة: «كان قد سافر مرتدياً زيَّ تاجر؛ لذلك عندما علم بأنهم سيجدونه، حرَّر فرسهَ وصرفها إلى الوطن، وخلع حذاءه، وبدأ في تسلقِ الواجهة القريبة العمودية لأحد التلال الذي يُمثل الحدودَ بين أرضنا وأرضهم. وعندما وجدوه كان يَهذي بسببِ ضربة شمس، ويداه وقدماه ممزقةٌ مثل أوراق الخريف. فقرَّروا أنهم لم يُصيبوا جائزةً على الإطلاق، وبعد أن ضربوه قليلاً أطلقوا سراحه. وعاد لتسلقِ الجبلِ بيديه وقدميه مرةً أخرى؛ لأنه تذكر ذلك القدر فقط ممَّا كان يفعله، وفوق القمة، داخل حدود دامار مباشرةً، كانت فرسهُ تنتظره، وأعادته إلى الوطن. تعافى من ضربة الشمس، لكنه لم يحمل سيفاً مجدداً قط.»

ابتلعت هاري قطعة خبز لم تكن تريد النزول في معدتها، وساد الصمتُ قليلاً. ثم قالت في النهاية: «ماذا حدث للفرس؟»

قال كورلاث، ولكن كما لو كان يتتبع خاطرةً خاصةً به: «أم حصانك تسورنين تنحدر من سُلالة فرسه. عاشت الفرسُ حتى كادت تبلغ الثلاثين، وكانت تلدُ مهرًا كل عام حتى نهاية حياتها. وكثيرٌ من أفضل خيولنا ينحدرُ من سلالتها.» نظر إليها كورلاث، بعد أن عاد بأفكاره من حيث كان.

«سلالةُ تلك الفرسة تُسمى نالان — أي المُخلص. يمكنك رؤيتها في سلسلة نسبِ تسورنين.»

سألت هاري بتلطف: «وهل يوجد اسمٌ لسلالة ملوك دامار؟»

قال كورلاث: «إن اسم أبي، واسم أبيه، واسمي، هو جولدكونوث؛ أي: حجر.» نظرت هاري إلى يده اليمنى المستقرّة بسكون على ركبته. توقّف هُنيهة ثم أضاف كما لو كان ما سيقوله غير ذي أهمية: «ثمة أسماء أخرى للملك. أحدها هو تيودورسوند. أي: اليد المجروحة.»

«هل يترك دواء الكوريم ندباتٍ على جباه الخدم، ووجوه الصيادين والسياس أيضًا؟» فأجاب كورلاث: «أجل.»

ساد الصمت مرةً أخرى، وتساءلت هاري عن عدد الأسئلة الأخرى التي قد تتمكّن من أن تظفر بإجابات لها. فقالت: «في مرة في الجبال قبل المنافسات، قال لي ماثين إنه يمكنه أن يُعلّمني ثلاث طرق لإشعال النار، لكنك تعرف طريقةً رابعة. ولم يُخبرني ما هي تلك الطريقة.»

ضحك كورلاث: «سأعلّمك إياها يومًا ما، إن شئت. لكن ليس اليوم. اليوم سوف تُسبب لك صداعًا.»

هَزَّتْ هاري رأسها بغضب، وذَهَبَ شعورها بالرضا. وقالت: «سئمتُ من تلقِّي شرح لنصف الأشياء فقط. إما أن أكون دامالور-سول، عندما يكون ذلك مناسباً، وإما أن أصمت وأنعزل في ركنٍ ما، وأتصرف بتهذيب حتى يحينَ وقتُ إخراجي وعرضي على القوات مرةً أخرى. هل اخترت ماثين كي يُعلمني لأنه كَتوم؟»

بدا كورلاث مرتبكاً قليلاً، وتذكَّرتْ هاري، وهي تشعر بالذنب، أن ماثين كان قد أخبرها قدرًا كبيرًا من المعلومات، مع أنه — هكذا دافعت عن نفسها — لم يكن كافياً. لم يكن كافياً على الإطلاق. لكنها لم تستطع التوقُّف عن تذكرِ إجابته عندما سألته عن سببِ اختياره لتدريبها.

قال كورلاث: «اخترتُ ماثين لأنني ارتأيتُ أنه سيُعلمك على أفضلِ نحو؛ فلا يوجد مَنْ هو أفضل منه، وهو صبورٌ ولا يَكل.»

وطيَّب؛ هكذا قالت هاري لنفسها، لكنها لن تُقاطعَ بينما من الممكن أن تتعلم شيئاً. «نحن أهلُ أرض التلال ... أظن أننا جميعاً، مثلما تقولين، كَتومون، لكن هل تظنَّين أنكِ تعلَّمتِ القليل جدًّا منا؟» ونظر إليها كورلاث بأسى.

قالت، وهي تشعر بالخجل من نفسها: «كلا.» وساد الصمتُ برهة، ثم قالت: «هل يمكنك، من فضلك، أن تخبرني لماذا لم يقصَّ عليَّ ماثين أيًّا من الأساطير حول الليدي إيرين؟ إن تلك الأساطير جزءٌ من حياتكم تتشاركونه جميعاً — والسيف الذي أعطيتَّنيه هو سيفُها — والأساطير، عجباً، هي بضع أساطير يُتغنَّى بها حتى في مهرجانات الربيع في الغرب، حيث يمكن أن يسمَعها «الأغراب».»

نقر كورلاث بأصابعه، واحد-اثنان-ثلاثة، واحد-اثنان-ثلاثة، على حافة النافورة. ثم قال: «إيرين جزءٌ من قدرِك، يا هَريما-سول. ويُرى أنه مما يجلب الشؤم أن يحدث ... تدخلُ في القدر. سيشعر ماثين أنه كان يُسيء إليك، إن تحدثَ إليك كثيرًا عن إيرين، وأنا ... أجد الآن، أنني أشعر الشعور نفسَه.» واستمرَّ في النقر بأصابعه. ثم أضاف: «لو أنكِ كنتِ قد نشأتِ ... هنا، كنتِ ستسمعِينها. ولكنك لم تنشئي هنا. ولو كنتِ سَمعتِها، فربما ما كنتِ ستُصبحين ما أنتِ عليه الآن.»

ثم أضاف: «أنا آسف.» ثم استدار ونظر إليها. وقال: «بعد أن نُحارب جيش الشمال، وبعد أن تُقرر الآلهة من منَّا سيُصبح المنتصر، إذا بقينا أنا وأنتِ على قيد الحياة، سوف أحكي لك كلَّ القصص التي أعرفُها عن إيرين قاتلةِ التنانين.» حاول أن يبتسم. وأضاف: «يمكنني حتى أن أُغنيَ بعضًا منها.»

«أشكرك.»

أصبحت ابتسامة كورلاث أكثر وضوحًا. وقال: «يوجد عددٌ كبيرٌ جدًا منها؛ قد لا ترغبين في سماعها جميعًا.»

قالت هاري بحزم: «أودُّ حقًا أن أسمع جميعها.»

أبعد كورلاث يده عن الحافة الحجرية وبدأ في تقطيع قطعة خبز إلى فُتاتٍ على طبقه. وقال: «أما عن السؤال الأول، فراقبي هذا.» ومن ثم رمش بضغَمَ مرات، وأغمض عينيه، وسرت رجفةً في أوصاله، ثم فتح عينيه مجددًا وأخرج منهما وهجًا أصفر حارًّا على الكومة الصغيرة من فتات الخبز، فاشتعلت فيها النيران، وطقطقت بشدةٍ بضغَمَ دقائق، ثم تحولت إلى رمادٍ أسود.

قالت هاري: «عجبًا.» ورفع كورلاث ناظره؛ كانت عيناه بُنيَتَيْن. تبادلًا التحديق. ووجدت هاري نفسها تقول بسرعة، بصوتٍ مرتفع أكثر من اللازم قليلًا: «ما هذا المكان ... هنا ؟...» وأشاحت بعينها بعيدًا، وأشارت بيدها إلى الجدران الفسيفسائية. وتابعت: «لم أر شيئًا مثله في أي مكان في المدينة.»

هز كورلاث رأسه، وقال: «ولن تَري.» ثم نهض ببطء واقفًا، ونظر حوله، وقَعَر يده المليئة بالندوب تحت النافورة، وشرب منها. وأضاف: «بناه أبي لأمي بعد أن تزوّجها مباشرةً. كانت مولعةً باللون الأزرق، وأظن أنه أراد أن يخبرها بأنه لم يكن يبالي بأنها لن تحمل مطلقًا «السيف الأزرق»، أعظم كنزٍ لعائلته، سيف المرأة.» نظر إليها بغموض، لكنَّ عينيه لم تُركّز عليها. ثم استدار وتركها، مُغادرًا عبر الباب إلى القلعة.

بعد يومين تحرّك الجيش خارجًا من المدينة. ومضى كورلاث ومعه فرسانه مُمتطين خيولهم على الطريق المركزي الواسع من القلعة إلى بوابات المدينة، وخلفهم الخدم والخدامات والصيادون والسُّيَّاس، وخيول الأمتعة، واصطفَّ سكان المدينة في الشوارع وراقبهم في صمتٍ وهم يرحلون، لكنَّ كثيرين رفعوا أيديهم على جباههم وضُمُّوا أصابع قبضتهم ثم بسطوها أثناء مرورهم على ظهور الخيل. لم تر هاري من قبل أناسًا كثرًا كأولئك، كان بعضهم لاجئين من قرى شمال دamar، ومزارعين من الأراضي الخضراء قبل بليدي جاب. وانطلقوا إلى السهل حيث كان الجيش، الذي لم تكن هاري قد رآته؛ لأنها لم تُغادر المدينة منذ دخلتها، مُصطفًا أمامهم، وخلفها سمعت صوتًا لم يسمعه أيُّ شخص من دamar منذ أجيال؛ بوابات المدينة الحجرية تُغلق بتثاقُل وحزن.

كان تسورنين مضطربًا. ففي ذلك الوقت، بينما كانت كتائبُ جيش أرض التلال مصطفَّة، بدا السهلُ مكانًا مختلفًا عن السهل الذي كانت هاري قد قاتلت فيه على صهوة

تسورنين بهراوات غليظة وسيوفٍ حادّة. كان تسورنين مُدرّبًا تدريبًا جيدًا للغاية منذ صَغَرِه على أن يفعل ما هو أكثرُ من الحركة باضطراب قليلًا في مكانه، لكن كتفه، عندما مرّرت هاري يدها عليه، كانت أسخنَ مما تستدعيه حرارةُ الجو المعتدلة في الصباح. كانت عضلاتُه تحت جلده الذهبي متصلّبة، شعرت بأنها لو نقرت ببراجمها على طَرَف كتفه فسوف يرنُّ مثل الحديد.

وقفت هاري في شيء من الارتباك وسط مجموعة فرسان الملك، على بُعد مسافةٍ قصيرة إلى داخل السهل من طَرَف نهاية الطريق الواسع الممتدّ من المدينة. وقد ربضوا فوق ربوةٍ صغيرة، فكانوا يرقبون بقيةَ كتائب الجيش من أعلى، وشعرت هاري بلا مُبرر بأنها لافتة للنظر أمام الجميع. وهمست قائلةً لتسورنين: «لماذا لم يكن لوك كستنائيا داكنًا أو أيّ لونٍ آخر؟» فحنى رأسه الذهبي. كانت ترتدي خوذةً وثيقة فوق شعرها مربوط، وحذاءً طويلًا جديدًا، ودروعًا ملفوفة ومثبتة بعناية في موضعها من أجل المعركة، وشعرت بسيف جونتوران يتدلّى في ترقّب على ركبته. لم تكن عشرة أيام كافية لها كي تعتاد على حالها الجديد بعد أن أصبحت من فرسان الملك، رغم أنها تدرّبت بقوة مع تسورنين وهما وحدهما في ميدان التدريب على المجسّمات الخشبية الصلبة التي تُجسم مقاتلي العدو، ورغم أن فرسان الملك أنفسهم — وعلى وجه التحديد واحدٌ أو اثنان منهم هما ماثين، والشابُّ إيناث الذي يُعدّ مرشحًا للغاية بالنسبة إلى كونه فارسًا من فرسان الملك — قد قاربوا الصفوف وأحاطوا بها وتقبّلوا كواحدة منهم، لم تستطع هي أن تُصدق أنهم لم يتساءلوا ولو قليلًا عن وجودها وسطهم.

نفر صنجولد على نحوٍ يدل على نفاذ الصبر، وبدأ يحفر حفرةً في الأرض بإحدى قائمتيه الأماميتين. فلمست مرفقه بطرفِ حذائها، فتوقّف، لكن بعد برهة خفض رأسه ونفر مرةً أخرى بقوة أكبر، وشعرت به يتحرّك حركةً خفيفة في مكانه لينظر فيما إذا كانت قد تسمح له بحفر حفرة صغيرة فقط. نظرت هاري حولها، فوجدت الخيول الأخرى تبدي علاماتٍ تدل على التوتر هي الأخرى. وقف ماثين بجانبها، وكانت حبات العرق تلمع حول خاصرة ويندرايدر التي وقفت ثابتة، على عكس تسورنين الذي يصغرها في العمر. أمّا فايرهارت حصانُ كورلاث فكان يقف على قائمتيه الخلفيتين مرةً أخرى، وكان بإمكان الملك أن يُنزله كيفما يريد، لكن هاري ظنّت نوعًا ما أنّ الحصان يُعبر عن مزاجه ومزاج فارسه في الوقت ذاته. وبحسب ما أمكن لهاري أن ترى، كانت ناركنون هي الوحيدة وسط هذا الجمع التي تُحافظ على هدوئها. حيث جلست أمام

صنجلود، تمامًا بما يتجاوز نطاق نبشِه بقائمتِه الأمامية، وهي تعلق صدرها وتُمشط شواربها.

زحفَ الجيش باتجاه الغرب. وعَبَروا سلسلةَ جبالٍ منخفضةً شديدةَ الانحدار بين المدينة والسهل الصحراوي الذي يمتدُّ بعيدًا، حتى الأبواب الخلفية لقصر الأعراب في إيستن. توقَّفوا في المسار الذي سلكه هاري وماثين، واجتازوا الطرق الضيقة في صفٍّ واحد طويل لا نهاية له، حتى وصلوا إلى حافة الصحراء في نهاية اليوم التالي. وبعد الحافة توجَّهوا شمالًا.

إن كل الجواسيس — أولئك الذين لا يزالون على قيد الحياة؛ إذ إن أهل الشمال قد أوقعوا ببعضهم — الذين أرسلهم كورلاث في السنوات الأخيرة قد عادوا في الشهور القليلة الماضية، على وجه السرعة، وجميعهم يحمل الخبر نفسه: لقد انتهى الانتظار، وبدأ جيش الشمال في التحرك. وكان آخرُ جاسوس منهم قد عاد منذ أقلَّ من ستة أيام، وقد استغرق وقتًا طويلًا في العودة لأن أمره قد انكشف، واضطُرَّ إلى المراوغة والهرب والاختلاط مع القوم ليُفلت من طرقتهم السحرية الغربية في تتبُّعه. وكان حديثه بأن جيشهم قادمٌ وراءه على بُعد مسيرة بضعة أيام فقط، وأنه يتكوَّن من عدة آلاف. وقد تأخر الرجل وتأخر حتى اللحظات الأخيرة؛ من أجل الحصول على إحصاءٍ أكثرَ دقةً لعددهم الإجمالي، ومع ذلك، كما قال، حتى مع بدء زحف الجيش جنوبًا، ظل المئات والمئات ينضمُّون إليه وبدؤوا كما لو أنهم جاءوا من العدم. فكثرت هاري في نفسها حول مجيئهم من العدم، وتساءلت عمَّا إذا كانت العبارة أكثرَ من مجرد أسلوب حديث. كانت قد انضمت إلى مجلس الفرسان الذي سمع حديث الرجل، وبدأ أن ضوء الشموع قد ألقى بظلالٍ أكثرَ عندما انتهى منه. ومع ذلك، لم يكن هناك شيءٌ يمكن فعله؛ لقد احتشد بالفعل الجيش الذي سيُدافع عن دamar، ووُضعت بالفعل الخطط اللازمة لمواجهة جيش الشمال.

ولم يكن هناك جاسوس على يقينٍ من هوية قائد جيش الشمال الرهيب. لم يجزؤ أيُّ شخص من أهل دamar على الاقتراب إلى هذا الحد، حيث قيل إنه يشمُّ رائحة الدم الأجنبي بطريقةٍ خارقة.

كان هناك المئات من الرجال والنساء الذين يمتطون الخيول تحت إمرة كورلاث الآن، وبينما هم يزحفون والتلالُ الشرقية عن يمينهم، بدا عددهم كبيرًا للغاية. وسينضمُّ بضع مئات آخرين بينما يشقُّ الجيش الجنوبي طريقه إلى السهل الواسع قبل الفجوة. لكن هذا هو كلُّ العدد المتوفر.

قال إيناث، وهو يسير خلفها ممتطياً حصانه، على نحوٍ يشير إلى رغبته في فتح حوار معها: «إن أقلَّ من نصف جيش الشمال سيأتي راكباً، لن يمتطي كثير منهم خيولاً. وقلة قليلة من خيولهم يمكنها مواجهة أضعف خيولنا. يمكن للمرء على الأقل مضاعفة عدد أفراد جيشنا، فقط لقوة خيولنا؛ لأنها خيولٌ دامارية، وستقاتل من أجل دمار بضراوة مثلنا نحن البشر؛ لأننا وحدنا من نتحدث عنها.»

قالت هاري بصوتٍ مكتوم قليلاً: «أجل.»

كانوا يتوقفون مدةً قصيرة في أوقات الظهيرة، ويُرخون الأحزمة للسماح للخيول بالتنفّس، ويأكلون الخبز واللحم الجافّ والماء. وفي الليل كانوا يُخيمون خلف قمم الصخور الطينية والشجيرات، ويشعلون النيران بدرجةٍ كافيةٍ لغلي اللحم الجاف الرهيب كي يُصبح مناسباً أكثر قليلاً للأكل، ويلتفون في بطانياتهم وينامون حيث يجلسون. وكان معهم عددٌ قليل من قطط الصيد ونحو عشرة كلاب، لكنهم حالياً لم يتمكنوا من توفير الوقت لاستخدامها. واصلت ناركنون تتبّع هاري، وكما فعلت مرةً من قبل، بدأت الصيد بمفردها، وجلبت بعض صيدها المروّع تُلقِي به على وسادة هاري. ومع مرور الأيام أصبح وعاءُ الحساء الخاصّ بماثين معروفاً لدى الجميع بأنه الوحيد الذي يحتوي على لحوم طازجة بشكلٍ موثوق، وازدادت شهرته للغاية.

كانت الليالي صافيةً وهادئةً، ولم يتنبأ مُحلّلو الطقس بينهم بعواصفٍ مفاجئة، وقد اشتهرت حافات تلال دمار بطقسها غير المتوقع، حيث قد تجد العواصفُ الجبلية المكدّسة على المنحدرات الشديدة الانحدار طريقها فجأةً إلى الأراضي المسطّحة، فيمكن لها أن تتورّ وتهيج كما تشاء.

لم يكن كورلاث يحاول أن يُهاجم على الفور مركزَ الجبال الشمالية وفجوةً بليدي في جاب. وبعد أن عبّر جيشُ أرض التلال سلسلةَ الجبال الضيقة التي تقع خلفها المدينة، شق الجيشُ طريقه حول منحني الجبال، وزحف مسرعاً عبر العشب الرميّ الرطب والصخور المتكسّرة عند أقدامهم. جعلهم هذا يزحفون باتجاه الشمال تقريباً في البداية، ثم بعد ذلك في منحني نحو الغرب تزداد درجة انحنائه، فكانت الشمس تتحرّك في السماء قبْلهم. وكثيراً ما حدث في بعض الصباحات، عندما يكون الضباب لا يزال يلفُّهم، هابطاً من على أكتاف الجبال إلى معسكرهم، أن كانت مجموعةٌ صغيرة تمتطي خيولها — أو حتى شخصٌ واحد على صهوة جواده — تلوح أمام المعسكر خارجةً من العدم، ولكن يبدو أن كورلاث كان يتوقّعهم دائماً، وكانوا يعرفون دائماً ما سيقولونه للحراس حتى يتمكنوا من المرور، وبهذه

الطريقة زاد عدد المنضمين للجيش قليلاً. ومن حين لآخر كانت هاري تسمع صوت امرأة بين الغرباء المنضمين لهم؛ مما جعلها سعيدة، وغالباً ما كانت تحك إصبعها على الجوهرة الزرقاء في مقبض جونتوران، وتُفكر في السيف الذي لا يمكن لأي رجل أن يحمله. قال لها ماثين مرة: «لم نكن نظن أننا سنرى كثيراً من النساء هنا — لا يتذكر أي رجل منا سوى عددٍ قليلٍ منهنَّ ممَّن قد قاتلن معنا، على الرغم من أن الأمر كان مختلفاً في عهد إيرين. لكنني أعتقد أن العديد من الآباء يسمحون لبناتهم بالانضمام إلينا ممَّن لم يفكروا في ذلك إلى أن سمعوا عن هريمد-سول، وأن جونتوران ذاهبٌ إلى الحرب مرةً أخرى.»

التقت هاري بالعديد من هؤلاء النساء؛ خاصةً بعد أن تحدثَ إليها ماثين، فقد بدأت تشعر بعد ذلك تجاههنَّ بشيءٍ قليلٍ من المسؤولية يشوبها القلق. وقد رأت سيناى عدة مرات — ورأت أيضاً أنها كانت ترتدي وشاحاً مخيطاً كما لو كانت تتفاخرُ به. وسألت هريمد-سول عن أسماء النساء عندما كانت تسنحُ لها الفرصة، وكُنَّ يُجيبنها بجديّة، وكثيراً ما منحنها لفتة الاحترام بوضع ظهر اليد على الجبهة، ولم يسألها أحدٌ قط عن اسمها، حتى عندما لم تكن تحمل جونتوران، وكان من المفترض أنها تبدو — حسبما ظنَّت — مثل أي جنديٍّ أشعثٍ آخر.

ومعظم الذين جاءوا متأخرين على هذا النحو للانضمام إلى جيش كورلاث؛ لم يحملوا سيفاً ولم يرتدوا وشاحاً، كان هؤلاء رجالاً ونساءً أمضوا حياتهم في قراهم، في مزارعهم ومتاجرهم الخاصة، ولم يحضروا مطلقاً منافسات لابرور، ولم يشعروا بالافتقار إلى ذلك. في إحدى الأمسيات، ساروا في أحدِ الوديان المنخفضة حيث ينتظرهم ما يقربُ من مائةٍ من الغرباء، جميعهم يمتطون الخيول، ومعهم عددٌ خيولٍ لحمل الأمتعة ووحوش صيد، فتقدّم كورلاث نحوهم مع صيحةٍ ترحيبٍ حار، وصوتٍ هو أقربُ إلى السعادة من أي صوت سمعته هاري منه منذ أن بدءوا مسيرتهم شمالاً. تقدّم فارسٌ كان على رأس المجموعة لمقابلته، وأمسك أحدهما بكتف الآخر بينما اصطدمت خيولهما بعضهما ببعض بشكلٍ غير مريح وتفرّست بأعينها بعضها البعض. ثم انفصل رجلٌ ثالث عن المجموعة الجديدة وانضمَّ إلى كورلاث وصديقه. فقال ماثين في أذن هاري: «هذا مورفوٲ وابنه، تيريم. كان مورفوٲ أحدَ أصدقاء الملك القديم، على الرغم من أنه لا يكبر ملكنا بأكثر من عشر سنوات. كان من الممكن أن يُصبح من فرسان الملك لو رغب، لكنه اختار بدلاً من ذلك البقاء في قريته والاعتناء بأراضيهِ، وقد أحسن في الاعتناء بها أيضاً. بعضُ أفضلِ خيولنا الآن تأتي من مزارعه، وكذلك تأتي الحبوبُ لإطعام المزيد.»

قالت إيناث من على جانبها الآخر: «نحن فرسان الملك، كما ربما قد لاحظتَ، معظمنا مُفلسون أو ممَّن ليس لديهم ما يرثونه من آبائهم — أو جِوَالَة تستعصي حالتهم على العلاج مثل ماثين هنا — لكن بإمكان مورفوث الآن إحضار ثمانين رجلاً معه عندما يأتي للانضمام لجيش ملكه.» بدا صوتُ إيناث مَشُوبًا بالأسى بعض الشيء، وذلك مع كل ما به من اعتزازٍ طائش. وجَدَت هاري نفسها تتذكَّر كلمات والدها لها — وقد بدا ذلك منذ عقود: «أنتِ لا تملكين قرشًا واحدًا.»

كان تيريم في عمر هاري، وعندما جاء هو ووالده للجلوس بجانب حلقة نيران الملك، جاء إليها وغاص في مجلسه بجانبها، وقد طوى ساقيه الطويلتين مثلما يفعل كلُّ أهل أرض التلال. نظرت إلى تيريم ونظر هو إليها؛ كانت نظرته إليها حماسيةً وتحمل بعض التوقير، مما جعلها تشعر بالإحراج. وقال: «لقد أحرزتُ المركز الأول في منافسات لابرون قبل ثلاث سنوات. ولكن عندما واجهتُ كورلاث، كنت قد انهزمتُ ووقع وشاحي على الأرض قبل أن أُحَكِّم قبضتي على سيفي.» ثم ضرب مقبض سيفه في الأرض، فصلصلَ عندما انغرس فيها. وتابع: «أعطاني والدي سيفَ تيكسون هذا على أيِّ حال، وقال إنه لم يسبق لأحد أن استطاع أن يُحَكِّم قبضته على سيفه في مواجهة كورلاث. لكنك استطعتَ فعل ذلك.» ولمعت عيناه في ضوء النار.

مررت هاري إصبعها على الشقِّ في وشاحها الذي أُصلح بعناية وهي تتأمل الأمر، وهو الوشاح الذي ارتدته تحت الإرشاد الموعود لماثين. وقالت: «لم أكن أعرفُ أنه هو ... لم أظنَّه هو مطلقًا. وقد سمح لي أن أتنازل بالسيف معه، وعندما أدركت مقدار ما هو مسموح به، أصابني ... الجنون.» توقفت برهةً. ثم أضافت: «وقد فوجئتُ أيضًا.» ثم عبست، وتذكَّرت الصداق الرهيب الذي كانت تُعاني منه معظم ذلك اليوم، ثم الترنُّح الرديء الذي بدا أنه بدأ يُصيب رأسها، حيث كان الصداق، وسرى كرجفة عبر جسدها، عندما رأت وجهه خلف الوشاح الذي أزاحته هي للتو. ورغم ذلك، لم يُطلق عليها أحدٌ لفظ باجا؛ أي الجزار، بسبب الجرح الذي صنعتته في زاوية فم كورلاث. نظرت نحو عيني الشاب بشيءٍ من الأسى وقالت: «لم تكن تجربةً ممتعةً مثلما قد تظن.»

أطلق تيريم نخرةً خالطت ضحكته وقال: «أجل، أنا أصدقك»، ونظرت هاري على الجانب الآخر حيث جلس كورلاث مع والد تيريم فوجدته يُراقبها. وتساءلت عما إذا كان قد سمع ما قالته للتو.

الفصل الحادي عشر

أقام الجيشُ أولَ معسكر على نحوٍ ملائم في الوادي المنخفض الذي التقَّوا فيه مع مورفوٲ. وقد خرجت جميع حيوانات الصيد في تلك الليلة، وتناول الجميع، وليس عددًا قليلًا من فرسان الملك فحسب، لحومًا طازجة طيبة على العشاء. ونُصبت خيمة زوتار الملكية، وكان من الواضح أنها تخصُّ الملك؛ لأنها كانت الكبْرى، لكن هذه الخيمة كانت عادية، ذات لون بني ضارب إلى الرمادي باهت، وكان الباب مجرد ستار خيمة، وفي الداخل عددٌ قليل من الأبسط، وخطاطيفُ على أعمدة جانبية من أجل المصابيح، لكن هذا كان كل شيء، مع أن الراية ذات اللونين الأبيض والأسود كانت لا تزال تُرفرف بشجاعة من قمة السقف. وقد نامت هي والملك ومورفوٲ ومعظم فرسان الملك — من بينهم إيناث وماثين — في داخلها؛ لكنها ظلَّت مستيقظةً وقتًا طويلًا تستمع إلى تنفس الآخرين. لا يمكن للمرء أن يسمع الشخص الذي بجواره وهو يتنفس إلا إذا كان هناك سقفٌ فوقهما لإبقاء الضوء بالداخل. لقد افتقدت النجوم.

وفي صباح اليوم التالي، كان هناك إفطارٌ على مائدةٍ طويلة شبيهة بالمائدة التي رأتها عندما قابلت الفرسان لأول مرة؛ كانوا جميعًا هناك مرةً أخرى، مع عددٍ قليل من الأشخاص الذين انضمُّوا إليهم خلال الأيام القليلة الماضية. ومن ثَمَّ شرح كورلاٲ ما هم مُقبلون عليه في الحال: كيف سيصعدون إلى الجبال مرةً أخرى — كانت السلسلة أوسع عند المكان الذي يصبح فيه المنحنى الغربي أكثرَ حدةً — ليصلوا إلى الهضبة المرتفعة حيث تقع بحيرة الأحلام، وحيث يعيش لوٲ. تساءلت هاري بينها وبين نفسها: لوٲ؟ لن يتسلَّق معظم الجيش كلَّ الطريق إلى مكان اللِّقاء، بل سيختفي داخل الغابة في مجموعاتٍ صغيرة ويحاول أن يُصبح غير مرئي؛ إذ يعتقد كورلاٲ وفرسانُ الاستطلاع، حتى الآن على الأقل، أنهم لم يُرصدوا بعد. أغلقت هاري عينيها وفتحتهما وتساءلت عمَّا إذا كان ضبابُ الصباح

الذي بدا كأنه يستمر طوال اليوم كلَّ يوم كنوعٍ من الضباب الباهت كان في نهاية الأمر أكثر من نمطٍ لطقسٍ محلي غريب. إن لوث نفسه — هكذا أخبرها ماثين خلال مرحلة فاصلة أحضر بعدها الخدم مشروب الملاك الساخن — لديه طرق حتى كورلاث لم يفهمها بخصوص التنبؤ بالأشياء، وكان كورلاث يرغب في مقابلته والتحدث معه. لكن لوث لم يترك أرضه مطلقاً؛ لذا كان من الضروري الذهابُ إليه هناك. وقال ماثين، بينما يهز كتفيه على نحوٍ غير متوازن مثلما يفعل أهل التلال: «يُدعي لوث أن هواء الأراضي المنخفضة يُربكه. وهو أمرٌ لا ندرکه نحن.» ثم التقط كوبه.

قالت هاري: «أجل، ولكن من هو لوث هذا؟»

نظر ماثين نحوها وقد ارتسم على وجهه تعبيره الغامض. وقال: «لا أحد يعلم. إن لوث ... هو شخص يعيش في الجبال، ويرى أشياء ... أشياء تُشبه ما يراه البعض منا عندما نتدق الميالدتار. إنه يوجد هناك منذ وقتٍ طويل جداً. لا أحد يستطيع أن يتذكر متى جاء لوث، أو متى لم يكن يعيش على جبله.»

«وبحيرة الأحلام؟»

حدّق ماثين في كوبه. وقال: «هناك نبعٌ يصبُّ في بحيرة الأحلام، وهناك توجد مياه الرؤية؛ ولكن في بعض الأحيان يكون ماءُ النبع مجرد ماء عادي، ولا أحد يعرف السبب؛ على الرغم من اعتقادنا أن لوث يعرف. إن الماء المشروب من بحيرة الأحلام لا يُعطي الرؤية، كما يفعل الميالدتار الحقيقي، لكنه ليس تمامًا مثل ماء ... الشرب.»

تنهّدت هاري.

شرح كورلاث بإيجاز للقادمين الجدد ما كان الجيش ينوي القيام به. لا بد أن جيش الشمال، بحكم الضرورة، سيختار الممرَّ الواسع الوحيد في الجبال المؤدي إلى السهل المركزي الكبير ثم صحراء دامار الجرداء، فقد كان الفجوة الوحيدة الكبيرة بما يكفي لاستيعاب أعدادٍ جيشٍ ما. وتقع الفجوةُ إلى الغرب قليلاً من نقطةِ انتصاف امتداد الجبال عند المنحنى الذي تلتقي فيه الجبالُ الممتدة من الشمال إلى الجنوب، سلسلة جبال إيلديك، بجبال هورفيل الممتدة من الشرق إلى الغرب. عندما يكتمل تجمُّع كلِّ عناصر جيش كورلاث الصغير في الوادي المنخفض عند نقطةِ التقاء السلسلتين، سينطلق بأقصى سرعةٍ يمكن للخيول تحملها نحوَ مدخل ذلك الممر، ويستعدُّ للاشتباك مع العدو وسط القرى الخالية والحقول المهجورة في دامار.

ثم ساد الصمت؛ لأن الجميع في خيمة الملك كانوا يعلمون أن جيش كورلاث لا يمكن أن يُحقق انتصارًا على جيش الشمال، ولا من المحتمل أن يتمكّن من مقاومته إلى الحد

الذي يُجبر الغزاة على الإقرار بأن دامار لا تستحقُ العناء، ويجبرهم على العودة إلى بلادهم. أفضلُ ما يمكن أن يأملهُ المدافعون، وهو ما كانوا يأملونه بالفعل، هو إحداث ما يكفي من المتاعب والخسارة بحيث لا يتبقى لدى الجيش الشمالي القوة الكافية للاستيلاء على كل دامار في قبضة مُحكمة وحاسمة تمامًا مثلما يودُّ ثورا، وأن تختبئ جيوب المقاومة في التلال، أو تحت كيلار المدينة. إذا نجحوا للغاية، فستستحقُ المعركة ما سيتكبدونه؛ لأنهم سيكونون قد صنعوا لأنفسهم مستقبلًا.

ابتلعت هاري مشروبها بتوتر. وسمعت، شاعرةً ببعض الدوار، ما راح كورلاث يقوله عن التلال السفحية التي يؤدي إليها الممرُّ الجبلي، والمكان الذي سيعتزل فيه الجيش، واسترجعت أقصى ما أسعفتها به الذاكرة عن الجغرافيا الدامارية؛ إذ ساورها إحساسٌ غير سارٍّ أن شيئًا ما قد أغفل، شيئًا لا ينبغي أن يُغفل. كان كورلاث يقول إنهم سيقررون على نحوٍ أكثر تحديدًا بمجرد وصولهم، لكن بدا أنه كان على علمٍ بكل حجرٍ وكتلةٍ عُشبٍ هناك، والموقع الدقيق لكلِّ مزرعة، وكذلك من كانوا يستمعون إليه، ولم يستلزم الأمرُ أن يلجأ أحدٌ إلى الخريطة. عبست هي في تركيز. أمكنها تقريبًا أن تتصورَ خريطة داريا التي في القصر؛ كانت تفتقر للغاية إلى التفاصيل عند الطرف الشرقي، وبصعوبة أظهرت الجبال حيث تقع مدينة الملك — المدينة نفسها كانت واحدةً من أساطير جاك ديدام الأصلية — لكنها كانت دقيقةً للغاية بالنسبة للجانب الغربي. ... أه!

كان كورلاث قد صمت. وقال مورفوث شيئًا ثم ساد صمتٌ آخر، فقالت هاري، على استحياء ولكن في إصرار: «سولا، ماذا عن الممر الواقع في الجهة الشمالية الغربية من ... من قاعدة الأغراب؟ إنه ضيق، لكنه ليس ضيقًا لدرجة ألا ... ألا يستطيع جيش الشمال أن يرسل كتيبةً من خلاله لُحاصرنا من الخلف.»

عبس كورلاث. وقال: «فليأخذوا مدينة الأغراب؛ فربما ينشغلون بها بما يكفي؛ ممَّا يؤدي إلى تعطيلهم. كما أن الأغراب سيحاولون إيقافهم عندما يصلون إلى عتبة الممر.» ساد صمتٌ ثقيل جدًا لدرجة أن هاري شعرت أن اختراقه بالكلمات يُشبه إحداث ثقبٍ في بحيرةٍ متجمدة. فقالت: «سيُفْلحون أكثر في محاولة صدِّ هجوم جنود الشمال إذا حُذروا.» لم تصنع كلماتها ثقبًا كبيرًا؛ إذ تكاثف الجليد بنحوٍ واضح. لم تكن تريد أن تفعل شيئًا بارزًا مثل وضع يدها على مقبض سيفها، لكنها ضغطت عليه بمرفقها خلسةً، وشدَّت ظهرها.

قال كورلاث: «لقد حُدُّروا»، ورفعت هاري عينيها نحو عينيهِ فرأت المدَّ الذهبي يتصاعد فيهما، وتساءلت عما كلفته تلك الحادثة غير المثمرة في القصر. ومع ذلك، فهو لم يحرق القصرَ بذلك الوهج الذهبي الذي ينبعث من عينيهِ، وهو ما تعتقد أنه كان قادرًا عليه؛ ومن ثم فقد طرقت بعينيها في الحال تجاهه وقالت: «الكولونيل ديدام سيُصغي إليك. فإنك لم تكن تعلم أن جيش الشمال قد بدأ الزحف ... آنذاك، لكنك تعلم ذلك بيقين الآن. إن الممرَّ ضيق، وهو بإمكانه صدُّ أيِّ هجوم عليه من أجل حماية ظهر جيشك بكل تأكيد — ولكن ليس إذا توفَّر لدى جيش الشمال الوقت للمجيء والذهاب إلى حيث يريدون.» كان صوتها يرتفع من الخوف وربما الغضب؛ هل كان هناك أيُّ شيء سوى الكبرياء العنيدة، والجلالة الساخطة للحاكم المطلق لأرضه الصغيرة، هي المسيطرة على كورلاث، وتدفعه لإضاعة فرصة لكسب مزيد من الوقت؟ ما مدى ضالة معرفتها به في نهاية الأمر، ومدى ضالة معرفتها بدامار، هي التي لم تستطع تخيُّل كلِّ ورقة صفراء من نبات الكورف أمام الممر الكبير في الجبال. ومع ذلك استطاعت أن ترى — ألم تره حقًا؟ — التهديد الذي يُمثله هذا الممرُّ الضيق الثاني، وهو تهديدٌ اختار الملك وقائد الجيش تجاهله. لم تستطع أن تفهم ذلك؛ فقد وُلدت من شعبٍ مختلف، وهي تفهم الأشياء على نحوٍ مختلف.

قال كورلاث: «كلا»؛ فرنَّت الكلمة مثل ضربةٍ بالفأس، وأصبحت عيناها صفراوين مثل التوباز. حدَّقت هاري مرةً أخرى في وجهه — يا له من شخصٍ قاسٍ — حتى وهي تعرف ما يمكن أن يفعله بها، حتى عندما تفصَّد العرق من جلدها مع محاولة تثبيت نظرها على عينيهِ. ضغطت بكوعها بشدة على جونتوران، وانغrustت الحافة الصُّلبة للجوهرة الزرقاء في ضلوعها ومنحتها الشجاعة. عندئذٍ أبعد عينيهِ عنها ووجَّهها صوب ستار الخيمة وصاح، رغم أنه نادرًا ما كان يصيح، فأحضر الخدم مشروب مالاك طازجًا ومعه الفاكهة. بدأ الجليد يتفتَّت، على نحوٍ متوتر، وحدَّقت هاري في كوبها ورفضت الاستمرار في الحديث، وأنصتت إلى قلبها وهو ينبض، وتساءلت عما إذا كانت خائنة؛ وإذا كان الأمر كذلك، فمن خانت؟

في صباح اليوم التالي، بدأ خمسةٌ وثلاثون فارسًا مختارًا، مع كورلاث على رأسهم وهاري، التي كانت لا تزال عابسةً إلى حدٍّ ما، بينهم، في صعود الطريق إلى حيث يعيش لوث. فضَّ بقيةُ الجيش المعسكر أولًا، وتحفَّوا خلف الشُّجيرات عند سفح الجبال، آخذين معهم حيوانات الصيد وخيول حمل الأمتعة. انتظر كورلاث والفرقة الصغيرة معه حتى النهاية، وراقبوهم وهم يذهبون، ليحكموا إن كان تخفيهم فعلاً؛ وليروا إن كانت هناك أيُّ مسارات واضحة للغاية مقطوعة في الشُّجيرات. طارت بعضُ الطيور هاربةً من أعشاشها،

لكن هذه كانت العلامة الوحيدة على عبورهم. لا بد أن كورلاث وأيّ شخص آخر لديه موهبة التنبؤ بالطقس كانوا راضين، وراحت هاري تجول بناظرٍها، وهي تتحسّس بأصابع باردة عمودها الفقري على الرغم من الحرارة؛ إذ كان الضباب الذي ظل ملازمًا لهم قد أخذ يتبدّد برفق. فأصبحت السماء زرقاءً وصافية. وصدح طائرٌ بريتي بالغناء، فرفعت هاري عينيها لمشاهدة الطائر البني الصغير وهو يطير بجموح في مسارٍ متعرجٍ فوق رؤوسهم. حتّى كورلاث حصانه الكستنائي الكبير على التقدّم، وتبعه أربعةٌ وثلاثون فارسًا، وقطة صيد عنيدة.

سارت هاري بتلكؤٍ بالقرب من ذيل الموكب. لم تنم في الليلة السابقة بسبب التفكير في الممرّ الشمالي الغربي وجاهك ديدام، وتعبيرات وجه ديدام بينما يُراقب كورلاث وهو يُغادر القصر مندفعًا، وتعبيرات وجه كورلاث وهو يقول: «فليأخذوا مدينة الأغراب؛ فربما ينشغلون بها.»

من المؤكد أنه كان هناك سببٌ لعدم اعتقاد أيٍّ من أهل التلال أنّ تلك الفجوة المؤدية إلى دامار تستحقّ الاهتمام؟ لكن إذا كان هناك سبب، فما ذلك السبب؟ ربما سيذكر هذا المدعوّ لوث كلامًا منطقيًا. ربما كُرتة البلورية أو شيءٌ من ذلك القبيل، ستقول: «احذروا الممرّ الشمالي الغربي! احذروا!»

لكن من الوارد ألا يحدث ذلك. إذن، يا هاري، ماذا تنتوين أن تفعل حيال ذلك؟ لم تكن تعرف. ركزت على أذنيّ صنجولد، النحيفتين المتحفزتين، وهما تحدّان جانبيّ المسار أمامها، بينما تقدّم الحصان إيناث بكفّليه الرماديّين الداكنين سائرًا أمامها. مع تقدمهم عبر الطريق اختفت الشجيرات وظهرت الأشجار، ثم أشجار أكبر حجمًا، ثم توغلوا في غابة كثيفة عتيقة، حيث كانت حتى رائحة الهواء بداخلها عتيقة. وبحلول نهاية وقت ما بعد الظهر، ترجّل جميع الفرسان عن صهوات خيولهم، وساروا مع خيولهم التي غطّأها العرق الداكن على منحدرٍ حادٍّ وغير مستوٍ. وراحت هاري تلهث، لكنها حاولت أن تفعل ذلك بهدوء. ربما لم يتنفّس كورلاث بصعوبة على الإطلاق. وبدت فتحتا أنفٍ تسورنين حمراوين، لكن أذنيه كانتا منبتهتين كعادته، وفي بعض الأحيان كان يفرك أنفه بلطف على مؤخرة رقبتها؛ تحسبًا لاحتمال عدم تفكيرها فيه للحظات. كانت ناركنون تتجول بجانبهم مثل ظلٍّ مرقط. وكانت الأشجار طويلةً وضخمة لدرجة أن هاري، وهي تُشاهدها، شعرت أنها ليست سوى قطة منزل، وأنها عندما تأتي طلبًا لبعض المداعبة، كانت ستلتفّ حول كاحليّ هاري، وستحملها هاري بيدٍ واحدة وتضعها على كتفها.

كانت الأشجارُ عالية جداً فوق الرءوس لدرجة أن الشفق أسفلها كان أشبه ربما بالغروب التامّ للشمس، ولكن ربما كان ذلك بسبب ظلّ الأوراق، وكانت الصحبة صامتة؛ إذ لم يتكلم أحد، وقد كتمت أوراقُ الشجر والحشائش صوتَ وقعِ أقدامهم. سمحت هاري لنفسها بالتساؤل عن المسار، كبديل لدوائر لا نهائية من الأفكار في ذهنها حول الممرّ الشمالي الغربي؛ لقد ظلّ سالكاً بما فيه الكفاية بحيث لم يُضطرَّ أحدٌ إلى الانحناء تحت الأغصان المنخفضة، أو المعاناة في الخوض عبر الأدغال الزاحفة، ولكن لا أحد يسلكه إلا قليلاً حتى إن الحشائش تحت أقدامهم كانت كثيفةً ومستوية. وما زالت مستويةً بعد أن داس فوقها ثلاثون من الخيل وثلاثون من المشاة البشريين؛ هكذا قال لنفسه الشخصُ الحادي والثلاثون من المشاة، وهو يفركها بفضولٍ بقدم واحدة. إنها حشائشٌ قوية. ربما يؤدي لوث دورِ عالمِ نبات في أوقات فراغه.

بحلول الليل، كانت هاري لا تزال تمشي فقط لأنها ظَلَّتْ تُمْسِكْ بقبضتها حفنةً كبيرة من عُرف صنجولد. حاولت إراحة ذراعها على ظهره، لكنَّ ظهره كان مرتفعاً جداً فلم تشعر براحة، وظلَّت يدها المتعركة تنزلق عبر شعره الناعم. حتى رأسه كان منخفضاً قليلاً، وكانت هاري تعلم أنها لا تزال وسط الموكب فقط لسماعها الصريرِ الناعم للسروج الأخرى، والوميض العرضي في الظلام أمامها مباشرةً حين كان حصان إيناث يُحرك ذيله. وبينما هي تسير أغلقت عينيها ولمعت ألوانُ الإرهاق عبر جفونها. ثم بدأت في تصنيف نفسها إلى أنماط؛ ممّا أزعجها، لكنها كانت متعبةً للغاية كي تفتح عينيها وتصرفها. حيث رأت فارساً أحمر الشعر على حصانٍ أبيض. كان الحصان عجوزاً، أبيض من تقدُّم العمر، وعظام وجهه بارزة جداً ورفيعة، حسبت أن قدمه اليمنى الخلفية قصيرة قليلاً، لكن رقبته كانت مقوّسةً وذيله مرتفعاً. كان منكباً الفارس ثابتتين بشكلٍ يوحى بالعزيمة، وبدأت ساقاه على جانبي الحصان ثابتتين، وليستا مضطربتين. كان هناك احمرارٌ دخاني في الأفق وراءهم، قرمزي لا يُشبه الفجر أو الغروب؛ كانوا متجهين نحوه، وومض الضوء من سلسلةٍ حول رقبة الفارس والخوذة المربوطة بالسرج، وشعر الفارس، وخاصرة الحصان. تساءلت هاري إلى أين هم ذاهبون، ومن أين أتوا. كان يمكن أن يكون الريفُ هو دامار. كان يمكن أن يكون أيّ مكان تقريباً.

أدركت أن هناك ضوءاً يسطع من خلال جفنيها، كان يُشعل النار في الحصان الأبيض. فأسرع الحصان في خبئه، في موجةٍ متألّئة ساطعة من الحركة. فتحت هاري عينيها وهي تشعر بدوار. كانوا يقتربون من أرضٍ خالية مضاءة بالمشاعل؛ استطاعت أن ترى كورلات

وقد توقّف، يتحدث إلى رجلٍ طويل القامة مثله، لكنه أشدّ نحافةً، كان شعر الرجل أشقر. اقتحم إيناث الدائرة المضيئة، وتبعته هاري، وهي تُحاول عدم التعثر، متعبة للغاية لدرجة أنها لم تستطع حتى سحبَ يدها من عُرف صنجولد للحفاظ على كبريائها. نظرت حولها قليلاً، وكانت الوجوه التي استطاعت أن تراها بالقرب منها شاحبةً ومنهكةً. وعلى عكس المتوقع، جعلها هذا تستعيد قوتها، فأنزَلت يدها وبسَطت كتفَيها. أدار صنجولد رأسه لإراحة ذقنه على كتفها. فغمغمت: «من يطمئن من هنا؟» وجلست ناركنون على الفور على قدمي هاري وصدمت يدها برأسها كما لو أنها تقول: أنا.

كان شخصٌ ما يعرف الطريق، فبينما انتهى كورلاث من التحدث مع الرجل ذي الشعر الأشقر، كان بقيّة الفرسان يتبعون شخصاً آخر إلى ... مكانٍ ما للاستراحة فيه، حسبما تمنّت هاري بشدة. واسترقت نظرةً سريعة نحو كورلاث وهي تمرُّ به، وشعرت بالراحة بسبب الهالات الموجودة تحت عينيه وعظام وجنتيه. ربما كانت فقط بسبب ضوء المشعل.

عندما استيقظت هاري، كانت الشمس قد توسّطت كبد السماء، ولمدة دقيقة لم يكن لديها أدنى فكرة أين كانت. كان أولُ ما طرأ على ذهنها أن وجبة الإفطار قد فاتتها، وأن والدها سيمارزحها بشأن سهرها حتى وقتٍ متأخر. ثم تذكّرت، برغبةٍ اعتادتها لقلبها، أنها كانت في داريا مع ريتشارد — كلا، في دامار، مع صنجولد، وناركنون، التي تمدّدت عند قدميها. وكورلاث وجونتوران. كانت يدها قد استقرّت بخفة على مقبض سيفها مرةً أخرى وهي نائمة، وخلال الاضطراب الأول عند الاستيقاظ؛ الآن تعرّفت أصابعها على ما لمسته. فارتجفت وتنهّدت وجلست منتصبّة.

كانت في قاعةٍ ضيقة طويلة بها نحو عشرة أسِرّة منخفضة للغاية، وقد سمحت النوافذ العالية والضيقة ولكن المتقاربة بدخول فيضان من ضوء الشمس. بصعوبةٍ تذكّرت مجيئها إلى هنا، بعد أن رأت تسورنين مربوطاً وقد أزيل السرج عن صهوته وهو سعيدٌ بإناءٍ حبوب وكومةٍ من القش وُضعا أمامه، فأوتت إلى سريرها ونامت قبل أن تلمسه. معظم الأسِرّة الأخرى في الغرفة كانت لا تزال مشغولة. كانت القاعة مبنيةً من كتل كبيرة من حجرٍ غير مصقول باللونين الرمادي والأبيض، كانت تعتقد أنه نوع الحجر نفسه المستخدم في مدينة كورلاث. كانت القاعة باردةً، لكن رائحتها جيدةٌ ونفاذة، مثل أوراق الشجر النضرة.

كانت هناك أبوابٌ عند كل طرفٍ من الأطراف الضيقة للغرفة، وعند وقوفها أمام السرير، أمكنها النظرُ عبر أيٍّ منها. كانت حجارة الأرضية باردةً تحت قدميها. فجلست

مجددًا على حافة السرير — إنه سريرٌ حقيقي بالفعل؛ هكذا قالت لنفسها — ونظرت إلى وسادتها للحظة. ثم تنهدت بأسفٍ وارتدت حذاءها الطويل. فتحت ناركون عيناً واحدة وأغلقتها مرةً أخرى. بدت الحُجرات على كل جانبٍ مثل الحجرة التي كانت فيها إلى حدٍّ كبير، ومليئةً بأجساد لا تزال نائمةً وملفوفة في بطانيات داكنة. كان هناك بابٌ آخر في منتصفِ الحائط المقابل للنوافذ. وهذا ما خرجت منه.

ووجدت هنا قاعةً شاسعة، أكثر ارتفاعاً من الأشجار العتيقة في الغابة التي قطعتها سيرًا مرهقةً، مع نوافذٍ تصل لأعلى الجدران لتنتفخ فوق الأسطح الأدنى ارتفاعاً لممرات النوم. وعند أحد طرفي هذه القاعة، توجد مدفأةٌ كانت ستبدو ضخمةً في أي حجرةٍ أقلّ اتساعاً، أما هنا فقد بدت صغيرةً للغاية. كان أمامها عدةٌ كراسي خشبية ضخمة، وخلف الكراسي مائدةٌ طويلة ذات قواعدٍ مائلة غليظة، وكانت بقيةُ القاعة فارغةً. وكان يوجد في الجهة المقابلة لجدار المدفأة أبواب، وقد فتحت ليدخل ضوءُ الشمس وزقزقة العصفير وحفيف الأوراق. رفعت ناظرَها إلى السقف. والغريب أنه لم ينشأ إحساسٌ بالضيق من الأحجار والفراغ، بل سادت السكينة، هدوء الهجوع.

وقفت لحظةً، وهي راضيةٌ لمجرد أنها أصبحت أقلَّ تعباً ممَّا كانت عليه في الليلة السابقة، مستمتعةً بإحساس الاسترخاء. لأول مرة منذ المواجهة مع كورلاث، تركها التفكيرُ في الممر الشمالي الغربي تستمتع بحريّة، دون أن تبذل مجهوداً في تجنبه، حتى علمها بالحرب القادمة، بدورها في معركتها الأولى، لم يُزعجها في الوقت الحاضر. بالنسبة إلى المعركة فقد كانت تعرف أن هذا أمرٌ سيُزعجها لاحقاً — عمّاً قريب، لكنها ستنتبه له لاحقاً. أما الآن فقد ظلت تبتسم. لكنها شعرت بتيبسٍ في فمها.

أنزلت نظرَها عن السقف ووجّهته مرةً أخرى نحو المدفأة. كان حصولها على النوم والهدوء أمراً جيداً، لكنها شمّت رائحةً طعام، وكانت جائعة.

كان الرجل ذو الشعر الأشقر الذي وقف يتحدث مع كورلاث في الليلة السابقة جالساً على أحد الكراسي الخشبية الكبيرة، وهي لم تلاحظه إلا بعد أن اقتربت منه تماماً. كان وقعُ أقدامها خفيفاً للغاية؛ فلم تتردد أصداء ثقيلةٌ عبر القاعة لتقاطع زقزقة العصفير. ثم توقفت. كانت هناك نارٌ طبخ صغيرة، باتساع شبرين تقريباً، مشتعلةٌ في مقدمة تجويف أرض المدفأة. وقد تدلّى فوقها من سلسلةٍ قُدر فضي كبير، وعلى كرسي قريب وُضعت كومةٌ من الأطباق الفضية العميقة، وكومةٌ من الملاعق الفضية اللامعة.

قال الرجل ذو الشعر الأشقر: «تناولي إفطارك. لقد تناولتُ إفطاري، كُلّي بقدر ما تريدن. يتملّكني الزهو لكون الطعام شهياً للغاية، وإن كنتُ أعترف بأنني لستُ معتاداً

كثيراً على الطهو للعديد من الأشخاص، حيث يبدأ المرء في نسيان عددِ حبات البطاطس التي وضعها في القدر بالفعل بعد أول مجموعة.» جلست مع طبقها، وشعرت أن المقدمات الرسمية ليست مرغوبةً، وأنه سيشعر بالسخرية إذا حاولت أن تكون مهذبةً بشكل تقليدي، كما أنها كانت جائعةً للغاية. وبينما هي جالسة، أحضر قربةً من الجانب الآخر من كرسيه وصبَّ في إبريقٍ عند قدميه. وقال وهو يُناولها إياه: «حليب الماعز.» كانت هناك بقعٌ بنية من البهارات تطفو فيه. فابتسمت، ولكن من دون تيبس هذه المرة.

ظلت تنظر إليه وهي تأكل، وبينما كانت متأكدةً من أنه يعرف أنها تُراقبه، ثبت هو عينيه على اللهيّب وهو يتراقص ضعيفاً تحت القدر، كما لو أن السماح لها بالنظر نحوه بكل حرية كان مجاملةً فعلها بالإضافة إلى إشباع جوعها.

كانت تعلم أنه طويلُ القامة، ورغم أنه جالس، فقد بدا أطول؛ لأنه نحيفٌ للغاية. كانت ذراعاه ممدودتين بعيداً عن جانبيه لتستقرّاً على ذراعي الكرسي، لكن أصابعه الطويلة امتدت حتى جاوزت المقدمة الملتفة لمسند الذراعين، وكانت ركبته على بُعد عدة بوصات من قاعدة الكرسي الطويلة. كان يرتدي سترةً خضراء داكنة، وقميصاً بُنيّاً تحتها، بأكمّام طويلة كاملة مربوطة عند الرُسغين بشرائطٍ ذهبية. وكان ينتعل حذاءً طويلاً باهتاً يصل فوق ركبتيه مباشرةً، حيث تنسدل السترة فوقه. وكانت السترة مفتوحة من الجانبين حتى الخصر، وكان السروال الضيق تحتها ذهبياً بلون الشرائط. ولم يكن يرتدي وشاحاً، بل شريطٌ رفيع من القماش، أزرقٌ داكنٌ متقاطع على صدره، وملفوفٌ لفّةً واحدة خفيفة حول خصره. وينتهي طرفه بشُرابةٍ من الخيوط الذهبية والزرقاء الداكنة. كما كان يرتدي حول رقبته سلسلةً بها حجرٌ ضخم ذو لونٍ أحمر داكن.

علت وجهه علاماتٌ تفكير عميق وهو يحرق في النار. كان أنفه طويلاً مستقيماً وشفاته رفيعتين؛ وعيناه زرقاوين ذواتي جفّنين ثقلين. وكان شعره مجعداً وذا لونٍ ذهبي لامع، ينسدل على ياقته وأذنيه على الرغم من أن وجهه كان حليقاً تماماً. قالت هاري لنفسها إنه ينبغي أن يبدو شاباً. لكنه لم يبدو شاباً. كما أنه لم يبدو عجوزاً.

التفت إليها وهي تضع طبقها وكوبها وابتسم. ثم قال: «حسناً؟ هل وضعت كميةً مناسبة من البطاطس؟»

كانت بطاطسُ التلال ذهبيةً وأشهى كثيراً من البطاطس الباهتة في هولموند، التي كانت هاري تأكلها بطاعةٍ ولكن دون حماسة عندما كانت طفلة، وهي ممتزجةٌ هنا كما ينبغي مع السمك الأبيض الخفيف الذي كان أساسَ الحساء. كانت هذه هي المرة الأولى

التي تأكل فيها أسماكًا طازجة منذ أن غادرت وطنها، حيث كانت كثيرًا ما تعود إلى المنزل بطعام العشاء بعد قضاء بضع ساعات بجوار بركة ماء أو جدول في مزرعة والدها، وقد ابتهجت الآن للملاحظة أن تذكر هذه الحقيقة لم يسبب موجات مضطربة من العاطفة حول ماضيها أو مستقبلها. فقد قالت بهدوء: «أجل.»

التقت عيناها، وسألها، كما لو كان صديقًا قديمًا أو والدها: «هل أنت سعيدة؟» فكَرَّت في الأمر، وهي تبعد نظراتها عنه وتوجهها نحو طُرف جونتوران، وهي تسند ظهرها على كرسيها؛ لأنها، دون أن تفكر في الأمر بطريقة أو بأخرى، علقت جونتوران حول وسطها بمجرد أن نهضت من سريرها. ثم قالت: «كلا، ليس بالضبط. لكنني لا أعتقد أنني أرغب في الشكوى من التعاسة.» توقفت دقيقة واحدة، وهي تراجع الأفكار التي راودتها باستمرار طوال أسابيع منذ أن تركت حياتها القديمة مثل صرة معلقة فوق غارب فايرهارت. وأردفت قائلة: «إن الأمر هو أنني لا أستطيع أن أرى ما أفعله أو لماذا، ومن المقلق دائمًا أن يعيش المرء لحظة بلحظة. أوه، أعلم — لا يدرك المرء أبدًا ما سيأتي أو ما كان. لكنني أرى أقل حتى من ذلك. يبدو الأمر كأنك معصوب العينين في حين لا يكون أي شخص آخر في الحجرة كذلك. لا أحد يستطيع أن يرى ما هو خارج الحجرة — لكن يمكن لأي شخص آخر رؤية الحجرة. أود أن أزيل العصابة عن عيني.»

ابتسم الرجل. وقال: «إنها أمنية معقولة. لا أحد يعيش أكثر من بضع لحظات على هذه الحالة أو تلك — حتى أولئك المحظوظين أو غير المحظوظين الذين يمكنهم رؤية كيف سينكشف المستقبل، وربما يشعرون أن اللحظة تمر بصعوبة شديدة. لكن ربما من المريح أن يكون لديك بعض الإحساس بـ ... احتمالية الخيارات؟»

قالت وهي تتنهد: «أجل»، وضغطت بإصبعها على مقبض جونتوران، وفكرت في الفارس ذي الشعر الأحمر على الحصان الأبيض. لقد بدا كأنه يعرف إلى أين هو ذاهب، وإن كان عليها أن تقر بأنه بدا أيضًا كأن المعرفة لم تمنحه أي سعادة.

قال الرجل ذو الشعر الأشقر: «ليس هو. الليدي إيرين. يجب أن تبدئي في التعرف عليها، كما تعلمين؛ لقد رأيتها كثيرًا.» نظرت نحوه في دهشة.

فقال مستأنفًا كلامه: «أنت تحملين سيفها، وذاهبة نحو قدر ليس تمامًا من اختيارك. ليس من المفاجئ أن تختار هي بطريقة ما الذهاب معك. إنها تعرف الكثير عن القدر.» ليس من المفاجئ. لكنها ما زالت متفاجئة. وهي تفضل أن تفاجأ، في الواقع. لقد سمحت لنفسها — مدةً وجيزةً فقط — بالتفكير في وطنها، حيث التلال المنخفضة العشبية

الواسعة والأنهار الزرقاء، عندما كان السيف الوحيد الذي عرّفته هو السيف الصغير الذي كان لدى أبيها، الذي لم يكن حاداً، وكانت ممنوعةً من لمسه؛ وحيث كانت الرمال موجودة فقط على شاطئ البحر. وهنا وجدت نفسها مرةً أخرى تُحرق في قدر فضي فوق نار صغيرة.

«أخشى أنني لا أستطيع أن أطمئنك كثيراً بالتنبؤات؛ إنه لمن دواعي سروري أن أطمئن أي شخص بالتنبؤات، ودائماً ما أستمتع بهذا قدر الإمكان؛ لأنه لا يحدث كثيراً. لكنّ ما يمكنني أن أخبرك به أقلُّ حتى مما أستطيع في المعتاد أن أخبر به أيّ شخص، وهذا يجرح كبريائي». ومن ثم أغلق يده حول الحجر الداكن المعلق في رقبته، الذي توهّج من بين أصابعه كالنار.

نظرت إليه في دهشة.

فقال: «لقد بدأت بالفعل في رؤية صعوبة الخيارات التي ستُضطرّين قريباً إلى اتخاذها، ولن يكون الاختيار أسهل وأنت لا تعرفين سبب حتمية الاختيار.» اكتسب صوته نغماً رتيباً، وصار الضوء الأحمر للحجر ينبض مثل القلب، وأصبحت الجفون الثقيلة شبه مغلقة.

«استمدّي القوة من هدفك الخاص؛ لأنك ستعرفين ما يجب عليك فعله، إذا سمحت لنفسك، فثقي بحصانك والقطعة التي تتبعك؛ لأنه لا يوجد أحد أفضل منهما، وإنهما يُحبانك، وثقي بسيفك، فهو يمتلك قوة قرون ويكره ما تكرهين. وثقي بالليدي إيرين، التي تزورك لطمأنتك، سواء أصدقت ذلك الآن أم لا، وثقي في صداقاتك. سوف تحتاجين إلى أصدقاء؛ لأنّ ثمة عالمين يلتقيان بداخلك. لا يوجد أحد معك في كلا الجانبين؛ لذلك يجب أن تتعلّمي، أن تستشيري نفسك، ولا تخافي ما هو غريب، إذا كنت تعلمين أنه صحيح أيضاً.» ثم فتح عينيه. وأضاف: «إنه ليس موقفاً يُحسد المرء عليه، أن يصبح جسراً، وخاصةً جسراً ذا رؤى. أعلم ذلك.»

فقالت: «أنت لوث، بالطبع.»

«بالطبع. لقد طلبت من كورلاث على وجه الخصوص أن يجلبك إلى هنا — على الرغم من أنه كان يُحضر دائماً فرسانه فقط. وأنا أعلم أنك قد مُنحت لقب فارس الملك. إنني لا أطلب إحضار أيّ شخص في الغالب؛ لذا يجدر بهذا أن يسرّك.»

قالت بلا انتباه: «أستطيع أن أرى العالمين الواقعة بينهما، على الرغم من أنني ما زلت لا أفهم لماذا اختار الثاني أن ينتفض ويخطفني ...»

قاطعها لوث ليقول: «أسألي الكولونيل ديدام في المرة القادمة التي تَرينه فيها.»

«في المرة القادمة ...؟ لكن ...» قالت، في حيرة، وقد خرجت من دائرة أفكارها.

قال لوث برفق: «كنتِ على وشك أن تسأليني سؤالاً مهماً بالنسبة إليك، إذ كنتِ تحاولين ترتيب أفكارك، عندما قاطعتكِ، وإن كنتِ لن أتمكن من الإجابة عنه. قلتِ لكِ إنني لا أستطيع أن أجعلكِ تشعرين بالطمأنينة في غالب الأحيان.»

سألته: «ما هما عالمك؟» وكادت أن تمحو السؤال وهي تتابع: «لكن إذا لم تستطع الإجابة عنه، فلماذا أسأل؟ هل يمكنكِ سماع كل ما أفكر فيه؟»

أجاب: «كلا. فقط تلك الأفكار الشبيهة بالسهام التي تنطلق بعنفٍ حاد. لديك عقلٌ منظمٌ على نحوٍ أفضل من معظم الناس. يُشعرني معظمُ الناس بالكدر عند التحدُّث إليهم؛ لأنهم لا يملكون أيَّ سيطرة على تفكيرهم على الإطلاق، فهي وابلٌ مستمر، مثل التعرُّض لهجومٍ من مجموعةٍ متشابكة من الشجيرات الشائكة، أو أن تصعد على ساقيك مجموعةً كبيرة من الهزرة، لتغرَّس فيك مخابِها في كل خطوة. قد تكون قراءة عقل المرء وسيلةً وقائيةً فعَّالةً كذلك، فمن يُمكنه تبيين الشوكة الفردية؟»

ضحكت هاري لا إرادياً. ثم قالت: «قال إيناث إنك تعيش حيث تعيش، في مكانٍ مرتفعٍ وبعيدٍ عن كل شيء؛ لأن هواء الأراضي المنخفضة يُعْثِي ذهنك.»

قال: «هذا صحيح إلى حدٍّ ما. إنه لأمرٌ محرج بعض الشيء أن أُجبر على لعب دور العرَّاف الغامض الذي يعيش في مكانٍ ناءٍ بالجبل، لكنني وجدتُ أنه أمرٌ ضروري.

إن كورلاث، على سبيل المثال، عندما يكون لديه شيءٌ في ذهنه، سيستطيع أن يُزعجني به إذا كنتُ قريباً منه. وهو كثيراً ما يطلب مني أن آتي لأُقيم في سجنه الذي يُسميه مدينة، قائلاً إنني قد أحبها لأنها مصنوعةٌ من نفس الحجر مثل هذا ...» وأشار لأعلى. ثم أضاف: «كلا، شكراً.» وابتسم. وتابع: «إنه لا يحبُّ الأسوار الحجرية لمدينته؛ ولذلك فهو لا يفهم لماذا أحبُّ أسواري؛ فهما تبدوان متشابهتين بالنسبة إليه. لكنه يعرفني جيداً لذا لا يُلحُّ في طلبه، ولا يشعر بالإهانة لرفضه.»

قالت هاري بأسف: «إذا كنتِ لا تجد كورلاث مزعجاً إلا وهو قريب، فإنني لا أتعاطف معك»، فضحك الرجل.

وقال: «نحن العرَّافين لدينا وسائلٌ أخرى للمقاومة، لكنني سأحرص على إخباره أنكِ قلتِ ذلك.»

فانتبهت. وقالت: «أفضل ألا تفعل ذلك، إذا كنت لا تُمانع. أخشى أننا — لسنا على وفاق أنا وهو حاليًا.»

نقر لوث بأصابعه على مسند الكرسي الخشبي. وقال: «أجل، لقد ساورني ذلك، وإنني آسف له؛ لأن كلاً منكما بحاجة إلى الآخر.» واستمر في النقر أكثر. ثم تابع: «أو بالأحرى هو من يحتاج إليك، وإنه لفي صالحك أن تؤمني به.» وفرك لوث جبهته. ثم أضاف: «لكنني أقر لك بأنه أحياناً ما يكون عنيداً.» وصمت لحظة. ثم قال: «كانت إيرين مثله بعض الشيء، لكنها كانت أيضاً مثلك بعض الشيء. كانت إيرين عزيزة جداً عليّ.» وابتسم ابتسامة خافتة. ثم أضاف: «المعلمون دائماً ما يفخرون بالطلاب الذين يمضون لإنجاز أشياء عظيمة.»

قالت هاري: «إيرين؟ إيرين؟ الليدي إيرين صاحبة هذا السيف؟» وضربت مقبض جونتوران.

قال لوث بلطف: «أجل. هي نفسها، إيرين ذات الشعر الأحمر التي تُزعجك بالرؤى. لقد سألتني عن العالمين اللذين لدي؛ يمكنك القول إنهما الماضي والحاضر.» بعد لحظة باردة طويلة قالت هاري: «لماذا طلبت من كورلاث أن يُحضرني إلى هنا؟» «لقد أخبرتك بذلك بالتأكيد. لأنني علمت أنه بحاجة إليك؛ وأردت معرفة ما إذا كنت من النوع الذي ينهار بسهولة.»

أخذت هاري نفساً عميقاً. وسألته: «وهل أنا كذلك؟» قال: «أعتقد أنك ستؤدّين مهمتك على نحو جيد للغاية.» ثم ابتسم. وقال: «وهذه إجابة مباشرة أكثر بكثير مما يحق لأي شخص يتشاور مع عراف أن يتوقع. لا بد أن أتوقف عن الشعور بالذنب تجاهك.»

أمضى كورلاث وفرسانه يومين في قاعة لوث؛ كانت الخيولُ ترعى في مرج واسع، وهو الامتداد الواسع الوحيد من الأرض الخضراء المضاءة بنور الشمس في نطاق مسيرة يوم واحد من الوادي المليء بالأشجار، حيث أقام لوث منزله. وجدت هاري صنجولد يرمح عبر المرج، رافعاً رأسه وذيله لأعلى، في الصباح الأول، وقد بدا عليه أنه قد نسي مشقة صعود الطريق إلى أعلى الجبل. إذ ركض إلى حيث كانت هاري واقفة متكئة على سور الإسطبل المفتوح، حيث لا يزال عدد قليل من الخيول باقية في الداخل، مستغرقة في تبناها. قالت هاري دون تركيز وهي تفكر في حديثها مع لوث: «إنك تجعلني أشعر بالتعب. يجب أن تحصل على بعض الراحة، لا أن تتقافز مثل المهر البري.» دفع تسورنين أنفه تحت ذقنها،

في تحدٍّ. فتابعت: «هل تدرك أنه سيتعيَّن علينا أن نُعيد الكرّة قريباً؟ وبعد ذلك نَتابع زحفنا ونستمر في السير - ونستمر ونستمر؟ يجب أن تُوفر قوتك.» فلثم صنجولد شعرها.

خرج بقيّة فرسان الملك والفرسان الخمسة عشر الآخرون ببطءٍ من المنزل الحجري العالي. حاولت هاري أن تتبيّن، بينما تُراقبهم، إذا كان أيُّ منهم قد أجرى محادثاتٍ محيرةٍ مع مُضيفهم، لكنها لم تستطع التخمين، ولم يبدُ الأمر من النوع الذي قد يسأل عنه المرء. لقد بدؤوا جميعاً شبه مستيقظين، كما لو أن الرحلة حتى الآن - كان هذا أولَ توقفٍ حقيقي منذ مغادرتهم المدينة - التي رافقها الهدوءُ العذب لمنطقة لوث قد حالت دون شعور جمع المحاربين، المتمرسين على امتطاء الخيول، بأي شيء سوى النعاس اللطيف. وقد ابتسموا بعضهم لبعض واتَّكئوا على سيوفهم، بل اعتنوا بخيولهم العزيزة بلا مبالاة، كما لو كانوا يعرفون أن الخيول ليست بحاجة إلى العناية هنا. أما ناركنون، فلم تتحرك أبداً من سريرها، على حدِّ علم هاري؛ لقد تمددت فقط عندما تركتها هاري، وسمحت على مضضٍ أن تزاح إلى جانبٍ واحد عندما دخلت هاري مرةً أخرى. شعرت هاري بالدهشة، على الرغم من إحساسها بالأجواء اللطيفة نفسها حولها؛ أيّ ما كان، فقد كان عليها أقل.

كما تجول كورلاث نفسه بطريقته البالغة النشاط المعتادة، إذا كان هناك أيُّ إحساس بالراحة يحاول أن يستقرّ بداخله، فقد كان يجد صعوبةً في ذلك؛ لأن حالة كورلاث لم تكن مختلفةً عما كانت عليه في أيِّ وقت مضى، رغم أنه لم يبدُ متفاجئاً بحالة أتباعه. ظلّت هاري بعيدةً عن طريقه، وإذا كان قد لاحظ ذلك، فهو لم يبدُ أيّ إشارة. لقد كان في الغالب يتحدث إلى لوث - لاحظت هاري باهتمام، في المرّات التي رأتهما معاً فيها، أن كورلاث بدا كأنه يتحدث أكثر بكثيرٍ من رفيقه - أو يُغمغم متحدّثاً لنفسه. ولم يكن من الممكن أن تنمّ تلك الغمغمات على البهجة؛ لأنه كان عابساً أغلب الوقت.

كان الجو خلال اليومين لطيفاً وصحواً، دافئاً بما يكفي أثناء النهار لجعل الاستحمام في البركة على حافة مرج الخيول ممتعاً، وبارداً بدرجةٍ كافية في الليل لجعل الأغطية الموجودة على الأسرة في غرف النوم مريحة. لم تُوقد المشاعل التي شكّلت حلقةً خارج البوابات الأمامية للقاعة مرةً أخرى؛ كان لوث راغباً في الترحيب بضيوفه، لكنه لم يعتبر المزيد من الإضاءة أمراً ضرورياً.

في ظهيرة اليوم الثاني، تبعت هاري الجدول الذي كان يفيض من بركة الاستحمام، وبعد قدرٍ معيّن من محاولات تفادي الفروع الملتوية والتعثر فوق الروابي المتوارية، خرجت من بين الأشجار المتشابكة إلى شاطئٍ فضيّ هادئٍ يحُدُّ بحيرةً واسعة. بحيرة الأحلام. كان

الجدول يتوقفُ عن خريره عندما يُغادر حافة الغابة، وينسابُ في صمتٍ فوق الرمال الفضية ليصبَّ في مياه البحيرة. ذهبَت هاري إلى حافتها وجلستَ تنظر إلى الماء. وشعرت بصوت خطواتٍ إلى جانبها؛ فنظرت إلى الأعلى لتجدَ لوث. الذي قال: «هناك طريقٌ سهل يؤدي إلى هنا. كان يجب أن تسألِي.» وانحنى وأزال غُصناً صغيراً من بين شعرها، وآخر من ظهر سترتها. ثم جلس بجانبها. وأضاف: «سأريك طريق العودة.»

قالت هاري، وهي تُخرج ورقةَ شجر من عنق قميصها التحتاني: «هل تعيش هنا بمفردك؟»

أجاب: «كلا، لكن رفاقي في المنزل أكثرُ خجلاً مني، ويميلون إلى الانسحاب والاختباء وسط الأشجار المتشابكة عند توقُّع وصول زُوار. وهناك عددٌ كبير من الزوار، يأتون بين الحين والآخر.»

قالت هاري وهي تبتسم: «إنك عرَّاف مشهور.»
بادلها لوث الابتسام، لكن وهو يحيد برأسه جانباً. وقال: «أجل، أظن أنه ربما يكون نوعاً من الفزع الخاص ذلك الذي يجعل رفاقي يبتعدون في مثل هذه الأوقات؛ فهم أيضاً لديهم بعض من قدرة الكيلار والرؤية.»
لم يبدُ أنه ميَّال للاسترسال؛ لذلك قالت هاري: «هل كلُّ مَنْ يأتي إلى هنا يتصرف وكأنه شبه نائم؟»

«كلا مجدداً؛ أنا وأصدقائي بشكل عام منتبهون للغاية. لكن أجل، يجد معظم الزوار أنه مكانٌ يبعث على النوم — وهي سمعةٌ أدهمها؛ لأنها تجعل أفكارهم ناعسةً أيضاً؛ ومن ثم يسهل مُراوغتها.»

قالت هاري: «تدعمها؟»

قال لوث: «أنتِ لستِ ممَّن يستسلمون للنعاس بسهولة، أليس كذلك؟ إن مصدر ميلدتار يشوب كلُّ الماء هنا، والهواء الذي يمرُّ فوق بحيرة الأحلام يحمل معه شيئاً يبعث على النعاس. فقط أولئك الذين يحملون كثيراً من الكيلار بداخلهم لا يجدون ذلك الأثر الخفيف لمياه الرؤية باعثاً على النعاس الخفيف. مثلك. ومثل كورلاث.»

التقطت هاري، عندئذٍ، فكرةً طرأت على ذهنها، وخبأتها في أعماق ذاكرتها؛ حتى لا يتمكن لوث من قراءتها.

قال لوث: «حسناً. هذا ما ظننته عنك، فأنتِ تتعلمين بسرعة. لم أستطع قراءة تلك الفكرة.»

ابتسمت هاري ابتسامة باهتة.

قال لوث وهو ينظر في وجهها: «لكنني أشك، رغم ذلك، أنك قد تشعرين بالراحة أكثر إذا سألتني عن تلك الفكرة»، لكنها التفتت بعيداً.

قال لوث بلطف: «كورلاث، أليس كذلك؟»

هزت هاري رأسها، ليس لتنكر ذلك، ولكن كما لو كانت تستطيع أن تنفض مخاوفها لتحرر منها؛ لكن لوث لم يقل المزيد. نهضت في نهاية الأمر، وهي تُحدق عبر البحيرة، ولم تستطع رؤية شاطئها الآخر. فقالت: «إنها كبيرة للغاية.»

نهض لوث ليقف بجانبها. وقال: «كلا، ليست كبيرة جداً، لكنها بحيرة من نوع خاص، ومن الصعب رؤيتها. حتى بالنسبة إليّ.» وظل صامتاً لحظة، وهو ينظر عبر المياه. ثم أضاف: «أعتقد أن سبب بقائي في هذا الوادي غير المأهول بالذات من بين جميع الوديان غير المأهولة في أرض التلال؛ هو أنه يُريحني من خلال تذكيري بأشياء لا أستطيع فعلها. فإنني لا أستطيع رؤية الضفة الأخرى لبحيرة الأحلام.» ثم التفت مبتعداً. وقال: «تعالِي؛ سأريك الطريق. إلا إذا كنت تفضلين العودة من الطريق نفسه الذي أتيت عبره، والاشتباك مع الأشجار المسكينة التي اعتادت على عدم الإزعاج.»

الفصل الثاني عشر

بَزَغَ الصباح الثالث مشرقاً ومشجعاً مثل اليومين السابقين؛ وحاشية كورلاث التي لم تَزَلْ مرتبكةً بعض الشيء لكن مبهجة، راحت تتأهَّب لاتباع زعيمها في رحلة الهبوط من قمة الجبل. وتعمَّدت هاري السير في آخر الموكب، وراحت تنظر حولها بينما كان الحصان والفارس قبل الأخير يُغادران الساحة أمام القاعة ويختفيان في الممرِّ المحفوف بالأشجار. كانت واقفة في المكانِ نفسه الذي تقف فيه الآن عندما خطا كورلاث إلى الساحة الواقعة أمام القاعة، وخلفه فايرهارت، لتوديع الرجل الذي جاء لزيارته. إذ تحدَّثا ببضع كلمات، بصوتٍ خفيض جداً فلم تتمكَّن من سماعها وهي متواريَّة في الخلفية، مثلما يمكن لأيِّ شخصٍ يمتطي حصاناً مرتفعاً ذا لونٍ كستنائيٍّ لامعٍ مع قِطعةٍ صيدٍ عند قدميه أن يتواري، ثم رأت كورلاث يمدُّ إحدى يديه، وكفُّها لأسفل وأصابعها ممدودة، نحو لوث. ونظر كلُّ منهما في عيني الآخر لحظةً طويلة، ثم مد لوث إصبعين للمسِّ ظهر يد كورلاث. فاستدار كورلاث بعيداً وامتطى صهوةَ حصانه، وبدأ فرسان الملك في تتبُّعه نحو فتحة الممر.

كانت ناركنون تتناوب بشدة، وهي تميل على إحدى قائمتي صنجولد الأمامية. ظلَّت تُخرخر لنفسها طوال الصباح، على الرغم من أنها بدت وكأنها تعلم أنهم سيُغادرون، بما أنها فضلت أخيراً مغادرة السرير وتتبع هاري حين أخذت هاري سرجها وأغراضها، وذهبت لإحضار صنجولد. خطر لهاري مندهشةٌ أنها في يومين فقط أصبحت مولعةً بهذا المكان، وكانت آسفةً لمغادرته. يشعر المرء في هذا المكان بأنه في بيت؛ ربما ليس بيتها، ولكن بيت شخصٍ ما، اعتاد على إيواءِ سيده وحمايته وإقامةِ صداقةٍ معه. لم يكن في فراغه الحوَّاء الكائن في قلعة كورلاث، رغم أن قلعة المدينة الشَّماء كانت أكثرَ ترفاً في الأثاث. أخبرت نفسها بصرامةٍ أن سبب حبِّها لهذا المكان يمكن أن يكون ببساطة لأنها تخشى

ما ستواجهه بعد مغادرة هذه الملائة. وجدت لوث يقف بجانبها، وقد وضع يده برفق على غارب صنجولد — في ألفة نادرًا ما يسمح بها صنجولد لأي شخص غريب.

ثم قال لها: «هاري»، فطرفت بعينيها؛ إذ لم يُنادها أحد بلقبها القديم منذ ذلك اليوم الأخير لها في القصر، ممّا بعث فيها جيشانًا مُربكًا من الحنين إلى الوطن؛ لأن أهل التلال لم يستطيعوا نطقه مثلما ينطقه أهل هوملاند؛ إذ ينطقه ماثين هكذا «هري». تابع لوث قائلاً: «أعتقد أن كل شيء سوف يسير على ما يُرام معك: أو على الأقل أنك ستختارين البقاء على أفضل مسار مما سيعرض عليك، وهذا أكثر ما يمكن لأي إنسان أن يأمل فيه. لكنني لا أُنَبِّئُ بأمور حسنة للغاية، لدرجة أن الشكوك لا تُساورني، بالنسبة إليك أو إلى أي شخص آخر؛ وإنني خائفٌ عليك. إن الظلام القادم على دامار لن يهدأ من أجل شخص غريب. إذا أصبحت بحاجة إلى مكان لتأتي إليه، فيمكنك دائمًا القدومُ إلى هنا. سوف تجدينه بمنتهى السهولة؛ ما عليك سوى امتطاء حصانك والمجيء إلى هذه الجبال — أي: جبال دامارية ستفي بالغرض، وإن كان الأقرب إلى هنا هو الأفضل — ورددي اسمي من حين إلى آخر. سوف أسمعك، وسوف يُعرفك مرشدٌ بنفسه.» كان هناك بريقٌ من المرح في عينيه الزرقاوين ذات الجفنين المتهلّلين، لكنها أدركت أن بإمكانها أخذ كلماته على محمل الجد رغم ذلك.

فقالت: «شكرًا لك»، وسار صنجولد إلى الأمام بين الأشجار. وانطلقت أمامه ناركنون، بعد أن مدّت جسدها مرةً أخيرةً وحرّكت ذيلها. لم تنظر هاري إلى الورا، لكن رؤيتها المحيطية عبر طرف قزحية عينها أخبرتها كيف تراجع ضوء الشمس، وانغلقت الأشجار خلفها، وأصبحت ساحة لوث مجرد بقعة من الذهب، على بُعد مسافة طويلة.

كان النزول من الجبل أسهل بكثيرٍ من صعوده، وعلى الرغم من صعوبة السير عند النزول أكثر فأكثر؛ فقد سار صنجولد بخطواتٍ قصيرة متوازنة، تتحسّس حوافره مواضعها بعناية، لكن سحابةً من التنبؤ، أو الصدفة، قد تخلّفت وراءهم وسط الغموض الطيب الذي ساد الأيام الثلاثة التي قضوها في قاعة لوث. وأيًا ما كان القدر المخيف الذي ينتظرهم الآن، فهو قدرٌ محدّد ذو شكلٍ محدّد، وكلما أسرعوا في سيرهم، تمكّنوا من ملاقاته بسرعة والانتهاز منه، أيًا كانت النتيجة.

ومن ثم أقاموا معسكرهم عند حافة التلال السّفْحية في تلك الليلة، وعاد الجيش للظهور مجتمعًا حولهم؛ وبدا الجميع أكثر هدوءًا واسترخاءً، بل اطمئنًا على نحوٍ غامض، بسبب الاستراحة التي حصلوا عليها أيامًا قليلة، ليتسكّعوا وسط السفوح الشجرية للجبال،

ويستمعوا لأصوات الطيور، ويصطادوا الأرانب والظباء من أجل الطهي. ومع ذلك، لم تتسّم جميع الأمور بالخمول؛ إذ زان جيش كورلاث بضغّ مئات أخرى ذلك الصباح بعد مغادرته موقعٍ لوث.

سار تيريم مُمتطيًا حصانَه بجوارها بعد أن بدأ الجيش زحفَه، وظلَّ بجوارها طوال اليوم؛ كانا يسيران في المقدمة مع كورلاث وفرسانه، ومورفوث، وبعض زعماء القبائل الآخرين الذين قادوا أكثرَ من خمسين فارسًا حتى راية كورلاث. ورأت هاري سيناى على نحوٍ مفاجئ، على بُعد عدة صفوفٍ من الخيول — حيث الصفوفُ متقاربة — فانتبهت لها وبادرتها الابتسام؛ ولكن فجأةً وهي غير متأكدةٍ كيف يتصرّف الفائز في منافسات لابرول مع واحدةٍ من أولئك المهزومين، التي ترتدي وشاحًا به شق من صنعها، أخفضت عينها قبل أن تتاح للآخر فرصة الرد. ومع ذلك، في المساء، عندما ترجّلت هاري، وجدت نفسها تُحدّق في خاصرة حصان بُني اللون لم تتعرّف عليها لحظة، وقد ترجّلت راكبته أيضًا، فاكتشفت أنها سيناى. هذه المرة نظرت الشابّان إحداهما إلى الأخرى مباشرة، وابتسمتا.

ومرّت عدة أيام أخرى، وكان جيش كورلاث الصغير يُصدر صوتَ رعدٍ مهيبًا ومخيفًا عندما يركض؛ وفي الوقت نفسه الذي تصوّرت فيه هاري أن الأغراب لم يقدروا أن يكون هناك كثيرٌ من الناس في جميع أنحاء أرض التلال، دار بذهنها أيضًا ما يعرفه كلُّ واحد من أهل التلال: أن أهل الشمال عددهم أكبرُ بكثير. أصبحت هاري الآن تسير ممتطيّةً حصانها بينما تيريم على جانبها وسيناى على الجانب الآخر، والثلاثة يتناولون طعامهم معًا. وقد لاحظت هاري أنه رغم بقاء فرسان الملك كمجموعةٍ في مكانٍ واحد، فقد بدا أن جميعهم لديهم أصدقاء أو أقارب من الجيش خارج مجموعتهم، وقد اقتربوا من مكانهم ووقفوا إلى جانبهم، مثلما اختار تيريم وسيناى، أيّا ما كان دافعهما، الوقوف إلى جانبها. سيقاتل أفراد جيش كورلاث الصغير متكاتفين تجمعهم الصداقة، وهذا أمرٌ يبعث على بعض الارتياح.

وجدها ماثين مرةً، وقد أسندت رأسها إلى رقبةٍ صنجولد والفرشاة تتدلى من يدها بارتخاء. ونادى عليها: «يا هري...» فارتجفت واعتدلت في وقفتها، وبدأت في تنظيف كتف صنجولد. فقال مرةً أخرى: «يا هري، إنه أنا، مُعلمك القديم، وليس هناك ما يدعو لأن تخجلي من أفكارك. فإنها تخطر لنا جميعًا، ولكنها أصعبُ عليك، وعلى كلِّ أولئك الذين انضموا إلينا لأول مرةٍ من المنافسات، لكنها أصعبُ عليك لأنك لابرول مينتا، وحامله السيف الأزرق. لا تقسي على نفسك.»

قالت هاري: «إنني لا أقسو على نفسي.»

ابتسم ماثين ابتسامةً باهتة. وقال: «أنا لا أُصدقك. لكن اعلمي أنه حتى تيريم الشاب، الذي يعشق الأرض التي تمشين عليها...» نخرت هاري، بينما تابع هو: «قضى السنوات الثلاث الماضية وهو يتدرب فوق صهوة حصانه على الحدود، تحت عين والده الحكيمة والمنتبهة؛ كي يتمكن من أن يضرب أول ضربة غاضبة ويسفك دم أعدائه بسيفه الذي حصل عليه حديثاً قبل المعركة الكبيرة في بليدي جاب. وأنت لم تحصلي على تدريب لمدة ثلاث سنوات. إنه ليس خطأك.»

«لن يحدث أيُّ فارق في أن الأمر ليس خطئي، أليس كذلك؟» حاولت هاري أن تبسم، لكن وجه ماثين المتجهّم كان قلقلًا للغاية؛ لذا أمسكت عن الابتسام. وقالت: «شكرًا لك يا مُعلمي القديم؛ سأحاول أن أتذكّر ما تقوله.»

قال ماثين بهدوء: «أنت لا تزالين صديقتي التي يُشرفني خدمتها، يا هريما-سول، وأنا أثقُ في قدراتك، مهما حدث. إذا نسيت كل شيء، فلا تنسني هذا.»

قالت هاري: «لن أنسى.»

ومن ثم تركوا الجبال التي كانت تمثّل لهم نوعاً من الحماية، وزحفوا باتجاه الشمال الغربي عبر السهل ليصلوا إلى الفجوة الكبيرة في السلسلة الشمالية على نحوٍ سريعٍ قدر الإمكان، حيث سيتدفّق الغزاة الشماليون. وقد تحرّكوا بسرعة ولكن دون استنفادٍ كامل طاقتهم؛ لأن الخيول والفرسان سيحتاجون إلى قوتهم عند الاشتباك مع الجيش الآخر؛ كذلك رغب كورلاث في أن يصلوا إلى هناك قبل عدوّهم بوقت كافٍ؛ حتى يتمكن من اختيار المكان الذي سيتواجهون فيه. وقد عبّروا مساحةً صغيرة من الصحراء الحقيقية؛ فبعد مدّة وجيزة من مغادرتهم حدود التلال السفحية، بدأ هامشُ الشجيرات الجافة في الصحراء يتحوّل إلى اللون الأخضر، ثم اجتازوا الحقول الصغيرة المتقطعة المروية بعناية، التي أصبحت ساكنة وخالية الآن.

في غضون ثلاثة أيام، كانوا سيصلون إلى بوابة الشمال، بليدي جاب، فدعا كورلاث مرةً أخرى إلى اجتماع مع فرسانه وزعماء القبائل. انتظر تيريم وسيناى خارج خيمة زوتار بجانب حلقة نيران صغيرة، لحراسة سرج هاري وأمتعتها، وذهبت هاري لسماع ما سيقوله ملكها، وتذكّرت كلمات لوث لها: «إنه لفي صالحك أن تثقي فيه.»

وقد أجروا إحصاءً لعددهم. كان هناك بعض الجنود المُشاة الذين سينضمّون إليهم في نهاية مسيرتهم، ولكن فقط عدد قليل؛ إذ كان القليلون من أهل التلال الذين لا يشعرون بأنهم أفضل وأكثر فائدة وأكثر واقعية على ظهور الخيل. باستثناء هؤلاء، كان الجيش

مكتملَ العدد. ولم يأتِ سوى عددٍ قليل من أهل التلال من أقصى الحدود الغربية؛ لأنَّ التلُّوثَ الأخلاقي للأغراب قد أثرَ عليهم. حدَّقتْ هاري في يديها، وقد تحولَ لونها إلى البنيِّ الفاتح كلون القرفة مثل أيِّ شخص من أهل التلال. كان شعر إيرين أحمر اللون، هكذا قالت لنفسها، ثم حسرت غطاء رأسها، وها أنا ذا فارسةً من فرسان الملك.

بلغ تعداد قوات الجيش الصغير ما يقرب من ألفي مقاتل، فساد الصمتُ بينما يُفكر الجميع في التفوق الكاسح لجيش الشمال من حيث العدد، وفي اتساع الممرِّ الجبلي. كورلاث، دون الإدلاء بأي ملاحظات لحفظ ماء الوجه حول أن الأمور ليست سيئةً كما تبدو — إذ إنَّ أهل التلال، هكذا قالت هاري لنفسها، لا يروق لهم على ما يبدو هذا النوع من الأشياء؛ ماذا كان السير تشارلز المسكين ليفعل هنا؟ — بدأ في شرح الخيارات المتاحة أمامهم، لكن هاري، وهذا ممَّا أثار رعبها، وجدَّت عقلها يشرد. فانتزَعَتْه من شروده، وصبَّت تركيزه على كورلاث، لكنه شرد على الفور مرةً أخرى. هل هذا هو أولُّ أعراض ضعف الأعصاب؟ هكذا قالت لنفسها، وهي تشعر بالبرد والتعرق على الرغم من الحرارة الجافة.

ألقي العديدُ من الرجال الجدد أسئلةً أو تعليقات، ثم انفضَّ الاجتماع، ورغم أن العادة جرت على أن مجالس فرسان الملك تنتهي دائماً بهدوء، فقد ساد شعورٌ خافت داخل أجواء خيمة الملك، شعورٌ غير سار. ولم يتبقَّ سوى عددٍ قليل من الناس عندما وقفتْ هاري وواجهت كورلاث وقالت منهكةً، كما لو أنها لا تستطيع منع نفسها من قول هذا: «لماذا تُصرُّ على تجاهل الممرِّ الشمالي الغربي؟ لا أستطيع أن أصدِّق أن جيش الشمال لن يُباغتنا مباغتةً بغیضة باستخدامه.»

قال كورلاث: «إنني أتجاهله لأنه لا يتطلب اهتمامي»، ورغم أن صوته قويٌّ بعض الشيء، فلم يحمل ما يدل على الغضب.

«ولكن ...»

«أنتِ لا تعرفين شيئاً عنه.»

استفزَّتْها نبرته التي تفتقر إلى الحماسة فقالت: «إن خرائطَ الأغراب تتَّسم بالدقة، وقد رأيت خرائط تلك المنطقة — كما أنني أجيد قراءة الخرائط أيضاً! وقد استنتجتُ منها أن كتيبةً من المقاتلين، كبيرة العدد بحيث لا يمكن تجاهلها، قد تمرُّ بسهولة عبر الممر الشمالي الغربي، وتتبع الجبال شرقاً، وتُهاجمنا في السهل من الخلف، وهكذا ستُحترق الدفاعات والمتاريس الطبيعية التي تعتمد عليها خطُّك عندما نُباغت من ظهورنا!»

زأر كورلاث قائلاً: «كفى! بالنسبة إليك سأضعك في تجويف على جانب التل، حتى تتمكنني من رؤية كل الاتجاهات، وأنصحك أن تتطلّعي عاليًا أيضًا؛ من أجل النصور التي قد تحمل الصخور!»

استدارت هاري وغادرت مسرعة. ولاحظت، دون انتباه كامل، أن إيناث وفاران وماثين وقفوا يستمعون، ولم تر النظرات المضطربة التي وجَّهوها نحوها وهي تخرج. كان هواء الليل باردًا مع البرودة المفاجئة للصحرَاء عند حلول الظلام، فأخذت بعض الأنفاس العميقة. ثم توجهت إلى حلقة نارها، وجلست وحاولت أن تجعل وجهها يبدو هادئًا؛ ولو كان عقلها هادئًا، لربما ظنَّت أنه من الغريب ألا يطرح عليها سيناي وتيريم أيَّ أسئلة، لكنها شعرت بالارتياح من صمتهم، وتصارعت قدر استطاعتها مع هواجسها. ثم جاء ماثين وجلس بالقرب منها أيضًا، وظلَّ صامتًا هو الآخر، ولم تلحظ كيف كان ينظر إليها.

ومن ثم خفَّت حلقات النار، وخلد الجميع للنوم. وقرَّرت هاري ألا تنام في الخيمة الملكية زوتار تلك الليلة؛ وظل ماثين بجانب نيرانها الخافتة أيضًا رغم أنه ظل دون أن يقول شيئًا. تقلَّبت هاري على ظهرها وحدقت في السماء.

تركت النجوم تتأرجح فوقها بعض الوقت، ثم وقفت بهدوء، والتقطت فراشها وحقيبة سرجها، وشقَّت طريقها إلى الخيول، وتذكَّرت ما علَّمها ماثين عن التسلسل. لم تصدر عن ناركنون أيُّ من حركات احتجاجها المعتاد على إزعاجها، وتبعته بخنوع. حكَّ صنجولد رأسه بها لكنه لم يُصدر أيَّ صوت؛ لأن خيول الحرب مدربة على الصمت، فامتطت سهوته وغادرت ببطاء. كانت تُعاني من صراع رهيب، ظل يشتدُّ طوال المساء، والآن يبدو أنه يُحيط بها مثل السحابة. وربما كان سحابة بالفعل؛ إذ لم يعترض طريقها أحدٌ وهي توجّه رأس صنجولد باتجاه الغرب.

لقد قطعوا عدة أميال قبل بزوغ الصباح؛ لأن صنجولد واحدٌ من أفضل خيول أرض التلال، وكانت السرعة التي يتحرَّك بها الجيش بطيئةً مقارنةً بسرعته. تذكَّرت هاري تلالاً صغيرة ناتئة ممتدة وسط السهل الأوسط، الذي يجب أن تصل إليه قبل أن يغمره ضوء الصباح بشكل واضح للغاية، يسمح لجواسيس الاستطلاع برؤية حصان كستنائي بمفرده يمتطيه مقاتلٌ من أرض التلال، ويشق طريقه غربًا على عجل. كانت تأمل؛ لأن التلال بدت مكسوةً بالزرع على خريطة أرض الأغراب، ولأن ديدام بنفسه كان قد توغَّل فيها ورسم الخريطة بنفسه، وأنها ستُصبح قادرةً على التواري فيها، كما كانت تأمل في أن يُصبح من السهل العثورُ على الجدول الذي يتدقَّق عبرها.

وقد أصابها الإنهاكُ بحلول الوقت الذي أصبحت فيه الشمس وراء ظهرها، وعرفت أن صنجولد قد أنهك أيضاً، على الرغم من أن خطوته ظلت طويلة ومرنة كما كانت منذ ساعات. وظلت ناركنون تركض بجانبهما، مواكبةً للخطوات. لكن التلال كانت على مقربة؛ نتوءات خشنة من الصخور ذات اللون الرمادي والأحمر الصديء، ليس فيها سوى نبات الأشنة ليكون أول ما يقع عليه نظرُ المسافر، ولكن بينما كان صنجولد ينتقي طريقه بحرصٍ حول حجرٍ رمادي مرتفع، ظهر العُشب فجأةً أمامهم، وداست أقدام صنجولد تربةً داكنة لينة، ثم سمعوا صوتَ انسيابِ ماء الجدول.

وصلت ناركنون إليها أولاً، لم يكن لديها أيُّ نفور من الماء مثل معظم القطط، فقفزت فيه، دافعةً الماء في جميع الاتجاهات، ولترش هاري بمرح عندما تبعتها. فقالت لها هاري: «ما كان يجب أن أتركك تأتين معي، لكن لا أعتقد أنه كان بإمكانني منعك بأي طريقة. شكراً للآلهة.» ثنى صنجولد أذنيه للخلف في غضبٍ وهميٍّ وراح يضرب الماء بقائمتيه الأماميتين، بينما كانت ناركنون ترشه أيضاً. فتابعت: «وإلى جانب ذلك، في رأيي أن صنجولد كان سيفتقدك، وكان عليّ أن أحضره.»

وبعد أن خرجوا جميعاً بخفة من الماء، سمعت صوتَ حوافر خيول، فاستدارت لتواجهها. لم يبدُ على وجهي رفيقيها ذوي الأرجل الأربعة أيُّ انزعاج، حيث التفت صنجولد برأسه لفتة بسيطة لينظر من فوق كتفه إلى من سيُقبل عليهم أيّاً كان من هو، لكن هذا لم يكن مريحاً؛ لأنهما لم يفهما فظاعة ما فعلته، أو أن الأصدقاء الذين كانوا يتبعونها لم يعودوا أصدقاء.

كان القادمان هما سيناوي وتيريم. بدا على حِصانَيْهما السرعةُ التي أتيا بها أسوأ ممّا بدت على صنجولد، لكنهما وقفا في هدوء وتهذيب، ينتظران على أمل أن يُخبرهما فارساهما بالتوقّف والحصول على راحة؛ كي يشربا ويأكلا، مثلما كان يفعل صنجولد الآن. قالت هاري: «لماذا جئتما ورائي؟ هل أرسلكما كورلاث؟ أنا ... أنا لن أعود. إذا أخذتما صنجولد مني، فسأذهب سيراً على الأقدام.»

ضحك تيريم. لم تكن ضحكة جيدة، ولكن كان بها بعضُ المرح الذي يشوبه الإجهادُ بالرغم من ذلك. وقال: «لا أعتقد أن أي شخص يمكنه أن يأخذ صنجولد منك، إلا ربما عن طريق تقطيعه إلى أشلاء، ونحن لم نُرسل من قبل أي شخص. لقد تبعناك ...»

قالت سيناى: «لقد تبعناك لأننا اخترنا أن نتبعك. وقد قام ماثين وشاهدنا نذهب، ولم يقل شيئاً، ولن تُعيدنا؛ لأننا سنتبعك على أي حال، مثل ناركون.» ترجمت سيناى بتأناً، وأرسلت حصانها الممتن إلى الماء، وفعل تيريم مثلها.

جلست هاري في المكان نفسه الذي كانت تقف فيه. وقالت: «هل تُدركان ما فعلته أنا؟ وما فعلتماه باتباعي؟»

قال تيريم: «ليس على نحو دقيق. لكن والدي لديه أبناء آخرون، يمكنه تحمل حرمان واحد أو اثنين من الميراث.»

كانت سيناى تصب الماء على رأسها. وهي تقول: «هناك قليل ممن سيأتون إليّ، سنمرُّ بالقرب من قريتي، وسأخبرهم، وسيتبعوننا. لم يتبق كثير من الناس في الطرف الغربي من هورفيلز. لكن أغلب من هناك يدينون بالولاء لوالدي. للأسف، لقد انضم أفضلهم إلى كورلاث بعد أن غادرت أنا للاشتراك في المنافسات، ولكن هناك البعض — مثل والدي نفسه — الذين اختاروا عدم التخلي عن الأرض التي أحبُّوها لأجيال.»

قالت هاري: «لن ينفَع ذلك عندما يتبرأ منك، مثل والد تيريم.»

هزت سيناى شعرها المبلل وابتسمت. وقالت: «والدي لديه عدد قليل جداً من الأطفال ولن يتبرأ من أحدهم، وأنا الابنة الوحيدة لزوجته الأولى، وقد ربّاني ومنحني الحرية لأقرر نفسي. كانت الطريقة التي فعل بها ذلك هي الاستجابة لي عندما أطلب شيئاً، حتى عندما كنت أئسم بالحمافة. لقد عشت بهذه الطريقة، وأنا أعرف كيف أأخذ قراراتي، وسيفعل هو ما أطلبه منه.»

هزت هاري رأسها. وقالت: «هل تعرفان إلى أين ... نحن ... ذاهبون؟»

قال تيريم متفاجئاً: «بالطبع. علاوة على ذلك، لقد أخبرنا ماثين، منذ أيام.»

كانت هاري لا تفضل الجدل، وأدركت في أعماق ذهنها أنها لا تريد المجادلة. لقد شعرت بالدفء والارتياح بسبب وجود صديقين آخرين معها في المنفى الذي اختارته بنفسها، وعلى عكس صنجول وناركون، لم تشعر أنها أرغمت هذا الرجل وهذه المرأة على صحبتها. قال تيريم بنبرة واقعية: «وقد جلبنا المون. لا يجب أن يذهب المرء في مهام يائسة من دون طعام.»

قالت هاري وهي تحاول الابتسام: «كانت ناركون ستعتني بي، على ما أظن.»

قال تيريم: «حتى ناركون لا تستطيع إعداد الخبز»، وفرد قطعة من القماش تحتوي على عدة أرغفة من الخبز من النوع المستدير نفسه المخبوز في قدور، الذي يأكله الجيش بكميات كبيرة.

ومن ثم أزالوا سروج خيولهم في صمتٍ وهم يشعرون بحسن الصحبة، وفركوا علامات العرق بالعشب، وخاضت الخيول في الجدول مرةً أخرى، ورشَّت بطونها بالماء، ثم وجدت مواضع رملية على الشاطئ لتتدحرج فوقها، وتخدش ظهورها وغواربها وتسهل بسعادة. استراحت الخيول والفرسان معاً في ظل بعض الأشجار الرفيعة المنخفضة الفروع، حتى مالت الشمس للغروب، ومشط الفرسان خيولهم حتى تألّقت في ضوء الشفق. ثم وضعوا السروج على ظهورها وامتطووها وساروا بها، بينما ضوء الشمس الغاربة يبهز أعينهم، مع ظلّ طويل نحيف لقطّة خلفهم.

لم يستطع ماثين النوم بعد أن تمنى في صمتٍ السرعة والتوفيق لسيناى وتيريم. حيث استلقى مرةً أخرى، وهو يسترجع ما جرى خلال الأسابيع الماضية، وظلّت الذكريات تسيطر على ذهنه لدرجة أن الفجر بدأ في البزوغ، وكانت الأجساد الأخرى تتحرك قبل أن يُفكر هو في النهوض. انضمَّ إليه إيناث عند حلقة النار التي جلس حولها سيناى وتيريم وهاري في الليلة السابقة، ولم يتفاجأ أيُّ منهما عندما رأى كورلاث يترك خيمة زوتار ويأتي نحوهما مباشرة. وظلاً جالسين، وحدّقا فيه وهو واقفٌ أمامهما، ولكن عندما نظر إلى أسفل وجدا أنهما لا يستطيعان مواجهة عينيه، أو لم يرغباً في معرفة التعبير الموجود فيهما، فحدّقا في النار مرةً أخرى. واستدار هو وسار بضع خطوات وتوقّف، ثم انحنى، والتقط شيئاً ما. كان وشاحاً طويلاً باللون الأحمر الداكن، متكوّماً على شكل منحنيّ فوق الأرض، بحيث بدا كأنه ظلّ بذاته. وضعه على يده فتدلّى مثل حيوانٍ ميت، وبدا نسيماً الصباح الخفيف غير قادر على تحريكه.

الفصل الثالث عشر

بعد مرور يومين آخرين، وعند بزوغ شمس الصباح، رأت هاري إيستن مرةً أخرى، وغيّرت مسارهم قليلاً نحو الشمال؛ لأنها لم تستهدف دخول المدينة، ولكنها تودُّ مقابلةً قوات جاك ديدام التي تتولّى حماية جبهة المدينة. وسارت يَحْدوها الأمل في أن تجدَ ما يدل على وجود جاك وسط قواته، وليس في اجتماعٍ دبلوماسي أو غزوة على الحدود. لم تستطع تخيّل أنها قد تحاول شرحَ مهمتها لأيّ شخص آخر غيره، ولا تعتقد أنّ جاك سيظنُّ أن الجنون قد أصابها. لكنها تعتقد أنّ أي شخص آخر — حتى ديكي، بل ديكي بالأخص — سيظنُّ أنها مجنونة. لكن حتى لو كان جاك في الحصن وصدّق قصتها، فهل سيساعدها؟ لم تعرف، ولم تجرؤ على التخمين. لكن هي وتيريم وسيناى، حتى مع تعزيزات والد سيناى، لن يتمكنوا من إنجاز المهمة وحدهم.

على الرغم من ذلك، اعتقدت أنّ وجودهم معها أفضلُ بكثيرٍ مما لو كانت بمفردها. في الليلة الأولى، بعد أن انضمت إليها سيناى وتيريم، وبعد استقرار الحيوانات ونوم رفيقيها، قطعت هاري لنفسها غصنَ شجرة ربيعاً ومستقيماً، وجردته بالسكين القصير الذي احتفظت به في حداثها. وعندما واصلوا رحلتهم في ذلك المساء، ربطت الغصن على نحوٍ طويلاً في سرج صنجولد، حيث أخذ يرتطم بساقها اليمنى وهي تمتطي حصانها، ولكن على الأقل لم يُشكّل تهديداً لأيّ من رفيقيها، اللذين سارا على جانبيها وهما يمتطيان حصانيهما. وقد نظرا نحوه، لكنهما لم يقلوا شيئاً. وعندما رأت إيستن تلوح في الأفق على ضوء الفجر أمامهم، توقّفت، وأخذت سكينها مرةً أخرى، وقطعت بعناية عدة بوصاتٍ من حاشية سُترتها البيضاء، وفكّكت الغصن، وربطت قطعة القماش المجعّدة في أحدِ طرفيه. ووضعت الطرف الآخر تحت ساقها، ورفعته في وضعٍ مستقيم بيدٍ واحدة. «إنها علامة على

أننا جئنا قاصدين سلامًا»، هكذا أوضحت لصديقيها، على استحياء؛ فانفجرت أساريهما وهزاً رأسيهما.

كان الوقت لا يزال مبكرًا جدًا. وقد عمّ الهدوء المدينة وهم يسرون بجوار حدودها، ولم يعترض طريقهم أي شيء، ولا حتى كلب، وهم يتجهون نحو الحصن. وجدت هاري نفسه تراقب من زوايا عينيها، وتبحث عن أي خيوط صغيرة عابرة من الضباب قد تتبعهم. كان من المفترض أن تنبح الكلاب. ولم تر أي ضباب. لم تعرف ما إذا كان أي من رفيقيها لديه القدرة على تبديد الضباب أم لا، وكانت تُدرك جيدًا أنها لا تعرف أبعاد قدرتها هي نفسها.

صعدوا المنحدر المؤدي إلى بوابة الحصن المغلقة، وكانت حوافر الخيول تصدر أصوات ارتطام طفيفة على الأرض الرملية، وتتقاذف الحصوات الصغيرة لأعلى تحت وطأة الارتطام، وفكّرت في المهر القصير، الذي كان بلا شك نائمًا في إسطبله الآن يحلم بالتبن. نظرت هاري إلى بوابة الحصن في دهشة، حسبما تتذكر، وكانت متأكدة على نحو معقول من أن تذكرها صحيح، تُفتح البوابة عند الفجر، مع انطلاق صوت بوق الإيقاظ، وتظل مفتوحة حتى غروب الشمس. كانت البوابة الخشبية ذات القضبان الحديدية، والمثبتة في جدار من الطوب الأصفر الباهت، أعلى من رأسها وهي جالسة على صهوة صنجولد، وتنظر إلى أعلى؛ وكان إطارها أكثر ارتفاعًا أيضًا. فتوجهوا نحوها مباشرة، ولم يستوقفهم أحد، ووقفوا أمامها، في حيرة من أمرهم، وقد انعكست ظلالهم على الخشب الرمادي أمامهم بينما تُرفرف راية هاري الصغيرة في طرف ساريتها. صعدت ناركنون إلى البوابة وراحت تتشمّمها. لم تخطر على بال هاري قط احتمالية عدم تمكّنها من الدخول إلى القلعة. فتقدّمت نحو البوابة وطرقت عليها بقبضتها. وعندما اصطدمت قبضتها بالحاجز الصلب، سرى وخز في ذراعها، وأخبرتها مهمة من الكيلار في قاعدة جمجمتها أنها تستطيع المشي مخترقة هذا الجدار إذا تحتم عليها ذلك، لتحقيق هدفها. في تلك اللحظة، أدركت بالضبط كيف اختطفها كورلاث من غرفة النوم التي لم تكن في الوقت الحالي بعيدة جدًا عن المكان الذي يقف فيه صنجولد، وفهمت أيضًا أن الكيلار حتمًا ترى بعض الفائدة في مهمتها في حصن أرض الأغراب لدعمها بقوة؛ ولهذا لم تكن تعرف هل كان في هذا مدعاة للسرور أو الأسف أو الخوف. وإن كان الخوف فمن أجل من؟ شعبها الجديد، أم أصدقائها القدامى؟ وانتابتها رجفة من التعاطف الساخر لما شعر به ملك أرض التلال حتمًا، وهو يصعد سلم القصر في منتصف الليل، ثم أمالت رأسها إلى الوراء لتُحدّق

في جدار القلعة، وضربت خاصرةً حصانها برفق بباطن ساقها، لتُحرّكه بعيداً عن هذا الجدار.

ثم صاحت قائلةً: «منذ متى تُغلق هذه البوابة في وضح النهار؟» قالتها بلغة هوملاند التي أحسّت أنها قد أصبحت غريبةً على فمها، وتساءلت عما إذا كانت قد نطقت الكلمات كما لو كانت امرأةً من أهل التلال.

بكلماتها هذه، انفكت التعويذة، أيّاً ما كانت ماهيّتها؛ وأغمض الفرسان الثلاثة أعينهم فجأةً ثم فتحوها، كما لو أنّ ضوء الشمس قد صار أشدّ سطوعاً، وفُتحت نافذةٌ صغيرة بجانب البوابة وفوق رءوسهم؛ وأطلّ منها رجلٌ ما بوجهه. وقال: «من أين أتيت، يا رجل أرض التلال، وماذا تريد منا؟» وهو ينظر نحو قطعة القماش البيضاء بارتياب.

قالت هاري وهي تبسم: «لقد أتينا من أرض التلال، لكنني لستُ من أهلها، ونودُ التحدّث مع الكولونيل ديدام.»

تجهم وجه الرجل. فظنّت أنه لم يرقّ له أنها تعرف اسم جاك. وأضاف على مضض: «إنه لا يتحدّث إلى أهل التلال — أو أولئك الذين يتشبّهون بهم.» وعندئذٍ أطلّت نحوهم عدةً وجوه من فوق الجدار، لم تتعرّف هاري على أيّ منهم، ووجدت هذا أمراً غريباً؛ لأنها كانت تعرف وجوه جميع رجال ديدام تقريباً. ولم يكن قد مضى على مغادرتها لهم أشهرٌ طويلة لدرجة أن يكون طاقمُ حراسة القلعة بأكمله قد تغيّر. حدّقت في وجوههم، متسائلةً عما إذا كانت عيناها أو ذاكرتها قد خانتها.

عبست لما استشفتته من نبرةٍ مُحاورها. وقالت وهي تُحاول أن تُقرّر ما إذا كان ذكر اسمها سيثير مزيداً من الجلبّة: «يمكنك أن تُبلّغه برسالةٍ إذن.»

قال الرجل عند النافذة بلهجةٍ غير مشجّعة: «اسمع يا رجل أرض التلال...»

قال أحد الرجال الواقفين أعلى الجدار: «تمهّل يا بيل، حبّاً للرّب، إن الأوامر الجديدة لا تنصّ على استخدام الوقاحة. إذا كنتَ لن تُبلّغ الرسالة عنهم مثلاً طلبوا، فسأفعل أنا — وسأكون على يقينٍ من أن أذكر السبب الذي جعل رجلاً خارج ساعات الخدمة الرسمية مثلي يفعل ذلك.»

قالت هاري في تردّد: «توم؟ هل أنت توم للويد؟»

ساد صمتٌ مُوتّر وكاتمٌ للأنفاس، وتمتم الرجل عند النافذة قائلاً: «إنّ هذا سحر.» وجاء الصوتُ من أعلى السور مرةً أخرى، ببطءٍ لكن بوضوح: «أجل أنا توم للويد، لكنك تعرفني وأنا لا أعرفك.»

قالت هاري بأسلوبٍ جاف: «هذا صحيح»، وأزاحت غطاءً رأسها ونظرت إليه. وأضافت: «لقد رقصنا معاً في إحدى الحفلات، منذ بضعة أشهر: لقد انهالت العروض على أخي، دي ... ريتشارد، من جميع أصدقائه طوال القامة للموافقة على الرقص مع أخته الضخمة.»

قال توم: «هاري ...» وانحنى فوق الجدار، وكتفاه بارزتان في مقابل الضوء، ووجهه ويده قد اعتراهما الشحوبُ فصارا في لون رمال الصحراء. وتابع: «أنتِ هاري، أليس كذلك؟»

قالت هاري، وهي تتعجب كيف بدا غريباً أمام عينيها، ولم تتعرّف عليه قبل أن يتحدث: «أجل، وأنا أريد التحدث إلى الكولونيل ديدام. هل هو هنا؟» شعرت هاري بخفقان قلبها الشديد من فرط التوتر.

قال توم بنبرة مرتبكة: «أجل، إنه يقرأ جريدة قديمة جاءت من الوطن مضى على صدورها ستة أشهر، ويتناول قهوته الآن، حسبما أظن. بيل، أيها البائس، افتح البوابة. إنها هاري كرو.»

كانت ساقا هاري مشدودتين على خاصرة صنجولد، فرفع الحصان الكبير رأسه لأعلى وارتجف.

قال بيل فجأة: «إن هذا الشخص لا يشبه هاري كرو. وماذا عن الاثنين اللذين معه ... معها؟ وهذا النمر ذو اللون المضحك؟»

قالت هاري بغضب: «إنهم أصدقاؤني. إمّا أن تفتح البوابة أو على الأقل تُبلغ رسالتي.» «لا يمكنني مبارحة موقعي، سيتولّى رجلٌ آخرُ إبلاغ الرسالة. لن أفتح البوابة لشخص من أهل التلال. إنها مغلقة بسبب أهل التلال. إنّ توم متساهل للغاية. كيف أعرف أنّك هاري كرو؟ إنّك تبدّين مثل شخصٍ قذر من أهل داريا، وتمتطين الحصان مثل أهل داريا، ولا يُمكنك حتى التحدّث بشكل صحيح.»

بدأ نبض هاري يدقُّ في أذنيها.

«تحلّ بالشفقة يا رجل ...»

قال بيل: «لست أنت يا توم. نحن نعلم بالفعل أنّك خارج ساعات الخدمة. أحضِر رجلاً آخر في الخدمة.»

قالت هاري من بين أسنانها: «لا تهتم. سأقدّم الرسالة بنفسي. أنا أعرف مقرّ جاك.» وأسقطت فرع الشجرة على التراب، وأدركت أنها ستفعل شيئاً غيباً للغاية، حيث أرجعت

صنجدول إلى الراء بضع خطوات بعيداً عن البوابة، ثم أدارت وجهه باتجاهها مرة أخرى، وركضت نحوها.

قفز صنجدول قفزة رائعة بعد أن استند إلى قائمتيه الخلفيتين، وكان لدى هاري سبب لتصبح ممتنةً للماءة سرجها على نحو مثالي، ولكن بينما هو في الهواء بدا وكأنه يطفو، ونظر حوله، ونزل على الأرض بخفة مثل ورقة شجر. وخطا خطوتين ثم توقّف، بينما حاولت هاري أن تبدو هادئة وراقية، وكأنها تعرف ما كانت تفعله طوال الوقت. انتهت القفزة في بضع ثوانٍ، ولم يتوقّع أحد شيئاً لا يُصدق مثل هذا، حتى من واحدٍ من أهل التلال، كان الرجال يصيحون الآن، وقد احتشدوا حولها. لقد ظننت أن لا أحد سيطلق عليها النار على نحو خارج عن السيطرة، لكنها لم تكن متأكدة تماماً؛ ولذا انتظرت، بدلاً من البحث عن جاك ديدام مثلما هدّدت. مدّ صنجدول رقبتة وهزّ جسمه. وقفزت ناركنون فوق البوابة خلفهما — وصرخ بيل من الخوف والغضب — وهرولت القطّة نحو صنجدول وجلست تحت خاصرته.

لكنها لم تكن مضطّرةً إلى البحث عن جاك في نهاية الأمر؛ لأن الضيعة عند البوابة جعلته يذهب نحوها مسرعاً بعد ثوانٍ قليلة من قفزة صنجدول. حيث التفّ عبر الزاوية الضيقة لأحد المباني القائمة المقابلة للمكان الذي يقف فيه صنجدول. فرفع الحصان ساقاً بعد أخرى؛ إذ لم يكن معتاداً على مثل هؤلاء البشر المتهورين الصاخبين، لكنه لا يزال مطيعاً لرغبات فارسته. فأعاد كلّ حافر إلى موضعه في ثبات.

توقّف جاك، وتفادى الاصطدام بهما بصعوبة. وبسط صنجدول أذنيه نحو هذا الرجل من أهل أرض الأغراب ذي الرأس الأصلع والشعر الرمادي الذي وقف أمامه الآن، وهو ما زال متحفزاً، يحدّق: كانت عيناه تنتقلان من الحصان الذهبي الكبير إلى القطّ المسترخي، صعوداً إلى مُمتطي الحصان، وقد تدلّى فكّه على نحو واضح. كان غطاء رأس هاري لا يزال على كتفَيها، وشعرها اللامع يتلألأ في ضوء شمس الصباح، فعرفها على الفور، رغم أنه لم ير مثل هذا التعبير على وجهها من قبل. مرّت لحظةٌ عجز خلالها عن التفكير في شيء، ثم تقدّم إلى الأمام وهو يصيح: «هاري!» ورفع ذراعيه نحوها، فترجّلت عن حصانها على نحو غير رشيق، وقد عادت مثل فتاة صغيرة مرة أخرى، وارتسمت على وجهها تعبيرات فتاة صغيرة، واندفعت نحوه. فاحتضنها وربت على ظهرها، كما لو كان يحتضن أحد رجاله بعد أن عاد من مهمةٍ مستحيلة، وبعد مدةٍ طويلة من فقدان الأمل في عودته، ثم قبلها بودٍّ من فمها، وهو ما لم يكن ليفعله مع أحد رجاله، وعانقته هاري ووضعت ذراعيها حول

رقيبته، وبعدها حاولت التراجع لما انتابها من شعور بالإحراج. فأمسك كتفها للحظات أطول وحقق فيها، كانا طويكي القامة، ونظر نحوهما توم للويد بأسى، وراح يفكر في أنهما متشابهان للغاية، رغم شعر الفتاة الأصفر وملابس أهل التلال التي ترتديها، وأدرك — دون أن يصرح بذلك لفظاً — أن الفتاة التي رقص معها منذ شهور، وفكر فيها وهو يلمع حذاءه الأسود، وجافاه النوم عندما اختفت، قد ضاعت إلى الأبد.

مسحت هاري عينيها سريعاً بطرف قميصها، ثم عانقها توم أيضاً، بعد أن أكسبه تصرف قائده الجراً على فعل هذا، لكنه تراجع دون أن ينظر في عينيها، وشعرت هاري، حتى ولو كانت منشغلة بالفعل، بالحيرة مدةً وجيزة من مظهر توم الذي بدا كما لو كان يودعها، وخمنت شيئاً مما لم يخبرها به شقيقها مطلقاً.

استيقظ أفراد الحصن كلهم، ووقف عشرات الرجال حولهم يحدقون ويتساءلون فيما بينهم؛ كان البعض يرتدون الزي العسكري، وبدا بعضهم وكأنهم سقطوا عن الفراش قبل دقيقة بفعل الصدمة المباشرة؛ كان عدد قليل منهم يحملون بنادق وينظرون حولهم بعنف. وصوبت بعض هذه البنادق إلى ناركنون، لكن القطة أدركت بغريزتها أن عليها ألا تتحرك، أو حتى تتناوب فتظهر أنيابها ذات المظهر الخطر. أخذ جنود أرض الأعراب يتساءلون فيما بينهم، وكان هناك كثير من الاستهجان، ولكن في حين أن فرحة قائدهم الواضحة بزائرتهم التي جاءت على نحو مفاجئ مرتدية زي أهل التلال قد خففت من أي مخاوف لحظية ربما راودتهم؛ فقد اعتقدت هاري أنهم بدوا متوترين وحذرين، شأنهم شأن الرجال الذين يعيشون طويلاً تحت وطأة الضغوط.

قال جاك: «ماذا عساني أن أسأل أولاً؟». ثم أردف سائلاً: «لماذا أنت هنا؟ أستطيع أن أستشف من حصانك المكان الذي كنت فيه خلال الأشهر الماضية — يا إلهي، يا له من جواد! — لكنني مذهول تماماً من كل هذا الذكاء ... وإن كنت لا أراني متفاجئاً إذا فكرت في الأمر. هل تعلمين أن القاعدة خرجت على بكرة أبيها تبحث عنك عندما اختفيت؟ وإن كنت في واقع الأمر أشك في أنك تعرفين أي شيء من هذا القبيل؛ لقد رحت أبحث عنك بكل جهد مثل أي شخص آخر متسلحاً مؤهلاً نفسي بأمل عودتك، لكن ما يأخذه أهل التلال بغرض الاحتفاظ به، إن هم اعتزموا ذلك، يحتفظون به، وأعتقد أنهم يريدون الاحتفاظ بك. كان الجميع على يقين من أن أهل التلال لهم علاقة باختفائك المفاجئ على هذا النحو، وإن كان ظناً مستمداً من الخرافة أكثر من كونه استنتاجاً عقلانياً، حيث لم نعر على أثر من أي نوع، كما لم تنتشر أي شائعات في السوق أيضاً. وعانت أميليا، تلك السيدة المسكينة،

من نوباتٍ هستيرية صعبة، وقصم تشارلز أطرافَ شواربه من فرط القلق النفسي، وأخذت السيدة بيترسون بناتها جنوبًا إلى أوتانج. وأحجم أخوك عن التحدُّث إلى الجميع، وأصاب ثلاثةٌ خيول بالإعياء حتى الموت، وهو يمتطيها واحدًا تلو الآخر، في غمار رحلات بحثه عنك ... وهو من اعتاد العناية جيدًا بخيوله، طوال خدمته في الجيش، وإلا فما كنت لأحضره هنا. لا أعتقد أنه قد لاحظ حتى عندما غادرت كاسي بيترسون هذا المكان.»

احمرَّ وجه هاري خجلًا، ونظرت إلى قدميها. «أترين إذن، إنه يهتمُّ لأمرِك — لقد كنت تتساءلين في نفسك، أليس كذلك؟ لم يكن يروق له قائده هنا طوال الأسابيع التي استمرت فيها عملياتُ البحث؛ لأنني لم أستطع بطريقة أو بأخرى الانفعال مع الموقف بالقدر المناسب — أوه، كنت قلقًا عليك، لكنني كنت أيضًا ... أحسدك.»

نظرَ إليها وهو يبتسم، متسائلًا عما سيكون عليه ردُّ فعلها تجاه كلماته، متسائلًا عما إذا كان قد أصاب القول، مدركًا أن الحقيقة ليست دائمًا غدرا في ذاتها، وهو يعلم أن ارتياحه لرؤيتها جعله يتحدث كثيرًا وبحرية مُفرطة — وهو تصرفٌ طالما أوقعه في مشاكل كثيرة مع قادته في الماضي. فنظرت هاري إليه، وابتسمت هي أيضًا، لكنها تذكّرت الدُّوار الذي أصاب فتاةً أرض الأغراب بينما هي بمفردها في مخيم رجال أرض التلال، محاطةً بأناس يتحدثون لغةً لا تستطيع التحدُّث بها، ولا تفهم آمالهم، ولا تستطيع أن تشاركهم أحلامهم.

لقد كان أهل التلال أعداءً لشعبها منذ ثمانين عامًا وأكثر؛ لأنها وُلدت ونشأت كفتاة من أرض الأغراب، كيف يمكن لجاك — حتى جاك — التحدُّث عن الحسد؟ تجمّدت ابتسامتها، وارتفعت سترتها على ظهرها ورجليها؛ لأنها، بطريقة ما، فقدت وشاحها، وأبعدت جونتوران عن سرج صنجولد، حتى تبدو — كما كانت تأمل — أنها جاءت في مهمة سلمية. فقدت وشاحها. إن فارس أرض التلال لا يفقد وشاحه أبدًا. ماذا كانت هي؟ دامالور-سول. ها. وضعت يدها على كتف صنجولد، لكن عندما أدار رأسه ليلمسها بأنفه لم تشعر بالراحة؛ لأنه عاش طوال حياته في أرض التلال. وتمنّت في مرارة وأسى أن يكون شقيقها قد أخبرها عن توم للويد، قبل شهور. كان هذا شيئًا ربما تفهمه، وكان توم لطيفًا وصادقًا.

كظمت غيظها ونظرت إلى جاك مرةً أخرى، ورأى الذكريات تلمع في عينيها، وابتسم لها في أسى، وهو يشعر بالأسف تجاه أي ألم إضافي سببته لها كلماته الطائشة. فقال بهدوء: «يا بُنيتي، إنَّ الخيارات دائمًا صعبة. لكن ألا تعتقدين أنك أنجزت اختياراتك بالفعل؟»

مَشَّطَتْ هاري غُرَّةَ حصانها بأصابعها، وقالت: «لم يكن هناك خيار مطلقاً. أنا أسير في الطريق الوحيد المفتوح أمامي، ومع ذلك يبدو لي في كثير من الأحيان أنني غير لائقة على نحوٍ خطير لهذه المهمة.» ضحكت قليلاً وبشيء من الرجفة. وتابعت: «يبدو لي أيضاً أنه من الغريب جداً أن يضع القَدْرُ مَسَارًا دقيقاً على هذا النحو، ولا يمضي إلا وقتٌ قصير لإعداد الشخص الذي يتعيَّن عليه أن يسلكه.»

أوماً جاك برأسه. وابتسم على نحوٍ خافت وهو يقول: «إنه ليس بنوع الأشياء التي تُسجَّل في التواريخ الرسمية، لكنني أظن أن مثل هذه الأفكار لطالما راودت آخرين، وقَعُوا في شَرِكٍ مثلك.»

عادت يدُ هاري إلى جانبها وابتسمت مرةً أخرى. وقالت: «أيها الكولونيل، سأحاول ألا آخذُ نفسي على محمل الجد.»

فقال: «وسأحاول ألا أتحدّث كثيراً.» تبادلًا الابتسامة، وعرفا أنهما صديقان، وكانت المعرفة مصدرَ ارتياح وسعادة وأمل لكلٍّ منهما، ولكن لأسبابٍ مختلفة. ثم نظر إليها جاك مرةً أخرى، كما لو كان يُلاحظ غبارَ السفر على ملابسها ووجهها لأول مرة، وقال بنبرة حماسية على نحوٍ متعمّد: «يبدو أنك تحتاجين إلى الاستحمام ... يا إلهي، هذا السيف: أنت تحملين شيئاً ثميناً مملوكاً للملك على مقبض سيفك بمنتهى البساطة.»

قالت هاري وهي مُتجهّمة: «ليس بمنتهى البساطة.»

قال جاك: «سأطرح الأسئلة لاحقاً، لكن أملُ أن تُجيبيني عنها. تناولي الطعام واحصلي على قسطٍ من الراحة، وبعدها أخبريني بما أرى أنه قصةٌ طويلة للغاية، ويجب أن تكون القصة الحقيقية، وإن كنتُ لا أعدك بأن أُصدقها.»

قالت هاري وهي تبتسم مرةً أخرى: «إذن أنا لستُ الوحيدة التي لا تُصدق هذه القصة العجيبة. هل تسمح أيضاً لصديقيّ بالعبور من بوابتك المنيعّة؟»

قال الكولونيل ديدام: «إنها ليست منيعّة كما ينبغي. أتمنى لو كنتُ قد وصلتُ قبل دقيقة ورأيتُ تلك القفزة. أنا لا أصدق أنك فعلتها.»

قال توم: «لقد قفزتها بالفعل، يا سيدي.»

قال جاك: «أنا أعلم أنها قفزتها، أنا فقط لم أتوقّع أن لديها القدرة على فعل ذلك. لا شك أن كلَّ قصتك ستكون مستحيلاً كتلك القفزة. ودعيني أبدأ فقط بسؤالٍ بسيط؛ ما هذا؟» وأشار إلى ناركنون، التي لم تتحرّك بعدُ.

فقالت: «إنها قطّة صيد، فولستزا. لقد تعلّقت بي بعد مدة وجيزة من ... مغادرتي من هنا.»

اعتبرت ناركنون أنّ هذه هي اللحظة المناسبة، فوقفت ببطء، وفتحت عينها الخضراوين الكبيرتين على اتساعهما، وطرفت برموشها الذهبية الطويلة مرةً أو مرتين وهي تنظر نحو جاك، وبدأت في التحرك باتجاهه، بينما يقف هو في مكانه بشجاعة. توقفت ناركنون على بُعد خطوة منه وبدأت تُخرخر، وضحك جاك وهو في حيرة من أمره، عندها اتخذت القطّة الخطوة الأخيرة وفركت خدّها بظهر يده. ربت عليها جاك، بنظرة رجلٍ اعتادَ خوض المخاطر، فخرّزت ناركنون بنبرةٍ أعلى. فقال جاك: «أعتقد أنني أعرّض لمحاولاتٍ من التودّد.»

قالت هاري: «تتمتع ناركنون بحاسةٍ ممتازة ترشدها إلى مَنْ ينبغي لها أن تُصادقهم. ولكن ...»

«أجل، سوف ندعُ رفيقك يدخلان بالطريقة المعتادة. ارفع مزلاج البوابة هناك، يا شيبسون، وبسرعة، قبل أن يقفز أيُّ شيءٍ آخر فوقها. لا أحبُّ الأوامر القائمة الجديدة، كما أنها ليست جيدةً حسبما يتّضح.» ورفع جاك نظره عن ناركنون، التي مالت بثقلها الكامل على ساقيه وهي تربت بذيلها على ظهر فخذيه؛ لينظر مجدداً إلى صنجولد. ويقول: «إنه حسانٌ أرض تلالٍ حقيقيٌّ. هل يمكن لأحصنتهم جميعاً القفز فوق حصون أرض الأغراب قبل الإفطار؟»

«كلا. أو ربما يُمكنهم ذلك، لكن معظم فرسانهم لديهم عقلانيةٌ أكثر تكبح جماح أيّ رغبة لديهم في تجربةٍ هذا الأمر. لا سيّما بعد رحلةٍ مثل التي خُصناها.» ذهبت عنها الحماسة التي اعتزتها عند رؤية جاك مجدداً، والطمأنينة التي شعرت بها من دفعٍ ترحيبيها، فتذكّرت أنها كانت منهكة، وشعورها بالعودة إلى الوطن في مكانٍ لم يعد وطنها أصابها بالقلق أكثر. وقالت: «أودُ الاستحمامَ وتناولَ الطعام، كما أنّ علينا جميعاً أن نحصل على قسطٍ من النوم. وبعدها سأروي لك بقية قصتي، سأخبرك بما يجب أن أخبرك به، لكن ... ليس لدينا كثير من الوقت.»

فقال: «أنت هنا لغرضٍ معيّن، ويُمكنني أن أخمّن شيئاً منه. سأحاول ألاّ أكون غيبياً.» فُتحت البوابة، وتقدّم تيريم وسيناى بهدوءٍ عبرها، وتوقفاً بجانب صنجولد، وترجلاً عن حصانَيْهما. فعرفتُهما هاري إلى جاك وانحنى كلّ منهما ولمس جبهته بأصابعه في احترام، لكن دون بسطِ الأصابع الذي يشير إلى أن الشخص المواجه لهما من مرتبةٍ أعلى.

وعندما قالت بلغة أرض التلال: «وهذا هو الكولونيل ديدام، الذي نحن هنا طلباً لمساعدته»، أبهجتها الطريقة التي انحنى بها صديقها من أرض الأغراب ولمسه لجهته بأصابعه، وقد نظر نحوها ويرتسم على وجهه تساؤل بسيط.

قال جاك وهو يتقدمهم نحو مقره: «أنا آسف، لكنني لا أتحدث سوى قليل من لغة أرض التلال. ولذا، يجدر بي أن أطلب منك أن تُخبريني بما يجب أن أسمعه بلغتي، وأن أعذر إلى صديقك عن الوقاحة التي عاملتُها بها.» نطقَ الجملة بلغة أرض التلال على نحو سليم لكن بلهجة ثقيلة على نحو ما، فابتسم كلٌّ من تيريم وسيناى.

قال تيريم، الذي كان يتمتع بسرعة ابن ملك كي يردّ بعبارة دبلوماسية: «نحن نتفهم الحاجة إلى السرعة والوضوح، ولم يخطر ببالنا أن نعتبر ما قلته إهانة؛ وأومأت سيناى برأسها في بساطة.

أخلى جاك ديدام الطاولة الموضوعة في إحدى الغرفتين الصغيرتين المخصّصتين له، وكانت هذه الطاولة تُستخدم في العادة طاولة طعام ومكتباً للكتابة، بالإضافة إلى كونها سطحاً مناسباً لوضع أيّ شيء عليها؛ وأحضر جنديّ الخدمة الخاصّ به وجبة الإفطار لثلاثة أشخاص. فأكل الثلاثة طعامهم في نهم، وأحضر الرجل، وهو يبتسم، وجبة إفطار ثانية لثلاثة أشخاص. فقال ديدام: «اجعلها لأربعة يا تيد. فأنا أشعر بالجوع مجدداً.»

عندما انتهوا، وبينما تحدّق هاري في فنجان الشاي الخاصّ بها، وقد أدركت بقلق مزعج أنها تُفضّل شرب مشروب مالاك، ملأ جاك غليونه وبدأ في نفث سحب كثيفة من الدخان تزحف في جميع أنحاء الغرفة وتنحدر في الزوايا. وقال: «حسنًا، أخبريني فيم جئتَ تطلبين مساعدتي؟»

قالت هاري، وهي تحدّق في الأطراف البالية لحذائها المصنوع في أرض التلال: «إنّ جيش الشمال سيأتي عبر الجبال ... في وقت قريب. قريب للغاية. ويُخيّم جيش كورلاث في السهل أمام الفجوة الواسعة — بليدي في جاب، التي نُسَميها — بوابة الشمال، كما تعلم، في جبال هورفيل ...»

قال جاك وقد أحاطت به سحابة من الدخان: «ممرّ جامبور، في سلسلة جبال أوساندر. أجل.»

«نريد سدّ الثغرة أمام الزحف الشماليّ الغربي، الطريق الصغير عبر الجبال فوق إهيسن — حيث يمكن أن يأتي تدفق غير مرغوب فيه من جنود الشمال ...»
«ويُدْمروا إيسن، ويواصلوا طريقهم لإزعاج كورلاث.»

أومأت هاري. وقالت: «ليس مجرد إزعاج؛ إذ لا يوجد كثير من الجنود في جيش أرض التلال للقتال.»

قال جاك: «هذا يُفسّر، بلا شك، السبب في أنه لا يوجد سوى ثلاثة منكم — وقطة ذات أسنان طويلة — من أجل الزحف الشمالي الغربي، كما تُسمينه أنت.»
ابتسمت هاري على نحوٍ خافت. وقالت: «لقد جئتُ بمفردتي في البداية، ثم لحقوا هم بي.»

«سأتجرأ وأقول، إذن، إنكِ لستِ هنا على وجه التحديد بموجب أوامر من كورلاث.»
«ليس تمامًا.»

«هل يعرف أين أنتِ؟»

فكرت هاري في الأمر، وقالت بحذر: «أنا لم أخبره إلى أين أنا ذاهبةٌ قبل مغادرتي.»
وقد زالَ عن ضلوعها ضغطُ الوشاح.

طرفَ ديدام بعينيّه ببطءٍ عدةَ مرات، وقال: «أظن أنني أستطيع أن أستنتجَ من ذلك أنه سيتمكّن من تخمين المكان الذي ذهبتُ إليه. وهذان الغيبان المسكينان قرّرا أن يتشاركا المصيرَ مع خارجة على القانون؟ أنا متأثّر بهذا.»

لزمَت هاري الصمتَ لدقيقة. فرغم كلّ كلماتها الشجاعة إلى جاك عند بوابة القلعة، شعرت أنّ المسار الذي اعتقدت أنها تسلكه قد أصبح ضبابيًّا، ثم تهاوى تحت قدميها بمجرد أن قفز صنجولد فوق الجدار. أصبح من الصعب عليها الآن أن تتذكّر مَنْ كانت — دامالور-سول وبلا وشاح — ولماذا جاءت إلى هنا وإلى أين هي ذاهبة، وجالت الأفكار في رأسها، متعبة وبلا هدف. تذكّرت لوث وهو يقول لها: «إنه ليس موقفاً يمكن أن تُحسد عليه، أن يصبح المرء جسراً، ولا سيّما جسراً مع رؤى»، واعتقدت أن الرؤية الواضحة اللطيفة ستُصبح نعمةً مفيدة في الواقع. فتنهّدت وفركت عينيها. وقالت: «لم يتقبّل كورلاث رأي السير تشارلز بلطف على الإطلاق خلال اجتماعهما في ذلك اليوم، أليس كذلك؟»

ابتسم جاك ابتسامةً باهتة. وقال: «أجل، لم يتقبّله بلطف على الإطلاق.»

عبست هاري. وقالت: «ما زال مُصرّاً على أن يقطع أنفه نكايةً في وجهه، سيقود جيشه إلى الهلاك نكايةً فيكم؛ بسبب إصراره على تجاهل تأمين الممرّ الشمالي الغربي.»

قال جاك: «ريتجرز جاب. ربما هو لا ينظر إلى الأمر بهذه الطريقة، رغم ذلك. لقد أتى إلينا يعرض إنشاء تحالف من الدعم المتبادل، هذا صحيح، كما كان سيقدّم لنا فائدةً كبرى من خلال إعطائنا النتائج التي توصل إليها جواسيسه في الشمال — وهو الأمر الذي

اختار السير تشارلز، بحكمته الفائقة، عدم تصديقه. أفترض أن كورلاث هذا سوف يقضي الآن ببساطة على أكبر عددٍ من الشماليين يمكنه القضاء عليه، وفي النهاية سوف يتراجع ما تبقى من جيش أرض التلال إلى تلك الجبال الشرقية الواقعة تحت سيطرته. وسواء اجتاحت السهول الغربية من قبل جنود شماليين غير خاضعين للرقابة أم لا، فإن الأمر في النهاية لا يُمثّل أهميةً كبيرة له بطريقةٍ أو بأخرى. إنَّ قرارنا بعدم المساعدة يعني فقط وصولَ بضع كتائبٍ أخرى من جيش الشمال لمهاجمتهم في تلالهم، وهو أمرٌ مؤسف، ولكنه لا يُمثّل أولويةً لنا.»

فقالت: «إذا حاول جيش هوملاند منع جيش الشمال من التقدم للأمام ...» ردَّ جاك: «لم تكن هناك أيُّ فرصة لذلك على الإطلاق، يا عزيزتي، صدّقيني. إنك تحاولين أن تكوني منطقية، حسبما أظن، والمنطق لا يمتُّ للسلطة الحاكمة إلا بصِلَة طفيفة، ولا علاقةً له على الإطلاق بالإدارة العسكرية.

كما أنك ما زلتِ تفكرين مثل أهل هوملاند — أو أهل أرض الأغراب إذا كنتِ ترغبين في ذلك — على الرغم من كلِّ ما تعلمته من أساليب الفروسية من أهل التلال»، واستقرَّت عيناه على جونتوران، معلقًا في حزامه فوق ظهر كرسيِّ هاري. وتابع: «أنت تعلمين أن إيستن هنا، ويبدو لك أنه من المؤسف أن نُدمر دون فرصة، ولحسن الحظ أنتِ لم تكوني هناك في ذلك اليوم أيضًا، ولم تسمعي السير تشارلز وقد تحوّل إلى شخص لا يُطاق. إنَّ السير تشارلز رجلٌ طيب من نواحٍ كثيرة، لكن الأشياء الجديدة تُزعجه. وفكرة التحالف بين أرض التلال وأرض الأغراب هي فكرةٌ جديدة إلى حدٍّ أقرب إلى الهرطقة.»

«كما أنك ما زلتِ تفكرين مثل أهل هوملاند — أو أهل أرض الأغراب إذا كنتِ ترغبين في ذلك — على الرغم من كلِّ ما تعلمته من أساليب الفروسية من أهل التلال». علقت الكلمات أمام عيني هاري كما لو كانت مُثبتة على لافتة ثم دُفِعَ بها إلى الأرض عند قدميها كمعيار لها. لم تنظر إلى أي شيء بينما تقول: «أنت تُمهّد كي تُخبرني أنه ليس ثمة ما يُمكن فعله.»

«كلا؛ لكنني أمهّد كي أخبرك بأنه لا توجد إمكانيةٌ لفعل ما يجب فعله — أنا أتفق معك، أنَّ على بلدنا، أو بلدي على أي حال، التصدّي بجدية للتهديد القادم من الشمال. إنه تهديدٌ حقيقي.» وفركَ وجهه بيده، وبدأ مرهقًا في هذه اللحظات. ثم تابع: «أنا سعيدٌ لأنك منحتني هذه الفرصة، وإن كانت صغيرة. إنَّ التعليمات التي صدرت لي، بالطبع، تمنعني من الانطلاق على نحوٍ طائش للاشتباك مع جيش الشمال عند ريتجرز جاب أو أي

مكان آخر — فالموقف الرسمي، غير المنطقي، هو أن هذه مسألة قبائلية، وإذا بقينا بهدوء في بلدنا وبواباتنا مغلقة؛ فستنكسر الموجة وتتدفق من حولنا. أعلم أن هذا غير منطقي، وهذا أيضًا ما علم به بعض الرجال الذين كانوا هنا منذ أكثر من بضع سنوات. لقد كنت أفكر بعمق طوال شهور — بين الحين والآخر منذ زيارة كورلاث غير المتوقعة، وقد صدقت ما قاله لنا بأن جواسيسه قد عادوا من الشمال بمعلومات مفيدة — فيما إذا كان الأمر يستحق التضحية براتبتي التقاعدي لو خالفت التعليمات وفعلت أي شيء حيال ذلك. أظن أنه يستحق إلى حد ما؛ لأننا سنقتل حتمًا إذا بقينا في بلدنا دون مواجهة الموقف، وأنا أفضل أن أقتل وأنا أدافع عن بلدي بدلاً من نحر رقبتني وأنا نائم في سريري. وأنت بالضبط الدافع الذي كنت أبحث عنه؛ كان من الصعب بعض الشيء تحديد أي تنين يجب أن يتعامل معه القديس جورج بمفرده، عندما يبدو أن هناك تنانين كثيرة في كل مكان..»

نظرت هاري إلى جاك، وقد أدركت أن تيريم وسيناى خلفها، وضغطت كتف من الفرو على قدميها تحت الطاولة. إن الإحساس بالانتزاع من الوطن هو شيء مادي تقريبًا، مثل ألم المعدة أو التهاب الحلق، لكن كلمات جاك الآن خففت من جدة الألم قليلًا. وربما يمكن للجسر أن يمتد لاجتياز هذه الهوة، في نهاية الأمر. كانت لا تزال وحيدة ولا تزال خائفة، لكن للمرة الأولى منذ أن ابتعدت عن معسكر كورلاث شعرت أن مهمتها لم تكن بالضرورة مجنونة؛ ولذا فإن اقتناعها بأنها ستهلك خلالها كان أقل رعبًا. وربما لم يعد مهمًا إلى أي عالم تنتمي إذا كان العالمان يسيران بالخطأ نفسيهما.

والآن بعد أن صدقها جاك، يمكنها الاعتماد عليه؛ ولأن هريمد-سول كانت لا تزال بطلة لابرون، وبينما كانت سعيدة بتيريم وسيناى، نظرا إليها، ولم يُعجبها الإحساس مطلقًا. علّمتها صداقتها القديمة مع جاك أي نوع من الرجال هو، ولن يشعر على نحو محرج بالرهبة من هريمد-سول وسيفها الأسطوري. كانت للبرجماتية الواقعية لنفسية أهل أرض الأعراب فوائدها.

لكن بينما خفت وطأة شعورها أنها تخوض مهمتها بمفردها، ألقت كلماتها بثقل جديد عليها: هل كانت تصوراتها خاطئة إذن؟ هل كانت في الواقع تُفكر كواحدة من أهل هوملاند ... وهل خانت إذن ولاءها الجديد؟ فتحت راحة يدها اليمنى، ونظرت إلى الندبة البيضاء الصغيرة التي تمتد عبرها. ما رأي كورلاث في فرارها من جيشه؟ هل كانت مخاوف لوث عليها في محلها، وهل كانت عاجزة عن رؤية الطريق الصحيح عندما تشعبت بها الطرق؟

مَدَّ جاك يَدَهُ عبر الطاولة وجذَبَ يَدَهَا اليمنى تجاهه. وهو يقول: «هاري. ما هذا؟»
أغلقت أصابعها حتى اختفى ما شعرت فجأة أنه رمزُ خيانتها. وقالت: «إنه ... أحد الطقوس التي خُضْتُهَا. لقد حصلتُ على لقب فارس الملك.»

«يا إلهي. كيف — عذراً — كيف تمكَّنتِ من فعل ذلك؟ لا يعني ذلك أنني شككتُ في صفاتكِ المتميِّزة، لكنني أعرف شيئاً عن ذلك التقليد — إن فرسان الملك هم النخبة ...»
قالت هاري: «أجل.» نظرَ إليها جاك فقط، لكنها شعرت بجفافٍ في فمها. فازدردتْ لُعبائها وقالت: «إنهم يعتقدون أنه سيُصبح ... أمراً مفيداً ... أن يوجد لديهم دامالور-سول مرةً أخرى.»

قال جاك: «بطلة.»

فازدردتْ لُعبائها مرةً أخرى. وقالت: «أجل. لقد قال كورلاث إنهم يخوضون هذه الحرب دون وجود ما يبثُ فيهم الأمل، وشيء مثل دامالور-سول يُشبه الأملَ إلى حدٍّ ما. لقد رأيتُ الليدي إيرين، هل تعرف شيئاً عن ماءِ الرؤية؟ ولذا، يعتقدون أنني بلا شكَّ شخصٌ مهم أيضاً.»

حدَّقَ بها جاك مثل عالم نبات يدرس نباتاً جديداً. وقال: «إنها أمورٌ تُورث في المرء مجرى الدماء، بكلِّ تأكيد. على الرغم من أنَّ ريتشارد هو أمهرُ الرماة الذين رأيتهم على الإطلاق: ربما هي قدراتٌ انتقلت من الأم إلى الابنة.»

رفعتْ هاري رأسها بجِدَّة ونظرت إلى صديقها القديم. وقالت: «ماذا؟»
قال جاك عابساً: «لا بد أنك تعرفين. إنَّ جدَّتِكَ الكبرى — والدَةَ والدَةِ والدتك — كانت امرأةً من أهل التلال، من عِليَّة القوم، على ما أعتقد. كان ذلك قبل أن نُنشئ قاعدةً آمنةً هنا، أو على الأقل كنا ما زلنا نُكافح للحفاظ على ما حصلنا عليه. لقد كانت فضيحةً مروعة. لا أعرفُ الكثيرَ عنها، ويصبح وجه ريتشارد شاحباً من إحساس الخزي الذي يعتريه عند التفكير في الأمر. من السهل أن يعتري الشحوبُ ديك الصغير تجاه بعض الأمور، لكنَّ إحساساً غريباً بالفخر أجبره على إخباري، بصفتي قائده، حتى ألتمسَ له العذر إذا ذهب وهو يصرخ إلى أرض التلال بلدِ أسلافه، حسبما أظن. يبدو أن تلوث الأعراق الذي رآه القَدَرُ مناسباً لتسليمه إياه يفترسُ عقله.» كان جاك يُراقبها من كثبٍ وهو يُثرثر، فتوقَّف فجأةً. ثم قال: «يا عزيزتي، لا بد أنك قد علمتِ بهذا الأمر؟»

كانت هاري لا تزال تجلس على كرسيِّها، وقد انتابها إحساسٌ أنها ستظلُّ جالسةً عليه إلى الأبد، وهي تُحدِّق في زهولٍ جرَّاءِ القصة التي رواها لها جاك للتو. لا بد أنها بدتْ غريبةً

للغاية؛ لأن تيريم قال لها على نحوٍ ينمُّ على القلق: «هريماد-سول، ماذا أصابكِ؟ تبدين كما لو أنك قد رأيتِ شبحَ والدكِ. هل قال لك هذا الرجل شيئاً سيئاً؟»
 نهضت هاري وهزت رأسها، الذي شعرت أنه ثقيلٌ ومتضخمٌ. وقالت: «كلا؛ لقد أخبرني للتو شيئاً حزيناً حتى وإن جعل كلَّ الأمور واضحة.»
 قالت سيناي بهدوء: «سول، هل يمكننا أن نعرف ما هو؟»

حاولت هاري أن تبسم. وهي تقول: «لقد قال إنَّ جدَّة أُمِّي كانت من أهل التلال؛ ومن ثمَّ فإن دماء أرض التلال تجري في عروقي.»

نظر الاثنان إليها بالدهشة والذعر نفسيهما اللذين تعلَّم أحدهما ما زالا واضحين على وجهها. وقال تيريم: «لكننا نعلم أنكِ حتماً واحدة منا، وإلا فما كان لجنون الملك أن ينتقل إليك، والجميع يعلم أنه كذلك: هناك بالفعل حكايات رُوِيَتْ عن هريماد-سول في منافسات لابرون. كما أنَّ مياه الرؤية تُظهر لك أشياء، وتحدثُ الليدي إيرين إليك، وتتحوَّل عيناك إلى اللون الأصفر عندما تتناوبُ بعضُ المشاعر القوية. وفي الواقع، إنها صفراء الآن.»
 ضحكت هاري ضحكة قصيرة وخافتة، لكنها ضحكة على أي حال، وقالت مخاطبةً جاك: «إن أصدقائي غير مندهشين من هذا الخبر، رغم أنه يجعل روحي ترتجفُ وقلبي ينبض بسرعة كبيرة — من الخوف أو الفرح لستُ متأكَّدة تماماً. كما يقولون إنهم علموا أنني امرأة من أرض التلال من بداية الأمر.»

قال جاك على نحوٍ مؤيِّد: «ليس لديَّ أدنى شكٍّ في صحة هذا. تأكَّدي أنَّ كورلاث ما كان ليمنح شخصاً من أهل أرض الأغراب لقبَ فارس الملك، حتى لو أمرته الليدي إيرين بذلك.»

قالت هاري: «ولكن لماذا لم يُخبرني أحدٌ قط؟» وهي مستغرقةٌ في التفكير وتحاول جمع أفكارها معاً في مكانٍ واحد حتى تتمكن من بحثها. ربما هي جسرٌ متين البناء أكثر مما تظن، وفكرت في الدعامات والعوارض، وكادت تضحك؛ يا لها من صورةٍ نابعة من أرض الأغراب على نحوٍ صميم، بالتأكيد. وبما أنها وصفت هذا الجزء من نفسها بأنه نابعٌ من أرض الأغراب، إذن لديها الحرية في وصف أجزاء أخرى بأنها نابعةٌ من دامار، وشعرت أنها تتَّصف بها على نحوٍ طبيعي، كما لو كانت تتلاءم مع جسدها على نحوٍ أكثر أماناً. كانت لا تزال غير متأكَّدة من مكونات شخصيتها، لكن يجدر بها على الأقل ألا تستاء لعدم معرفتها، والآن، ربما، لديها القطعُ المفقودة التي تحتاج إليها للبدء في مسيرتها نحو المعرفة.

قال جاك ببطء: «أظن أن لدي فكرة عن ذلك. لقد ظننت أنك تعرفين، لكنني أتذكر الآن كيف تحدّثنا أنا وريتشارد عنك عندما قرّر جلبك إلى هنا — بدا أنه يظن أن الأمر ستكون له عواقبه عليك على نحو ما ...» ثم قطب حاجبيه، وهو يحاول أن يتذكّر بوضوح. وأضاف: «لقد كان يعتقد أنك بوهيمية للغاية على نحو مؤكّد، ومن الواضح أنه كان يعتقد أن العيش في أرض والده جدتك سيؤدي إلى تفاقم هذا الاتجاه داخلك. لكنني لم أعتقد قط أنه سوف ...»

قالت هاري وهي تبتسم بحزن: «يحميني من نفسي بإبقائي على جهل بحقيقتي؟ حسنًا، لم أكن أعرف، لكنني لست متفاجئة. ربما غاضبة — كيف جرؤ على فعل ذلك؟ — لكن لست متفاجئة. لقد تحمّل مسؤولية الرجل تجاه أخته الضعيفة على نحو جاد، هذا ما فعله ديكي. اللعنة عليه. أين أخي الغالي؟ أتراه هنا؟»

كان جاك يبتسم لها، وهي جالسة ومقبض سيفها يلامس كتفها عندما أشارت. وقال: «كلا، إنه رجلٌ دبلوماسي، وهو أمرٌ يُظهر بعض البراعة فيه، بالنسبة إليّ وإلى السير تشارلز؛ ولذا أسندنا إليه مهمةً تفاوضية. نحن نحتاج إلى بعض الرجال الإضافيين هنا؛ تحسبًا لخروج هذه المسألة القبائلية السخيفة عن السيطرة، وما يعتريني من عصبية شديدة في معالجة الأمور، في حين أن ريتشارد يمكن أن يبدو هادئًا ومتفاوضًا، وقد يكون له بعض التأثير.» نظرَ بحزن إلى الطاولة. وتابع: «أنا أجهد عقلي بالتفكير، بين الحين والآخر، وأتساءل عما كان سيحدث، إذا كان كورلاث قد أعطانا مزيدًا من التحذير بشأن ما يدور في ذهنه، إذا كان بوسعنا أنا وبيترسون إبعاد تشارلز — حتى ولو قليلًا — عن هذه الورطة التي نحن فيها، ربما كانت سيقُلُّ تأزمُها وتعقيدها، ولو بقدر قليل. لكنه ليس مَطْلَبًا يسهل تحقيقه، حسبما نقول نحن بلغة الدبلوماسيين.»

كانت هاري تُفكّر، فيما يخصّ هذه المسألة، لماذا لم تخبرني أمي أو أبي عن ميراثي الغامض؟ لا بد أنهما كانا يعرفان؛ لأنهما أخبرا أخي البائس ... بالفعل، لا بد أنه كان أمرًا معروفًا إلى حدٍّ ما؛ هذا يُفسّر لماذا لم نكن قط نتصرّف مثل بقية العائلات، الذين كنت أظن دائمًا أننا مثلهم؛ فنحن لم نُقم النوع المتعارف عليه من حفلات العشاء، وكنا نقضي كثيرًا من الوقت في امتطاء صهوات الخيول. وشعرت على نحو مفاجئ بمشاعر الخوف والقلق والانزعاج، وتلاشت آخر ذرة شك لديها حول ما إذا كانت قد تصرّفت بحكمة عندما اختارت أرض التلال وفضّلتها على البلد الذي تربّت فيه، لكنها أحبّت عائلتها ووطنها، ولم تكن تشعر بمرارة.

تحوّلت بانتباهها إلى جاك عندما بدأ في التحدّث مرةً أخرى: «لقد أصبحت الأمور مقلقةً بعض الشيء هنا مؤخرًا. هناك شيءٌ ما، أو ربما أشياء، تحوم حول المدينة والقلعة، وقد خرج رجالي مرتين للاستطلاع، ووجدوا علاماتٍ تدل على وقوع معارك. وفي مرةٍ وجدوا جثة.» ارتسم على وجهه تعبيرٌ يدل على القلق. وتابع: «كانت جثةٌ كائنٍ يشبه البشر، وإن كان صاحبها قد بدا بشريًا عن بُعد.»

قالت هاري بهدوء: «لقد قيلَ لي إنّ كثيرًا من أفراد جيش الشمال هم كائناتٌ تشبه البشر.»

ظلَّ جاك صامتًا قليلًا، ثم قال: «لا أظن أنّ عددَ تلك الكائنات كبير. يمكنني المخاطرةُ بحياتي، لكنني لا أريد المخاطرة بحياة أيّ جندي من جنودي؛ إذ سنُخالف بذلك التعليمات، لكنّ معي هنا عددًا قليلًا من الرجال الذين أعرفهم ممّن لديهم نفس شعوري تجاه أهل الشمال. سأعرضُ عليهم الأمر.»

قالت هاري: «إذن، كم عددهم ومتى ستُصبحون مستعدين؟»

«عددهم ليس كبيرًا، ولن نُصبح مستعدين على نحوٍ سريع. أولئك الذين سيذهبون منا كانوا يهتزون مثل الأسهم على أقواسها طوال أسابيعٍ عديدة، سنشعر بالامتنان لإتاحة الفرصة لنا للانطلاق إلى الأمام. اسمعي: يمكنكِ أنت وصديقكِ الاستحمام والحصول على قسطٍ من النوم، وستُصبح مستعدين للانطلاق عند غروب الشمس.»

هناك شيءٌ غامضٌ يُزعج هاري منذ أن دخلت الحصن على هذا النحو المتهوّر؛ وفي البداية فسّرت الأمر على أنه ارتباك؛ بسبب وقوع نظرها على أشخاصٍ من أهل أرض الأغراب منذ أن توقّفت عن التصرّف كواحدةٍ منهم، والانعكاسات المضطربة التي جلبها لها هذا الاعتراف. لكن الإحساس بأنها ليست على صواب تمامًا، وبنفحةٍ من شيءٍ مزعج، أو اهتزازٍ في التصرّفات؛ زاد مع الحصول على بعض الاسترخاء. نظرت حولها الآن، وهي قادرة على التفكير في هذا الاضطراب المُقيّد، والتركيز على سببه إذا كانت قدرة الكيلار الخاصة بها ستشير إلى الطريق. تقلّبت على جانب ثم الآخر، كان الأمر أسوأ بكثيرٍ في هذه المساحة الصغيرة المغلقة داخل غرفة جاك. وبعد أن وضعت يدها على الحجر الأزرق في مقبض جونتوران فهمت أخيرًا ما هو. وقالت: «شيءٌ واحدٍ آخر.»

قال جاك: «ماذا تودّين أن تقولي؟» لكن الأمر استغرقَ من هاري بعض الوقت كي تصوغ الكلمات.

«يجب ... ألا تستخدموا أسلحةً نارية. بنادق أو مسدساتٍ أو أيًّا كان ما تستخدمونه. سيكون لذلك عواقبُ سيئة.» وارتجفت بالقرب من بنادقٍ صيدٍ جاك المعلقة على الحائط، ومسدسينٍ على أحزمةٍ مثبتةٍ على ظهرِ كرسيٍّ شاغر.

نقرَ جاك بأصابعه على الطاولة. وقال: «إنها ليست شائعاتٍ فحسب، إذن؟» هزت هاري رأسها. وقالت: «ليست شائعاتٍ فحسب. إنه ليس شيئاً رأيته عن الأسلحة، لكنني أعرف. أعرفُ شيئاً عمّا يفعلونه أو عن حقيقةِ أهل التلال — وحتى لو تمكّنا من التوقّف عمّا نفعله أيّاً ما كان، وأنا لا أستطيع؛ لأنني عادةً لا أعرف ما أفعله من الأساس — أعرفُ أيضاً أنه، أيّاً ما كان الأمر، سوف يأتي مع أولئك الذين سنواجههم. ووجود أسلحتك في هذه الغرفة ...» ولوّحت بإحدى يديها، بينما الأخرى ما زالت ممسكةً بالجوهره الزرقاء، ثم تابعت: «... يجعلني أشعر بالتوتر. إنه من نوع الأشياء الذي أتعلم الانتباه إليه.»

أصبحت الغرفة فجأةً أصغرَ وأكثر قتامةً مما كانت عليه قبل أن تتحدث هاري، وحدّق بها جاك، ورأى صديقه الشابّة، ورأى بوضوح تقريباً مظاهر الشيء الذي اكتسبته في أرض التلال، ثم سقط شعاعٌ مفاجئ من ضوء الشمس عبر النافذة، فتلاّأت الجوهره الزرقاء في مقبض سيفها بينما انزلت يدها عنها، وأضاء خدّها وشعرها باللون الأزرق. لكنّ أمارات العيب الذي يُثقلها قد تلاشت. فقال جاك في نفسه، سأتابع هذه الطفلة، ربما كي ألقى حتفي، لكنني سأتابعها، وسأصبح فخوراً بهذه الفرصة.

«حسنًا. أنا أصدقك. إنه لأمرٌ يبعث على السرور أن اكتشف أن الحوادث المفضلة التي يرويها النسوة العجائز قد اتضح أنها ضربٌ من الحقيقة. أنت لن تحتاجي إلى جنود المشاة على أيّ حال، وفرساننا معتادون على استخدام سيوفهم.»

قالت هاري: «والآن، هل يمكنني الاستحمام؟» ومن ثمّ طلب من تيد توفير متطلبات الاستحمام والأبيرة المطلوبة، واستخدمت هي وسيناى حمام جاك أولاً، وغمرت هاري نفسها بامتنان في الماء داخل حوض معدني طويل، وغطست حتى غطى الماء وجهها، ونظرت إلى عالمٍ دائري متذبذب. وكان عليها أن ترفع رأسها في النهاية لتنفس، وانفتح العالمُ مجدداً. حلّت سيناى جدائل شعرها الداكن الطويل ومشطته، وقد تخطى ركبتيها في موجاتٍ مسترسلة، نظرت هاري نحوها بحسد. كان شعرها طويلاً جداً أيضاً، لكن يصعب السيطرة عليه تحت غطاء، وكانت أجزاءً صغيرة منه دائماً ما تعلق في الأشياء وتقطع؛ فبينما كان شعر سيناى يُحيط بوجهها بسلاسة ويتدلّى بسلاسة في عقدةٍ على مؤخرة رقبتها، كان لدى هاري دائماً خصلاتٌ مجعّدة نافرة، تجمع في جميع الاتجاهات.

رَبَطَتْ سَيْنَايَ شَعْرَهَا الْأَمْلَسَ مَرَّةً أُخْرَى بَيْنَمَا تَخْرُجُ هَارِي مِنَ الْحَوْضِ، وَهِيَ تَقْطُرُ مَاءً. فَانْزَلَتْ سَيْنَايَ إِلَى الْمَاءِ بِتَنْهِيدَةِ الْاِمْتِنَانِ الْخَاصَةِ بِهَا، وَارْتَدَّتْ هَارِي قَمِيصَ النَّوْمِ الضَّخْمِ الَّذِي وَضَعَهُ تِيدُ لَهَا وَدَخَلَتْ وَهِيَ تَتَعَثَّرُ إِلَى غُرْفَةِ نَوْمِ جَاك، حَيْثُ وُضِعَ سَرِيرَانِ خَفِيفَانِ مِنْ أُسْرَةِ الْمَعْسَكَاتِ بِجَوَارِ السَّرِيرِ الْكَبِيرِ. وَأَنْهَتْ نَارِكَنُونَ تَفْقُدَ جَمِيعِ أَرْكَانِ غُرْفَةِ جَاك، بَيْنَمَا يُرَاقِبُهَا جَاكُ وَتِيدُ بِحَذَرٍ، بَعْدَ أَنْ أَنْهَتْ هَارِي حَمَامَهَا بِقَلِيلٍ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا حَاوَلَتْ الْقِطْعَةَ أَنْ تُقَوِّعَ نَفْسَهَا بِجَوَارِ سَيِّدَتِهَا عَلَى السَّرِيرِ، كَانَتْ هَارِي قَدْ اسْتَغْرَقَتْ فِي النَّوْمِ بِعُمُقٍ لَدَرَجَةٍ أَنْهَا لَمْ تُفْسِحِ الْمَجَالَ لَهَا، وَاضْطُرَّتْ نَارِكَنُونَ إِلَى النَّوْمِ عَلَى قَدَمَيْهَا.

الفصل الرابع عشر

استيقظت هاري وقد اعترتها صدمة، وهي تسمع من ينادي اسمها، ولم تعرف للحظة مكانها، لكنها كانت مقتنعة بأنها سجين. لكن كل ما هنالك أن جاك هو من كان ينادي عليها بينما يقف عند مدخل غرفة النوم. فتنهدت واسترخت، مدركة أن كثيراً من دُعرها سببه حقيقة أن يدها اليمنى كانت تقبض على أغطية الفراش. نظر جاك إليها على نحو ساخر، وهو يعلم ما تفتقده القبضة اليمنى البيضاء. وقال: «إنه هنا»، وأوماً برأسه إلى يساره، حيث كان جونتوران معلقاً في مشجب على الحائط، بجانب داليج ذي المقبض الفضي وتيكسن الطويل. أرخت قبضتها إصبعاً تلو الآخر، وبيدها اليسرى بسطت أغطية الفراش. نهضت سيناى وتيريم وسحبا حذاءيهما بهدوء، واستلقت ناركنون وخرخت غاضبة على الوسادة التي تركتها هاري للتو.

وُضع طعامٌ على الطاولة مرةً أخرى، ووقف تيد الصامت جانباً، في انتظار ملء طبق أو فنجان. وجاءت هاري إلى الغرفة الأمامية وذراعها اليسرى قريبة من جانبها ويدها على بطنها، وقد علقت جونتوران فوق كتفها اليمنى. وقالت: «جاك، هل تظن أن بإمكانني استعارة حزام منك؟ يبدو أنني قد ... فقدت وشاحي.»

نظر إليها جاك ثم نظر إلى الوشاحين بلون الزعفران واللون الأزرق حول خاصرتي رفيقيها. وقال: «فقدته؟» فهو يعرف بعض المعلومات عن أوشحة فرسان أرض التلال. قالت هاري بحزم: «فقدته.»

وضع تيد إبريق القهوة وذهب للبحث عن حزام جلدي مثل الذي يستخدمه أهل أرض الأغراب.

كانت السماء تكتسي باللون الأحمر عندما انطلق ما يزيد عن عشرين فارساً من فرسان أرض الأغراب المتجهمين بجانب ثلاثة من فرسان التلال، واحدة منهم ترتدي

حزاًماً ذا إبزيم نحاسي مثل الذي يستخدمه أهل أرض الأغراب، متجهين شمالاً ثم غرباً، بعيداً عن حصن أرض الأغراب. قال جاك بمرح: «إنَّ معنا بوقاً فاخراً. وسنعرف على الأقل إن كنا قادمين أم ناهبين.» كان رجاله يرتدون زيَّ هولاند ذا اللون البني الباهت، مع شريط عمودي أحمر على الجهة اليسرى من الصدر؛ مما يشير إلى الخدمة في دمار. شعرت هاري بوخزة من حنين عندما وقعَ نظرُها للمرة الأولى على هذا الزيِّ الرسمي، في القطار الصغير ذي الصوت المجلجل، وهي جالسةُ أمام شقيقها. وسألت: «أترأه تهوِّراً غير محسوب، أم مجرد تظاهر بأن الأمر على ما يُرام، أنكم ترتدون الزيَّ العسكري الرسمي اللائق؟»

أجاب جاك، وهو يُحدِّق في الجبال: «كلُّ ما في الأمر أنَّ معظمنا ليس لديه من الملابس المدنية ما يصلح لمثل هذه المهمة.» والتفتَ إليها وابتسم. ثم أضاف: «وإلى جانب ذلك، فإنَّ الملابس التي اعتدنا عليها تُشعرنا بالراحة أيضاً. وأظن، الآن فقط، أنه من الأفضل أن نُفكر في الروح المعنوية كلما استطعنا.»

ساروا بثباتٍ مُمتطين صهواتٍ خيولهم، مع كثير من أصوات الجلجلة الصادرة عن سروج خيول الحصن ولجامتها؛ لقد نسيَت هاري مدى الصخب الذي تُصدره اللجاماتُ والسلاسل وركابات السروج، وشعرت أنَّ جنود الشمال سيسمعونهم من وراء الجبال وهم يتقدَّمون. توقَّفوا قبل الفجر بقليل، في وادٍ عند بداية التلال السفحية. قالت سيناى: «الليلة، يجب أن نتوجَّه شرقاً إلى هذه التلال، فهناك قريتي.» فأومأت هاري برأسها.

بدا جاك مضطرباً. وقال: «هاري، لستُ متأكِّداً من أن مجموعتي ستحظى بترحيبٍ كبير في قرية سيناى. إذا كنتِ ترغبين في ذلك، يمكننا أن نتقدَّم مسافةً أطولَ قليلاً على الطريق، حتى لا نُضيع الوقت، ونلقاك بالقرب من الممرِّ — عند سفح المسار الأخير المؤدِّي إليه، ربما.»

قالت هاري: «إمم» وأوضحت الأمر لسيناى، التي نظرت إلى جاك ثم هاري في دهشة. وقالت: «سنتحرَّك جميعاً معاً. نحن رفائُ سلاح.»

لم تكن هاري بحاجة إلى الترجمة. وابتسم جاك قليلاً. وقال: «أتساءل عمَّا إذا كان كورلاث سيوافق على هذا.»

التقطتُ أذنا تيريم اسم الملك، فسألَ هاري عمَّا قيل. ثم أجابَ تيريم: «كان سيقول الشيء نفسه بالطبع. صحيحٌ أننا غالباً في عداوة واقتتال، ولكن حتى مع عداوتنا، من الممكن أن نصبح حليفيين، وهو ما لا يمكن حدوثه مطلقاً مع أهل الشمال، على الأقل ما

دام الدم البشري فقط هو ما يَسري في عروقنا. وهذا ما يجعل هذه الحربَ مريعةً للغاية. لا يمكننا أن نوجد معهم على الأرض نفسها. وهكذا كان الأمر دائماً.»

قال جاك: «نحن أنفسنا لا نوجد على الأرض نفسها معكم دون نشوبِ نزاعات بيننا، رغم أننا بشر، وعندما نظر تيريم إليه متسائلاً، أعادَ جاك كلامه بلغةِ أرض التلال. زمَّ تيريم شفّتيه للحظة. ثم قال: «أجل، نحن نتقاتل، ولا يحبُّ بعضُنا بعضاً عادةً، لكننا ما زلنا على حالنا. أما أهل الشمال، فليسوا كذلك. سوف ترى. حيثما تخطو أقدامهم، سيُصبح الأمر كما لو أن أرضنا قد بُدِرت بالملح.»

نظرَ جاك إلى هاري، ونظرت هاري إلى جاك. وقالت: «لست متأكّدة من هذا. أنا أعلم أن السحر الذي يُمارسونه يختلف عن سحرِ أرض التلال، و... أعلم أن أيَّ احتمال لوجود شخص يحمل في عروقه شيئاً من دم أهل الشمال هو أمرٌ يُنظرُ إليه باشمئزاز و... خوف. إذا وصفتُ شخصاً بأنّ دم الشمال يجري في عروقه، ثديك، فيمكن ألا يُعاقب إذا حاول قتلك.» ثم أصبح صوتُ هاري هادئاً للغاية، وهي تتابع: «من الواضح أن دم أهل التلال ودم أهل أرض الأغراب يمكن أن يمتزجا عبر النسب على نحوٍ أكثرِ سلاسة.»

وبينما كان جاك يُحدّق في رقبة حصانه، انحنت سيناى تجاهه ولمست غرّة حصانه. وقالت: «نحن متشابهون على نحوٍ كافٍ، يا جاك ديدام، كلنا نتبع هريما-سول.» ابتسمَ جاك. وقال: «كلنا نتبع هريما-سول.»

قالت هاري: «جاك، أنت لا تتبعني. لا تفتح هذا الموضوع.» نظرَ إليها جاك وهو لا يزال يبتسم، في الواقع نظرَ إلى أعلى؛ لأن حصانه المتبلّد الخصبِ دراكو كان أقصرَ من صنجولد بمقدار يد ونصف. لكنه لم يرد.

استراحوا معظم اليوم، ثم واصلوا رحلتهم مرةً أخرى قبل ساعةٍ من غروب الشمس، متّبعين توجيهاتِ سيناى. صارت الصحراءُ وراءهم الآن؛ ومن ثمّ لن تُجبرهم الشمس، ولا سهولةُ رصيدهم وهم يتحركون عبر الصحراء الخالية، على السير ليلاً فقط. كان الوقت يقترب من منتصف الليل عندما تقدّم رجلان داخل المسار أمامهم، وهما يرفعان شعلتين من النار على نحوٍ مفاجئ. فبُوغِت الجميع، ونَفَضَت خيولُ أرض الأغراب رءوسها. ثم قال صوتٌ من خلف إحدى الشعلتين بحدّة: «مَن أنتم، يا مَن تريدون الدخول إلى بلدة شبارديث؟»

أجابت سيناى: «ثانتو، هل نسيّنتي بهذه السرعة؟» تقدّم ثانتو إلى الأمام حاملاً شعلته عاليًا، وترجّلت سيناى عن صهوة حصانها. فقال: «أنتِ سيناى بالفعل»، وتمكّن من هم خلفها على مقربةٍ من رؤيته يبتسم.

وتابع: «سوف تسعدُ عائلتك برؤيتك تعودين إليهم»، وإن راح يتفحص الباقيين بعينيّه، وكان صوتُ جلجلة اللجامات عاليًا للغاية في أذني هاري.

قالت سيناى ببساطة: «هؤلاء هم رفاقي»، فأوماً ثانتو برأسه. ثم تمتم ببضع كلماتٍ لرفيقه، الذي استدارَ واندفعَ بعيدًا، وقد تمايل ضوءُ شعلته حتى اختفى قربَ منعطف الطريق الصخري.

ترجّلت هاري عن سهوة حصانها، وظهرت ناركنون من جديد خارجةً من الظلام لتجلس تحت خاصرة صنجولد وتُشاهد ما يجري، وتتأكد من أن شيئًا لم يَفُتْها مما يُثير الاهتمام. فالتفتت سيناى إلى هاري وقدّمته بوقار على أنها «هريما-سول»، وعندئذٍ قدّم لها ثانتو تحيةً أرض التلال بانحناءٍ راقيةٍ للغاية، تضمّنت إيماءات اليد الدالة على الاحترام، وحاولت هاري ألا تجرّ قدميها. ثم تقدّما جميعًا إلى الأمام مرةً أخرى، وبعد بضع دقائق انفتحت الطريق الضيق. واتسع ببطء حتى تحوّل إلى رقعةٍ مستديرة من العشب محاطة بمسار أبيض يلمع في غموض على ضوء الشعلة. وسرى في الأرجاء حولهم نسيمٌ خفيف، مُعَبِّقًا برائحةٍ تشبه رائحة الورود.

قادهم ثانتو نحو المسار الأبيض، حيث يوجد عند الطّرف المقابل من الدائرة مبنًى مرتفعٌ من الحجر البني والرمادي، أنشئ داخل جانب الجبل، وقد زُرعت أشجارٌ خضراء صغيرة بعناية حول سقفه. وبدا عبر نوافذ المبنى أنه مضاءٌ من الداخل. ومع اقترابهم أكثر، فُتِحَ البابُ الخشبي بعنف، واندفعت عبره طفلةٌ ترتدي ما يمكن على الأرجح اعتباره ثوبَ نوم، وارتمت بين ذراعي سيناى بالضبط. وقالت الطفلة مُعَاتِبَةً: «لقد غبت عني أسابيع وأسابيع».

قالت سيناى: «أجل، يا حبيبتي، لكنني أخبرتك أنني سأغيبُ طوال هذه المدة»، فدفت الطفلة وجهها في صدر سيناى وقالت: «اشتقتُ إليك».

خرجَ ثلاثة أشخاص آخرين من الباب الذي لا يزال مفتوحًا. الأول كان رجلًا عجوزًا طويل القامة يحمل فانوسًا، ويعرج على ساق واحدة، وجاءت خلفه على نحوٍ مسرع امرأةٌ أصغرُ منه في السن، ثم سارعت إلى الأمام كي تقول: «رايلي، اذهبي إلى الداخل». أبعدت سيناى برفق رايلي المترددة، التي تحركت عائدةً إلى الداخل، وهي تؤخّر قدمًا وتقدّم الأخرى، باتجاه المنزل، غيرَ مكترثة بمن قد تصطدم به، حتى اصطدمت بإطار الباب، ودلّفت من خلاله، واختفت عن الأنظار. التفّت المرأة الشابة إلى سيناى، واحتضنتها مدةً طويلة دون أن تنبس بكلمة. وعندما وصل الرجلُ العجوز إليهما، تحدّث إلى سيناى مخاطبًا إياها

بعبارة يا ابنتي. شعرت هاري بالدهشة؛ لأن هذا الرجل كان بالتأكيد الزعيم المحلي، سولا هذا المكان؛ إذن، ربما لم يكن الأمر مفاجئاً أن يُقرر إرسال ابنته إلى منافسات لابرور. كان الشخص الثالث شاباً صغيراً، هو أخو سيناى؛ لأن كليهما يُشبه والدهما، وقد ربت على ذراعها وهو يشعر بالحرج وقال: «كيف كانت المنافسات؟» وقد بدا عليه أنه يبلغ من العمر نحو ستة عشر عاماً.

ابتسمت سيناى له. وقالت العبارة التقليدية: «لقد هُزمتُ بشرف، وحصلتُ على وشاحي»، ولمست أصابعها موضع التمزق. فتنهدت هاري. وقالت سيناى: «هذه هي هريما-سول، صاحبة السيف الذي مزق وشاحي. وهي التي فازت بالمنافسات.»

التفت الرجل العجوز ونظر إليها متفحّصاً، ونظرت هاري نحوه وهو يُحدّق فيها، متسائلة عما إذا كان سيعلق على ملامحها التي تدلّ بوضوح على أنها من أرض الأغراب رغم أنها ترتدي زيّ أهل التلال، لكنه نظر إليها لحظة، بينما ضوء الفانوس يتألق في عينيها، ثم انحنى لتحيتها، وقال: «لقد شرفت منزلي.» عندها فقط، نظر إلى المقبض الأزرق المرئي من وراء حافة عباءتها. ثم التفت لينظر إلى بقيتهم، ولم تتغير ملامح وجهه الهادئ وهو ينظر إلى عشرين من سلاح الفرسان في أرض الأغراب وهم يقفون على نحو غير مريح أمام عتبة منزله. فقالت سيناى مرة أخرى: «هؤلاء هم رفاق السلاح في مهمتي»، فأومأ والدها لتحيتهم، وقالت المرأة، زوجة والد سيناى، على نحو رسمي: «مرحباً بهم في منزلنا.» تبع تيريم وجاك هاري وسيناى إلى داخل المنزل، في حين اصطحب رجال جاك وخيوله على طول الحافة الحجرية لجانب الجبل، الذي بُني منزل سولا أمامه، إلى قاعة منخفضة طويلة. وأوضحت سيناى قائلة: «إنه مكان انعقاد اجتماعات القرية. إن العديد من مدن أرض التلال لديها أماكن للاجتماعات، بالقرب من منزل سولا، حيث يمكن أن يجتمع جميع السكان للتحدث أو للاحتفال، وعند الضرورة يمكننا إيواء أصدقائنا وتسكين خيولهم.»

أومأت هاري ببطء. وقالت: «وإذا استوجب الأمر ... دافعتم؟»

ابتسم الرجل العجوز على نحو لا يدل على السخرية. وقال: «لدينا الكهوف، ومسارات متعرجة تقود من يتبعونها إلى جدران حجرية أو منحدرات، ويمكننا أن نخفي إذا توجّب علينا ذلك. ما كنت ستستطيعين القدوم بسهولة إلى هذا المكان إذا لم تُرشدك سيناى. إن أرض التلال ليست بلداً سهل دخوله من قبل الغزاة. يوجد فيها كثير من المتاهات.»

غمغم جاك: «هذا صحيح.»

كانت الحجرة التي دخلوها ضخمة، حيث توجد أبسطة مفروشة على الأرضيات ومعلقة على الجدران، ومائدة طويلة منخفضة بجانب نافذة طويلة، على الرغم من أن الستارة التي أمامها مغلقة الآن. نادّت الأم على طفلتها بحزم، وقالت: «رايلي، يمكنك البقاء مستيقظة وقتاً قصيراً، لكن عليك أن ترتدي ثيابك وحذاءك.» فاخفتت رايلي مرة أخرى.

دخل الخدم إلى الحجرة ومعهم مشروبٌ مالاك وكعكاتٌ صغيرة غليظة القوام، وعادت رايلي للظهور واحتضنتها سيناى وأحاطتها بذراعاها. انتظرت هاري، وهي تتساءل عما إذا كانت ستُضطرُّ إلى شرح مهمتهم، لكن سيناى قالت بالبساطة نفسها التي أوضحت بها أن جنود أرض الأغراب هم رفاقها: «سنذهب لصدّ هجوم جنود الشمال الذين سيأتون عبر بوابة مدام. من يمكنه الانضمام إلينا؟»

انضمَّ إليهم ستة عشر فارساً في الصباح عندما مضوا في طريقهم مجدداً، وبدأت هاري في الشعور بالسخافة بعض الشيء وهي تمتطي حصانها على رأس ما أصبح موكباً على أقلّ تقدير، إن لم يكن جيشاً. ولكن كان من الواضح أن الجميع ينتظر منها أن تتقدّم الموكب، وهي مُشرّبة الرأس، تحدّق إلى الأمام على نحو صارم. ورأت أن هذا أفضل من اندفاعها كفتاة مجنونة من أرض الأغراب بمفردها وهي تمتطي حصاناً من أرض التلال. وتساءلت ماذا كانت ستفعل إذا لم يتبعها سيناى وتيريم، وإذا لم يكن جاك في الحصن؟ ونادّت قائلة: «جاك.»

فأجاب: «نعم؟»

«هل سبق لك أن رأيت ريتجرز جاب؟»

«كلا. لماذا؟»

«إنني أتساءل، بوجهة نظر قيادية يمكنها توقع الأمور، كم سيبدو سخيلاً مظهرُ بضع عشرات منا متناثرين عبر الجاب — إذا قرّر جيش الشمال إرسال جنوده ليمروا من هناك.»

لوى جاك قسمات وجهه. وقال: «ليس سخيلاً للغاية، حسبما أظن. أعتقد أنه مكان ضيق للغاية، يوجد وإِ فسيحٌ عند الطرف الآخر منه، لكن يمكننا لبعض الوقت صدّ أيّ هجوم عبر الفجوة نفسها عند الطرف المواجه لنا، حتى لو كنا أقلّ عدداً من هذا.» تنهّدت هاري بعصبية. وقالت: «ما زلتُ أفكر في مدى حماقة هذه المهمة.»

فابتسم جاك. وقال: «إنها مهمة حمقاء، ولكنها على الأقل تنبع من النبل وحُسن النية.»

في تلك الليلة، راود هاري حُلْمٌ: كانت ريتجزز جاب، أو بوابة مَدامر، عبارةً عن شقٍّ ضيق وسط الصخور، لا تتَّسع إلا لمرورِ حصانَيْن؛ وعند الطرف الجنوبي توجد هضبة صخرية صغيرة، تنحدر على نحوٍ مفاجئٍ نحو سفح الجبل الذي تُغطيه الشُّجيرات. وعند الطرف الشمالي يوجد وادٍ فسيحٌ تغطيه بعضُ الشجيرات القصيرة الباهتة والصخور المتناثرة؛ منطقة وُغرة يصعب السير فيها، هكذا ظنَّت في حُلْمها، ولا توفر حماية. ومن ثَم، لا يصلح لاختياره ساحةٌ للمعركة. يؤدي الوادي إلى الفجوة الضيقة النهائية وسط الصخور. التفتت في حُلْمها، ورأت طابورًا صغيرًا من الفرسان، يمتطي قائدُهم حصانًا ذهبيًا مرتفع القامة، يتلأأ مثل النار في ضوء الشمس، ويصعدون المسار نحو الهضبة الصخرية. لقد شاهدت هؤلاء الفرسان من قبل، يصعدون هذا الجانب من الجبل بصعوبة. أراحتها ألفة هذه الرؤية؛ ربما أنها، في نهاية الأمر، قد اتخذت الخيار الصحيح عندما أصبح المسار متشعبًا. ربما ستؤكد أن ثقة لوث في قدرتها على حُسن الاختيار كانت في محلِّها.

وماذا عن كورلاث؟

استيقظت وهي ترتجف. كان لونُ السماء رماديًا قبل انبلاج الفجر في السماء، لكنها نهضت رغم ذلك وبدأت في إذكاء النار. ولأحظت، في لحظةٍ من الخوف والغضب، أن يدها ترتجف، ثم تصاعدت ألسنةُ اللهب، وفي قلبها الأحمر رأت وجهَيْن. الأول كان وجه كورلاث. كان يقفُ بهدوء، بينما يحدِّق في شيءٍ لم تستطع رؤيته، وبدا حزينًا، وحزنٌ قلبُها كما لو كانت هي سبب ذلك. ثم تلاشى وجهُه وسط ألسنة لهب نيران المعسكر مرةً أخرى، لكنها ومضت وتشكَّلت من جديد على هيئة وجه إيرين، التي ابتسمت على نحوٍ مرح، وتبادر في ذهن هاري أنه ربما كان لإيرين صلةٌ بالسبب الذي دفعَ سيناى وتيريم كي يتبعها، ودفعَ جاك لأن يرسل ريتشارد بمفرده في مهمةٍ دبلوماسيةٍ للتفاوض نيابةً عن حصن الجنرال ماندي. ابتسمت هاري للوجه المرتسم في النار ابتسامةً باهتة، وعلى نحوٍ واهن. فنظرت إيرين بعيدًا، كما لو أن شيئًا قد لفت انتباهها، ولمعَ بريقٌ أزرقٌ إلى جانبها، ربما من مقبض جونتوران، أو فقط من شرر النيران.

قال جاك بصوتٍ خشنٍ يُخالجه النوم: «هل سنواصل رحلتنا مبكرًا، إذن؟»
قالت هاري: «لا أحبُّ أحلامي، وأظن أنني يجب أن آخذ بعضَ أحلامي بعين الاعتبار.»
تسبَّب صوتهما في إيقاظ النائمين الآخرين، وبحلول الوقت الذي أصبحت فيه الشمس فوق قمة التلال عن يمينهم، كانوا قد قطعوا بعض الأميال. قالت هاري عندما توقَّفوا للاستراحة في منتصف النهار: «سنصل إلى هناك بحلول الغد»، وقد أدهشتها الصرامة التي

بدت على صوتها. كانت جالسة على الأرض وهي تتحدث، فجاءت ناركنون إليها، ولقت نفسها حول كتفها وظهرها مثل عباءة من الفراء، كما لو كانت تريد أن تُشعرها بالراحة. وفجأة، انبعث صوت شجار من أحد الجوانب، فنظرت هاري حولها في تحفز، وقد وضعت يدها على جونتوران. وخرجت امرأة طويلة من بين الأشجار، يقف بجوارها اثنان من جنود جاك، ويبدوان غير مهذمين، ويعتريهما شيء من الانزعاج والخوف. يحمل أحدهما نصف رغيف من الخبز ويحمل الآخر خنجرًا مشهورًا؛ لكنه يمسك به مثل سكين الخبز. كانت المرأة ترتدي ملابس من الجلد البني، وحول خصرها حزام أزرق منسوج، أزرق بلون السماء، لون يريح العين، وتعتمر على رأسها قبعة قرمزية باهتة، وتحمل كنانة من السهام فوق كتفها وقوسًا طويلًا في يدها، مُطعم بخرزات أسفل المقبض وهي زرقاء بلون الحزام الملفوف حول خصرها.

قالت: «أنا كينتار، أستمحكم عُذرًا على وصولي المفاجئ.»

همست سيناى قائلة: «الفيلانون.» وهي تقف على نحو متحفز إلى جانب هاري. تمتمت هاري: «من؟» ثم قالت للمرأة الطويلة: «لقد أثبتتم لنا للتو أننا بحاجة إلى تخصيص جنود للحراسة، حتى من أجل لقمة من الخبز. كنا نظن أنفسنا وحدنا هنا، وقد جعلتنا الرغبة في الوصول إلى مقصدنا على وجه السرعة غير مُبالين بتشديد الحراسة.» «أظن أن جنود الحراسة لن يتمكنوا من منعي، وكما ترين ...» وأمسكت كينتار قوسها وهي تقول: «لقد جئت إليكم قاصدة السلام؛ ذلك أنني لا أستطيع أن أخرج سهمًا قبل أن يمنعي واحد من جنودكم.»

كانت تتحدث بلغة أرض التلال، لكن لهجتها غريبة، ولم تكن مخارج ألفاظها متوقعة. وجدت هاري أنها مضطرة إلى الاستماع من كثب للتأكد من أنها سمعت بشكل صحيح؛ لأنها هي نفسها لم تكن متمكنة من لغة أرض التلال بدرجة تفيدها في فهم تلك اللهجة. ربما كان اهتمامها هو الذي التقط كلمة «حتى» التي لم تُنطق قبل جملة «لا أستطيع أن أخرج سهمًا»، فابتسمت على نحو خافت. وقفت كينتار في ثبات تام، وهي تبتسم في المقابل. وجاءت ناركنون للجلوس على قدمي هاري، متصنعة أنها قطعة حراسة. وألقت على كينتار واحدة من نظراتها الثاقبة الطويلة، ثم بدأت تُخرخر، دون أن تتحرك. قالت هاري في نفسها: علامة واحدة في صالحك؛ لأن تقييم ناركنون للبشر صائب في المعتاد. ثم قالت: «ماذا تريدين منا؟»

قالت كينتار: «لقد سمعنا، حتى في قمم التلال المرتفعة لدينا، حيث نتحدث في كثير من الأحيان إلى السُحب ولكن نادراً ما نتحدث إلى الغرباء، أنه قد ظهرت مَنْ تحمل سيف الليدي إيرين لتخوض المعارك مرةً أخرى؛ واعتقدنا أننا ينبغي أن نسعى إلى لقائها، فقد تبعَها أمهاتُ أمهاتنا منذ زمنٍ بعيد، عندما جاء جونتوران لأول مرة إلى دamar في أيدي العرَّاف لوث. ولذا، أخذنا عُدَّتنا وتأهبنا لرحلةٍ طويلة، ثم اكتشفنا أن جونتوران، والسول التي تحمله، سيأتيان إلينا؛ ومن ثم انتظرنا. انتظرنا ثلاثة أسابيع، كما قيل لنا، وها أنتِ هنا، ونحن سنتعُدُّ لك بالولاء.» في الجملة الأخيرة، تخلَّت كينتار عن نبرتها الراقية، فنظرت، على نحوٍ سريعٍ وقَلِقٍ، إلى وجه هاري، واحمرت وجنتاها.

أجرت هاري بعضَ الحسابات السريعة. قبل ثلاثة أسابيع، جلست في قاعة حجرية، وتناولت وجبة الإفطار مع رجلٍ نحيفٍ طويلٍ أخبرها أنه لا يستطيع التنبؤ بمصيرٍ محدّدٍ لها، لكن ينبغي لها أن تفعل ما تشعر بأنه يتحمّم عليها فعله.

واجهت هاري نظرة كينتار على نحوٍ يشوبه بعضُ الأسى. وقالت: «إذا كنتِ قد علمتِ متى سنصل إلى هنا على وجه التحديد، فربما قد علمتِ أيضاً أن عدداً قليلاً على نحوٍ مؤسف، وأن المهمة التي أخذناها على عاتقنا تتسم بالتهور. لكننا نرحب بمساعدتكم في صدِّ هجمات جنود الشمال لأطول متّسعٍ من الوقت، إذا كانت هذه هي رغبتكم أيضاً.»

دأبت كينتار بخنصر يديها التي تُمسك بالقوس إحدى الخرزات الزرقاء الموجودة على قبضته، واعتقدت هاري أن كينتار ليست أكبر سناً منها. وقالت كينتار: «هذا ما نبتغيه بالفعل. وإذا بقي أيُّ منا بعد ذلك، فسوف نتبعك إلى ملكك، الذي لم نره منذ أجيال؛ لأنه ينبغي في هذه المعركة أن يتحدَّ كلُّ من تبقى من أهل دamar القديمة معاً، إذا أراد أيُّ منهم النجاة.»

أوماً هاري برأسها، وهي تقول لنفسها إنها ربما سستمكّن من إقناع قبيلة كينتار بالعودة من دونها عندما يحين الوقت؛ لأنه من المرجَّح أن كورلاث سيسرُّه رؤيتهم دون أن يكون وسطهم مَنْ تمرّدت على الإذعان لأوامره، لكن مثل هذه الأفكار غير ذات جدوى إلى أن يروا إن كان أيُّ من جيشهم القليل العدد سيبقى على قيد الحياة بعد مواجهة جنود الشمال. استدارت كينتار وعادت بسرعة إلى الغابة.

غمغمت سيناى مرةً أخرى: «الفيلانون.»

قالت هاري: «ال... ماذا؟»

كَرَّرْتُ سيناى قولها: «فيلانون». وتابعت: «قبيلة الأشجار. إنهم أَكْثَرُ الرماة براعةً في كل دمار، ويُقال إنهم يتحدثون إلى سهامهم، التي يُمكنها الالتفاف حول الزوايا أو القفر فوق العقبات تنفيذاً لرغباتهم. إنهم في حُكم الأساطير الآن، حتى قبيلتي، التي تعيش بالقرب من غاباتهم، كانت تظن أنه لم يتبقَّ منهم أحدٌ على قيد الحياة حتى لو كانت الحكايات القديمة صحيحة، ومنذ أن انتقلَ الفيلانون، بأقواسهم الزرقاء، للعيش فوق قمم الجبال، حيث لم يذهب أحدٌ آخرٌ سواهم إلى هناك.» توقفت لحظة ثم أضافت: «نادرًا ما وجدَ أحدنا إحدى الخزرات الزرقاء؛ إذ يعتقد أنها تجلب الحظ. والذي لديه واحدةٌ وجدَها والدُه عندما كان طفلًا صغيرًا. كان يرتديها في اليوم الذي طعنه فيه خنزيرٌ برِّي بأنيابه، وقال إنه كان من الممكن أن تكون الطعنة في البطن، وتقتله، لولا أن أبعدت الخرزة الزرقاء الخنزير في النهاية.»

قال جاك: «أخبريني، أيتها القائدة، هل تضمين دائمًا إلى جيشك المتجولين الهائمين الذين تجدينهم في الغابة إذا عرّضوا الانضمام إليك؟» ابتسمت هاري: «فقط عندما يزوون قصصًا تروق لي. قبل ثلاثة أسابيع كنتُ أتحَدَّث إلى ... رجل حكيم أخبرني بأن ... أمورًا ستحدث لي. وأنا أميلُ إلى الاعتقاد بأن هذا أمرٌ منهم. وإلى جانب ذلك، فقد أُعجبت بها ناركنون.»

أوماً جاك وقال: «أفضلُ أن أصدّقك. وإن كانت لديّ شكوكي تجاه ما يُمثّله رأيُ قطتك في تقييم الأشخاص من قيمة.» ونظرَ نحوها مرة أو مرتين. ثم أضاف: «أتعلمين أنكِ قد أصبحتَ مختلفةً عمّا كنتِ عليه أثناء إقامتكِ معنا في أرض الأغراب. وهو اختلافٌ أعمق من مجرد سفعاتٍ سبّبتها الشمس على بشرتك.» قال هذا، وهو يعلم حقيقته، وقد اجتاحه الفضولُ لرؤية تأثيره على الفتاة التي كان يعرفها من قبل، وشاهدها من قبل تُحدّق في صحراء داريا.

نظرت هاري إليه، وكان جاك متأكدًا من أنها تعرف بالضبط ما الذي يدور في ذهنه. وقالت: «لقد أصبحتُ مختلفة. لكن الاختلاف هو شيءٍ يمتطيني مثلما أمتطي أنا صنجولد.» وبدا التهكم في نبرتها.

ضحك جاك ضحكةً قوية. وقال: «عزيزتي، أنتِ فقط في مرحلةٍ تعلمُ مسئولية القيادة. ولكن، لو أنكِ تحتِ إمرتي، لَمَنَحْتُكِ ترقية.»

انتهوا من تناول وجبة الظهيرة دون أن يروا كينتار مرةً أخرى، ولكن أثناء امتطائهم الخيول، وبينما ينظر كثير منهم حوله بعصبية متوقّعة ظهور مزيد من الرُماة الطوال

القامة من وسط الشجيرات، ظهرُوا بالفعل على نحوٍ مفاجئ. وقَفَت كينتار أمام هاري وبجانِبها رجلٌ ذو شعرٍ داكن، يحمل قوسًا هو الآخر، ولكن بين الخرزات الزرقاء في قبضة قوسه توجد خرزة خضراء، ويرتدي سترَةً بُنية باهتة تميل إلى الرمادي. ثم رأت هاري دون أن تُدير رأسها الكثيرَ من الرماة وقد اصطَفُوا على المسار، أومأت برأسها على نحوٍ غير مبالٍ كما لو أنها توقَّعت أن يظهرُوا هكذا — وهو في الحقيقة ما توقَّعته بالفعل — وحثَّت تسورنين على السير. اتخذت كينتار والرجلُ الذي معها موقعَهما المناسب مع هاري وباك وسيناي وتيريم، واتخذت بقيةُ الرماة موقعَهم خلف الفرسان. سارت كينتار على قدميها بخطوةٍ سريعة ونشطة مثل صنجولد.

اكتشفت هاري أنَّ الفوج الجديد الذي انضمَّ إلى جيشها الصغير يقترب عدده من المائة، حيث أخصَّتْهم عندما توقَّفوا مرَّةً أخرى. وكانوا يصطحبون معهم نحو عشرين من قطط الصيد: أضخم جسمًا، وأكبر رأسًا من ناركنون، وهي ذات ألوان أكثر تنوعًا مما شاهدته هاري بين وحوش كورلاث. وحافظت ناركنون بعناية على موقعها خلف هاري: حتى ناركنون التي لا تُقهرُ بدا أنها تشعر بأن الحذر هو أفضلُ جزء من الشجاعة عندما تواجه عشرين من نوعها، وكلُّها تفوقها حجمًا بمقدار الثلث.

عثرت هاري ومجموعتُها على تجويفٍ صخري صغير، مَحْمِيٍّ من الرياح الشمالية الغربية التي بدأت تهبُّ بعد ظهر ذلك اليوم، فتجمَّعوا فيه، حول عدة حلقاتٍ صغيرة من النيران. وفكَّ الرُّماة أوتارَ أقواسهم وغمغموا إلى سهامهم وفوقها، وشاهدهم الآخرون خلسةً. بدت الأقواس بالنسبة إلى حاملي السيوف في مثل غرابَةٍ أن يثبت ريشٌ على جلود خيولهم. شعرَ رجالُ جاك بعدم الارتياح بسبب عدم إحضار المسدسات معهم.

واصلوا زحفَهم مرَّةً أخرى عند الفجر، وشعرت هاري الآن أنها تسير في حلمها، وربما كانت ستستيقظ وتجد نفسها في خيمة الملك، مع كلماتٍ غير معروفة على شفَّتيها بينما يُمسك كورلاث كتفيها بيديه، وتبدو الشفقة في عينيهِ. انطلقوا، والرماة يسرون من ورائهم بخطًا سريعًا، على درٍ ضيق في قمم الجبال، أعلى المنحدرات الوعرة المظلمة على حدود الشمال. حيث يُداعب الهواء الرقيق البارد حلوَقَهم، وتسقط أشعةُ الشمس على نحوٍ متراصٍّ من خلال أوراق الشجر. كانت الأرض تحت أقدامهم من الصخر الطُّفلي اللين، لكن تسورنين لم يتعثَّر مطلقًا، كانت أذناه منتصبَتَيْن إلى الأمام وهو يخطو بثبات. نقرت هاري بأظفارها على الحجر الأزرق الكبير على مقبض جونتوران وهي تتذكَّر أغنية كانت تُغنيها وهي طفلة، تردَّدت النغمات في ذهنها، لكنها لم تستطع تذكرَ الكلمات على نحوٍ كامل.

لقد جعلتها تشعر بأنها معزولة، كما لو أن طفولتها لم تحدث بالفعل، أو على الأقل لم تحدث على النحو الذي تتذكره. ربما كانت تعيش على الدوام في أرض التلال؛ لقد شاهدت تسورنين وهو لا يزال مُهرًا، وكانت أول مَنْ وضع سرجًا على ظهره الصغير، ودربته على أن يقف على قائمتيه الخلفيتين والضرب كحصان حرب. شعرت في أعماقها بإحساسٍ مرح. وصلوا إلى ريتجرز جاب، بوابة مدامر، قبل غروب الشمس، وهي فجوة تقع على بُعد بضعة أمتار فوقهم في نهاية الهضبة الصغيرة المؤدية إليها، حيث توجد أشجار على الجانب وصخورٌ جرداءٌ حولها حتى قمة الجبل. كان هناك كهفٌ مجوفٌ طويل على أحد الجانبين، حيث تتحني قمة الجبل على نفسها، وأشجار منخفضة تحمي معظم واجهته. فقال جاك بصوتٍ مبتهج: «سننام فيما يُشبه المأوى الليلة. على الأقل ما دامت الرياح لن تُغيّر اتجاهها وتقرّر الهبوب علينا من جهة الجنوب.»

كانت هاري تُصغي إلى النسيم الشمالي؛ إذ كان يُحدثها على نحوٍ ساخر. وقالت: «لن تُغيّر اتجاهها.» نظر جاك نحوها، لكنها لم تقل المزيد. تردّد صوتُ لهاث الرجال والخيول عبر الهضبة. كانوا يسارعون الخطا للوصول، تمامًا كما أخبرها حلمها أنهم سيفعلون، أو يجب عليهم أن يفعلوا؛ في الساعة الأخيرة، كان على الرجال والخيول أن يتدافعوا، جنبًا إلى جنب. وانحنت هاري على كتف صنجولد، مُمتنةً لصلابة بُنيانه الحيواني، فأدار رأسه نحوها كي يمسح كُمها بلطفٍ حتى ربتت عليه. وبعد دقيقةٍ من التحديق حولها، تبعت ناركنون ببطء وهي تصعد حتى مدخل الفجوة نفسها وتُحدّق في الوادي الواقع خلفه. حتى ناركنون بدت مُنهكة، لكن ربما كان هذا بسبب الأميال الوعرة التي قطعوها في هذا اليوم.

يمكن لفارسين متجاورين على صهوة حصانيهما عبور الفجوة الضيقة وسط الصخور، ربما، لكن ركبتيهما ستلتامسان. على هذا الجانب من الفجوة، تتصاعد الهضبة لأعلى حتى أعتاب الشق الضيق في نهاية الفجوة، وتنحدر بعد الشق لأسفل على الجانب الآخر، حيث يمكن أن يصعد الرجال والخيول البارعة. حدّقت هاري وقد مدّت رأسها إلى الأمام، وأصبحت تشعر بأنفاس صنجولد الدافئة على مؤخرة رقبته. قفزت ناركنون من موقعها بجانب الشق، وأدارت ظهرها إليه، وراحت تلعق جلدًا. فوقفت هاري داخل الفجوة نفسها، وانحنت على الموقع الذي أخلته ناركنون. كان وراء الشق منحدرٌ مغطى بالحصى، يؤدي إلى وادٍ مغطى بالشجيرات بين جانبي الجبل، وكان للوادي عند جانبه البعيد جدارٌ منخفض، لكنه يتلاشى عند سفح التلال. شعرت هاري بأنّ بصرها يمتدُّ

بعيداً، إلى السهل الوعر وراء الوادي ذي اللون الباهت وصَفَّ التلال المنخفضة الحادة، وعلى حافة السهل رأَتْ ضباباً يتدحرج وينجرف، مثل مدٍّ قادم، مستكشفاً الشاطئَ أمامه، ويمتدُّ ليضربَ التلال الصغيرة قبل أن يكتسحها.

استدارت هاري وعادت إلى جيشها الصغير. وقالت، دون أن توجَّه كلامها إلى شخص بعينه: «سيصلون هنا غداً».

ساد الصمتُ في المعسكر تلك الليلة. بدا الخوفُ، النابعُ عن التأثُّر بالخرافات، في تصرفات الجميع تقريباً، فراحوا يُلْمعون خناجرهم للمرة الأخيرة على نحو ملحوظ للغاية، وأجروا مزيداً من الفحص الهادئ للمُعَدَّات، وإن كان بحركة تتسم بالحرص الشديد. لم ينظر أحدٌ في عيني الآخر، ولم تصدر أيُّ أصوات لرنين معدنٍ على معدن. حتى وَقَعَ الأقدام كان مكتوماً.

أصبح دراكو، الحصانُ البني المحمر الخَصِيَّ الخاص بجاك، وصنجولد حصان هاري؛ صديقين على مدار أيام هذه المهمة. كانت خيولُ أرض الأغراب تلتزم دائماً بالبقاء بجوار فرسانها، بينما تتجولُ خيولُ أرض التلال في حرية، لكنها لا تتعد أبداً عن موقع المعسكر، ويقف صنجولد ودراكو في كثيرٍ من الأحيان وقد اقترب أنفُ هذا من أنفِ ذاك، وهما يُغمِمان معاً، ربما حول الطقس ومسيرة اليوم الماضي، وربما عن غرائبِ فارسَيهما وانشغالاتهما. وقد وقفاً في هذه الليلة أحدهما بالقرب من الآخر ورأساهما في الاتجاه نفسه — وراحا ينظران نحونا؛ هكذا قالت هاري لنفسها، بينما نحن ننظر إليهما أيضاً، أو ينظران إلى تلك الرياح الشمالية الغربية الرهيبة. حرَّك صنجولد أحد أذنيه إلى الخلف، ثم إلى الأمام مرةً أخرى، وضربَ الأرض بحافره. وأدارَ دراكو رأسه لينفخ بعمق على رقيقه، ثم استقرَّ كلاهما واستغرَقا في النوم، مع إرخاء إحدى القائمتين الخلفيتين، وقد هدأت عيونهما وغاب عن بؤرتها التركيز. راقبتُهما هاري بحسد. وأخذت الرياح الشمالية تعوي. «إنَّ دراكو، الذي يعرف الكثير عن المعارك مثلما أعرف، أخبرَ صنجولد القليلَ الخبرة بضرورة أن يحصل على قدر جيد من النوم. وأنا، المحارب المخضرم — من الصعب أن أقول هذا بعد ساعاتٍ طويلةٍ فوق السرج — على وشكِ أن أقول الشيء نفسه لك، يا قائدتي الشابة العبقريّة».

تنهَّدت هاري. وقالت: «توقَّف عن مناداتي بالقائدة. إن جُمَلَ جونتوران يكفي، وهو ليس أسطورتك».

قال جاك: «سوف تعتادين على ذلك، أيتها القائدة. هل ستحرميني من تسليحة صغيرة واحدة؟ لا تُجيبني. ولتُخلدي إلى النوم».

أجابت: «ربما لو كان بإمكانني الوقوف على ثلاث أرجل وترك عينيّ تلمعان، لصار هذا مفيداً. لا أشعر بالرغبة في النوم و... أخشى أن تراودني الأحلام.»

قال جاك: «حسنًا، حتى مَنْ ليسوا مجبرين منّا على تصديق ما نحلم به ليسوا سعداء بالأحلام في الليلة السابقة للمعركة، ولكن هذا ... أمرٌ حتمي.»

أومأت هاري برأسها، ثم نهضت لبسط فراشها القماشي وألقت بنفسها عليه انصياعاً للواجب. لم تستطع ناركنون أيضاً الاستقرار في مكان واحد. وظلّت تخطو حول حلقة النار، ثم تذهب لتلامس أنفها مع أنف صنجولد، وتعود، ثم ترقد، ثم تتجول. وقالت هاري: «سأرسل كينتار ومجموعتها إلى قمم الأشجار المطلة على الجانب الآخر من الفجوة للإشراف على الوادي، ويمكننا جميعاً أن نحتشد معاً هنا — ونواجه ما سيأتي عبر الشق.»

قال جاك من تحت غطاءه، بعد أن خلع حذاءه: «رائع، لم أكن أنا نفسي لأرتب الأمور على نحو أفضل من هذا.»

ضحكت هاري ضحكة قصيرة مكتومة. وقالت: «ليس هناك الكثير لترتيبه، يا صديقي الحكيم. حتى أنا أعلم ذلك.»

أومأ جاك برأسه. وقال: «كان من الممكن أن تأمرينا بالدخول عبر هذا الشق الصخري على مجموعاتٍ من جنديين، كي يُمزقنا العدو إرباً إرباً؛ وعندئذٍ كنتُ سأعترض على تنفيذ الأمر. لكنك لن تفعلي ذلك. اخُلدي للنوم، أيتها القائدة.»

نخرت هاري.

ظلّت عينا هاري مفتوحتين، ورأت السُحب وهي تمرُّ من أمام القمر، وسمعت عواء الرياح الشمالية وهو يعلو بينما تحجب السُحب ضوء القمر. وسمعت ضربة حافر حصان على الأرض وهو مربوط على وتدٍ داخل المعسكر، وغمغمّة غير واضحة من أحد الجنود النائمين وهو يشعر بعدم الارتياح؛ وناركنون، التي قرّرت أخيراً فعل الصواب وخلدت إلى النوم، وهي تُخرخر على نحوٍ طفيف بينما تُسند رأسها إلى صدر هاري. وبخلاف هذه الأشياء سمعت ... أشياء أخرى. ولم تُصدِر أوامرها بعمل نوبات حراسة؛ لأنها كانت تعرف أن جنود الشمال لن يصلوا قبل الغد؛ ومن ثم فلا ضرورة لنوبات الحراسة. لقد كان من حُسن الحظ أن يُتاح لكل فرد من جيشها الصغير النوم في الليلة التي تسبق المعركة، وسيكون من الحمق ألا تقبل أيّ فرصة يمنحها لها الحظ الجيد.

لكن بينما كانت ترقد مستيقظةً بمفردها، سمعت ضربات الحوافر التي لم تُتَبَّت فيها حذوات من الحديد، وحركة أجسام حيوانات تُستخدم للركوب لكنها ليست خيولاً،

وشخيرَ نومِ فرسانٍ ليسوا بشرًا. وبعد ذلك، هداً عقلُها بضَعِ دقائقٍ تقريبًا، لكنها سمعتَ حَفيفًا، وبينما ميَّزَ عقلُها الذي يُغالبه النعاسُ ببطءٍ صوتَ الحفيفِ على أنه صوتُ انسدادِ جَنَاحِ خيمة، سمعتَ صوتَ كورلاث يقول بجِدَّة: «غداً». فنهَضتَ من رُقادها وجلستَ في حالة صدمة، وانزلتَ نارِكنونَ عن كتِفِها وتقوقعتَ من جديدٍ على الأرض. ومن حولها بدتَ أكوامَ ثابتة قليلة العدد من أصدقائها وأتباعها النائمين، وبصيصِ الجمرِ الأحمر من حلقاتِ نارِ المعسكر، والظلامِ المُطَبَّقِ للمنحنى الصخري والظلامِ المتمايلِ المتمثِّلِ في قممِ الأشجار. التفتتَ إلى الجانبِ الآخرِ وتمكَّنتَ أن ترى على نحوٍ باهتٍ صورةً غيرَ واضحة المعالم لقوائمِ الخيول، وسمعتَ رنةَ الحديدِ على الصخرِ حين تضربه حوافرُ الخيول. كان جاك يتنفس بعمق، وقد أبعدَ وجهه عن وهجِ النارِ الآخذِ في التلاشي، ولم تتمكَّنَ من رؤية تعبيراتِ وجهه، حتى إنها تساءلت عما إذا كان يتظاهر بالنوم كي يجعلها تُقلِّده. ونظرتَ إلى نارِكنون، التي مدَّدتَ جسمها بجانبها، كان رأسها الآن فوق ركبتي هاري. لم يكن هناك شكٌ في أنها مستغرقة في النوم حقًا. وقد ارتجفت شواربها، وخرخر حلَّقها.

استلقت هاري في فراشها مرةً أخرى. كان صوتُ الرياحِ مكتومًا حول الصخور، لكنها كانت تعوي بشدة، عبر الجبال، وتتَّجهُ إلى السهول الهادئة في دامار، وهي تحمل معها همساتٍ وتأوهاتٍ غيرَ بشريةٍ من الجيش الشمالي. فارتجفت هاري. ولمستَ إصبعُ من النسيم وجهها فتراجعت، ثم اندفع فوق كتفها واختفى. ومن ثمَّ سحبتَ الغطاءَ على وجهها.

لا بد أنها قد استغرقت في النوم؛ إذ عندما أزاحت الغطاءَ عن وجهها مرةً أخرى، كان الفجر قد بزغَ فوق قمةِ الجبل وشعرتَ بجفافٍ في فمها. ومن ثمَّ نهضت. كانت نارِكنون لا تزال نائمة. فتحَ جاك عينيه. وراحَ يُحدِّق متجهًا في لا شيء، ثم شاهدتَ عينيه تُرْكزان وتنظران نحوها. نهَضَ جاك، دون أن يقول شيئًا، ووضعَ مرفقيه على ركبتيه، وفركَ بقايا الشعر الرمادي في رأسه بيديه. وبدأ الآخرون يتقلَّبون في نومتهم. كان هناك نبعٌ صغير وسط الصخور عند الجزء الأمامي من الكهف تحيط به الأشجار، فملأَ أحدُ جنودِ جاك كوبًا معدنيًا وأحضره إلى أحدِ رماةِ كينتار، الذي أوقدَ لسانًا نحيفًا من اللهب من رماد الليلة الماضية. حدَّقتَ هاري على نحوٍ حالمٍ في النارِ الصغيرة حتى حالَ شيءٌ أسودُ بينهما، اتضحَ أنه جاك، وقد وقفَ أمام حلقةِ النارِ الخابية بجوارهما مستندًا إلى ركبتيه. نهَضتَ هاري، وهي تركزُ غطاءها، وذهبتَ لجلبِ كوبٍ آخرَ من الماء.

ابتسم جاك إليها عندما عادت. حاولت أن تبتسم إليه؛ إذ لم تكن متأكدة من مدى نجاحها.

وبينما كانوا ينتظرون أن يغلي الماء، سارت هاري إلى بوابة مدامر وحدّثت عبرها. كانت قمة رأسها أعلى من قمة الشق الصخري، بينما تهبُّ عليها الرياح الشمالية وهي تعوي، فشعرت بأن فروة رأسها مشدودة وباردة. ولا يزال الضباب معلقاً حيث رآته في المساء من قبل، عند بداية التلال السفحية، لكنها شعرت هذا الصباح أن بإمكانها رؤية ومضات من الألوان والحركة داخله. كان اللون هو لون الخوف.

دفعتها الرياح، فعادت إلى الكهف. كانوا جميعاً جالسين، وقد تجمعوا حول حلقات النار الصغيرة، وكانوا جميعاً ينظرون نحو هاري، ما عدا جاك، الذي كان يحلق ذقنه. وقد أُعجبت بثبات يده وهو ينحني أمام قطعة من مرآة تستند إلى صخرة على الأرض. توقفت أمام مدخل الكهف. وقالت: «ابقوا بعيداً قدر المستطاع عن مهبّ الرياح، إنها ليست ... برياح مسالمة.»

نظر تيريم إلى أعلى، كما لو كان بإمكانه أن يرى شكل الرياح نفسها، وليس فقط الطريقة التي تهزُّ بها الأوراق وتذرُّ بها الحصى من فوق الصخور. وقال: «لقد أرسل جيش الشمال رياحه كي تُخيفنا.»

تذكّرت هاري اللمسة الزاحفة على وجهها في الليلة الماضية. وقالت ببُطء: «أجل. كي تُخيفنا — لكنني أعتقد أيضاً كي تتجسّس علينا. أرى أن من الأفضل ألا نجعلها تعلم عنا إلا ما نحن مضطرون إلى قوله.»

عند منتصف الصباح وضعت هاري السرج على صهوة صنجول، وبسّطت الجزء العالي من حذائها وربطته على فخذيها، وارتدت سترتها الجلدية بعناية خاصة على كتفيها، وثبتت جونتوران بحزامه حول وسطها. وعلقت الدرع والخوذة في مقدمة السرج، والتفت صنجول كي ينظر إليها. بدا مظهر السرج غريباً، وغير متوازن، من دون الجُعبات الجلدية الكبيرة التي تربط حوله. أخذ دراكو يلوك لجامه، فوجّه تسورنين أذنه مدة وجيزة نحو مصدر الصوت.

قُبيل الظهيرة، أرسلت هاري كينتار ورُماتها وقططهم الكبيرة ذات الخطا الخفيفة إلى ما وراء البوابة، عند آخر الأشجار التي فوق أكتاف الجبال المطلّة على الوادي الأجرد. راقبت هاري بقلق؛ لأن الأشجار المتقرّمة لم تُوفّر غطاءً جيداً، وشعرت أن كلَّ خرزة زرقاء ستصبح مرئية، لكن الرماة اخفقوا كما لو أنهم حصواتُ اللقيت وسط الأشجار. كانت

هاري متأكّدة من أن ما يقتربُ منهم — أيّا كانت ماهيتهُ — قد علم أن البوابة محميةٌ ضد هجماته، علم وابتمس على الرواية التي جلبتها الرياح، لكنها لا يمكن أن تفعل أكثرَ من ذلك.

رآهم جاك لأول مرة قبل أن تذهب كينتار ورماتها. ذلك أنه كان يُحدّق من خلال منظارٍ تجسّس أسود رفيع، كانت يداها ثابتتين مثلما كانتا أثناء استخدامه لشفرة الحلقة. أما هاري، فراحت تفرك يديها وتقبض بإحدهما على الأخرى، ولم يمنعها من ذلك سوى التفكير في الأمر باستمرار؛ ومن ثمّ ثبّتتهما على حزام السيف. فشعرت بأنهما قد تعرّقتا. كانت هاري قد راقبت أولئك القادمين نحوهم طوال الصباح، واستغرق الأمرُ لحظةً حتى تفهم الصوت المفاجئ الذي أصدره جاك من أنفه، والذي يدل على فهمه أمراً ما. تدفّق الضباب إلى مدخل الوادي، وتشكّل على هيئة كتلٍ من الأشكال المتحرّكة المظلمة التي لا تزال تبدو مظلّلة أكثرَ مما ينبغي؛ لأنها أصبحت قريبةً للغاية.

قالت هاري: «امتطّوا خيولكم».

ضحكت الرياح على نحوٍ شرس وهي تندفع بشدةٍ خلال شعر الجميع، وتنقر في جنونٍ على المعدن بينما استقرّت الخوذات في مكانها، واحتكّت بأصابع القفازات، وأطراف السيوف، وذبول الخيول. وقّف صنجولد وأنفه يواجه البوابة، ووقف دراكو بجوار ركبة هاري، على نحوٍ يتّسم برباطة الجأش، وقد انتصبت آذانهم. شعرت هاري بارتجاف تسورنين، لكنه كان بسبب التلهّف على البدء، فعضّت شفتيها خجلاً من نفسها وفخراً بحصانها. مدّ حصانٌ تيريم رأسه على نحوٍ يُثير القلق وحرك ذيله؛ كان وجه تيريم تحت الخوذة غير واضح كي يُمكن تفسير تعبيراته. وعادت ناركنون إلى الظهور من المكان الذي قضّت فيه الصباح، وهي تعلق فمها؛ إذ لم تكن راضيةً عن العصيدة هذا الصباح. كما لمعت شواربها بعناية، ثم جاءت إلى مقدمة الصف، كي تجلس بين تسورنين ودراكو. قالت هاري: «ناركنون، يا عزيزتي، لماذا لا تنامين الآن بجوار النار، إلى أن ... إلى أن نعود؟ هذه ليست رحلة صيد».

نظرت ناركنون لأعلى نحوها، مدركةً تماماً أنها تُوجّه الكلام إليها، ثم خفضت نظرها مرةً أخرى وحدّقت عبر الوادي.

قال جاك: «رماة الفيلانون اصطحبوا قططهم معهم. سوف تؤذّين مشاعرها إذا حاولت تركها خلفك».

قالت هاري بغضب: «هذا ليس الوقت المناسب لإلقاء النكات السخيفة».

قال جاك: «على العكس أيتها القائدة، هذا هو بالضبط الوقت المناسب.»
ازدردت هاري لعابها ونظرت إلى الشمال مرة أخرى. في مقدمة الجيش الذي أمامهم كان هناك فارسٌ على حصان أبيض. كان الحصان رائعاً، في نفس ارتفاع قامة صنجولد، مع نفس الرأس الفخور والذيل المرتفع، وتُرفرف أشرطة حمراء من عُزته وقمة رأسه. وكان لجامه ذهبياً برقاً يلمع مقابل رقبة البيضاء كالثلج، ويمتشق الفارس سيفاً ذهبياً رائعاً كبير الحجم. وبجانبه، يقف فارسٌ يرتدي زياً أسود، ويمتطي حيواناً داكناً بلون الطين ويحمل راية: لونُها أبيض، مرسومٌ عليها طائرٌ أحمر، وهو طائر مفترس ذو منقارٍ معقوف.

قال جاك: «لا يمكن لأي جيش أن يتحرك بهذه السرعة.»

قالت هاري: «أجل.»

سهلُ الحصان الأبيض، فسهل صنجولد رداً عليه، ورفع قائمتيه الأماميتين؛ فلَکمت هاري رقبة بقبضتها، فاستقر مرة أخرى، لكن عضلاته الخلفية كانت متحفزة، في انتظار الاندفاع إلى الأمام.

قالت هاري: «حسناً، سنذهب لمواجهة الآن.»

انهمرت السهام كالطر من السماء إلى البحر المظلم عند أقدامهم، وسقطت بعض الأجسام المظلمة ذات الظلال العديدة، ووصلت صرخات غريبة إلى أذان المتقربين عند البوابة. وسمعت هاري تيريم يقول: «على الأقل يمكن للسهام أن تخترق أجسادهم.» كانت أذنا صنجولد مسطّحتين على رأسه، وهو يقفز في مكانه. وكان بإمكان هاري سماع الخيول خلفها وهي تتقارب، ووقفت سيناى وتيريم وقد وضع كلٌّ من حصانيهما قائمتيه الأماميتين على المنحدر الصخري على جانبي الفجوة.

قالت هاري: «انتظر أنت هنا يا جاك؛ سنعود عندما نصبح مستعدين للاستراحة، ويمكنك التفاوض معهم مدةً من الوقت.»

قال جاك: «كما تأمرين، أيتها القائدة.» ثم أضاف وهو يهمس: «حظاً موفقاً،

يا هريمد-سول.»

أشارت هاري إلى عازف البوق المرافق لجنود جاك، وخرجوا بينما تعلن النغمات النحاسية الرنانة عن مسيرتهم؛ إذ كانوا لا يحملون أي شيءٍ آخر.

قفز صنجولد عبر الشق نحو أسفل المنحدر، ورفع الحصان الأبيض الفحل قائمتيه الأماميتين وسهل، فوجه فارسُه وركض إلى أحد الجانبين، وتدققت جحافل الجيش في جنبات الوادي. وتردّدت صيحات الحرب في الحناجر الخشنة، ونطقت بلغاتٍ مختلفة.

كان الموقع أمام البوابة مفيداً لهاري، فليس به سوى مساحة ضيقة للمناورة، ولا يوجد متسع للأعداد الكبيرة من جنود الشمال كي تجتاح خصومها الضئيلي العدد وتحققهم. وعلى كل جانب أن يُقاتل على جبهة ضيقة، وكان التساؤل الوحيد هو إلى متى سيصمد جنود أرض التلال ويستمرّون في القتال؛ إذ سيكون هناك دائماً من يحلّ محلّ أيّ جندي من جيش الشمال قد يُقتل أو ينال منه الإنهاك والتعب. شهّرت هاري جونتوران من غمده ولوّحت به، وهي تصيح في الهواء، واندفعت نحو جنود الشمال وهي تُمزّق أجسادهم بضربات سيفها وهم يتساقطون، وقد تعالت صرخاتهم، تحت أقدام صنجولد. فصاح تيريم: «جونتوران!» ونادت سيناى: «هريما-سول وجونتوران!» كي لا يفوق الأمر طاقتها؛ ثم اندفع جنود أرض التلال نحو جنود الشمال.

اندفع صنجولد وسط الحشود وضرب بالأسنان والحوافر بينما يُمزّق جونتوران ويطعن، وشعرت هاري بالموجة الصفراء ترتفع في ذهنها، وكانت سعيدة بها؛ لأن تفكيرها وحده لا يُجدي كثيراً، وليس بالنوع المناسب الآن، ولاحظت أن جونتوران أصبح مغطّى بالدم، لكنه دمّ ذو لون غريب. وتكاثرت السُحب لتحجب الشمس، لكنهم استمروا في الكرّ والفرّ، وقاتل جنود أرض التلال على نحو أشدّ بأساً كي يُثبتوا أن الجيش الأسود ليس جيشاً لا يُقهر.

أدركت هاري دون أن تنظر نحوه أنّ رأس دراكو بجوار ركبته مرة أخرى، وهدأت لحظة عندما تمكّنت من إراحة ذراعها اليمنى ودرعها الصغيرة على ساقها، وقالت: «من أين أتيت؟»

قال جاك: «بدا الأمر كما لو أنك لن تعودى أبداً وتمنحينا فرصة المشاركة، وقد سئمنا من الانتظار»، ثم ازدادت جدّة المعركة من حولهما مرة أخرى، وارتفع صليل السيوف وارتطام الضربات العنيفة وأحاط بهما. وقد تلطّخت رقبة صنجولد بالدم، وبينما يندفع برأسه، تطاير الزبد من فمه للخلف وسال على ساعد هاري.

لم يكن باستطاعة الجنود الرؤية على نحو واضح إلا بصعوبة بالغة، حتى على مقربة ضربة سيف. بينما تمكّنت هاري من الرؤية على نحو أكثر وضوحاً من بقية الجنود، لكنها لم تستطع تحديد سبب تأكدها من أنّ الكائنات التي تُقاتلها ليست بشريّة بالكامل. كان لدى بعضهم عيون متلاثلة لأذرع سريعة مثل البشر؛ لكن بدت أطراف البعض الآخر كأنها تتأرجح من مفاصل الكتفين والفخذين على نحو غريب، وبدت مواضع العيون غريبة في الجماجم ذات الشكل الغريب — على الرغم من أنّ الجماجم ربما كانت سليمة، وكانت

الخوذات غريبة الشكل على نحوٍ مُتعمَّد. كانت بعضُ الخيول أيضًا خيولاً حقيقية، لكن بعضها كان جلده يتلألأ مثل قشور الأسماك، وله أقدامٌ تدبُّ على الأرض لا تُشبه الحوافر، وأنيابٌ مثل أنياب الكلب.

مرَّت دقائقٌ عاشَ خلالها جونتوران حياةً خاصةً به، وفي المرة التالية التي رأت فيها هاري جاك، اصطدمَ بها دراكو من جانبٍ واحد، وتشابكَ رِكابُ جاك مع كاحلها؛ فصاح قائلاً: «يُمْكِنُكَ أَنْ تُفَكِّرِي فِي التَّرَاجُعِ بضعَ دقائق، أيتها القائدة؛ لقد كَبَدْنَا هُمْ خَسَائِرَ فادحة، ونحن نستحقُّ بعضَ الراحة.»

نظرت هاري حولها في حيرة، لكنه كان مُحَقًّا؛ لقد تَمَكَّنَتْ كَتِيبَتُهَا الضئيلة العدد من إجبار الجيش الأسود على التراجع؛ حيث تقهقروا إلى منتصف الطريق أسفل الوادي مرةً أخرى. فقالت: «أوه. أوه. أجل.»

صاح جاك وهو يقف على رِكابه: «تراجَعُوا! تراجعوا إلى الفجوة!» أصدرَ عازفُ البوق نغمة الانسحاب؛ لأنه تبعَ جاك عندما كافَحَ الكولونيل للوصول إلى هاري، مثلما تبعَ الكولونيل ديدام في كثيرٍ من الأحيان من قبل طوال السنوات والمعارك الماضية، ولم يُصَبَ حتى الآن بأيِّ جروح تمنعه من العزف، على الرغم من أن المناوشات الحدودية التي اعتادَ المشاركة فيها قد جَهَّزَتْه بعضُ الشيء لهذا اليوم. لقد أصبح متعباً وملطخاً بالدماء الآن، واستغرقَ الأمرُ لحظةً كي يملأَ رئتيه بالهواء ويجعلَ البوق يُصدر صوته، لكن بعد ذلك حلَّقت النغمات مرةً أخرى، فوق رءوس المقاتلين، وتجمَّعت كتيبة هاري استعداداً للتقهقر إلى الفجوة. رأت هاري سيناى بالقرب منها، ثم التفتَ الآخرون، واحدٌ وراء الآخر، وهم نصفٌ منتبهين، فوق سروجهم، بعد أن سمعوا نغمات الانسحاب، وقد سمع بعضهم الصيحة ونشروها حتى مسافةٍ أبعد، أما رُماة الفيلانون فكانت لديهم نغمةٌ غنائية طويلة واضحة تناقلوها فيما بينهم. وبينما استدارت خيول أرض التلال وأرض الأغراب كي تنسحب، واستعدَّت هاري كي تتبَعها؛ ظهر الحصانُ الأبيض الضخم أمامها على نحوٍ مفاجئ.

بدا هذا الحصانُ تقريباً وكأنه حصانٌ حقيقي؛ هكذا قالت لنفسها. لكنه كَثُرَ عن أنيابه، وكانت تُشبه الأنيابَ المنحنية الحادة لدى الوحوش الآكلة اللحم. وينتهي كلُّ طرفٍ من طرفي لجامه بما يُشبه السكينَ الحادَّ على كل جانب من جوانب فكه، حتى يتمكَّن من طعن أيِّ حصان يواجهه بضربةٍ جانبية من رأسه. وقد مدَّ أذنيه الطويلتين على جُمجمته، وجحظت عيناه الزرقاوان. رفعَ قائمتيه الأماميتين وصهلَ صهيلَ حصانٍ فحل مرةً أخرى،

فردَّ عليه صنجولد بالمثل. ولكن عندما ضربت أقدامُ حصانها الأرضَ مرةً أخرى، قفز إلى الأمام، ورأت هاري فارسَ الحصان الآخر يشهَرُ سيفَه الذهبيَّ في تحدٍّ. وتلألاً جونتوران في ضوء الشمس، وعندما تلامس السيفان، شعرت بأن الضربة ناتجة عن قوة أكبر من قوة بشر. لكن سيف الفارس الآخر لم يلحق به أيُّ أذى، فقط تراجعت هاري على سرجها، وبسبب الضجيج الذي أحدثه السيفُ على درعها الملطَّخة بالدماء، وأحدثت الضرباتُ نقرًا على سطحه؛ سرت موجاتٌ من الخوف في جسدها، وتحولَ غضبُ الحرب الأصفر لديها إلى اللون الرمادي الخافت. رفعَ صنجولد قائمتهِ الأماميتين وصهلَ. ولم يكن الحصانُ الأبيضُ سريعًا بما فيه الكفاية، وعندما أبعدَ صنجولد قائمتهِ وأنزلهما على الأرض، كانت هناك دماءٌ تسيل على رقبة الحصان الآخر وكتفه ولجأه.

يبدو أنَّ هذه الضربة دفعت الحصانَ الأبيضَ إلى الجنون، فهاجمَ مرةً أخرى، وسمعت هاري من خلال الرعد المميت في أذنيها ضجَّةَ الفارس الآخر. فرفعت عينيها إلى حيث ينبغي أن يكون موقعه، تحت خوذته البيضاء اللامعة، ورأت بُقعتين من النار الحمراء، وأسفلهما كشفت ابتسامة عن أسنان في فكٍّ ربما كان يومًا ما فكَّ إنسان. إنَّ القوة التي ظهرت على هذا الوجه، وسرت في الذراعين إلى السيف والدرع، كانت من النوع الشيطاني، وأدركت هاري أنَّ قوتها أقلُّ من تلك القوة، وعلى الرغم من حرارة جونتوران في يدها، كان قلبها باردًا من الخوف. رفعَ الفحلان قوائمهما الأمامية مرةً أخرى، ووجَّها الضربات بها لتمزيق بعضهما بعضًا، وقد أحاطت الدماء الآن برقبة الفحل الأبيض كشريطٍ أحمر، مثل الأشرطة الحقيقية التي كانت ملفوفة على عُرتِه. رفعت هاري ذراعها ووجَّهت ضربةً بالسيف، وشعرت بصدمة قوية عند ارتطامه بالسيف الآخر؛ ورنَّت قبضتا السيفين معًا، وتطاير الشرُّ من ارتطام المعدن، ويبدو أن الدخان ارتفعَ منهما وأعجزها عن الرؤية. شعرت بالأنفاس الحارة للفارس الآخر أمام وجهها. وقد انفجرت شفتاه فأمكنها رؤية لسانه؛ كان لونه قرمزيًا، وبدا أشبه بالنار أكثرَ من اللحم الحي. وشعرت بأن ذراعها قد تخذرت. استمرَّ الاشتباك لحظةً واحدة فقط، ثم ابتعدَ صنجولد بفارسته، وقد أحكمت هاري تثبيت ساقها على ظهره بحكم التعود، بينما كانت تُكافح فقط لعدم إسقاط سيفها. وعَضَّ صنجولد الفحلَ الأبيض فوق الذيل مباشرةً، الذي وجَّه رفسةً بقائمه الخلفية، لكنها كانت متأخرةً للغاية، حيث تفادها صنجولد وعَضَّه مرةً أخرى في خاصرته، وتدفَّق الدم من الجرح الطويل الغائر. مدَّ الفحلُ الأبيضُ رأسه واندفعَ إلى الأمام، بعيدًا عن عدوه. وسمعت هاري الفارسَ يضحك مرةً أخرى، رغم أنه لم يُحاول كبَحَ جِماح حصانه كي يلتفَ لشنِّ

هجوم آخر؛ هجوم عرّفت هاري أنه سيُصبح دفاعًا الأخير. لكن يمكنه الانتظار. فهو يعرف قوة جيشه، ويعرف قلة عدد الكتيبة التي اختارت محاولة التصدي له؛ لأن الرياح التي أرسلها قد أخبرتّه.

ولكن في تلك اللحظة، وبينما كان الفحل الأبيض يركض هاربًا منهما، وقد استدار حامل الراية ليتبع قائده، قفز جسدٌ مخطّط طويل من فوق أرض الوادي السوداء اللينة وألقى بنفسه وهو يُزمر على الوحش ذي اللون الطيني. واندفع صنجولد إلى الأمام مرةً أخرى قبل أن تُدرك هاري أن ساقَيْها تُحكمان الثبات حوله؛ لأن الجسد المهاجم كان ناركنون. جرحت القطعة الفارس، ثم سقطت بعيدًا مرةً أخرى، ثم قفزت على وجه الوحش وأمسكت أنفه بأنيابها، فانبجست منه دماء أرجوانية وسالت على جانبي جسد ناركنون. رفع الوحش قائمته الأماميتين، محاولًا تمزيق القطعة بمخالبه، لكن ناركنون لوت جسدها في الهواء. وضع الوحش قائمته الأماميتين على الأرض مرةً أخرى بينما وجّه راكمه ضربةً بسيفه نحو القطعة، لكنه لم يُصبها، حيث اعترضت هاري طريقه بسيف جونتوران. ورفع الوحش قائمته الأماميتين مرةً أخرى، غاضبًا من الألم، وألقى بنفسه إلى الراء، فوقع فوق راكمه ولم ينهض أيّ منهما مرةً أخرى، ودُهِست الراية ذات اللونين الأحمر والأبيض تحت الأقدام.

الفصل الخامس عشر

استدار صنجولد وهُرع يصعد الوادي إلى البوابة، وقفز برشاقةٍ عبر الشق، ورأت هاري ناركنون تندفع أمامها وهي تنزلق أو تسقط من على السرج إلى ذراعي جاك. وقع جونتوران على الأرض مُحدثاً صوتَ قعقعة. قال جاك: «براندي»، ووضع شيئاً بين أسنانها، فشربت منه جرعةً كبيرة، وكمّمت فمها، ودفعت الشيء بعيداً.

قال جاك: «أحسنّت»، لكنّ نبرة اللطف كانت مصطنعة، وكلّهما يعرف ذلك. ثم أضاف: «هل أُصبت بجروح؟»

هزّت هاري رأسها على نحوٍ يفتقد الاتزان. وقالت: «كلا، وأنت؟»
«كلا.»

نظرت هاري حولها وقالت: «ولكن؟» كانت ناركنون بجانبها، مغطاةً بالدماء، لكن بدا أن القليل منه فقط هو دمها. كانت خاصرتها ترتفع وتنخفض وهي تلهث وعيناها الخضراوان غائرتان، لكنها جلست بطريقتها المحددة المعتادة، وبينما كانت هاري تُراقبها، بدأت تُحاول ببطء وثباتٍ أن تُلحق جسدها كي تنظفه. وقف الرماة وقد فرغت الكنانة المعلقة على ظهر كلّ منهم من السهام، وأخذوا ينظفون خناجرهم الطويلة. كان عددهم أقلّ ممّا كان عليه عندما أرسلتهم إلى جانبي غابة الوادي قبل أقلّ من ساعة، وكان أكثر من نصف قططهم قد مات. ورأت هاري كينتار، وقد لفّت قطعة قماش حول ساعدها، لكنها تسير على قدميها. ورأت سيناى وتيريم. كان حصان تيريم ينزف من جُرحٍ في جانبه، ووقفت سيناى عند رأسه، وقد وضعت يدها على غرته، تهمس له، ووضع تيريم دهاناً باهت اللون على الجرح. كانت الجروح الوحيدة التي رأتها طفيفة، ولم يُعد أيُّ شخص أصيب بجروحٍ بليغةٍ إلى البوابة.

«هل هؤلاء هم كلُّ من تبقي منا الآن؟»

أوماً جاك برأسه. وقال: «أخشى ذلك..»

لقد تبقى فقط نصفُ عدد المدافعين الجنوبيين الذين احتشدوا عند بوابةٍ مدامر في الصباح، وقد كسا الشحوبُ وجوههم؛ لأن الرياح الشمالية الغربية لم تكن جيدةً لاستنشاقها.

كانت الأطراف غيرُ المصابة خَدِرَةً وبطيئةً، وكانت رهبةٌ مزعجةٌ تكتنف العقول، ولا علاقة لتلك الرهبة بمخاطرِ المعركة المهْددة بالموت. قالت كينتار، وهي تربط ذراعَ رامٍ آخر: «من المعروف عن ثورا أنه يحبُّ إراقة الدماء ببطء، وفي إمكانه ألاَّ يُسرِع؛ لأنه لا شيء يمكن أن يقفَ في مواجهته. لكنك وجَّهتَ له ضربةً لم يتوقعها؛ لأنك مزَّقتَ رايته.»

قالت هاري في ذهول: «ثورا؟»

أوماً كينتار برأسها، وأوقف كلَّ من تيريم وسينا ما كانا يفعلانه ونظرا إليها. وقالت كينتار: «لقد عرَفته في الحال. فهو يضحك أثناء المعركة، ودائمًا ما يركب حصانًا فحلًا أبيض اللون يحبُّ إراقة الدماء بقدرٍ ما يُحبها فارسه.

في اعتقادك، لماذا لم يتبقَّ منا سوى عددٍ قليل جدًّا بعد اشتباكٍ قصير لهذا الحد؟ نحن مقاتلون أقوياء، ونقاتل بقوةٍ من لا أمل له إلى جانب ذلك؛ لأنهم يفوقوننا عددًا على نحوٍ رهيب. لكن أيَّ شخص يُبارز الفارس الأبيض يموت من الضربة الأولى.»

قال تيريم: «ليس أيَّ شخص. ليس هريما-سول.»

أوماً كينتار بجديَّة. وقالت: «لماذا تعتقد أننا نتبعها؟»

قالت هاري، وهي تضع ذراعها اليسرى عبر سرج صنجولد كي تستطيع أن تتمالك نفسها للوقوف: «أنا لم أمتَ فقط لأنه اختار عدمَ قتلي. إذ لا يمكنني مُضاهاته، حتى لضربةٍ واحدة.» أدار صنجولد رأسه، ومدَّت هاري يدها بثباتٍ لتضع أصابعها على خَطْمِه الناعم. وأراحتهم هناك لحظةً، وتسلسل قليلٌ من الدفء إلى يدها الواهنة. فتابعت: «وربما صمدتُ قليلًا لأنني أمتطي حصانًا أفضلَ من حصانه.»

وعندئذٍ تصاعد صوتٌ ضجيج، في مكانٍ ما خلفهم، بالقرب من مدخل الدرب، ثم ضحك أحدُ رجال جاك، وانحسر الضجيج. نظرت هاري مستفسرةً في اتجاه الضحك، فرأت شخصًا نحيفًا طويلَ القامة يندفع مُتقدِّمًا داخل الساحة الجرداء، يجرُّ حصانًا منهكًا.

قالت هاري: «ديكي!» واحمرَّت وجنتاها خجلًا؛ لأنها تعرف كيف كان يكره اسمَ الطفولة القديم ذاك. ثم شرَّعت تقول على نحوٍ وديع: «ريتشارد»، لكنه كان قد وصل إليها

وأحاطها بذراعيه. فعانقته بدورها، على الرغم من أن ذراعها اليمنى لا تزال تؤلمها، وكانت اليسرى أضعف مما ينبغي. ثم انتهى من عناقها وأفلتها في النهاية من بين ذراعيه، وقد اغرورقت عيناها بالدموع، ولم تستطع معرفة ما إذا كان اللمعان في عينيه بسبب دموعها، أم دموعه.

وقال لجاك، وإن كان يُحرق في أخته، ويُمسك ذراعيها وكأنها قد تختفي إذا تركها: «لقد عُدتُ بعد يومين من مغادرتك، يا سيدي. ولم أوفق في مهمتي، مثلما توقعت.» فغمغم جاك.

«وقد أخبروني بما حدث، وإلى أين أنت ذاهب — ومن كان برفقتك — فأخذتُ حصاناً نشيطاً وتبعتك.» ثم ابتسم أخيراً. وقال: «هاري، أيتها الملعونة، لقد اعتقدنا جميعاً أنك قد لقيت حتفك.»

فهزتُ رأسها. وقالت: «كلا، أنا على قيد الحياة كما ترى.» وابتسمت له. وتابعت: «حتى الآن، على الأقل.»

ترك ريتشارد يديه تسقطان. كان الجيش الذي تكتنفه الكآبة متناثرًا أدنى منهم، وقد بدأت الرياح الشمالية تعوي من حولهم مرةً أخرى وتلسع أعينهم وأعناقهم، وقد هدأت بعد أن هزم تسورنين فحل الساحر بقليل وأوقعت ناركنون الرابية ذات اللون الأحمر والأبيض.

قال جاك متدبراً: «أخذتُ حصاناً آخر؟». كان ريتشارد قد ترك لجام حصانه عندما وصل إلى هاري، فوقف الجواد مرهقاً وصامداً حيث توقّف. وتابع جاك: «هذا يُشبه حصان بيل ستابس.»

التفت ريتشارد إلى قائده وابتسم. وهو يقول: «إنه هو. لطالما لم يستحقّه بيل، وكنتُ أنا بحاجة إلى حصان سريع؛ لألحقَ بكم قبل أن ينتهي الأمر.»

قال جاك بلطف: «لقد وصمتُ للتو سجلّ خدمتك الناصع البياض بسرقة الخيول؟» ارتسمت الجديّة على ريتشارد. وقال: «إن شئت القول. أنت تعلم أن جميعنا ممّن أتى إلى هنا — وربطنا مصيرنا بمصير أهل دمار القدامى — قد انتهت خدمتنا في نظر حكومة جلالة الملكة. وأنت كنت تعلم ذلك تمامًا عندما قرّرت المجيء.»

حدّقت هاري في جاك، على الرغم من أنها كانت تعرف هذا في أعماق ذهنها طوال الوقت. وقالت: «هل هذا صحيح؟»

هَرَّ جاك كتفيه. وقال: «أجل، هذا صحيح. هذا هو السبب في أن العشرين جُنديًا الذين حَضَرُوا جميعًا هم من قدامى المحاربين المخضرمين — فليس لدينا الكثير لنخسره. لكن يا ريتشارد، أنت ...»

أومأ ريتشارد إيماءً مفاجئةً بذراعه. وقال: «كنتُ أعرف ما أفعله. ولا مناصَ من القِصاص، على ما أعتقد — على الرغم من مقاومتي لذلك في السنوات القليلة الماضية.» ثم نظر إلى أخته. وتابع: «لقد كان مجيئكُ إلى داريا — دامار — وحبُّكِ لها، وحبُّكِ للصحراء، على الرغم من أنك لا تعرفين شيئًا عنها ... كنتُ أستطيع ملاحظة ذلك. لقد كنت على القدر نفسه من السوء مثل الكولونيل ديدام — أستميحك عذرًا يا سيدي — بحلول نهاية الشهر الأول. وهذا ما جعلني أشعرُ بالخجل. وأنا ... أنا لم أستطع التحدُّث عن ذلك ...»

أدركت هاري أنها كانت تتلقَّى اعتذارًا، فأومأت برأسها. لم يُعد الأمر مهمًّا. فهو قد عاد، وهذا ما يهم.

تابع ريتشارد ببطء: «ثم، بعد اختفائك طَوَالَ تلك الأشهُر الطويلة الماضية، فُكِّرْتُ كثيرًا — حتى إنني اعتقدتُ أنك ما زلتِ على قيد الحياة — وأشعرتني هذه الفكرة بالخيانة. أتعلمين، لقد جئتُ إلى هنا، إلى الفجوة، دون الحاجة إلى التفكير في الأمر. لقد علمتُ أيَّ طريق سأسلك من بين كل تلك المسارات الصغيرة الجنوبية في الطريق إلى هنا. لطالما علمتُ أيُّها سأسلك.»

قالت هاري: «لا مناصَ من القصاص. لماذا لم تُخبرني قطُّ أن هناك دماءً من أهل هيلز تختلطُ بأصولنا؟»

بدأ ريتشارد مندهشًا. ثم قال: «لقد أخبرني أبي. وأنا ... أنا ظننتُ أنه قد أخبرك. ولم أرغب في الحديث عن ذلك. كان ثَمَّة الكثير ممَّا لم أرغب في الحديث عنه.»

قالت هاري: «علمتُ منذ أسبوع فقط، عندما أخبرني جاك.»

ساد الصمتُ برهةً، ثم بدأ ريتشارد يضحك. وهو يقول: «يا إلهي. إذن لا بد أن حصولك على لقب فارس الملك كان بمنزلةِ صدمة لك. لقد كان صادمًا بما يكفي بالنسبة إليَّ، عندما أخبرني توم لويد.» ثم أمسك بيدها اليمنى وقلبها لينظر إلى راحتها. وتابع: «كنتُ فخورًا بك. في تلك اللحظة علمتُ أنه يتوجب عليَّ أن أتبعك — ليس فقط لرؤية أختي مرةً أخرى. لكن كي أستعيدَ شيئًا ما. أو كي أعترفَ بامتلاكه منذ البداية.»

هَبَّت رياح الشمال على شعورهم ورموشهم، تتنصَّت على حديثهم. وتساءلت هاري سُدَى ما إذا كانت الريح تفهمُ لغة هوملاند.

كانت كينتار قد غادرتهم، وقد عادت الآن فقالت: «سيدتي. يستعدُّ جنودُ الشمال للهجوم علينا مرةً أخرى.»

استدار ريتشارد ليستقبلَ وجه أخته، وأرجع كتفيه للخلف كما لو كان يستعدُّ لتلقّي ضربة. وقال على نحوٍ ركيكٍ بلغةِ أهل أرض التلال: «طوع أمرك، يا سول.» ثم تابع بلغةِ هوملاند: «نظرًا إلى أنني قد أتيتُ متأخرًا، ربما ترغبين مني أن أشنَّ غارةً جريئةً بمفردي.» فنخر جاك بأنفه.

وابتسمت هاري رغمًا عنها. وقالت: «كلا، لن يكون ذلك ضروريًا. سنُنظم صفوفنا عبر الفجوة، هنا، وعلى الهضبة.» وصممت لحظةً. ثم تابعت: «لا يمكنني المخاطرة بمن تبقى منا بالذهاب إلى الوادي مرةً أخرى ...»

ثم رفعت صوتها وهي تقول: «نحن هنا لإبطاء تقدُّم جيش الشمال. سنبدلُ قصارى جهدنا. لكن قدراتنا لا تكافئهم — أقلُّ بكثير مما توقَّعت. لا أتوقع أن يُقاتل أيُّ منكم حتى ... النهاية. لقد انتصف اليوم؛ إذا تمكَّنَّا من صدِّهم حتى هذا المساء، فسيُتعيَّن عليهم الانتظارُ حتى الصباح للمحاولة مرةً أخرى.» أغمضت هاري عينيها، وفكَّرت في نفسها، هكذا أُمِّل. حتى الأرواح الشريرة يمكنها الرؤية بشكلٍ أفضل في ضوء النهار — ترى هل هذا صحيح؟ ورأت كورلاث وجيشه يخوضون الضباب أمام ناظريها، وهم يشتبكون مع حشدٍ من جنود الشمال يفوقهم عددًا بما يقرب من ثلاثة أضعاف. كانت الكتلة السوداء التي ملأت الوادي دون بوابة مدامر؛ ضعُفَ حجم الجيش الذي يسعى إلى اجتياز فجوة بليدي في جاب. وقد استحال لونُ حطْم حصان كورلاث أحمرَ وهو يقفز ويصول، وغطَّت الدماء سيفَ كورلاث. ميَّزت هاري فايرهارت أولًا، لكن استغرق الأمرُ منها لحظةً كي تُميز فارسه؛ لأن وشاح كورلاث كان بلونٍ مغاير. ورأت ماثين، الذي كشر في شراسةٍ وهو يُقاتل في أعقاب كورلاث. فقالت: «إذا تمكَّنَّا من صدِّهم لمدة يوم، فقد حقَّقنا ... شيئًا كبيرًا. ومن سيبقى منكم الليلة ... يمكن لهم أن يتفرَّقوا. يمكن أن يختفوا في هذه التلال؛ ويعودوا إلى كورلاث إذا استطاعوا.»

قالت سيناي: «لماذا تتحدَّثين بهذه الصيغة سيدتي؟ ألن تكوني معنا؟ هل أنتِ واثقةٌ إلى هذا الحد أنك ستلقين حتفك؟»

وقال تيريم بصوتٍ خفيضٍ للغاية: «هل تسعين إلى الموت؟»

تنهّدت هاري. وحاولت تلطيف حديثها: «لا أستطيع المغادرة. إن صدّ هذا الهجوم، هنا، كان فكرتي الكبرى. لا أستطيع المغادرة. ولكن ذلك المدعو، هناك أسفل الوادي، سيتكفّل بذلك، عندما نلتقي في المرة القادمة.»

قال جاك: «هذا موقف نبيل للغاية منك، يا عزيزتي، لكننا، حسبما أعتقد، سنقفُ إلى جوار هريما-سول. يمكننا أن نصمّد هنا ... ربما لثلاثة أيام، إذا كان ثورا مُغرماً جداً بالموت البطيء. ثلاثة أيام قد تمنح ملكك كورلاث وقتاً كافياً لالتقاط الأنفاس، وهناك احتمال أن يصدق السير تشارلز الرسالة التي أرسلتها إليه، وسيجد جيش الشمال أن جيش الغرباء أكثر إزعاجاً مما توقّعوا جرّاء بضعة أيام أخرى من الاستعداد. سنصمّد هنا.» وقد نطق آخر كلمتين بلغة أرض التلال، فكرّرتها سيناى وتيريم وكيننار، «سنصمّد هنا.»

وقال تيريم بتفاؤل المعتمد: «لا يمكنك أن تطلبي منا الاستسلام بهذه السهولة، بعد أن وصلنا إلى هذا الحد، يا هريما-سول.»

رمشت هاري بعينها. ومدّت نظرها عبر الوادي، كانت جحافل جيش الشمال قد بدأت تتقدم مرةً أخرى. فقالت بخشونة: «حسنًا، أقترح على الجميع تناوُل شيءٍ ما والاستراحة بضع دقائق؛ لأن ثورا بدأ الزحف. و... شكرًا لكم.» وابتسمت. ثم أضافت: «ربما سنصمّد ثلاثة أيام.»

قال جاك: «وفكرّي في الأغاني التي سيغنونها عنا.» ومن ثم ناولها قطعةً من اللحم في قرص خبز جاف، وبدأت في مضغه وهي شاردة. كانت ذراعها اليمنى عديمة الجدوى تقريبًا، لكن كان بإمكانها بسط يدها اليسرى وضُمّها، وثني كوعها، وتحريك كتفها. حدّقت في الجبال من حولها. كان ارتفاع القمم التي تحيط بالبوابة فوق الهضبة المسطّحة حيث كانت تقف؛ يبلغ ربما أربعة أضعاف ارتفاع قامة رجل، ثم ترتفع الجبال من خلفهم مرةً أخرى، وعلى بُعد مسافة قصيرة من البوابة الحجرية، تغطي بعض الأشجار الصغيرة الأرض الشديدة الانحدار وتتناثر باتجاه الوادي أدناها. نظرت هاري حولها نحو الجانب الشجري حيث وقف الرماة.

وجدت أنها قد انتهت من طعامها. فقالت: «سأعود بعد قليل.» نظر إليها جاك وريتشارد بتساؤل. فقالت: «لن أتأخّر وسأعود في توقيت مناسب كي نصدّ موجة الهجوم الثانية من أصدقائنا.» والتقطت جونتوران ومسحّته في رعونة وتسرع ووضعته في غمده، وبدأت تتسلّق ببطء على الجانب الغربي من البوابة. كان بإمكانها استخدام يدها اليسرى فقط، وحتى قبضتها لم تكن قوية.

قال جاك بحدة: «هاري، ماذا حدث لذراعك؟»
انتظرت حتى وقفت على القمة المنخفضة، ثم أجابته: «أظن أن به عضلة مشدودة. لا تقلق.» والتفتت عندما فتح جاك فمه يوشك أن يقول شيئاً، ومن أمام عصبتها الصغيرة، اختفت حول صخرة ناتئة.

حاول ريتشارد أن يتبعها، لكن تيريم وقف أمامه بينما قال جاك: «كلا. إذا أرادت أن تتركها وشأنها، فسنتركها وشأنها. لا يروق لي ذلك أيضاً، لكنها — أو الشيء الذي يسيطر على روحها — ما زالت تعرف المزيد عن هذا الأمر أكثر من بقيتنا. أو هكذا أعتقد.»
هز ريتشارد كتفيه، لكن عينيه بقيتا تراقبان المكان الذي اختفت فيه أخته.
قال تيريم في ابتهاج: «لقد وعدت بالفعل أننا سنموت معاً.»

فرك جاك وجهه على نحو يدل على الإرهاق. وقال: «أنا لا أفكر في الموت حالياً.»
ونظر نحو الوادي، وببطء وضع منظار التجسس أمام عينه. فرأى مزيداً من الجنود، بعضهم يمتطي خيولاً غريبة المظهر وبعضهم يسير ببطء على أقدامهم الثقيلة، يتدفقون في الوادي؛ بأعداد لا تحصى. ومن ثمَّ صعدوا المنحدر نحو البوابة، ذلك المنحدر الذي صدت هريما-سول هجومهم عليه ودفعتهم عنه قبل أقل من ساعة. لم يعد بإمكانه رؤية النصف السفلي من الأرض الصخرية التي يقف عليها بسبب المخلوقات التي تمشي عليه. فأبعد المنظار. وقال: «مهما انطوى عليه ذلك من حماقة.»

أخذ ريتشارد المنظار من يد جاك ونظر فيه. فرأى فحل ثورا الأبيض بالقرب من المقدمة، لكن لم يكن هناك حامل راية.

واصلت هاري مشيها المتعسر؛ ثم وطئت قدمها شيئاً مثل درب أو سبيل طرائد، فسلكته بامتنان. وأصبحت في موضع أعلى من الأشجار، ونظرت إلى أسفل. كان الوادي أدنى منها يعج بأجساد صغيرة تزحف، أما بالقرب منها، لكن على مسافة لا تزال بعيدة — لم أكن أدرك أنني قد وصلت إلى هذا الحد، هكذا قالت لنفسها، في دهشة — فكانت هناك مساحة صغيرة مسطحة خلف شق في الصخر، حيث تنتظرها عصبتها. فنظرت إلى الأسفل في فتور؛ وراودتها فكرة أنها أصبحت بعيدة للغاية، ويجب أن تعود على الفور، لكن يبدو أن ثمة شيئاً يجب أن تفعله أولاً. تسللت يدها اليمنى الخدرة إلى أعلى غمد جونتوران حتى شعرت بالمقبض واستقرت على الحجر المثبت في أعلاه، وأحسّت أنها كانت تلهث لالتقاط أنفاسها. فتمتمت: «أيتها الليدي إيرين»، فتذبذب المشهد أمامها، وطرقت بعينها، وفجأة استطاعت أن ترى كما يرى النسر، فميزت الفحل الأبيض الذي يمتطيه

ثورا، والشرائط الحمراء على غرته والدم الأحمر الجاف على رقبته وخاصرته، ورأت وجوه من يتبعونه بعيونهم الحمراء والخضراء والسوداء، والوحوش الغريبة التي يمتطيها كثير منهم بدلاً من الخيول، وحوش لها مخالب في أقدامها وألسنة مشقوقة. ورأت رياح الشمال تتلاعب بشعر أخيها، وأدركت فجأة أنها لا تشعر بأي رياح على القمة الجرداء لهذا الجبل، وشعرت بوخزة ألم من قاعدة رقبته تمتد إلى ذراعها اليمنى، فأمسكت يدها بمقبض السيف وشهرته. ثم رفعته ببطء فوق رأسها، ووجهته إلى الأعلى، كما لو كانت تشق الغيوم التي جلبها ثورا، وترميها على رأسه في شظايا ذات حافات حادة. زادت حدة الألم في رقبته وماجت به أفكارها، فصاحت في الهواء: «كورلاث، ساعدني».

نظر أفراد المجموعة الصغيرة التي تقف على الهضبة خلف البوابة إلى الأعلى فجأة عندما اندلع بريق من الضوء فوقهم وتناثر مثل الماء، ورأوا هريماد-سول تقف على قمة خلفهم، قمة لم تكن موجودة من قبل، وقد أحاطت برأسها وكتفيها نيران زرقاء وبيضاء. رفعت هاري ذراعها اليمنى، وبرق جونتوران بشدة لدرجة أنهم لم يتمكنوا من النظر إليه؛ وسددت هريماد-سول طعنات نحو السماء مرارًا وتكرارًا، وصرخت بكلمات شعر كل منهم أنه سمعها بوضوح لكن لا يمكنهم تكرارها أو فهمها، لكن كينتار وجاك عرفا أنها تتحدث بلغة أرض التلال القديمة، لغة الآلهة. بدأت النار الزرقاء تتساقط من الحجر المثبت على مقبض السيف وتناثرت على الأرض، وبدت كأنها تدور حول قدمي هاري، وتناثرت أجزاء منها وطفت في الهواء، ودارت الأجزاء الصغيرة وتلاأت مثل قطع المنشور، وألقت بأقواس قزح صغيرة من على جوانب الجبال، وإن كان اللون الأزرق يغلب عليها أكثر من معظم أقواس قزح المعتادة.

وفي الوادي سمعوا صرخات جشاء، لكن يبدو أن الأصوات لم تصل إلى السيف الأزرق أو المرأة التي تحمله، حيث سقطت مرة أخرى في الوادي مثل الأسماك التي قفزت عاليًا للغاية، وهي تحاول النجاة بحياتها. وسمعوا الفحل الأبيض يصدر صراخًا، وسمعوا صوتًا مروعًا كانوا يعرفون أنه صوت ثورا، لكن لم يلتفت أحد لينظر؛ إذ حدق الجميع نحو الأعلى. حتى الخيول وقفت براءوس مرفوعة وآذان منتصبه يوجهون أنظارهم نحو ما ينظر إليه فرسانهم؛ وناركنون، التي لم تتبع هاري على الرغم من أنها كانت تستطيع ذلك، وقفت جامدة مثل صخرة، ولم يتحرك منها سوى ذيلها المتأرجح، وتقافز صنجولد في مكانه، وهو ينظر نحو الصخور التي لا يستطيع تسلقها. وقد سقط الضوء الأزرق في عينيه وفمه وأنفه، حتى بدا كأنه شبح حصان.

بدأ منحدر التل يتحرك. وبدأ الحصى الصغير، ثم الحصى الأكبر حجماً، ثم الصخور والجلاميد الضخمة تتساقط في الوادي. واستمرَّ صوتُ المرأة الواضح، وتدفَّقت الكلمات غير المفهومة على مسامع جنود أهل التلال والأغراب مع تدفق الضوء الأزرق البراق، ثم ارتفع ضجيجُ انهيار الجبال، وسقط كثيرون جاثين وراقدين على صدورهم؛ لأنهم لم يتمكَّنوا من الحفاظ على اتزان أقدامهم. ولم يعودوا قادرين على الرؤية بأعينهم، وإن كانت أدمغتهم قد اتَّقدت من سطوع الضوء، ولم يعودوا يسمعون بأذانهم؛ لأن هدير الصخور المتساقطة أصمَّها، ومع ذلك سمعوا في أذهانهم الكلمات جالبة الضوء الأزرق وهي تتواصل.

ثم انتهى كلُّ شيء. هزت الخيول نفسها، ووجد بعضها صعوبة شديدة كي تقف على أقدامها؛ إذ أخذت تتصبَّب عرقاً. وانقلب البشر حيث كانوا يرقدون، ونظروا إلى السماء التي أصبحت زرقاء وصافية، وارتجفوا، وأخذوا يقفون في حذر. نظر جاك لأعلى أولاً، ولم يكن ثمَّ أثرٌ لهاري. في البداية اعتقد أن السبب هو أن عينيَّه لا تزالان متأثرتين من الضوء، لكن كان بإمكانه تحديد شكل قمم الجبال من حوله، وتحديد المكان الذي كانت هاري تقف فيه، لكن المكان الذي كانت تقف به هاري لم يعد موجوداً. وكان على يقينٍ من أنه ينظر في الاتجاه الصحيح. وفي حيرة، نظر حوله ليتحقَّق من ذلك ممَّن هم حوله؛ التفت عيناها بعيني ريتشارد، وكان يشعر بالحيرة نفسها. والتفتا معاً لينظرا إلى الوادي.

لكن لم يكن ثمَّ وادٍ. كان الغبار يتصاعد من ركام الحجارة المتكسِّرة والأشجار المقتلعة، وقد انشقت واجهة المنحدر الصخري خلف البوابة نفسها، ولم تعد البوابة بعد الآن ممراً عبر الجبال. وقفوا على الحافة، ينظرون إلى أسفل، ثم على امتداد البصر؛ لم تكن ثمة علامة تدل على الحياة في أيِّ مكان. الأشياء الوحيدة التي تحركت كانت سُحباً من الغبار. كان الغبار ذا حاشية زرقاء بشكل يُثير الفضول، وكان يتلألأ في ضوء الشمس. ثم بدأ نسيمٌ خفيف في الهبوب. أتى النسيم من خلال ثغرة واسعة في الجبل لم تكن موجودة من قبل؛ وبدأ النسيم يستكشف المشهد الجديد في اندهاش. وعلى الحافة التي كانت فيما مضى بوابة، التفت الناس والحيوانات قليلاً يستقبلونها وهم في قلق وإرهاق. كانت رائحته طيبة، رائحة نباتات خضراء صغيرة.

قال جاك: «لقد انتهت رياح الشمال.»

قال ريتشارد: «أجل. هذا النسيم يهبُّ من الجنوب والشرق.»

وقفوا لحظةً يستجمعون أفكارهم.

فقال ريتشارد: «يجب أن نبحث عن هاري. أليس كذلك؟» وقد بدا صوته طفولياً

للغاية.

قال جاك: «أجل..»

قال شقيق هاري، على نحوٍ ينمُّ على عدم اليقين: «هاري هي مَنْ فعلت هذا، أليس كذلك؟»

ابتسم جاك ابتسامةً طفيفة. وقال: «أجل. أو ربما كان أيُّ شخص آخر. يا تيريم»، وتابع بلغة أهل التلال: «نودُّ البحث عن هريماد-سول. ربما هي منهكة للغاية ... وغير قادرة على العودة إلينا بمفردها. هل ستأتي معنا؟»

قال تيريم: «أجل»، وانضمت إليهم سيناى، بينما كان الباقون ينتظرون الأوامر. تبعهم صنجولد إلى أسفل الجدار الصخري الذي اختفت هاري وراءه، وصهل في إثرهم قلقاً، ثم شبَّ وضرب الصخر بحافزيه فيما أخذوا يتسلقون مبتعدين عنه. فقال له جاك: «سنعيدها. تحلّ بالصبر.» وتسلقت ناركنون معهم.

بدا أن أربعتهم يتحركون ببطءٍ شديد، أو ربما تحركت أقدامهم بوتيرةٍ متأنية، لكن عقولهم لم تستطع مواكبة ذلك. وبدلاً من أن تتردد ناركنون حولهم كما تفعل عادةً، كانت تُهرول خلفهم وتتوقف عندما يتوقفون. شعر جاك بصعوبة كبيرة في تشكيل أفكاره وكأنها ناقمةٌ عليه، وعندما هز رأسه، بدا أن مخه ينقلب بشكلٍ مضطرب، كشخصٍ لا يُجيد السباحة في المياه العميقة. ألمته عيناه في محجريهما، وكان لا يزال يرى هاري وسيفها مرفوعاً والنار الزرقاء حولها، رغم أن الصورة أصبحت ذكرى الآن، وركزت عيناه على الشجيرات والأتربة والصخور والغبار الأزرق.

توقفوا جميعاً عند وصولهم إلى منحدرٍ تنمو فيه الأشجار من فوقهم. وقال ريتشارد: «هذا لا يمكن أن يكون الموضع الصحيح. لقد رأيناها على صخرةٍ جرداء.»

نظر جاك نحو الشمس. وقال: «إنه صحيح، رغم ذلك، أو على الأقلّ هذا هو الاتجاه الصحيح. إذا لم تكن الشمس قد تحركت، وهو ما لا أضمنه ... فربما نمت هذه الأشجار بينما كانت الجبال تتساقط.»

بدا جاك في التسلق مرةً أخرى كما لو كان متأكداً من أنه يعرف الطريق، وتبعه تيريم وسيناى؛ لأنهما كانا أقلَّ صدمةً من جاك وريتشارد مما فعلته هريماد-سول، ولم يتوقَّعا أن يخضع المكان هنا بالقرب من الموضع الذي مُورست فيه طقوس السحر وقدرة الكيلار للقوانين الفيزيائية المعتادة. كانا قد نظرا نحو الشمس أيضاً، وعرفا أنهم يسIRON في الاتجاه الصحيح. وتبعهم ريتشارد في المؤخرة. شعر بالشيخوخة، وطقطقت عظامه، وجعلته ناركنون غيرَ مرتاح. كان يعرف معلومات عن ققط الصيد في دامار، لكنه لم يقابلها من قبل.

كان هناك مسارٌ صغير، كما لو قد صنعته حيواناتٌ صغيرة ذاتُ حوافر، عند أعلى المنحدر، فتبعه جاك يحدهو الأمل؛ وبعد بضع دقائق فقط اقتحموا ما بين الأشجار الكثيفة ووصلوا إلى فرجة صغيرة خالية من الأشجار بها عشبٌ أخضرٌ نضر، وهو أول عشب نضر رأوه منذ غادروا قرية سيناى. استلقت هارى منهاراً بالقرب من إحدى حافات الفرجة العشبية، وإلى جوارها جونتوران على العشب، وقد أصبح لونه رمادياً باهتاً، وأعتمدت الجوهرة الزرقاء المثبتة على مقبضه. استلقت هارى وتكومت على جانبها، وكانت كلتا يديها تلامس السيف؛ حيث سقطت اليد اليسرى فوق المقبض في إرهاق، وأمسكت اليمنى بالنصل أسفل الواقي مباشرة. كان جاك هو أول من دخل إلى الفرجة العشبية، وهو الوحيد الذي رأى — أو ظن أنه رأى — جسداً ما بين الأشجار خلف هارى مباشرة؛ تراءى له أنه رأى لمعانٍ شعر أحمر. لكنه رمش بعينه حتى يتمكن من التحديق مرةً أخرى بقوة أكبر، وتحسس منضله؛ وعندما نظر مرةً أخرى، اختفت هيئة الجسد. بعد ذلك لم يتأكد قط ممّا إذا كان قد رأى أي شيء سوى سقوطٍ غريب لظلّ الأوراق، على الرغم من أنه كان يعرف أساطير أرض التلال، وكان يعرف من امتشقت سيف جونتوران قبل صديقته الشابة.

قال ريتشارد: «هارى»، وركض إلى الأمام، وجثا على ركبتيه بجانبها. أما الآخران، اللذان كانا يتحلّيان بإيمانٍ أكبر بقليل بسحر أرض التلال — أو اللذان فهما بشكلٍ أفضل قليلاً أن ما حدث أيّاً ما كان قد انتهى الآن، على خيرٍ أو شر — فقد تقدّما ببطءٍ أكثر. نظر جاك حوله. لم يكن هناك شيءٌ يشبه الربوة الحجرية التي وقفت عليها هارى في أيّ مكان بالقرب منهم، وارتفعت الأشجار — الأشجار الحقيقية، وليست الشجيرات الرمادية والمتقزمة التي رأوها حول البوابة، وفي الوادي الذي لم يعد له وجود — باسقةً فوق رؤوسهم، وهي تُصدر حفيفاً هادئاً بسبب النسيم العليل القادم من الشرق، وخلف الفجّ العشبي الصغير، لم يكن هناك سوى مزيد من الأشجار، ومزيد من الخضرة الحلوة؛ لأنه مهما كانت المسافة التي يمكن أن تمتدّ إليها العين، لا يسطع ضوء الشمس على مساحةٍ خالية كهذه في أيّ مكان يتجاوز ذلك.

كانت هارى تحلم بشيءٍ ما، لكن ديكي كان يُناديها. كانت إيرين منحنيةً عليها، تبتسم الابتسامة الظرفية التي تعرفها هارى جيداً الآن؛ كانت ابتسامة إعجاب، لكنها تميل أكثر نحو التفهّم. تحدّثت إيرين معها للمرة الثانية؛ كان لديها صوتٌ لطيف منخفض لكنه حاد. وقالت: «هذا ما كانت ستفعله فتاةٌ من الأغراب على حصانٍ من أرض التلال عندما تشعر بالغضب؛ نوعاً ما مثل شيءٍ فعلته أنا مرةً. لكن ليس من العدل أن يحظى الأبطال بكل

المغامرات وكلّ الفخر وحدهم، سيتغنّى الناس ببطولات عصبك قروناً قادمةً، وسيذكر أحفادُ أحفادِ جاك وريتشارد وسيناى وتيريم وأحفادُك بوابةً مدامر وكيف سقطت الجبال وسحقت جيش ثورا. لقد اكتشفت أن أولئك الذين في الوطن لم يُعجبهم عدمُ المشاركة في المغامرات — لم أتعلم الكثير، لكنني تعلمتُ ذلك، وإذا تمكّن أحدهم من التعلم من أخطائي ...»

قالت هاري على نحوٍ حزين: «كورلاث.» وأجابتها إيرين بلطف: «كورلاث بانتظارك.» أرادت هاري أن تقول: هذا ما أخشاه. لكن ديكى كان يُنادي عليها. لا يمكن أن يكونَ ديكى؛ فهي لم تَرَ منذ ...

فتحت هاري عينيها. لم تكن ذكرى الماضي القريب لديها سليمة، لكنها أدركت أنها استعانت بإيرين، وطلبت من كورلاث المساعدة في أيّ شيء قد تُرسله لها سيدة جونتوران السابقة، وأن شيئاً ما قد حدث، وأن إيرين تحدثت معها عن ذلك ... وكورلاث ... هنا أَلها رأسها. وقالت: «ريتشارد.»

جلس الثلاثة الآخرون بجانبها وقد تنفّسوا الصُعداء، وساد صمتٌ لا يبدو أن أحداً يعرف كيف يكسره. وضعت ناركنون كفّها على صدر هاري وبدأت تلعق وجهها، إن لسان قطة الصيد أكثرُ خشونةً من لسان قطة المنزل. ظنّت هاري أن بشرتها سوف تتجعد وتتقشر، لكن لم تكن لديها القوة لدفعها بعيداً. أخيراً قالت هاري، بصوتٍ خفيض وضعيف: «ليس لأنني أشعر برغبةٍ عارمة في التحرك الآن، لكن أليس لدينا بعضُ الأعمال العاجلة إلى حدٍّ ما في الوادي؟ أم إنه قد مرّت ثلاثة أيام بينما أنا ... و...»

قال ريتشارد: «لم يعد هناك وادٍ.»

قال جاك: «إن جنود جيش الشمال يرقدون الآن تحت كومةٍ كبيرة جدًّا من الصخور، التي كانت في السابق سلسلةً جبال. يبدو أنك قد هدمتها فوق رءوسهم، وأنا أحييك يا هريمداد-سول.» ولمس جبهته وحرك أصابعه بالطريقة نفسها التي يُبدي بها أهل التلال التبجيلَ للملكهم.

ابتسمت هاري في وهن. وقالت: «إنّ ما فعلناه يُعد إثماً ومخالفاً للأوامر، كما تعلم. وسأُتسبّب في تعرّضك لمحاكمةٍ عسكرية.»

استفسر جاك في دماثة: «على يد الأغراب أم أهل التلال؟» ثم أضاف: «هل يمكنك الوقوف؟»

أجاب هاري: «إنني أستجمع شجاعتي لمعرفة ذلك.» ومن ثم انقلبت على ظهرها — وقد أخذت ناركنون الآن تقضم شعرها في حنان — ورفعت نفسها واستندت إلى مرفقٍ

واحد؛ والآن ساندَها سيناى وریتشارد على كلا الجانبين كي تنهض، وترنحت وهي تقف على قدميها. وبدت سترتها الجلدية صلبةً مثل الحديد. فقالت: «أشعر وكأنني حبة بطاطس هُرسَتْ لتوها.» انحنى ناركنون على ركبتيها وخرخرت في غضب.

قال تيريم في تردد: «هلا حملناك؟» وهو مذبذبٌ بين إبداء الاحترام وأخذ الحذر. قالت هاري: «ليس بعد، شكرًا لك. ولكن يمكنك أن تناولني جونتوران. لا أظن أن بمقدوري الانحناء الآن.»

كان الحوار السابق بلغة أهل التلال؛ لذلك من المحتمل أن ريتشارد لم يفهمه. لكن بالنسبة إلى الثلاثة الآخرين، كانت هناك لحظة قصيرة ولكن واضحة عندما لم يتحرك أحدٌ منهم، وفكروا جميعهم في النار الزرقاء على قمة الجبل، وسرى خدرٌ في أكفُ الجميع. ثم اتخذ جاك خطوةً للأمام وانحنى والتقط نصل هريما-سول، الذي عاد لونه إلى الفضي تمامًا الآن، وتلألًا على نحوٍ خافت في ضوء الشمس، وقدم لها المقبض. فسرى وميضٌ طفيف من النار البيضاء على حدِّ السيف الأزرق، وأحاط بأصابع جاك. التقت عينا جاك وهاري؛ لأنه فقط عندما كان الوقت قد فات لإيقاف كلماتها، أدركت ما كانت تطلبه — أو ما يمكن أنها تطلبه. قالت هاري: «شكرًا. ربما كان ينبغي عليَّ أن أنحني وألتقطه بنفسى؛ لأكتشف إن كان بإمكانى ذلك.» وأعادت السيفَ إلى غمده. نظر جاك إلى يده البيضاء المتوهجة، وفرك كفَّه على فخذه. وسرى وخزٌ في تلك اليد، وتدقَّق عبر ذراعه، وارتعش له دماغه لحظةً. ولم يكن ذلك شعورًا سيئًا.

عندما قبضت بأصابعها على جونتوران، أدركت هاري أن جسدها يعمل على نحو سليم، وأنها سيُمكنها المشي. أبقت هاري يدها على مقبض جونتوران، وخطت خطوةً إلى الأمام. وقالت: «سنتوقف حيث نحن الليلة. وغداً سنعود للنضمِّ إلى كورلاث.» وأغمضت عينيها لحظةً، فدار العالم بها، ثم استقر. وأضافت: «إنهم أكثرُ بُعدًا إلى الغرب ممَّا يُتوقع منهم. سنصل إليهم في غضون ستة أيام إذا ما أسرعنا. إذا ما استطعنا الإسراع.» ثم قطبت جبهتها، وعيناها ما زالتا مغمضتين. وتابعت: «إنهم يهزمون جنود الشمال ويُجبرونهم على التراجع؛ إنهم ينتصرون.» وفتحت عينيها مرةً أخرى. وكرَّرت: «إنهم ينتصرون»، واستعاد خذاها لونها، فابتسم لها أصدقاؤها الثلاثة.

أصبحت هاري أشدَّ قوةً على المشي، وبحلول الوقت الذي وصلوا فيه إلى الواجهة الصخرية عند البوابة أصبحت تُجيده، كانت لا تزال تُبقي عينيها على قدميها، لكنها انزلت واندفعت هبوطًا بمفردها، بينما حاول جاك وریتشارد — اللذان سبقاها — جاهدين ألا

يَمَدًا أَيْدِيَهُمَا لمساعدتها. وعندما وَصَلَتْ إلى السفح، وكانت عصبتها تقف حولها، وكان تسورنين يدقُّ على كتفها بغضب، يسألها لماذا ذهبت إلى مكان لم يتمكن من الذهاب إليه أيضًا، وكان أهل التلال يُحركون أصابعهم تحيةً لها، لمست كينتار جبهتها في تأنٍّ وحرَّكت أصابعها، وتبعها جميع الرماة. ونظر نحوها رجالُ جاك الأغراب ثم انحنوا لها، ووجَّهوا مقابضَ سيوفهم نحوها، وأدرَكت كم كانوا هادئين. كانوا هادئين للغاية. فالتفتت لتنظر إلى الوادي.

هنا شحب وجهها، ومدَّ جاك وريتشارد يديهما ليُسنداها. وقالت: «يا إلهي. كان ذلك جسيمًا ... بعض الشيء، أليس كذلك؟» كان عُبَابُ الغبار لا يزال يحوم فوق الأنقاض القاحلة التي ينظرون إليها، وكان كثيفًا للغاية بحيث لم يتمكَّنوا من رؤية ما خلفه. وكانت ثَمَّة خيوطُ زرقاء منسوجة خلاله وفوقه، كما لو أن شبكةً تُثبت تلك الخيوط في مكانها. سطعت الشمس لامعةً فوق الضباب الأزرق، وأدَّت العيون. دخل الغبارُ في عيونهم وأنوفهم وحلوقهم وهم يتنفسون، وفي أفواههم وهم يتكلمون، وأصبحت أصواتهم خشنةً بفعله. قالت هاري: «يا كينتار. هل يمكن لسقوط كثير من الصخور على شخصٍ مثل ثورا أن يوقفه؟»

هزت كينتار كتفيها. وقالت: «أيتها السول، لا أعتقد أن سَبَقَ تجربةُ ذلك.» وابتسمت هاري في وهن.
وقال تيريم: «على الأقل سيوقف جيشه. إن قلَّةَ منهم فقط لديهم كيلار خاصٌ بهم.» قالت سيناى: «لم يكونوا بحاجةً إلى الكيلار قط؛ لأن ثورا كان دائمًا أقوى.» قال جاك: «هناك ما هو أكثرُ من الصخور في ذلك الوادي. هناك شيءٌ ما يضغط على الصخور لأسفل.» وحدَّق النظر بالوادي، حيث أزعجت البقع الزرقاء طرفي عينيه.
ظلت كينتار وسيناى وتيريم صامتين؛ فهم يعرفون أساطير الساحر الشمالي. ثم قالت كينتار في النهاية: «من الممكن أنه سيظلُّ هنا. لكن يمكننا القول إننا قد انتصرنا اليوم.» قال تيريم بحزم: «لقد انتصرت هريما-سول اليوم»، وابتهج وجهُ سيناى، وصاحت: «هريما-سول!» وسحبت كينتار خنجرها ونقرت على صدرها بالمقبض، ثم هزَّت طرفه فوق رأسها. وصاحت: «هريما-سول!» وردَّد خلفها الرماة الآخرون: «هريما-سول!» وسحبوا خناجرهم وأدَّوا الإيماءات نفسها، ثم صاح جنود سيناى الصيحة نفسها. وراح رجالُ جاك، بعد أن تخلَّصوا من اندهاشهم الذي يشوبه الخوف، يصفقون ويضربون الأرض بأقدامهم، كما لو أنهم لا يعرفون ماذا يفعلون غير ذلك؛ وكان ريتشارد هو

مَنْ صاح قائلاً: «أنجها راد!» وعلى إثره صاح الجنود الأغرابُ قائلين: «أنجها راد!» أيضاً، وأصدر بعضهم صفيراً، كما لو أن هاري قد غنَّت للتو أغنيةً في الأوبرا. وعندما توقَّفوا أخيراً، كان الجميع يبتسمون ويشعرون بالارتياح مرةً أخرى، كما لو كانت الانهيارات الأرضية والزلازل التي سبَّبتها المرأةُ بمفردها عملاً بطولياً عادياً في الحرب، أو على الأقل في قيادة الجيوش. ثم تنفَّس الجميع الصُّعداء واستقرُّوا، وأشعلوا النيران لطهوِ العشاء، وظهرت ناركنون، وهي تجرُّ غزالاً بُنيّاً أكبرَ منها في الحجم، وبدأ أنها مزهوةٌ للغاية بنفسها. وكان غروب الشمس في ذلك المساء فوق الجبال بلونٍ أزرق بنفسجي.

الفصل السادس عشر

في الصباح التالي، غادروا بوابة مدامر، ليهبطوا من فوق الجبل عبر طريق الصعود نفسه. أصبح تعداد القوة الصغيرة أقلّ من نصف ما كان عليه في الصباح السابق، وكانوا يتحركون ببطء أكثر؛ بسبب ما بهم من إرهاق وجروح و... شعور طفيف بزوال الخطر؛ هكذا ظنّت هاري في نفسها. وكانت هاري مصابةً بصداعٍ كريه. كانت كلّ خطوة يتخذها صنجولد تضرب مثل مطرقة خلف عينيها، وتُحدِثُ فيهما بريقًا. فسألت جاك: «هل يشعر المرء دائمًا بالضياح قليلًا، في اليوم التالي للمعركة؟» بينما كان يمتطي حصانه إلى جانبها في ثبات وصرامة إلى حدٍّ ما. كان دراكو قد أصيب بجرحٍ في مؤخّر رأسه، وقد رُبط الجزء الذي يُحيط بالرأس من اللجام بقطعة من القماش الأزرق.

قال: «أجل. حتى عندما يُحقّق النصر.»

تحركوا ببطء ولكن بوتيرةٍ ثابتة طوال ذلك اليوم. وفي المساء قالت هاري لكينتار: «يمكنك المغادرة الآن، إذا كنتِ ترغبين في ذلك، كي تعودِي إلى موطنك. أنا ... نحن جميعًا ممتنّون لمساعدتكم. من المحتمل للغاية أننا لم نكن لنتمكّن من صد هجومهم مدّة طويلة بما يكفي لكي ... لكي يسقط جونتوران الجبال عليهم، بدون مساعدتكم.» ثم قالت هاري بمزيدٍ من التردد: «ومن الجيد أيضًا أن نجد صديقًا وحليفًا آخر.»

ابتسمت كينتار. ابتسمت الآن بسهولةٍ أكبر مما كانت عليه عندما خرجت هي ورُماة السهام لأول مرة من وسط الأشجار؛ لتتعهّد بالولاء إلى هريما-سول، وهاري لم تظنّ أن ذلك كان فقط بسبب صدّ تهديد جيش الشمال. وقالت كينتار: «من الجيد أن يعثر المرء على صديق، أيتها الليدي، مثلما قلّت، ومن السيئ أن يفقد ذلك الصديق بسرعة. سنظلّ نتبعك، وسنُقابل ملكك، ونمنحك مزيدًا من المجد عند عودتك. أعتقد أننا نحن الفيلانيين

ربما قد عزلنا أنفسنا في غاباتنا مدةً طويلة، وبدونك، يا هريما-سول، لم يكن ليظل لدينا موطنٌ كي نعودَ إليه الآن. لقد كنّا من أهل دامار حتى وقتٍ ليس ببعيد، وبائع أبائنا آباءَ كورلاث ملوكًا. سنذهب معك.» كان أربعةٌ من رماثها قد اقتربوا ووقفوا أمام ضوء النار ليقفوا بجانبها عندما بدأت تتحدث، وأومئوا براء وسهم تصديقًا على حديثها. كان أحدهم يرتدي خرقَةً بيضاء حول جبهته، وقد غطّت حاجبًا واحدًا من حاجبيه؛ مما منحه مظهرًا يوحي بالتحير والتردد، لكن لم يكن هناك ترددٌ في إيماءته الحادة.

نظرت هاري بحزن إلى يديها. وقالت: «أنا ... أنا لست متأكدة أن من الحكمة أن تأتي إلى كورلاث في أعقابي، وتناديني بلقبِ سول. لقد جئت إلى هنا — لقد تركته هو وجيشه وخططه القتالية — في مخالفةٍ صريحة لأوامره، وأعتقد أنه من المرجح أن أواجه مشكلة؛ لأنني اخترتُ العودة. أنا ... أشيد بفكرة أنه يجب عليكم إعلان أنفسكم على أنكم من أهل دامار مرةً أخرى، لكنني — في الواقع — أوصي بشدة أن تسلكوا سبيلكم الخاص إلى كورلاث، من دوني.»

لم يبدُ أن كينتار قد فوجئت بكلمات هاري، لكن لا بد إذن أن تريم أو سيناى قد أخبرتها بالقصة. فقالت: «أعتقد أن ملككم كورلاث ليس بأحمق، وسيُصبح من حماقة أن يُعامل الشخص الذي دفن ثورا والآلاف من جيشه، بمعاملةٍ أقلّ من التكریم والحفاوة البالغين. سنأتي معك، وإذا طردك، فسنظل معك. وسنرحب بك في موطننا هنا»، قالت ذلك وهي تشير بيدها وصوتٌ صلصلةٍ موسيقية خافتة من الخزرات الزرقاء حول معصمها. وأردفت: «لن تذهبي إلى المنفى بلا مأوى.»

لم تقل هاري شيئًا. وجدت أنها متعبةٌ للغاية لدرجة أنها لا تستطيع المجادلة، وممتنةٌ جدًا لولائهم؛ لأنها كانت ببساطة خائفةٌ مما ستواجهه عند العودة — خائفةٌ أساسًا لأنها أدركت مدى رغبتها اليائسة في أن تُصبح قادرةً على العودة. كان صحيحًا أن كورلاث سيُضطرُّ إلى تكريمها لأنها سببُ سقوط ثورا؛ ذلك أنه ليس بأحمق، بل ملكٌ موقرٌ للغاية، لكنها لم تكن تريده أن يكون مجبرًا على ذلك. فقالت في النهاية: «حسنًا، لكن رغبتك.» فانحنت كينتار، انحناءة قصيرة رشيقة. وقالت هاري: «شكرًا لك.»

قالت كينتار: «إنه لشرفٌ لي أن أتبع هريما-سول.»

ابتسم جاك لهاري وهي تجثو على ركبتَيها مرةً أخرى بجوار حلقة النار، وزاحمتها ناركنون من جانبها، وقد بدت ناركنون وكأنها تأثرت بطريقتها الخاصة بسقوط الجبال. مثلما تأثر البشر. وقال جاك: «نحن نتشبّث بك مثل العلقات»، فنظرت إليه بدهشة. وأضاف: «أو هكذا أعتقد أنه كان جوهر محادثتك الآن.»

فأومأت له هاري.

«لذلك ربما يكون هذا هو الوقت المناسب لأن أُنذرك بأن ريتشارد وأنا وعصبتنا نخطط للذهاب معك أيضًا — وأن نُلقي بأنفسنا تحت رحمة ملككم في التلال. لم يتبق لنا في الوطن من شيء...» ثم أدار يديه لتدفئة ظهريهما بجوار النار، وحدّق في راحتيه المتصلبتين — وتابع: «نحن نود ذلك.»

«ولكن...»

«لن تُثنيّا عن الأمر إلا بجهد غير عادي؛ لأن أيّ سبب قد يخطر ببالك، سنفترض على الفور أن له صلةً برغبتك الجديرة بالثناء في تجنيبنا الألم أو المتاعب، ونحن قد عقدنا العزم بكل أنانية أن نتّجه شرقًا في أعقابك. ولا يتحلّى أحدٌ منا بالقوة كي يحتمل الجدل المطوّل على أي حال، بما في ذلك أنت. قد أكون عجوزًا ومتصلبًا ومتألمًا، لكنني عنيدٌ على نحو سيثير دهشتك.»

ساد الصمت لحظة. ثم قالت هاري: «حسنًا.»

نكز ريتشارد، الجالس عن يسار جاك، النار بعضًا. وقال: «كان ذلك أسهل مما توقّعت.» فابتسم جاك في دهاء.

ومن ثمّ وصلوا إلى قرية سيناى في اليوم التالي، واستقبلوا باحتفالٍ كبير. وقال والد سيناى موضحًا: «شعرنا أن الجبل يسقط منذ ثلاثة أيام؛ لأن الأرض اهتزّت تحتنا وهبّ الرماد فوقنا. ثم شعرنا أن الجو أصبح أكثر إشراقًا بعد ذلك، وبذا علمنا أن الأمور سارت معكم على ما يرام.»

قالت رايلي: «كان لونُ الغبار أزرق.»

قالت المرأة اليافعة والدة رايلي والزوجة الثانية لوالد سيناى: «والطريق يستغرق ثلاثة أيام إلى البوابة من هنا؛ لذلك توقعنا قدومكم اليوم؛» وقال ناندام والد سيناى: «تحيا هريما-سول، ساحرة تامير، مطبقة الجبال.»

قالت هاري بلغة هوملاند: «يا للعجب!» نخر جاك بأنفه وسعل، وطالب ريتشارد بأن يشرح له أحد تلك الدعاية. ولكن عندما قدّمت لهم الأطباق الممتلئة والساخنة، استقرّت على أن الشهرة لها مزاياها. فهي لم تتناول قدرًا جيدًا من الطعام منذ أن جلست إلى المائدة التي مُنحت خلالها لقب فارس الملك ... مع كورلاث ...

ومما أثار فزعها في صباح اليوم التالي أن ناندام جاء يمتطي حصانًا عاليًا أسود اللون له قدمٌ واحدة بيضاء. قال ناندام: «سوف آتي معك. لقد جعلتني هذه الساق عديم الفائدة

في المعركة، لكنني لستُ بلا شرف، وقد عرّفتني كورلاث منذ زمن طويل؛ لأنّ سيناي ليست أول فارس يُرافق ملكَ المدينة من عائلتي وجبلي. سأُنضمُّ إلى موكبك أنا أيضًا، يا ساحرة تامير.»

انتفضت هاري. وقالت: «لكن ...» أصبحت هذه هي كلمتها المفضلة في الآونة الأخيرة. قال ناندام: «أنا أعلم. لقد أخبرتني سيناي. هذا هو سببُ مجيئي.» ومن ثمّ تجنّبوا المرور على حصن بلدة الأغراب، الذي يربض في سلام تحت الشمس، غير متأثر بالأمر القبطية المرهقة للدامارين القدامى. كان الأغراب يعرفون طوال الوقت أن أهل التلال عددهم أقلُّ بكثيرٍ مما يُمثل مشكلاتٍ خطيرة، وإذا كانت الأرض قد اهتزّت قليلًا تحت أقدامهم قبل أيامٍ قليلة، فلا بد أن الجبال ليست عتيقةً للغاية كما اعتقدوا، ولا تزال تتحركُ وتتشكّل في مكانها على الأرض. وربما يؤدّي نشاطُ بركاني صغير إلى شقّ شريانٍ جديد للثروة، ولن تظلّ مناجمُ إيل هي السببُ الوحيد لذهابهم إلى جبال راميد.

أطال جاك النظرَ بحزنٍ إلى الجدار الحديدي الذي قضى بداخله معظمَ الوقت في السنوات الثمانية عشرة الماضية. ووجد هاري تنظر إليه فقال: «أُيُّ شيء هناك ينتظرني هو من نوعية «ضَع نفسك قيد الإقامة الجبرية في مسكنك بينما نُقرر ما يجب أن نفعله معك — يا له من مسكين، لقد أثّرت الصحراء على عقله، وأصابه الجنون في نهاية المطاف.» لذا لن أعود.»

ابتسمت هاري ابتسامةً خافتة. وقالت: «أوتعلم، لقد أفسدت الأمر. لو كنتُ أعرف ما سأُسبّب فيه، لذهبتُ وحدي، وأسقطتُ بهدوءٍ نصف سلسلة الجبال في أفضل مكان يؤدّي إلى أفضل نتيجة ...»

قال جاك: «وتغادرين ممتطيّةً سحابة، ولن نسمع عنكِ مرةً أخرى. أظن أحيانًا أن التفانيّ الأعمى — أو ضغط الأعداد الكبيرة — لأتباعك المخلصين هو السبب الوحيد لعودتك إلى ملكك.»

زاغت هاري ببصرها في أفق التلال التي تُحبها، وتذكرت كلمات إيرين، وأن ديكي أعادها إلى هذا العالم ثانيةً في وقت مبكرٍ بعض الشيء.

تابع جاك حديثه: «هل هو رهيبٌ إلى هذا الحد فعلاً؟ ألا تريدان العودة؟» التفتت هاري ونظرت إلى الورا على البقعة الواقعة وسط الرمال الذهبية الرمادية التي هي إيستن. وقالت: «كلا، هو ليس برهيب. وبلى، أريد العودة — كثيرًا. وهذا هو سببُ خوفي.»

نظر إليها جاك، كانت تشعر بنظرته إليها، لكنها لم تقوَ على النظر إليه. بعد أقل من ثلاثة أيام، فُكِّرت هاري في نفسها آسفةً أن رحلة العودة بدت أقصر بكثير من رحلة الذهاب، وهذا على الرغم من حقيقة أنهم كانوا يتحركون ببطء من أجل جرحاهم الذين قاوموا البقاء في قرية ناندام إلى أن تشفى جراحهم، وطالبوا بمرافقتهم. «لا يريدون تفويت أي لحظة من المرح»، هكذا قال جاك معتذرًا، كما لو كان كل ذلك خطأه. قالت بغضب: «مرح؟»

قال جاك: «ربما كان موقفك صارمًا بعض الشيء بلا داع.»
تمتعت هاري بشيء كان من الأفضل ألا تقوله بصوت عالٍ، وأضافت: «إنهم يأخذون الشرف والولاء على محمل الجد هنا، أيها الغريب المفتون بدمار.»
هز جاك كتفيه. وقال: «وإذا طردونا جميعًا وردُّونا على أعقابنا — أعتقد أن هذا يعدُّ مرحًا من نوع ما.» ثم صمت، ونظر إليها من زاوية عينه. وأضاف: «لكن أخشى أن لديّ النظرة المتفائلة نفسها مثل بقية عصابة هاري.»
احتجّت هاري، قائلة: «لكنني أعرف أكثر عن الأمور!»
أجاب جاك: «إن الجهل نعمة.»

لم يجدوا صعوبةً في العثور على طريقهم إلى معسكر ملك التلال. لم تُفكر هاري في الأمر قط، بخلاف عبارة «التوجُّه شرقًا» البسيطة. لكن وعلى الرغم من أن «الشرق» يغطي مساحةً شاسعة من الأراضي، فإنها وجَّهت أنف صنجولد كما لو كانت رجالة ومرشدة طرق، تقطع المسار نفسه الذي تسلكه لسنوات. تمنَّت الآن لو لم تكن دقيقةً إلى هذا الحدّ. إذ استطاعت أن ترى خيمة الملك تلوح في الأفق أمامهم، وغروب الشمس يتلاشى خلفهم، وظلالهم الطويلة تبدأ في الذوبان في تموجات الرمال الرمادية تحت الأقدام. كانت تعلم أن حراس الملك قد رصدوا اقترابهم، لكن لم يُلَقِ أحدٌ التحية عليهم. كانت تعرف جيدًا أن حراس الملك تعرّفوا عليهم على الفور، لكنَّ أحدًا لم يُحييهم. كانت هاري تؤمن تمامًا أنها سهلة التمييز هي وصنجولد وجونتوران، لكنها فوجئت أن وجود اثني عشر رجلًا مسلحًا من الأغراب جليين في موكبها لم يُثر أيّ تعليق حتى ولو لم يُلْقوا القبض عليها فور رؤيتها. وبما أنها لم تكن تعرف ماذا تفعل بخلاف ذلك، فقد تقدّمت إلى خيمة الملك مباشرةً لكن في تردّد، برزت الخيمة وسط الخيام الأخرى، وعلى قممتها تُرفرف رايةٌ بألوان الأسود والأبيض. لكنَّ أحدًا لم يوقفها أو يستجوبها حتى الآن، إلا أن العديدين قدّموا لها تحيةً اليد في صمت، تحيةً من النوع الذي يتوقعه فارس الملك، وقد أراحها هذا قليلًا. لكنها كانت

تتمنى أن ترى شخصاً تعرفه جيداً بما يكفي للتحدث معه — ماثين أو إيناث بالتحديد — لتسأله عن نوع الترحيب الذي ينبغي أن تتوقعه.

كانت هناك قليلٌ من الدلائل على أن هذا الجيش قد خاض معركةً يائسةً ضد أعدائه قبل أيام فقط، وأدركتُ فجأةً أنه لم يخطر ببالها قط أن كورلاث قد يُهزَم. كانت تتعلم أن تُصدّق ما يُخبرها به جَفَنّاها. كانت جميع الخيام منصوبةً بدقة وترتيب، وكانت الخيول التي رأتها نظيفةً ونشيطة. لكن في أرجاء المعسكر سادت همهمةٌ تنمُّ على التوتر، وكان بإمكانها الشعور بذلك؛ إذ غلّف الصمتُ المكان، وبدأ أولئك الأشخاص الذين رأتهم وهم يُسارعون من خيمة إلى أخرى كما لو أن خروجهم هذا لمسألة حياة وموت.

كان وقعُ خطواتِ صنجولٍ سريعاً جداً. ولم ترَ أيَّ فارسٍ آخر، وعند باب خيمة الملك توقّفت، ووقفتُ صحبتها خلفها، ثم انتشروا في حاشية صغيرة حول قائدتها. حيّاها الحارس ذو الوشاح الذهبي مثلما فعل قبل نصف عام؛ حتى إنها ظننتُ أنه كان الرجل نفسه، وإن كان يبدو أكبرَ سنّاً، يبلغ من العمر تقريباً قدرَ ما شعرتُ هي أنها قد كبرت في السن. ظلّت هاري فوق السرج، أرادت البقاء فوقه إلى الأبد، على الأقل يجعلها هذا أطول من رجلٍ يقف على قدميه — حتى كورلاث. ماذا ينبغي أن تقول؟ «عاد الضال؟ يرغب المتמרّد في أن يُردَّ؟ بعد أن واجه المرءوس كثيراً من المتاعب لإثبات خطأ قائده، عاد ويتعهّد بأن يظلّ بعدئذٍ تابعاً صغيراً مطيعاً، أو على الأقل حتى المرة القادمة؟»

وعندئذٍ أراح كورلاث بابَه المصنوع من الحرير الذهبي ووقف أمامها، وحدقتُ فيه من أعلى، حينها ما كانت لتستطيع النزول من فوق السرج حتى ولو أرادت ذلك. وقد أدركتُ السبب، عندما أظهرته لها الكيلار الخاص بها وهو في المعركة منذ بضعة أيام، لم تتعرف عليه في البداية؛ لأنّ وشاحه كان بلونٍ مغاير. إذ كان يرتدي وشاحها.

قال كورلاث: «هري»، ثم «هريماد-سول»، فيما سار نحو جوار صنجول، ظننتُ أنه يتحرك بصلاية، وذُعرَت لدى فكرة أنه ربما يكون قد أُصيب. وظلّت تحدق فيه، ولا تستطيع الحركة، وبعد ذلك، وعلى استحياء، وضع يده حول كاحلها الجديّ المغبرّ، وقال بحذرٍ: «هاري.»

سحبَت ساقها فوق كتف صنجول وانزلتُ مثلما انزلتُ مرةً من فوق فايرهارت، ووضعتُ ذراعيها حول ملكها وعانقته بشدة، وأطبق ذراعيه حولها وتمتم بشيءٍ إذ كانت أذناها تؤزّان، فلم تسمع ما قال.

لم يكن الوضع مريحًا للغاية، احتضان شخص يرتدي سيفًا وقطعًا مختلفة من الدروع الجلدية، ويكون أقل راحة أيضًا إذا كان الطرفان مجهّزان بزِيّ القتال بهذا الشكل. أسقط كورلاث وهاري ذراعيهما بعد وقتٍ قصير، ونظر كلُّ منهما إلى الآخر، وراودهما ظنٌّ قَصِيٌّ أن الآخر يبتسمُ ابتسامةً سخيفةً إلى حدِّ ما، ولاحظت هاري أن عيني كورلاث كانت بلون ذهبي.

قالت وقد بدا صوتُها خفيصًا في أذنيها الفائرتين: «أنت لم تُصَبْ بأذى؟»

قال: «أنا لم أُصَبْ بأذى. وأنت؟»

قالت هاري: «بلى»، وهي لا تزال تنظر إلى عينيهِ الذهبيتين. وأضافت: «أو كلاً. أنا لم أتأذَّ.»

قال ملكها: «أنا سعيد»، وكان صوته لا يزال خفيصًا وحييًّا، وأضاف: «لرؤيتك ... هنا ... وأنت ما زلت ...» وتابع في تردد: «ما زلتَ تنتمين لأهل التلال؟» أخذت هاري نفسًا عميقًا. وقالت: «سأظل أنتمي لأهل التلال حتى أموت، ولكن ماذا ستفعل بي لأنني غادرتُ بهذه الطريقة؟ وهذا ليس خطأهم»، وتابعَت على نحوٍ متسرّع، وهي تشير إلى من يقفون وراءها، «لكنهم أصروا على القدوم معي على الرغم من أنني حذرتهم بما فعلته وما قد ينتظرني. أيًّا كان ما ستقوله، فسأطيع، لكن ... ما هو؟» توقفت؛ لأنها بينما تحاول تقديم أعذار، أو تكفير، أو أيًّا كان ما تريد، تذكرت أنها وكورلاث ليسا وحدهما، وأنها مارقة. رفعت نظرها وجالت به في الأرجاء، لكن رفقتها كانت مجرد أجسادٍ قاتمة في عيناها، مُعتمة بتلاشي النور.

قال كورلاث: «سأعيد إليك وشاحك»، لكنَّ يديه لم تتحرّكا لفكّه من حول خصره. وتابع: «ما كان يجب أن يضع منك — لأنني أظن أنه قد ضاع منك. إذا لم يكن الأمر كذلك، وأنتِ طرحت به عمدًا، فسيُعدُّ ذلك علامةً على أنكِ نقضتِ عهد ولائكِ لي، ولدامار، وجعلتِ نفسك منفيّةً إلى الأبد.»

قالت هاري مدعورةً: «أوه، كلا»، وتحولتِ الابتسامةُ الحمقاء والمتشكّكة على وجه كورلاث إلى ابتسامة حقيقية، ابتسامة لا تُشبه أيَّ ابتسامة رأتها هاري على وجه ملك التلال من قبل. وقال: «كلا. هذا ما كنتُ آملُه.»

همست هاري: «لقد كرّمتني كثيرًا — منذ البداية.»

أجاب كورلاث: «لم أفعل إلا ما وجب؛ لأن الكيلار لم تمنحني أيَّ خيار، لكنني ... وثقتُ في قدراتك، ولم يكن يُهمُّني ما قالته الكيلار.»

«وهل وثقت بي حينها، عندما غادرتُ وتركتك، يا مولاي، وكنتُ أنا التي من فرسان الملك، مخالفةً لأوامرك؟»

تلاشت الابتسامة، لكن ظلَّت عيناه صفراوين زاهيتين. وقال: «لقد فعلت..» وأردف: «لقد حذَّرني ... لوث من أنك ستفعلين شيئاً جنونياً — وأنا ... خشيتُ شيئاً آخر، لأنه بدا يجعل الإنسان من نفسه أحمق، ولا يفهم ما تُرسله إليه الآلهة من حكمة. ولم أدرك ما قاله لي لوث — وقد نسيتُ ما قالته لي الكيلار — إلى أن غادرتِ.»

قالت هاري: «شيئاً آخر؟ ماذا كنتُ تخشى؟» وخفق قلبها بسرعة أكبر بينما كانت تنتظر ردّه، وكانت تأملُ أن يسألها سؤالاً ربما تجيب عنه بما يُمليه عليها قلبُها. لكن نظر كورلاث حولهما. وقال: «إن جنود الأعراب الذين أحضرتهم إلى معسكري ليسوا هنا ليُرافقوك إلى موطنك، أليس كذلك؟»

هزَّت هاري رأسها بعنف. وقالت: «إنهم رفقتي بالفعل إلى موطني، وسيظلُّون برفقتي فيه، في التلال، إذا كنتُ ستقبل بقاءهم.»

قال كورلاث: «سأستقبلهم، وسأخلع عليهم تكريماً»، وظلَّت عيناه مركّزتين على جاك، الذي يمتطي صهوة دراكو بهدوء بين ريتشارد وتيريم، وأضاف: «أولئك الذين صمدوا عند بوابة مدامر وشاهدوا الجبل يسقط على ثورا. أُمِّل أن يزروا هذه الحكاية، وأن يرووها كثيراً.»

قالت هاري: «وأُمِّل ألا أضطرَّ أبداً إلى فعل أي شيء كهذا مرةً أخرى»، ولم تتمكّن لحظةً من رؤية عيني كورلاث الصفراوين، لكنها رأت شيئاً شيطانياً كان فيما قبل إنساناً يمتطي صهوة فحلٍ أبيض وله أسنانُ فهد.

أطرق كورلاث نحو رأسها المحني. وقال: «من أجلك أيضاً أرجو ألا تُضطرِّي إلى فعل ذلك؛ إن قوة الكيلار ليست بهبةً هيّنة.

لقد رأيت ... شاهدتُ الجبل يسقط. سمعتُك تناديني وعزفتُ عندئذٍ من كنتُ تُواجهين — ومن ثمّ فلماذا لم أره يُواجهني هنا: ولماذا تمكّنا من صد جنود الشمال وإجبارهم على التراجع، رغم أنهم يفوقوننا في العدد. أظن أنهم لم يتوقَّعوا منا أن نكون بمثل هذه القوة، وإلا لم يكن ثورا ليقسم جيشه كما فعل؛ لأن دم ثورا الشيطاني أخبره أن هبات الشيطان فقط هي التي تتسم بالقوة.

كنتُ فخورةً بك — وسعيداً لأنك ناديت عليّ أنا.» ثم خفَّت صوته إلى مستوى المهمة، لكن بعد ذلك تحدّث بصوت عالٍ: «ثمّ تقليدٌ يعود إلى مئات السنين، إلى زمن إيرين وتور،

ولا نراه كثيراً في زمننا هذا؛ لأن عدد المحاربات كان قليلاً في الآونة الأخيرة، وذلك إلى أن عاد جونتوران يُشارك في المعارك مرةً أخرى. لكن يقضي التقليد بأن يتبادل الخاطبُ ومخطوبته الأوشحة، وبذا يتعهدان بتشريف بعضهما بعضاً، أمام أنظار الجميع. سأعيد لك وشاحك إذا اخترت ذلك؛ فليس لي الحقُّ في ارتدائه، حيث لم تمنحني ذلك الحق. لكنني تشرفتُ بارتدائه، في عيون شعبي، حتى عودتك — لأنني لم أكن أثقُ بك بالقدر الكافي على الرغم من كلام لوث لي؛ لذلك قررتُ أن أثقُ في أنك ستعودين، إلى التلال وإليَّ أنا، وأملُ أن إجابتك ستُسوّغ تصرفي.»

قالت هاري بوضوح، بحيث يتسنى للجميع أن يسمعوا: «يا مليكي، من الأفضل أكثر أن تحتفظَ بوشاحي كما احتفظتَ لي به بدافع الثقة فيما كنتُ بعيدةً عنك، وأن تمنحني وشاحك لأرتديه بدلاً منه. لأنك قد اكتسبتَ احترامي، وما هو أكثرُ من احترامي، على مدى الأشهر الماضية، لكنني لم أرَ بوضوح أكثر مما رأيتُ أنتَ إلى أن ابتعدتُ عنك، وعرفتُ بعد ذلك ما سأتكبده إذا لم أتمكن من العودة. وأكثر من ذلك، كنتُ أعرف ما الذي سأتكبده إذا عدتُ فقط لأظلَّ فارسةً من فرسان الملك.»

وعندئذٍ تعالت هتافات الابتهاج من حناجر كثيرة، وليس فقط من حناجر صحبة هاري؛ ذلك أن أكثرَ أفراد المعسكر تجمّعوا في الساحة المركزية أمام الخيمة الملكية زوتار ليشهدوا كيف سيجري هذا اللقاء؛ لأنهم رأوا وشاح هريمد-سول حول خصر ملكهم، وأولئك الذين تذكّروا التقليد أخبروا به مَنْ لا يعرفونه. ولم يشعر أحدٌ بأي مفاجأة، سواء من تبعوا هاري أو من قاتلوا مع كورلاث، بل شعر الجميع بالفرح، ولا بد أن أصداء تلك الهتافات وصلت إلى حدود مدينة الأغراب التي تُسمى إيسْتَن، والبوابة المنيعة لحصن الجنرال ماندي. وقد اندهش الجنودُ الأغراب الذين تبعوا جاك ديدام عندما قرّر أن يتبع الفتاة هاري كرو، التي أصبحت هريمد-سول وفارسةً من فرسان الملك، والذين لا يعرفون لغة أهل التلال، فنظروا حولهم، وإلى الشخصيتين الطويلتين أمامهم وهما بجانب الحصان الضخم ذي اللون الكستنائي، وهتفوا هم أيضاً، فقال جاك لهم في هدوء: «في حال كنتم ترغبون في التأكد مما تهتفون من أجله، فإن هاري ستتزوج هذا الرجل. إنه الملك، كورلاث.» وتحت غطاء الصيحات، جذب كورلاث بهاري إليه وقال: «لقد أحببتُك منذ مدة طويلة، على الرغم من أنني لم أكن أعرف ذلك في البداية، لكنني عرفتُ ذلك عندما أرسلتُك إلى التلال مع ماثين وتسورنين مُعلّمين لك؛ لأنني أدركتُ حينها كيف اشتقتُ إليك. وعندما وجدتُ في المدينة أن ناركنون قد تبعتك، شعرتُ بالغيرة من قطعة يمكنها الذهاب إلى حيث تشاء.»

قالت هاري، بصوتٍ خافت، حتى يسمَعها هو وحده: «كان بإمكانك أن تُصارحني». ابتسم كورلاث بسخرية. وقال: «خشيتُ أن أخبرك؛ لأنني قد سلبتُك من وسط أهلك، وربما كان إيقاظُ قدرة الكيلار بداخلك قد جعلك تكرهيني؛ لأن المرأة التي أورتك دماؤها هبة الكيلار غادرت أرض التلال منذ مدةٍ طويلة. وعندما تعرفين ما الذي منحك إياه هذا الإرث، فقد يدفعك بقوة أكبر للعودة إلى شعب والدك، إلى مصيرٍ ليس لأهل التلال نصيبٌ فيه. إن تلك الهبة ليست بعبءٍ حسن.

ولكن عندما رأيتك قد غادرت، اتجهتُ إلى الغرب؛ لأنني كنتُ أعرف إلى أين ينبغي بك الذهاب، وأقسمتُ إذا نجا كلُّ منا من الموت، وعندما نلتقي مرةً أخرى، فسأخبرك أنني أحببتُك، وأطلب منك الوقوفُ إلى جوارِي ليس بصفيتك فارسةً ولكن بصفتك ملكة؛ لأن الأمر بدا أنه يستحقُّ المخاطرة فجأةً. ولم أستطع تحمُّل أنك ربما لن تعرفي شعوري هذا أبداً». قالت هاري: «أنا أحبك، وقد سيطر عليَّ الشعورُ بأنني سأصبح منفيةً بسبب عصياني، ليس بعيداً عن الناس الذين زعمت أنهم أهلي، رغم أن هذا كان عقاباً كافياً، ولكن بعيداً عنك، أنت الذي أحببته أكثر من أي شيء وأي أحد. أظن أنني كنتُ أعلم أنه لا يمكنك نفيي؛ بسبب الانتصار الذي حققه جونتوران لك ولأرض التلال، لكنني علمت أنك إذا غضبتُ مني لترتكب مثلما فعلت، فسيُصبح هذا هو المنفى الأكثر مرارةً، حتى لو جلست عن يسارك بصفتي فارسةً بقية حياتي.»

كان إيناث هو الذي جذبها بعيداً في النهاية ورقص معها وسط الساحة؛ لأن إيناث كان لا يتحلَّى بالوقار، وبدا أن كورلاث وهاري قادران على تجاهل الجلبة المحيطة بهما إلى الأبد. ثم أخذها جاك منه، وبعدها هَلَّلُوا لها، ثم دارت دَهَاباً وإياباً بين الجمع حتى أصيبت بالدوار، لكنها ضحكت وابتهجت وشكرت كلَّ من رقص معها. لكن كان هناك وجهٌ واحد بالتحديد بحثت عنه ولم تجده، وأزعجها غيابُه. وأخيراً تركوها كي تعودَ إلى كورلاث مرةً أخرى، وانتقصت سعادتها بسبب الوجه الذي لم تجده، فأمسكت ذراعه بقلق وقالت: «أين ماثين؟»

جمد كورلاث في مكانه، وهو الذي كان يرقص أيضاً.

فقال وقد ارتفع صوتها حتى بحَّ: «لم يَمُت، أليس كذلك؟» لكن عندما هزَّ رأسه نائفاً لم تشعر بالراحة. فأمسك يدها في يده وقال: «تعالِي»، وقادها بعيداً عبر الخيام. أمكنها الآن أن ترى آثار المعركة؛ لأنها رأت، على ضوء الفانوس، مُعدَّاتٍ ملطخةً بالدماء وسيوفاً وملابس ممزقة يتحرك أصحابها مجهولو الهوية متفجعين في نسيم المساء، وبعض

الأشخاص، منهم مَنْ هو مُغطَّى بالضمادات، أو يعرج، أو مستلقٍ بجوار حلقات نار المعسكر، يتلقَّون الرعاية بلطفٍ من قِبَل أولئك الذين لم يُصابوا بأذى. قادها كورلاث إلى خيمة طويلة منخفضة الارتفاع وجذبها إلى الداخل، وصدمتها رائحة الموت على الفور، على الرغم من أن الأجساد التي ترقد على الأبسطه والبطانيات والوسائد قد تلقت العناية على نحو جيد وضمدت الجروح بضمادات نظيفة، وكانت صدورهم لا تزال ترتفع وتهبط مع التنفُّس، وكان هناك كثيرٌ من الممرضات يُقدمن الرعاية والشراب وقليلًا من الطعام. أخذها كورلاث إلى الطرف البعيد من الخيمة الضيقة، ووجَّه الجسدُ الراقد هناك رأسه نحوهما. فألقت هاري بنفسها على ركبتيها وهي تبكي؛ لأن صاحب الجسد كان ماثين.

قال ماثين: «كنتُ أعلم أنك ستعودين»، وتحركت يده شيئًا قليلًا لتقبض على يد هاري في وهن، ابتلعت هاري ريقها وأومأت برأسها، لكن دموعها ما زالت تنهمر ولم تستطع إيقافها. وتابع: «وسوف تتزوجين ملكنا؟» بنبرة يمكن أن تُعتبر نبرة حديث لو لم تكن خافتة للغاية، فأومأت هاري مرةً أخرى.

وقالت: «أريدك أن تُهدينا نخبًا في حفل الزفاف، يا صديقي القديم ومُروِّض الخيول ومُعلمي».

ابتسم ماثين. وقال بنبرة لطيفة: «سأترك شرفي في أيدي أمينة، مع أفضل ابنة». قالت هاري: «كلا»، وبينما كانت دموعها لا تزال تنهمر، زادت قوة صوتها. «كلا». وبينما هي جاثية على ركبتيها، انغرس مقبضُ جونتوران بين ضلوعها، فوقفت في جزع وفكته وتركته يسقط، وبينما كانت تنحني مرةً أخرى، سقطت بضغ دموع على يدها، وكانت دموعها حارَّة، بل حارقة، وتركت علامات حمراء حيث لامست جلدتها، وأدركت أن عينيها وخديها يحترقان بدموعها. فسحبت الغطاء بعيدًا عن صدر ماثين وبطنه، حيث ينزف جرحٌ طويل مُميت من بين الأربطة؛ كان الدم فاسدًا، لونه تقريبًا أسود، ويشوبه لونٌ أخضر طفيف، وتصدر عنه رائحة رديئة.

غمغمت هاري: «في زمن إيرين، كانت الكيلار مفيدةً في كثير من الأشياء. لم تكن تُستعمل في الأذى فقط، وإثارة المتاعب».

اقترب كورلاث من خلفها. فنظر ماثين إلى ملكه وقال: «إيرين...» شعرت هاري بيدي كورلاث على كتفيها، والتفتت وهي في مكانها جاثيةً وأمسكت ببيديه. وقالت: «ساعدني. لقد ساعدتني على قمة الجبل تلك. كان الأمر كما لو أنك رفعتني لأعلى، كما لو أنك أمسكتني من كتفي كما فعلت في الليلة الأولى عندما تذوقت ماء البصيرة».

وابيضَّت عيناها المفتوحتان عن آخرهما فلم تستطع الرؤية؛ كان الأمر أشبه بالغضب الذهبي للحرب، إلا أنه كان أسوأ؛ كاد شعورها بالغضب يشقُّ جسدها، وكادت تَذوي، وكاد لونها يستحيل أسودَ لشدة حرارته.

قال كورلاث، كما لو كان رغباً عنه: «لقد سقط ماثين، وهو يحرس جسدي، بينما كنتُ بعيداً على قمة جبل؛ لولاه، لما كان لديَّ أي جسد أعود إليه.»

ارتجفت هاري وأكلت الحرارة أعصابها واستنفدت قوتها، ومدَّت يدها دون أن ترى كي تلمس ماثين، ولمست أصابعها جلد ذراعه العارية، وشعرت به يرتجف، وأنفاسه تُحدث هسهسةً بين أسنانه. وأيّاً ما كان ما بداخلها، فقد هدرَ في عروقه كالرعد وملأ رثيئها وبطنها ويديها وفمها؛ فتركت ماثين والتفتت إلى الفراش المجاور، ونبشت أعطيته الفراش؛ لأنها لم تستطع أن ترى سوى العاصفة الذهبية، ولا تشعر بشيء سوى إحدى يدي كورلاث تقبض على يدها، ولمست حلق المصاب الرائد على الفراش المجاور لماثين. وتلمست طريقها على طول تلك الخيمة الطويلة وهي تتعثر، وتكاد تزحف لولا كورلاث، فأخذت تتلمس الجبهات والأيدي والأكتاف، وأعادت الممرضات الفرش إلى مكانها، ونظرت عيون المحتضرين في عينيها العمياء وهم يأملون في لمسةٍ منها ولكنهم يخشونها، ولم يقترب منها أحدٌ ممن هم أصحاء سوى كورلاث؛ إذ لم يكن بمقدور أحدٍ أن يقترب منها بما يكفي حتى للامسة طرف سترتها؛ لأن عملية التنفُّس حتى كانت صعبةً إن كانت بهذا القدر من القرب في وجود هذه القوة التي بداخلها. فارت النار داخلها، وكان لها صوت طقطقة في أذنيها حتى إنها أصبحت صمّاً أيضاً؛ لكن أخيراً وصلا إلى الباب، وأخرجها كورلاث، ومع كل خطوة تخطوها لم تكن قدماها الضعيفتان تعرفان أين سيكون موضعهما، ثم شعرت بنسيم المساء، وبدأت النارُ فيها تهدأ، وقد وجدت لذلك صعوبةً في البداية. لكن عندما انصرفت عنها، وعادت إلى حيث أتت، أخذت معها لبَّ عظامها ومرونة عضلاتها؛ لأن هذا هو وقود النار، واتكأت على كورلاث. فطوّقها بذراعيه، وعندما مضت النار أخيراً وخرجت منها وانهارت هاري، حملها واتّجه إلى خيمته الملكية، ورقدت بين ذراعيه منهاراً مثلما خدرها كي تنام في الليلة التي خطفها فيها من القصر.

استيقظت هاري وهي تشعر بأنها كانت مريضةً لمدة عام وتتماثل الآن للشفاء. وحدقت في السقف المدبَّب للخيمة، وأدركت ببطء مكانها. حتى ذهنها كان أضعفَ من أن يوحى لها بفكرة التحرك من مكانها. عرفت ناركنون، بحس القطط الزائد، أن هاري قد فتحت عينيها، وبدون أن تتحرك من موضعها وهي ممددة على ساقي هاري، بدأت تُخرخر.

جاء كورلاث بعد أن سمعها تُخرخر؛ إذ كان جالسًا خلف الستارة المعلقة حول فراش هاري كي لا تُزعجها حركةُ الدخول والخروج من خيمة الملك. وأزاح الستار حين سمع ناركنون. كان هو نفسه مرهقًا؛ لأن كثيرًا من القوة التي استخدمتها هاري في الليلة السابقة كانت من قوّته هو، ولم يتمكن من النوم في تلك الليلة كي يحرسها. وقد سهر على رعايتها وهي نائمة؛ على أمل أن تستيقظ فقط وقد استعادت حالتها الطبيعية. كان منفعلاً للغاية وهو يلقي بنفسه إلى جوارها.

ساعدت النظرة على وجهه في أن تتمالك هاري نفسها على نحو قوي، وقامت تجلس وهي ترتجف بعض الشيء، فوضع ذراعه حول كتفها، وكانت سعيدة أن تُسند رأسها إلى صدره في سكون.

لم تكن تريد أن تسأل، لكنها لم تستطع كبَح نفسها، فقالت في النهاية: «ماثين؟» بدا صوته أعمق من أي وقت مضى بينما كانت أذنها على صدره وهو يتكلم. حيث قال: «سيحمل ندبة كبيرة، لكنها لن تؤثر عليه، وسيستعيد قوته بما يكفي لامتطاء ويندرايدر عندما نُغادر هذا المكان للعودة إلى المدينة، في غضون أيام قليلة، على الرغم من أن ذراعه اليمنى لا تزال تؤلمه إلى حدٍّ ما؛ بسبب الحرق الطويل والشديد بالقرب من الكتف، كما لو أن النار قد أحرقته.»

تذكرت هاري كيف عرفت أن النار تلتهمها، وأنها لن تترك شيئًا منها، وفتحت يدها اليمنى، التي لامست ماثين. وبدت اليد مثلما كانت دائمًا، باستثناء العلامة البيضاء الصغيرة الموجودة على راحتها، التي كان عمرها شهرين فقط. «والآخرون؟»

«لن يموت أحدٌ منهم، وفي حين أن أحدًا لم يتعافَ بالسرعة نفسها مثل ماثين، فلا أحد يحمل علامة المكان الذي لمسته فيه هريما-سول.» «و... قومي؟ جاك وكينتار ومن تبعهم؟ وناندام و... وريتشارد؟ هل قابلت أخي ريتشارد؟»

«صديقك جاك عرف كلُّ منا بالآخر.» تذكر كورلاث الكولونيل ديدام عندما رآه يقف في الشفق خلف هاري، تذكره على أنه الرجل الوحيد الذي بدا أنه يستمع إلى ما قاله فورلوي، ويعتقد أن رجال التلال ربما يقولون الحقيقة، حتى إلى الأغراب. كان ذلك المنظر للرجل الذي قدّم ولاءه لملك التلال أثناء وقوفه في شُرْفَةِ القصر هو الذي أعطى كورلاث الشجاعة لإعلان حبه لهاري في الليلة السابقة. لقد بدا له في ذلك الوقت شيئًا جريئًا رائعًا

أن يربط وشاحها حول نفسه ويرتديه علانية، لم يخطر بباله حتى رآها ومعها عُصبتها من خلفها، وقد ثبتت عينيها الشاحبتين عليه بتعبير لم يستطع تفسيره، أن ذلك سيُجبره على مواجهتها على الفور بحبه وما يعنيه ذلك، وقتما يراها مرة أخرى — إذا ما رآها مرة أخرى. مما لا شك فيه أن اختيار الوقت والمكان اللذين يُناسبانه كان سيصبح أكثر لطفًا أو كياسةً — وأقلَّ خطورة؛ بدلاً من التصريح به على الملأ. ولكن رغم ذلك، من دون الوشاح حول خصره وشعبه يراقب النتيجة بتلُف؛ كان من المحتمل للغاية أن تخذله شجاعته مرة أخرى، على الرغم من كل كلماته البارزة حول خوض المجازفات. كلُّ هذه الأشياء سيقولها لهاري لاحقًا. ومن ثم تابع قائلاً: «لكن ملامح ريتشارد تُشبه ملامح عائلتك كثيرًا، باستثناء العيون، وكنت سأخمن من يكون.»

«إن لدى جاك أمنيةً يعتبرها أفضلَ من أي شيء في العالم، وهي أن يمتطي حصانًا من التلال.» سمعت هاري بدايةً ضحكته بداخله قبل أن تنفجر في الهواء، ورفعت رأسها ونظرت مستفسرةً في وجهه. فهزَّ رأسه وقال: «يا حبيبتي، سيحصل صديقك جاك على مائةٍ من خيولنا، وعلى الرحب والسعة»، ثم حنى رأسه وقبَّلها، فجذبته إلى جانبها. وبعد بضع دقائق، نزلت ناركنون من فوق الفراش، وهي تُخرخر في تذمر، وابتعدت في كبرياء. كان ماثين أكثر شحوبًا بقليل من المعتاد عندما تحرَّك جيش كورلاث وزحف في اتجاه الشرق، لكنه امتطى ويندرايدر بسهولة، وأخذ ينظر في كل مكان حوله كما لو كان يُدَّكر نفسه بما اعتقد أنه قد فقده، لكنه في أغلب الأحيان كان ينظر إلى هريمد-سول، وهي تمتطي حصانها وتسير عن يمين الملك. كان الجيش يتحرَّك ببطء، حيث يحمل الجنود بعض النقالات، وليس هناك داعٍ للإسراع. حتى شمس الصحراء فوقهم بدت معتدلةً ومتألقةً وليست قاتظةً، وسيتزوج ملكهم دامالور-سول التي تقلدت السيف الأزرق جونتوران، وقد اندحر جيش الشمال، على الأقل في زمنهم هذا، وربما حتى زمن أطفالهم، وربما حتى زمن أحفادهم، ولا تزال دامار تحت رايتهم. وأيضًا كان الجيش يتحرَّك ببطءٍ من أجل جاك ديدام وريتشارد كرو، اللذين كانا يمتطيان حصانين من أرض التلال، ووجدوا صعوبةً في السيطرة على هذه الخيول على نحوٍ أكثر بقليلٍ من هاري، وكانا قلقين من فكرة القدرة على إيقاف حصانٍ يعدو بأقصى سرعة، فقط عن طريق الجلوس بقوة أكبر على السرج. وعندما لم تكن هاري مع كورلاث، كانت تدور حولهما بحصانها في دوائرٍ كي تسخر منهما، وجعلت صنجولد يؤدي كل أنواع الخطوات والانعطافات الرائعة، ليس لإزعاجهم في الواقع؛ ولكن فقط لأنها لم تستطع احتواء نفسها من فرط السعادة. وأخذ صنجولد يقف

على قائمتيه ويثبُ حتى اضْطُرَّت هاري إلى التشبُّث بعُرفه لَتَثْبُتْ نفسها — وكان لدى جاك الجُرأةُ ليضحك — ولم يكن يتصرَّف مثل حصانِ حربِ حَسُنْ تدريبه على الإطلاق، وبدا سعيدًا مثلها تمامًا.

الفصل السابع عشر

عندما وصلوا إلى المدينة بعد أسبوعين، فُتحت أبواب المدينة مرةً أخرى؛ لأن ما أخبر به كيلار الناس أكَّده الرسل الذين أرسلهم كورلاث، وفي ساحة لابرون، كان هناك الآلاف من أهل التلال ينتظرون لتحية ملكهم وعروسه؛ لأن الرسل أخذوا على عاتقهم أن يُخبروا الناس بأكثر ممَّا أمرهم به كورلاث. مكث بالمدينة كلُّ من جاءوا طلباً للأمان، ومعظم أولئك الذين اختاروا البقاء في أراضيهم، على الرغم من خطر غزو جيش الشمال، غادروها الآن ببهجة للإسراع إلى المدينة وحضور حفل زواج ملكهم؛ لأن الأخبار كانت بطريقةٍ ما تعبر الجبال والصحراء، وتنتشر في كل الاتجاهات، وعلمت دامار كلُّها بهريما-سول، وأنها ستصبح ملكة، حتى في الموقع النائي المنعزل حيث توجد قبيلة فيلانون، وقد سافر مائة من قوم كينتار إلى المدينة بصحبة أهل قرية ناندام — بمن في ذلك رايلي، التي كانت متحمسة للغاية، ووالدتها، التي كانت متوترةً للغاية بسبب رايلي — لحضور حفل الزفاف.

تزيّنت المدينة بالورود، ونُسجت عباءاتٌ طويلة من الزهور، ووُضعت حول أكتاف كورلاث وهاري، وفوق عنق تسورنين وأيسفاهل، وأقيم الاحتفال في الفناء الأبيض الزجاجي أمام قصر كورلاث. كان الناس يتدلّون من النوافذ والشرفات، ويتشبّثون بالمنحدر الجبلي الشديد الانحدار في تراحمٍ شديد، ويتراصّون ملتصقين بالجدران، ويحتشدون في الفناء نفسه حتى لم تعد هناك سوى مساحة ضيقة للغاية كي يسير الملك والملكة من باب القصر إلى بوابة الفناء، حيث أخذاً يُلوحان ويبتسمان ويلقيان حلوى كافتبا، وهي الكعكات الصغيرة التقليدية التي تُمثل حظاً سعيداً لأي شخص يمكنه التقاط واحدة منها وتناولها. وقد ألقيا منها الكثير والكثير، حتى يحصل أيُّ شخص يريد واحدة على ما يريد، وكان كلُّ شخص يريد واحدة. ثم عادا مرةً أخرى إلى داخل القصر. ومن ثم أمضيا ليلة زفافهما

في الغرفة الصغيرة ذات مسقط الماء، في القصر المزيّن بالفُسيّساء الأزرق. وقبل أن يناما، بدأ كورلاث المهمة الطويلة المتمثّلة في حكيّ كلّ حكايات إيرين على مسامع هاري، مثمّا وعدّ مرةً أنّه سيفعل. وامتدّ الحكيّ على مدى العديد من أمسياتهما معاً؛ لأنّ رغبة هاري في الاستماع إليها جميعاً لم تكلّ — وعندما سمعتها جميعاً، كان زوجها الصبور مطالباً بتعليمها كلّ ما بها من مهارات، وعندما علّمت بكل ما لديه، ابتكرت له بعض الحكايات وعلمته إياها.

وكان جونتوران معلّقاً على جدار القاعة الكبرى، التي أدّت هاري بداخلها، مثل كلّ الفرسان من قبلها، طقوس حصولها على لقب فارسٍ بجرح يدها على سيف الملك. وعُلّق سيف الملك في مقابله؛ لأنه لا يمكن تعليق أي سيف في القاعة الكبرى سوى سيفي الملك والملكة فقط. كان جونتوران قد أمضى سنواتٍ عديدة وهو ملفوفٌ في لفافةٍ قماشية داخل صندوق خشبي قديم، وقد استحال لونه أسودَ بمرور الزمن، منذ آخر مرة عُلّق فيها في القاعة الكبرى. وبعد احتفالات الزفاف، عاد الجميع إلى بلدانهم؛ لعدم قدرة أحدٍ على السفر عندما تتساقط الأمطار الشتوية.

وقد ظلّ وفد فيلانون في المدينة حتى انتهت الأمطار؛ من ناحيةٍ لتقديم الاحترام الواجب للمدينة والملك الذين تولّوا بعيداً عنهم قبل سنواتٍ عديدة، ومن ناحيةٍ أخرى لأسبابٍ أصبحت واضحة — على الرغم من أن الجميع كان يعرف بالفعل ما كان يحدث — عندما تزوج ريتشارد كرو من كينتار بحلول فصل الربيع، وعاد معها ومع وفد فيلانون إلى الطرف الغربي من دامار، على الرغم من أنه تجنّب بحرصٍ قاعدة الأغراب. وهكذا أصبح الفيلانونيّون معروفين مرةً أخرى للملك ومدينته؛ لأنّ الملكة الدامارية غالباً ما كانت تزور شقيقها، وكثيراً ما زارها هو. ولم يكن ريتشارد سعيداً بالكلية بامتطاء الخيل على طريقة أهل التلال، لكن كانت لديه موهبةٌ في صناعة الأخشاب والرماية التي لربما كانت ترقى إلى منزلة العطية.

علّم ريتشارد أخته أن تمسك القوس بالشكل الصحيح، وأن تُصوّب سهماً في المكان الذي تريده إلى حدّ ما، لكن هاري لم تستطع الوصول إلى مرحلة التميّز في هذا المضمار. «هل تتحدث إلى سهامك، وتخبرهم أن يجدوا الغزال الذي لا بد أنه يختبئ وسط تلك الشجيرات هناك في مكان ما ويُصيبوه؟»

«هل طلبت من جونتوران هدمَ الجبال على رأس ثورا القبيح؟»

جَرَتْ هذه المحادثة بعد عام تقريباً من تعليق جونتوران على جدار القصر، واستغرقت هاري في الضحك.

كانت مولودة كينتار الأولى طفلةً ذاتَ شعرٍ أشقرٍ وعَيْنَيْنِ رماديتين، وقد وُلدت قبل هطول الأمطار الشتوية التالية. ثم وُلد مولود هاري الأول بعد أسبوعين من ذلك — وقد قالت هاري، وهي تضعُ يدها على بطنها: «أه، يا للسخف؛ كنتُ أودُّ أن ألد أنا قبلها»، وذلك عندما جاء رسولٌ من الغرب بالخبر، وسقطت عليهم أولُ أمطار الشتاء، وجعلت لونَ أحجار المدينة قائماً. وكان المولود ذكرًا ذا شعرٍ أسودٍ وعيونٍ بنية.

وقد أتقن جاك امتطاء الخيل مثل أيِّ فارس من أهل التلال، على الرغم من أنه بدأ في تعلُّم ذلك في عمرٍ متأخر؛ وأخذ ماثين إلى قريته، حيث تعلم كيف يُدرب أهلُ التلال خيولهم الصغيرة. وقد أتقن هذا أيضًا، وكانت عائلة ماثين تحبه، لكنه وجد نفسه دائماً يعود إلى المدينة الحجرية، حيث بدا كورلاث أكثرَ رضاً بالبقاء فيها منذ أن أصبحت هاري تُقيم معه فيها الآن. وفي العام الذي أصبح فيه الصغيرُ تور ماثين يبلغ من العمر عامين، دُعي جاك إلى مأدبة في القاعة الكبرى، حيث كان قد حضر العديدُ من المآدب فيها من قبل، ولدهشته نُصِبَ فارسًا للملكة، ليجلسَ مع فرسان الملك الخمسة عشرة؛ لأن كورلاث لم يَمُنح اللقبَ لأحدٍ منذ الحرب مع جيش الشمال. وقد شرب جونتوران، الذي كان جاك قد حمله مرةً واحدة من قبل على قمة جبل، ثلاثَ قطرات من دمه برفقٍ ولُطف، بينما كان يُحرق في الجرح، ولأول مرة لم يكن لديه ما يقوله.

قالت هاري وهي تبتسم: «نحن أبناءُ الأغراب يجب أن نبقي معًا.» رفع جاك نظره في الحال وهزَّ رأسه. وقال: «كلا، نحن الذين نحبُّ أرض التلال يجب أن نبقي معًا.»

وفي العام التالي لحصول جاك على لقبِ فارس، أنجبت هاري وليدًا آخر، طفلةً ذات شعرٍ أحمرٍ وعَيْنَيْنِ زرقاوين، وابتسامةٍ ساخرةٍ مرحة، حتى وهي لا تزال في مهدها. وقال جاك، وهو يُداعبها بطرفٍ وشاحه، بينما كانت تضحك وتتشبَّث به: «ستُسميها إيرين بالطبع.»

«سأسميها إيرين أميليا، وبمجرد أن تبلغ ستةَ أشهر من العمر، سأنطلق غربًا مع فورلوي وإيناث وماثين، لدعوة السير تشارلز والليدي أميليا إلى حفلِ تسمية المولودة، هنا في المدينة. هل ستأتي معنا؟» كانت هاري تحمل طفلتها، وبينما توقَّف جاك عن النظر إليها ونظر إلى والدتها مشدوهاً، أمسكت إيرين بالوشاح وحشَّت كثيرًا منه في فمها.

ومن ثم قال: «أجل، بالطبع سأتي. أليس من واجبي فعلُ ذلك، على أي حال؟ بصفتي فارسَ الملكة الوحيد، لديَّ سُمعة يجب أن أحافظ عليها.» ثم استرخت نظرة هاري القلقة وتحولت إلى ابتسامة.

وهكذا بعد ستة أشهر، استعدَّ خمسة فرسان للتوجُّه غربًا من المدينة، وبينما كانوا على وشك مغادرة بواباتها، سمعت هاري، التي كانت متأخرة خلفهم كما لو كانت غير سعيدة بشأن شيء ما، دقات حوافر خلفها، فالتفتت لترى فايرهارت يقترب منها. كانت هناك ما يُشبه حقائق سفر معلقة على سرجه، فابتهج وجه هاري وقالت: «أوه، أنت قادمٌ معنا في نهاية المطاف.»

فتنهَّد كورلاث، ومدَّ يده فوق كاهل صنجولد ليُمسك يدها وقال: «أجل، أنا قادم. أنا لا أريد ذلك، كما تعلمين. ربما ستظنّين فقط أنني لا أطيق الابتعاد عنكِ عدة أيام، وهذا صحيح بالفعل.»

قالت هاري: «أنا لا أهتم.»

نظر إليها كورلاث وابتسم رغماً عنه. وقال: «ربما أنتِ على حق، يا حبيبتي. إنني أميل إلى أن أنسى أنه لا يزال هناك بعض من دماء الأعراب في عروقي، وربما سينجح مخططُك المجنون هذا.»

توقَّف ستتْهم ونصّبوا مخيمًا في المكان نفسه الذي نُصب فيه مخيم سفر أكبر بكثير قبل عدة سنوات؛ لانتظار عودة أفراد قاموا بزيارة أخرى إلى بلدة الأعراب. انطلق فورلوي وإيناث بمفردهما، في الصباح الباكر، برسالة مكتوبة إلى مفوض المنطقة وزوجته، لم يعرف أيُّ منهما ما يمكن توقُّعه، ولكن آخر ما جال ببال الأربعة الذين ظلُّوا في المخيم أن يروا سحابة من الغبار تتسارع نحوهم بعد ساعات قليلة. قال جاك بتمعن: «إن خيول التلال لا تُثير كثيرًا من الغبار.» نهضت هاري وخطت بضع خطوات في اتجاه سحابة الغبار، وأمكنتها رؤية شخصين يمتطيان حصانَيْهما بداخلها، وخلفهما إيناث وفورلوي على الحصانين الرمادي والبنّي.

وصلت الليدي أميليا إلى هاري أولاً؛ حيث أرجعت هاري غطاء رأسها إلى الوراء، وتلألاً شعرها في ضوء الشمس، ولكن في زي أهل التلال الذي ترتديه وبجلدها الذي تحول بفعل الشمس إلى لون مشروب مالاك، كانت مندهشة عندما ترجلت الليدي أميليا ضئيلة الحجم أو سقطت من على حصانها أمامها مباشرة، وقالت: «هاري، يا عزيزتي، لماذا لم ترسلي لنا أي خبر عنكِ؟» وانفجرت بالبكاء، وألقت ذراعيها حول ضيفتها السابقة وطفلتها المتنبئة.

قالت هاري: «أنا...»

قالت الليدي أميليا: «لا تشغلي بالك؛ أنا سعيدة لرؤيتك مرةً أخرى. أنا سعيدة لأنك لم تغفلي عنا تمامًا. ليس عليك تسمية الطفلة باسمي...» كان صوتها مكتومًا؛ لأنه مدفون في كتف هاري — وتابعت: «ولكن إذا كنت تريد حقًا دعوتي لحضور الاحتفال بها، فسوف أحضر بالتأكيد. وتشارلز أيضًا.»

نظرت هاري لأعلى، وكان السير تشارلز يترجّل عن حصانه على نحوٍ يفتقد الرشاقة. فأفلتتها الليدي أميليا من بين ذراعيها، ولم يقل السير تشارلز شيئًا وهو يحتضنها بدوره، وظنّت أن صمته نذيرُ سوء حتى نظرت في وجهه ورأت الدموع في عينيه. نشج الرجل مرةً أو مرتين، ثم انفتحت عيناه على نطاقٍ أوسع عندما نظرتا من فوق كتف هاري، وسمعت هي صوت جاك يقول: «تُسعدني رؤيتك مرةً أخرى، يا صديقي القديم.»

كان اللقاء بين السير تشارلز وكورلاث متكلفًا على نحوٍ طفيف. وفي محاولةٍ منه للتفاهم الجيد هذه المرة؛ مدّ السير تشارلز يده، فنظر كورلاث إلى يده، ونظر إلى السير تشارلز، وصرت هاري على أسنانها، ثم بدا أن كورلاث تذكر وصفًا، ربما منها، أو من جاك، عن طقوس الأغراب الغريبة هذه، ومدّ يده بترددٍ فصافحها السير تشارلز بحرارة. بعد ذلك سارت الأمور بسلاسة بشكلٍ أو بآخر، وتحديث السير تشارلز بلغة أهل التلال، ليس تحديدًا بالسوء الذي كان يتوقّعه كورلاث في نفسه — لقد كان يتدرّب على إتقان لغتنا، هكذا ظنّ ملك التلال في نفسه في دهشة، وشعر بالارتياح تجاهه — وتحديث كورلاث بلغة هوملاند، وامتنع السير تشارلز بلباقة عن التعليق حول مدى تحدّثه بها بطلاقة.

أراد السير تشارلز الإصرار على عودتهم جميعًا إلى القصر، بينما كان هو والليدي أميليا يستعدّان للمغادرة، وأمكّن لجاك أن يرى كيف كان يُحاول منع نفسه عن ذلك؛ لذلك تحدّث إلى هاري وتحديث هاري إلى كورلاث. ونظر كورلاث إلى زوجته وفكر في أفكارٍ متشائمة، لكن في نهاية الأمر ذهب الثمانية معًا إلى إيستن.

وهكذا بدأت العلاقات الدبلوماسية بين الأغراب وأهل دامار، لأول مرة منذ أن جاء جيش الأغراب عبر البحر واحتلّ أكبر قدرٍ ممكن من أراضي دامار. اكتشف جاك أن السير تشارلز قد أخذ رسالته، التي كتبها بينما كانت هاري وسيناى وتيريم وناركنون نائمين في غرفة نومه بالحصن، على محمل الجدّ بالفعل، وفي الواقع، عرض حياته المهنية للخطر من خلال الإصرار على أن الكولونيل قائد حصن جنرال ماندي لم يُصب بالجنون بسبب الحياة وسط الصحراء، ولكنه ردّ على تهديدٍ حقيقيٍّ لأمن أرض الأغراب بالطريقة الوحيدة التي

يستطيع فعل ذلك بها. وبسبب جهود السير تشارلز، أُدرج جاك نفسه والرجال الذين ذهبوا معه بشرف في القوائم العسكرية على أنهم مفقودون أثناء القتال على الحدود، ويُفترض أنهم قد لاقوا حتفهم. ولقي السير تشارلز أيضًا واحدة من الجثث غير البشرية التي عثر عليها بالقرب من الحصن — حيث اكتشفت جثتين أخريين بعد اختفاء جاك — وأرسلها كي يفحصها أطباء هوملاند في جنوب داريا، حيث توجد أكبر مدن هوملاند، وأفضل المرافق الطبية. وقد أعلن الأطباء في قلق أنهم لا يعرفون حقيقة الشيء الذي يفحصونه، لكن أيًا كانت حقيقته، فهو شيء لا يروق لهم. وأخرج السير تشارلز أيضًا جميع التقارير عن الأنشطة غير النظامية والقتالية على الحدود الشمالية، وجمع المزيد، وأرسلها إلى قياداته لاتخاذ القرار الصائب بشأنها؛ ونظرًا إلى سمعته كشخص صلب، ومُحافظ، ومتأن — وكانت هذه هي مهارته في التعامل مع المواقف الصعبة — فقد أصغت القيادات إليه، حتى ولو على مضض.

لذلك عندما عاد بعد حضور الاحتفال بتسمية الطفلة، تاركًا الليدي أميليا وراءه في زيارة طويلة مع الطفلة التي تحمل اسمها نفسه في المدينة الحجرية، وبدأ في كتابة رسائل حول أن الوقت قد أصبح مناسبًا للغاية لبدء علاقات دبلوماسية رسمية بين هوملاند ودامار — حسب تعبيره — سُمح له بمواصلة الدور الذي اختاره. صحيح أنه قد دُعي هو والليدي أميليا فقط إلى المدينة في أرض التلال، لكن بعضًا من أهل دamar الذين وقّع عليهم الاختيارُ بعناية بدءوا في زيارة إيستن بانتظام، وكذلك المدن في الجنوب، وتبادل الهدايا وخطب حُسن النية، وتلقّى الإشعارات الإدارية الرسمية، حتى من الملكة ومجلسها، عبر البحر في هوملاند.

وأنجرت هاري وكورلات مهامهما الإدارية بجديّة كما يتوجّب عليهما، ولكن ليس أكثر من ذلك، وأمضيا معظم وقتهما يتجولان بمفردهما في أنحاء المدينة، أو عبر السهول التي أمام المدينة، أو يُسافران إلى قرية ماثين، أو قرية إيناث، وبقدر ما استطاعا في بعض الأحيان، كانا يتوجّهان في سريّة شمالًا عبر التلال إلى وادي لوث. ويأخذان الأطفال معهما — فقد أنجب جاك بعد إيرين، وهري بعد جاك، مع مرور السنين — لأن لوث كان مُولعًا بالأطفال.

